

ترجمات

روبرت جي هويلاند

في السبيل إلى الله

الفتوحات العربيّة وتكوين الإمبراطوريّة الإسلاميّة

ترجمة الأستاذ الدكتور

فلاح حسن الأسدي

في السبيل إلى الله

الفتوحات العربية وتكوين الإمبراطورية الإسلامية

تأليف: روبرت جي هويلاند

ترجمة الاستاذ الدكتور: فلاح حسن الأسدي

الطبعة الأولى 2021 م
عدد النسخ: 1000
القياس: 17 × 24
عدد الصفحات: 384

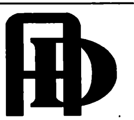
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 2100 لسنة 2021
الترقيم الدولي: ISBN: 978-9922-9545-3-0

ترجم الكتاب عن النص الإنكليزي الأصلي:

In God's Path

The Arab Conquests and The Creation of An Islamic Empire, Oxford University Press,2015

دار ومكتبة عدنان
للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد
شارع المتنبي - بناية المكتبة البغدادية
07707900655 - 07901785386
07813515055 - 07901312029
Email: yaserbook@yahoo.com



فيس بوك: دار ومكتبة عدنان

روبرت جي هويلاند

في السبيل إلى الله

الفتوحات العربيَّة وتكوين الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة

ترجمة
الاستاذ الدكتور
فلاح حسن الأسدي



2021

الإهداء

إنَّ يأسَ المؤرِّخينَ يجعلُ الناسَ يفشَلونَ في تغييرِ مفرداتِهم، في كلِّ وقتٍ يغيِّرونَ فيه من عاداتِهم.

(مارك بلوك، مهنة المؤرِّخين،
ترجمة: بيتر بوتمان، مانجستر 1954، 28).

شكر وعرفان

إنِّي مدينٌ إلى جهتين محدَّدتين عند كتابة هذا الكتاب، الأولى: ذلك العدد من الطلَّاب الذين درَّستهم التاريخ الإسلاميَّ وساعدوني على التفكير بمواطن الضعف في الروايات التقليديَّة، ولا سيَّما طلبة الدراسات العليا (II-2010)، الذين كانوا مؤثِّرينَ بصورة خاصَّة حينما كنت آنذاك منهمكًا بكتابة هذا الكتاب ومناقشة بعض أوجهه في حلقاتنا النقاشيَّة، لذلك أتوجه بالشكر إلى أنا Anna، بندكت، شارلي، هاسنيان، جوش، ورايان. والثانية: أستاذتي في المرحلة الجامعيَّة الأوَّليَّة ومشرفتي فيما بعد (باتريشيا كرون)، التي أثارت اهتمامي بالتاريخ الإسلاميِّ وشجَّعتني على التفكير النقديِّ في أصوله وتكوينه. فضلًا عن الكثيرِ من زملائي الذين كان لديَّ معهم نقاشاتٌ مثيرةٌ ساعدت على تأطير بعض الأفكار الواردة في هذا الكتاب. وعلى الرغم من كثرتهم؛ فإنَّني سأذكر بعضهم هنا. وأودُّ أن أشكرَ عزيز العظمة، آميكام إيلاد، جيمس هوارد-جونستون، هيو كيندي، ماري ليجندر، ماكه ليفي-روبن، أندرو مارشام، فيرجوس ميللر، هاري مونت، آريتا باباكونستنتينو، ريجارد بايون، غابرييل رينولدز، كريستيان روبن، سارة سافنت، بترا سيجبستجين، آدم سيلفرستين، جاك تانوس، ديفيد تايلر، لوك تريدول، وكيفن فان بليدل. ومن الطبيعي، فإنَّ أيًّا من هؤلاء غير مسؤول عن الكيفية التي استخدمت بها المعرفة التي منحوني إيَّاها. وأيضًا أقدم شكري إلى الناشر ستيفان فيرنكا وقارىء نصوص هذا الكتاب روبن وترفيلد، اللذين

وضَعَا الكثيرَ لتحسين الترابط المنطقيِّ للكتاب وجعل قراءته ممتعة. وكذلك الشكر لمايكل آثنسون الذي تبرَّع بوقته وخبرته في المساعدة على رسم الخرائط الإقليميَّة للمنطقة. وأخيرًا أشكرُ من أعماقي بيتر ويدلر على صبره وتدقيقه في قراءة المُسوَّدات الأوَّليَّة للكتاب، وسارة على حبِّها ومساندتها.

بايرن ميوز
في 10 تشرين الأوَّل 2013

المحتويات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

مقدِّمة المؤلف للطبعة العربية

إنَّ واحدة من أبرز النتائج المهمَّة للفتوحات العربيَّة في القرن السابع الميلاديِّ ظهور اللغة العربية في الشرق الأوسط، من كونها لغةً هامشيةً في الإمبراطوريَّتين الرومانية والفارسية إلى لغة حاكمة في الإقليم كلِّه. ولذلك، لنا الشرف الكبير والسعادة أن أرى كتابي المعنون «في سبيل الله: الفتوحات العربية وتكوين الإمبراطورية الإسلامية» يُترجم إلى اللغة العربية.

وكثيرًا ما استفسر بعضُ القرَّاء والنقَّاد للنسخة الإنكليزية من الكتاب لماذا جعلت التمييز في العنوان بين الفتوحات العربيَّة والإمبراطوريَّة الإسلاميَّة؟ وكان جوابي أنَّني أريد التأكيد أنَّ نيَّتي لم تكن القول إنَّ الإسلام لم يكن مهمًّا في البداية، أو إنَّ الجنس العربي لم يُمارس دورًا في الفترة المتأخِّرة، بل رغبت بجذب الانتباه إلى صِفتينِ اختصَّتا بظاهرة ذلك العالم المتغيِّر، أوَّلهما: كانت من الأسباب الأساسيَّة في نجاح تلك الفتوحات التي أصبحت مصلحةً مشتركةً بين المسلمين العرب في الحجاز والمسيحيِّين العرب في بلاد الشام والعراق، وقد سهَّلت اللغةُ العربيةُ ذلك التعاون بينهما إلى حدٍّ كبيرٍ، ولا سيَّما أنَّها أصبحت اللغة السائدة بين تلك المجموعات كما توثِّقه نقوشُ قَيم بن مُعارف الأوسي مبعوث الملك الحارث الغسَّانيِّ، وشارحل بن زالم وهو زعيمٌ قبليٌّ تولَّى رئاسة إحدى الكنائس في حران جنوب مدينة دمشق، فضلًا عن كونها لغة القرآن الذي نزل على النبيِّ محمَّد وهو نصٌّ كاملٌ باللغة العربيَّة.

ثانيًا: إنَّ الإمبراطوريَّة الجديدة نهضت من بين رماد الإمبراطوريَّة الفارسيَّة وبقايا الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المحطَّمة، لكنَّها لم تكن تعبِّر عن صياغةٍ جديدةٍ وبسيطةٍ لتلك الأنظمة القديمة، فمن الطبيعيِّ أن تُشكِّل استمرارًا وأن تمزجَ الكثير من عناصر تلك الإمبراطوريَّات، ولكن كان لها شكلها وشخصيَّتها المتميِّزتان. لقد كانت تعدُّديَّة، إذ شكَّلَ المسيحيُّون واليهود والزرادشتيُّون نسبةً كبيرةً من سكَّانها، وأسهموا كثيرًا في تشكيل ثقافتها، وإن كانت سمتها وطابعها إسلاميًّا بشكلٍ واضحٍ. وهذا ما يمكننا أن نراه بوضوحٍ في فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (685-705 للهجرة)، حينما اختار بناء قبَّة الصخرة على أنقاض معبد سالمون، حيث جاء النبيُّ إبراهيم بابنه للتضحية به تلبيةً لأمر الله، وحينما نقشَ على واجهته عبارات أنَّ الله واحدٌ وأنَّ محمدًا وعيسى رُسله وعبيده وليس غير ذلك.

روبرت ج. هويلاند

في 21 حزيران 2021

مقدِّمة المترجِم

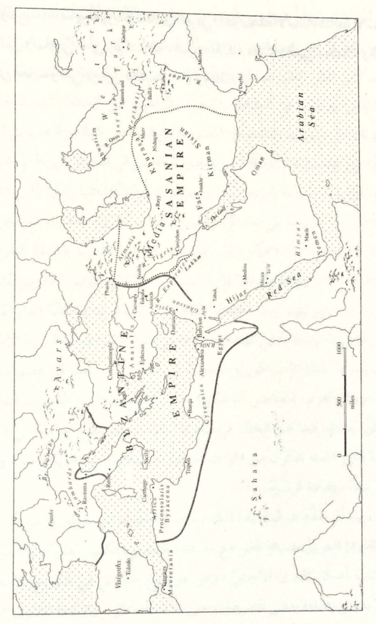
يُقدِّم هذا الكتاب رؤيةً مختلفةً عن تكوين الإمبراطوريَّة العربيَّة الإسلاميَّة للفترة من ظهور الإسلام حتَّى نهاية الحكم الأمويِّ (132 هـ/ 750م)، وتعتمد على استخدام المصادر غير الإسلاميَّة للفترة موضوع الدراسة، كالنقوش والبرديَّات والحوليَّات المسيحيَّة وغير المسيحيَّة، التي أكَّدت أنَّ العرب كانوا يخدمون في الجيوش البيزنطيَّة والفارسيَّة في الفترة قبل الإسلام بوقتٍ طويلٍ، وأحرزوا تدريبًا قيِّمًا على استخدام الأسلحة والخطط العسكريَّة في الجيوش الإمبراطورية. وأشارت هذه المصادر أيضًا إلى أنَّنا يجب رؤية الكثير من تحالف النبيِّ محمَّد مع القبائل العربيَّة في غرب الجزيرة العربيَّة، البدو منهم والمستقرِّين، ليس بوصفهم مجرَّد خارجيين يبحثون عن الغنائم وسلب الإمبراطوريَّات ونهبها، إنَّما عناصر داخليَّة تبحث عن مشاركةٍ في ثروات أسيادهم الإمبراطوريِّين، وكما هو الحال عند دخول القبائل الجرمانيَّة إلى الإمبراطوريَّة الرومانيَّة في القرون الميلاديَّة الأولى.

لقد أوضح الباحث نقطةً مركزيَّةً في بناء الإمبراطوريَّة العربيَّة الإسلاميَّة، وهي السرعة التي تمَّت بها بناء تلك الإمبراطوريَّة ليس بوصفها نتيجةً لقيادة العرب لتلك الفتوحات واعتمادهم على قواهم الذاتيَّة فحسب، بل استغلالهم للزمن الذي لم يكن إلى جانب الإمبراطوريَّتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة، والبرهنة على استخدام «الاستيعاب المتبادل» الذي سمح للعرب والشعوب المفتوحة بالعيش معًا وخلق هُويَّة إسلاميَّة جديدة وحضارة إسلاميَّة فتيَّة.

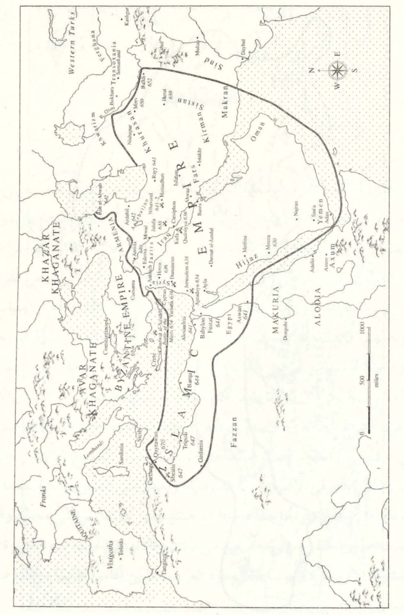
وأكّد الباحث أنّ الفاتحين اتّبعوا الوسائل غير العسكريّة أيضًا لتوسيع مكاسبهم وتعميقها، فضلًا عن تعهداتهم الاعتياديّة باحترام حياة وممتلكات وحرية العبادة للشعوب التي تعلن خضوعها لهم دون قتال، ومنحوا الإعفاءات الضريبيّة والحكم الذاتيّ للذين يعيشون في المناطق الوعرة والراغبين في الخدمة العسكريّة، وهي سياسة صائبة في استيعاب الشعوب المفتوحة من الفاتحين كما هو الحال في التجربة البريطانيّة في الهند حينما كان 80٪ من الجنود العاملين في الجيش البريطانيّ هناك من أصولٍ هنديّةٍ، بينما احتفظ البريطانيُّون بالمواقع العسكريّة العليا والقياديّة، وهنا أورد الباحث مقارباتٍ تاريخيّةً في بناء الإمبراطوريّات عبر التاريخ للمقارنة مع تجربة بناء الإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة، مِمَّا جعلَ هذه الدراسة تذكِّرنا بفلسفة التاريخ في مسألة قيام الإمبراطوريّات وانحلالها: قارن بين استخدام العرب الفاتحين للعناصر غير العربيّة في جيوشهم بينما احتفظوا لأنفسهم بالمناصب القياديّة العليا كما هو الحال في التجربة البريطانيّة في الهند؛ والسرعة في نشأة الإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة ومقارنتها بسرعة نشأة الإمبراطوريّة المغوليّة في مناطق غرب آسيا في غضون سبعينَ عامًا؛ وتحريك العرب للعناصر المشكوك بولائها للفاتحين من الشعوب المفتوحة إلى مناطقَ بعيدةٍ، كما هو الحال في تجربة القوّات الفرنسيّة العاملة في الجزائر وحامياتها التي كانت تتكوّن من «قوّات أفريقيّة... بملابس عسكريّة فرنسيّة وتحت الراية الفرنسيّة وبقيادة فرنسيّة...».

لا نريد أن نقدِّم عرضًا لهذا الكتاب فهو يتحدَّث عن نفسه، ولكن لا بدَّ من تقديمه للقارئ العربيّ بصيغةٍ تتّفق مع ما اعتاد عليه في الكتب العربيّة، ولا سيما أنَّ الكتاب كُتِبَ أصلًا للقارئ الأجنبيّ، وعن موضوعٍ حسَّاسٍ في التاريخ الإسلاميّ، ولذلك لا بدَّ من إضافة بعض التعريفات على الأسماء لتكون واضحةً للقارئ العربيّ، فالمؤلّف يذكر النبيَّ محمَّدًا والخلفاء بأسمائهم الأولى فقط: «محمد، عثمان، علي،

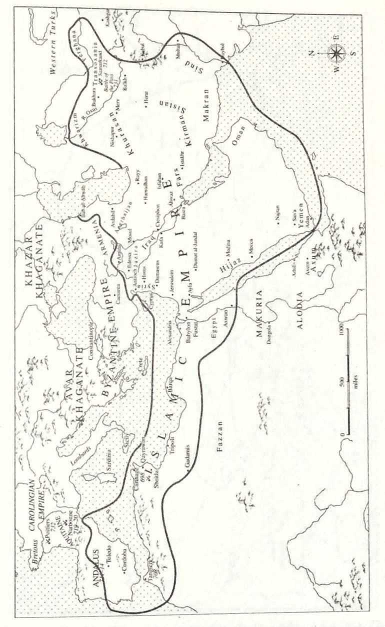
عمر الأول، ...»، مِمَّا يولِّد إرباكًا للقارئ العربيِّ؛ لكون هذه الأسماء شائعة الاستعمال في العالم الإسلاميِّ حتَّى الوقت الحاضر، ولذلك ذكرنا «النبي محمد، والخلفاء عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ...»، وهكذا.



خارطة رقم (1) العالم عشية الفتوحات العربية



خارطة رقم (2) الامبراطورية العربية في عام 685 م (مع التواريخ التقريبية للحملات الكبيرة)



خارطة رقم (3) الامبراطورية العربية في عام 750 م (مع التواريخ التقريبية للحملات الكبيرة)

المقدِّمة

هناك أسطورة شرق أوسطيَّة قديمة تذكر مجموعةً من الشبَّان المسيحيِّين هربوا من اضطهاد الإمبراطور الرومانيِّ الوثنيِّ في منتصف القرن الثالث الميلاديِّ، وتركوا مدينتهم الأصليَّة والتجؤوا إلى الكهف، حيث رقدوا فيه حالًا. وحينما خرجوا منه في اليوم التالي - كما يُفترض - اندهشوا لسماعهم أجراس الكنائس وهي تُقرعُ عبر الشوارع وما بعدها، ورؤية الصلبان ترتفع على البنايات الشاهقة. ولأسبابٍ غير معروفة لهم، فإنَّ الله جنَّبهم أن يشهدوا الأحداث الهمجيَّة القاسية، وذلك بجعلهم يرقدون مدَّة قرنين من الزمن. وهكذا انتقل الشبَّان بين ليلةٍ وضحاها من عالم الوثنيَّة إلى العالم المسيحيِّ[1]. وربَّما يشعر المرء بالحالة نفسها حينما يدرس الشرق الأوسط في القرن السابع الميلاديِّ، فالمؤرِّخون في المنطقة يقدِّمون حتَّى عام 630م صورةً عن أرضٍ مسيحيَّةٍ واسعةٍ، حيث استطاعت تعاليم السيِّد المسيح الانتشار حتَّى في صحارى أفريقيا، وفي الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وبعيدًا حتَّى الصين. ولكن حينما يذهب المرء لقراءة روايات فترة ما بعد عام 630م حينئذٍ يظهر أنَّ تعاليم النبيِّ محمَّد وأحاديثه قد نفذت بصورةٍ خطيرةٍ وإلى حدٍّ بعيدٍ من مكان ولادتها في غرب شبه الجزيرة العربيَّة عبر الشرق الأوسط كلِّه بوساطة الجنود العرب، الذين أقاموا حكمًا موحَّدًا على كلِّ

1- تعود هذه الأسطورة "النائمون السبعة" إلى مدينة أفسوس اليونانيَّة، وتمَّ تداولها بصيغتها المكتوبة منذ القرن الخامس الميلاديِّ، ثمَّ وجدت طريقها إلى القرآن في القرن السابع الميلاديِّ.

أراضي الإمبراطوريَّة الفارسيَّة السابقة، وفي كلِّ الولايات الجنوبيَّة والشرقيَّة للإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وفي سنواتٍ معدوداتٍ جدًّا. كان العربُ منتصرين في كلِّ مكان، وخضعت العناصر غير العربيَّة لهم في كلِّ مكانٍ، إمَّا باعتناق الإسلام أو بالقتل، وفُرضتِ الحكومةُ الإسلاميَّةُ في كلِّ مكان، وهذه الصورة على الأقلِّ كما يصوِّرها المؤرِّخون المسلمون في القرن التاسع الميلاديِّ أصبحت مقبولةً بشكلٍ واسعٍ منذ ذلك الوقت.

والمشكلة مع هذه الرواية أنَّها ليست خطأً إلى حدٍّ كبيرٍ، ولكن تُذكِّرُ - وكأيِّ روايات أخرى - من وجهة نظر المنتصرِين؛ كونها مثاليَّة وأحاديَّة التفسير: تُبرزُ دور الله والإسلام، وتتجاهل في الغالب دور العناصر غير الإسلاميَّة. إنَّ هدف هذا الكتاب محاولة تقديم وصفٍ تقريبيٍّ أكثر لظاهرة عالم متغيِّرٍ من غير شكٍّ. والخطَّة لإنجاز ذلك بسيطة، وهي إعطاء الأسبقيَّة لنصوص ووثائق القرنين السابع والثامن الميلاديَّين على مثيلاتها المتأخِّرة.

يرجع ما تبقَّى من مصادرنا الإسلاميَّة المبكِّرة إلى القرن التاسع الميلاديِّ، ومع ذلك فإنَّ مؤلِّفيها يستخدمون الروايات التاريخيَّة الأولى، ثمَّ يُضطرُّون إلى تأطيرها على وفق أسلوبهم الخاصِّ. ومن الطبيعيِّ أنَّ ذلك كان سائدًا، بيد أنَّ المشكلة بدأت تتعاظم في هذه الحالة؛ بسبب الظروف السياسيَّة والدينيَّة التي سادت الشرق الأوسط في القرن التاسع الميلاديِّ، التي تختلف دراماتيكيًّا عنها في القرن السابع الميلاديِّ. ويبدو من الغرابة لباحثٍ من خارج هذا الحقل من الدراسة أن يسأل: لماذا لم تُعتمد في السابق فكرة تفوُّق المصادر المبكِّرة على مثيلاتها المتأخِّرة؟ فهل هي ليست ممارسة معياريَّة لدى المؤرِّخين المحدثين؟ إنَّ مشكلة المصادر المبكِّرة، ولا سيَّما المسيحيةً، أنَّها متحاملة بشكلٍ كبيرٍ وكُتبت بلغات غير العربيَّة، وبذلك أصبحت خارج النطاق الاعتياديِّ لعمل المؤرِّخين المسلمين، وأفترض أنَّها ستكون إمَّا غير مفيدة أو ضعيفة المصدر.

ولا يمكن إنكار تحامل المؤرِّخين المسيحيِّين وانحيازهم الخاصِّ بهم، ولكنَّ الفتوحات العربيَّة تمكَّنت من التأثير فيهم بقوَّة وبشكل مباشر، ولذلك، هناك سبب

جيِّد للإشارة إلى أعمالهم عند الكتابة عن هذا الموضوع. فضلًا عن أنَّ أولئك الذين عاشوا خلال العقود بعد الفتوحات مباشرة لا زالوا يفهمون جيِّدًا الأحوال المتأخِّرة للعالم القديم الذي شهد تلك الأحداث، وبذلك يمكنهم مساعدتنا في فهم معنى تلك الأحداث في زمانهم مقابل معناها لسكَّان العالم الإسلاميِّ في القرن التاسع الميلاديِّ. ولكن لا أريد أن أجعل ببساطة من المصادر غير الإسلاميَّة أن تتفوَّق على مثيلاتها الإسلاميَّة. وفي الواقع إنَّ جدالنا في التمييز بينهما زائف، فالمسلمون وغير المسلمين عاشوا في عالمٍ واحدٍ، وتفاعلوا فيما بينهم، بل قرأ أحدهم ما كتبه الآخر. وببساطة فإنَّ التمييز الذي أفكِّر به في هذا الكتاب هو بين المصادر المبكِّرة والمتأخِّرة، وإنِّي أفضِّل الأولى على الثانية، بغضِّ النظر عن الانتماء الدينيِّ لمؤلِّفيها.

تتيح لنا هذه الخطَّة إعادة بعض العناصر المفقودة من الرويات التقليديَّة، وأوَّل ما أبدأ به المعالجة. إنَّ المصطلح المرتبط بالفتوحات العربيَّة والمُستخدَم من الباحثين الغربيِّين هو «السرعة»، "كانت السرعة التي تمَّت بها الفتوحات العربيَّة مذهلة"، مثلما ذكر أحدهم. والآخرُ تحدَّث عن «السرعة الأقرب إلى المعجزة» مثل تسونامي بشريّ يندفع نحو الخارج. وهذا يعكس الفرضيَّة التي ترى أنَّ الفتوحات العربيَّة قد أُنجزت وانتهت في عددٍ قليلٍ من السنوات. مثلًا، هناك مؤرِّخ محدث ومتخصِّص في العصور الوسطى يوجز أحداث تلك الفتوحات بالعبارة التالية: "لقد فتح العرب المسلمون نصف إمبراطوريَّة، أي ولايات روما الشرقيَّة، وكل الولايات لإمبراطوريَّةٍ أخرى، وهي الإمبراطوريَّة الفارسيَّة الساسانيَّة، وإنَّ كلَّ تلك العمليَّات قد أُنجزت في ستِّ سنوات (636–642م)"[1]. إنَّ هذا التقليص الهائل للمدَّة التي حدثت فيها الفتوحات

1- D. W. Brown, A New Introduction to Islam (Chichester, 2009), 108 ("staggering"); Howard-Johnston, Witnesses, 448, 464 ("tsunami"); cf. F. M. Donner, "The Islamic Conquests" in Y. M. Choueiri, A Companion to the History of the Middle East (Oxford, 2005): "astonishing rapidity." Wickham, Framing the Early Middle Ages, 130 ("636-42").

يعني أنَّ العمليَّات التي أنجزتها لم تصل إلينا. كان العرب المنتصرون مذهولين بالتأكيد، وكان تقدُّمهم أسرع بكثير من القوى المحلِّيَّة كالرومان، ولكن يمكن مقارنتها بالجيوش التي تضمُّ نسبةً كبيرةً من البدو (لقد اجتاح المغول في الواقع مناطق شاسعة في أقلَّ من سبعينَ عامًا). ومن أجل تقدير مدى تلك الفتوحات ونسبة تقدُّمها بصورةٍ واضحةٍ، فقد قرَّرتُ أن أعتمد الخطَّ الزمنيَّ لتلك الفتوحات، والاعتماد على الروايات حتَّى أربعينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ حينما خمدت القوَّة الهائلة للفتوحات وأصبحت خارج التيَّار في نهاية الأمر. ففي كلِّ المغامرات الإنسانيَّة لا تسير الأمورُ على الدوام بحسب الخطَّة الموضوعة لها، لقد عانى العرب بعض الانتكاسات، ووجب عليهم ضرورة التوصُّل إلى حالةٍ من التكيُّف مع بعض الشعوب، وإنْ كان أيٌّ من ذلك لا يقلِّل من المدى المثير للإعجاب لجميع منجزاتهم.

أمَّا العنصر الثاني الذي لا بدَّ من إعادة اعتماده؛ فهو أصوات أولئك المغلوبين والفاتحين من غير المسلمين. لقد شكَّل مؤرِّخو القرن التاسع الميلاديِّ الإسلاميِّ تواريخهم العربيَّة – الإسلاميَّة بصورةٍ متميِّزةٍ، أي إنَّهم قلَّلوا من دور العناصر غير العربيَّة وغير الإسلاميَّة، وعظَّموا الدور المركزيَّ لله والنبيِّ والمسلمين. وحينما سُئلَ الرئيس باراك أوباما: هل يفكِّر أنَّ لدى الشعب الأمريكيِّ رسالةً خاصَّةً؟ أجاب بدبلوماسيَّة: إنَّ كلَّ شعبٍ يُحبُّ أن يفكِّر أنَّ رسالته خاصَّة. إنَّها تلك الخصوصيَّة لأهل القرن التاسع الميلاديِّ التي حاول المؤرِّخون المسلمون تصويرها. ومثلما كان قبلهم المؤرِّخ المسيحيُّ يوزبيوس، إنَّهم يريدون أن يؤرِّخوا إنجاز وعد الله لشعبه المختار. وكما بدأ يوزبيوس القيصريُّ (ت:339م) تأريخه الكنسي Ecclesiastical History مع السيِّد المسيح، كذلك وضع المؤرِّخون المسلمون حدًّا قويًّا بين زمن الجاهليَّة حيث كانت تسود «البربريَّة» (الجهل)، والزمن المقدَّس حينما أسَّس النبيُّ محمَّد مجتمعَه في المدينة. وارتبط هذا العمل مع بدايات غزوات الرسول التي أصبحت واسعةَ النطاق فيما بعد

والمُؤيَّدة من الله، لذلك يقول هؤلاء المؤرِّخون إنَّها وسيلةٌ لنشر حكم الإسلام عبر العالم. «إنَّها علامة الحبِّ الإلهي لنا ووفاء لديننا»، كما شرح أحد القادة العسكريِّين ذلك لأحد الرهبان المسيحيِّين، من «أنَّ الله منحنا السيادة على الديانات والشعوب كلِّها»[1]، ولكنَّ هذه صورة مبسَّطة ومثاليَّة ومتجانسة، في حين كان الواقع معقَّدًا ومزركشًا. فالحروب شأنٌ قذر، كما كانت تركيبة وبنية الأطراف المعارضة والأسباب التي كان يقاتلون من أجلها متنوِّعة ومتغيِّرة في الغالب. ومن ناحية أخرى، فإنَّ أولئك الذين يشنُّون الحروبَ وأولئك الذين يوثِّقونها لديهم اهتمام قويٌّ بتصوير الأحوال بالأسود والأبيض: المؤمنون مقابل الكفَّار، والخير مقابل الشرِّ، العدل والحرِّيَّة مقابل الطغيان والاضطهاد.

وثالثًا، سأركِّز على تاريخ العرب قبل عصر الفتوحات العربيَّة، فالمصادر الإسلاميَّة تعطينا الانطباع أنَّ النبيَّ محمَّد وأصحابه ابتكروا عالمًا جديدًا، أو بالأحرى عدَّلوا العالمَ الذي وجدوه. ومع ذلك، ومن أجل فهم ذلك، يحتاج المرء أن يُلمَّ بثقافة بلدان الشرق الأوسط التي استولى العربُ عليها. وفي هذا المجال تُعدُّ المصادر غير الإسلاميَّة مفيدة؛ لأنَّها تمدُّنا بمعلوماتٍ عن فترة ما قبل الفتوحات العربيَّة (نشير إليها عمومًا بالفترة المتأخِّرة من العالم القديم؛ اعترافًا بحقيقة استمراريَّة بعض العناصر الحضاريَّة للعالم القديم). وهذا يعني باستطاعتنا السير للإمام من هذا الوقت، ونرى كيف وقعت تلك الأحداث والتغيُّرات وتجليَّاتها منذ القرن السادس حتَّى القرن الثامن الميلاديِّ. ومع ذلك، إذا اتَّبعنا الطريقة الاعتياديَّة للمؤرِّخين المسلمين واعتمدنا الأسلوب العكسيَّ، أي من مصادر القرن التاسع الميلاديِّ ونزولًا؛ فإنَّنا سنصطدمُ بحاجزٍ زمنيٍّ هو عصر الرسالة، وسننتهي إلى ما توصَّل إليه مؤرِّخو العصور الوسطى المسلمون من أنَّ الحضارة الإسلاميَّة نبعت بشكلٍ مباشرٍ من غرب آسيا قبل الإسلام.

1- Hoyland, Seeing Islam, 467; cf. D. Sourdel, "Un pamphlet musulman anonyme," Revue des Etudes Islamiques 34 (1966), 26.

وأخيرًا، سأحاولُ توسيع آفاق الروايات أكثر مع تركيزي على تحرُّكات النبيِّ محمَّد في غرب شبه الجزيرة العربيَّة ونشاطات خلفائه. لقد انخرط رجالُ القبائل العربيَّة في خدمة الجيوش البيزنطيَّة والفارسيَّة بأعدادٍ كبيرةٍ في القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين، بل تمكَّنت بعض بطون تلك القبائلِ من إقامة دويلاتها على أطراف تلك الإمبراطوريَّات. وظهرت قوَّةٌ عالميةٌ جديدةٌ وهي «الحلف التركي» الذي استولى على أراضي السهوب الشاسعة الواقعة بين بلاد فارس والصين في أواخر القرن السادس الميلاديِّ، وبدأت بشنِّ الهجمات على الفرس. وانهارت حضارة اليمن ذات 1500 سنة من العمر في منتصف القرن السادس الميلاديِّ، والكثير من المستوطنات القديمة الواقعة في الشمال الغربيِّ من الجزيرة العربيَّة وشرقها أخذت تضمحلُّ. وانهمكت القوَّتانِ الكبيرتانِ، البيزنطيَّة والفارسيَّة، بحروبٍ شاملةٍ لأكثر من عقدينِ من الزمن منذ مطلع القرن السابع الميلاديِّ. ومع ذلك، فإنَّ المختصِّين قلَّصوا رؤيتَهم بالتركيز كليًّا على غرب شبه الجزيرة العربيَّة في عصر الرسالة، وببساطة عَدُّوا ذلك كافيًا للقول: إنَّ الفتوحات العربيَّة حدثت ونجحت بسبب الحماسة الدينيَّة للمسلمين، ومن دون الإشارة إلى العوامل الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة الأكثر شمولًا. ومع إنَّني هنا لا أريد التقليل من دور الدين ولكن أرغب بالتوسُّع في تخفيفه، فالدين جزءٌ مكمِّل في الفتوحات ولأيِّ تقييم للإمبراطوريَّة الإسلاميَّة، والدين ليس عباداتٍ وأعمالًا خيريَّةً فقط، ولا سيَّما في القرن السابع الميلاديِّ، إنَّما دوره بشكل أكبر في تشكيل السلطة والهُويَّة، كما هو أثره في التقوى الدينيَّة والسلوك السوي[1].

1- Donner, Muhammad and the Believers, xii;
قناعتي أنَّ الإسلام بدأ بوصفه حركةً دينيَّة، وليس اجتماعيَّة واقتصاديَّة أو وطنيَّة، وأنَّ أية دراسة سريعة للحركات الدينيَّة التي تمارس العنف سواء كان مسيحيًّا (مثلا: جيش الربِّ في أوغندا)، أو إسلاميًّا (القاعدة وأخواتها)، أو بوذيًّا (جماعة بورما 969) توضِّح أنَّه لا يمكن للمرء أن يفصل بين الدين والمسائل الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والهُويَّة في مثل تلك الحركات. إذا لم تكن هناك مادَّة فكرية للاستناد عليها، فالمرء لا يحتاج إلى أن يقاتل.

ومن أجل تحجيم «الأسلمة» في وجهة النظر أعلاه، فإنّي سأتحدَّث عن الفتوحات «العربيَّة» أكثر من حديثي عن الفتوحات «الإسلاميَّة». إنَّ المصطلحينِ غير صحيحين إلى درجة ما، ما دام الفاتحون ليس كلّهم من العرب ولا كلّهم من المسلمين، وإنَّ معنى المصطلحين على أيَّة حال استُنبط بوصفِهِ نتيجةً مباشرةً للفتوحات. ومع ذلك، يشير المؤرِّخونَ المعاصرونَ في الغالب إلى الفاتحين بتسمياتٍ إثنيَّةٍ أكثر منها دينيَّة، وعلى الرغم من أنَّ بعض الفاتحين ليسوا عربًا، فإنَّ أسلافهم غالبًا ما كانوا يعتقدونَ ذلك، ولذلك فمن الأفضل استخدام مصطلح «العرب»، وأنْ نضعَ في أذهاننا أنّنا لم نتحدَّث عن مسعىً قوميٍّ ولا بوصفها طبقة عرقيَّة[1]. فالإسلاميُّون يقولون إنَّ الدين يلعب دورًا أكبرَ في موضوع دراستهم، ولكن يوجد شكٌّ في هذا الادِّعاء. وحينما سألَ القائدُ الوندالي جزريك في أحد الأيَّام قبطانَ سفينته: هل سيشرعُ بالإبحار؟ أجاب: "ضدَّ أولئكَ الذين غضبَ الربُّ عليهم بالطبع"[2]. وهذا ينسجم جيدًا مع روح الفاتحين الذين نتحدَّث عنهم في هذا الكتاب. ومع كلِّ ذلك، فإذا ما استخدمنا مصطلح «الفتوحات الإسلاميَّة» لا يمكننا التمييز بين الكثير من الفتوحات المختلفة التي قامت بها الأقوام الإسلاميَّة (الإيرانيَّة، الأتراك، الكرد، البربر،... الخ) عبر القرون. وهذا ما يسبِّب الكثير من الارتباكِ بين الطلَّاب، وإلى حدٍّ ما بين القليل من المختصِّين أيضًا؛ لأنَّ ذلك يجعلنا نميل إلى الافتراض بأنَّ العرب فتحوا كلَّ الأراضي أو أغلبها، تلك التي يشكِّل المسلمونَ اليوم الغالبيَّة فيها، بينما الجزء الأكبر منها فُتِحَ

1- إنَّ مصطلح "الساراسين" كان يساوي مصطلح "العرب" في الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، و"الطائيَّة" في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وكلا المصطلحين كان أصلًا يطلقان على قبائل محدَّدة تقطن على الحدود البيزنطيَّة وكذلك الفارسيَّة. ونتيجةً لذلك، أصبحت هذه التسميات تُطلق على كل مواطني الإمبراطوريَّة في الصحراء العربيَّة وبلاد الشام. لقد استخدم البيزنطيُّون والفرس تلك التسميات (ساراسين وطائيَّة) على الفاتحين العرب، كما كانت تستخدم في فترة ما قبل الإسلام، ولذلك، ربَّما كانوا يرون استمراريَّةً بين تلك التسميات.

2- Procopius' History of the Wars, ed. and trans. H. B. Dewing (Loeb, 1916), 3.5.24-25.

في الواقع في وقتٍ متأخرٍ من الأُسر الإسلاميَّة المحلّيَّة، التي من أصول غير عربيَّة، أو عُملَ على أسلمتها بصورةٍ بطيئةٍ بوساطة التجّار أو البعثات الإرشاديَّة والزهّاد المتجوِّلينَ.

يركِّز هذا الكتاب بصورةٍ عامَّةٍ على التعقيدات والغموض لإبراز صوت تلك المجموعات التي لم يُسمع صوتها بشكلٍ اعتيادي، ولا سيَّما أنَّ كتابات المؤرِّخين كانت بعيدةً كثيرًا عن الأحداث التي توردها تلك المجموعات، وقد تُفضي إلى التبسيط والتخطيط والتداخل، ويجعل سردها مثاليًّا. ولمَّا كانت معلوماتنا الحديثة عن الفتوحات العربيَّة تستند إلى مؤرِّخي القرن التاسع الميلاديِّ وما يذكرونه عن أحداث القرن السابع الميلاديِّ، فإنَّها تميل إلى تكريس هذه النزعة وتكثيفها بتأكيد السرعة المعجزة ونجاح الفتوحات وتَدَيُّن الفاتحين. إنَّ هدف المؤلِّف في هذا الكتاب هو إعادة بناء هذه الفتوحات بصورةٍ متكاملةٍ ومترابطةٍ، وبيان تأثيرها في بِنية التاريخ الإنسانيِّ مقابل تلك النزعة السائدة التي ترى فيها استثنائيةً بكلِّ ما في الكلمة من معنى، وآمل بذلك جعلها قابلةً للتفسير أكثر على وفق القواعد الاعتياديَّة للسلوك الإنسانيِّ. كانت إنجازات العرب الفاتحين هائلة، ولكن يمكن تقديرها بشكلٍ خاصٍّ إذا ما أخذنا بالحسبان أيضًا الصعوبات والانتكاسات التي واجهتها وكان لا بدَّ لها من التغلُّب عليها.

ملاحظة حول المنهجيَّة وقواعد البحث:

- منذ أن أوضحتُ أنَّ اهتمامي يكمن في إعطاء صوتٍ للمجموعات التي اعتياديًّا لم يُسمع صوتها، فإنِّي سأوردُ بعض الاقتباسات القليلة من هذه المجموعات، مِمَّا يُسمح للقرَّاء أن يروا بأنفسِهم ماذا تقول المصادر والأسس التي يستند إليها بناء منهجيَّتي، وهي مهمَّة في مثل هذا الموضوع المختلف عليه قدر الاختلاف السائد

حول مكّة والنبيّ محمّد. إنَّ هذه الاقتباسات ذكرتها كلّها في الهوامش (وجمعتها معًا أحيانًا لتسهيل قراءتها) مع الدراسات الأكاديميَّة الحديثة المتعلِّقة بالنقطة المراد توضيحها بشكلٍ خاصٍّ. وعلى القارئ الرجوع إلى المصادر المختارة المثبتة في نهاية الكتاب للاطِّلاع على النصوص التي تمدُّنا بمعلومات أوسع؛ لاستكمال الصورة التي أحاولُ تقديمَها. وأيضًا، ذكرنا في الهوامش المعلومات كاملة عن المصادر عند ذكرها لأوّل مرّة، وفي الحالات اللاحقة سنذكرها بشكلٍ مختصرٍ على وفق ما وردت في قائمة المصادر المختارة.

ملاحظة حول اللغة العربيَّة:

بما أنَّ هذا الكتاب سيعكف على قراءته جمهورٌ كبيرٌ من القرَّاء، فإنَّ الكلمات والأسماء العربيَّة كُتبت من دون العلامات الصوتيَّة على الحروف؛ لأنَّ القرَّاء إذا كانوا من المختصِّين فهم ليسوا بحاجةٍ إليها، وإذا كانوا غير ذلك فإنَّها لن تساعدهم أصلًا. ومع ذلك فقد حافظتُ على الحروف الساكنة كالهمزة وحرف «ع». والهمزة المؤشَّر عليها بالفاصلة تعني أنَّ لفظها يكون من الحنجرة، أي بإغلاق اللوزتين، وكما تُلفظ كلمة "better" "bu'er" عند سكّان شرق لندن. ونشير إلى حرف «ع» بفاصلةٍ معكوسةٍ وتشبهُ الهمزة، ولكنَّ لفظها بحاجةٍ إلى أكثر من غلق اللوزتين بنفث الهواء إلى الخارج قليلًا كما بالسعال البسيط. أمّا الأسماء باللغة العربيَّة؛ فتُكتب في العادة بصيغة (فلان بن فلان)، وأحيانا تُلحق بنسبة الشخص في العادة إلى قبيلته أو حرفته أو مدينته الأصليَّة؛ للتعريف أكثر بهُويَّته.

الفصل الأوّل:

الإطار العامُ

في فِقرةٍ غالبا ما تُقتَبس، يُشير المؤرِّخ البيزنطيُّ ثيوفيلاكت سيموكاتا Theophylact Simocatta إلى الإمبراطوريَّتينِ البيزنطيَّة والفارسيَّة «أنَّهما عينا العالم الاثنتان»، بوصفهما مملكتينِ مقدَّستينِ كلَّفهما اللهُ بمسؤوليَّة الحفاظ على النظام والحضارة في وسط بحرٍ من «البرابرة»، الطبقة السُّفلى من المجتمع وعديمي الثقة بهم. فقد كتب عن «القبائل العربيَّة» - على سبيل المثال لا الحصر - «أنَّها متقلِّبةِ في الغالب ولا يُعتمد عليها؛ وعقولهم غير مستقرَّة، وأحكامهم لا تستندُ إلى الحكمة»[1]. وهناك حاجة لإخضاعهم للمراقبة حتَّى يمكن للعدل والانسجام المجتمعيِّ أن يسود، ولكنَّهم لا يُشكِّلون مشكلةً خطيرةً؛ لأنَّ كلًّا من الإمبراطوريَّتينِ ستنتصر على الدوام. وحتَّى الآن، فإنَّ هذا النظام العالميَّ المريح الذي استمرَّ طويلًا تغيَّر رأسًا على عقب فجأةً بسبب الفاتحين العرب، ليس بوقتٍ بعيدٍ حينما أنهى ثيوفيلاكت كتابه في وقتٍ ما في عشرينيَّات القرن السابع الميلاديِّ. وفي النهاية، لم يظهر خليفة له، فهذا الشكل

1- Theophylact, History, trans. M. and M. Whitby (Oxford, 1986), 4.11.2 (two eyes), 3.17.7 (Saracens).

من التاريخ المدنيِّ الذي يعود أصله إلى أكثر من ألفِ عامٍ مع المؤرِّخ ثوكيديدس Thucydides وصل إلى نهايةٍ مقطوعةٍ وكأنَّه في تعاطفٍ مع سُنن الحياة التي وُصِفت جيدًا، ولم تعد كذلك الآن.

وكما يبدو، إنَّ تلك التحوُّلات وغيرها من التغيُّرات الدراماتيكيَّة المتعدِّدة، ولا سيَّما ظهور الإسلام بوصفه ديانةً جديدةً، جعل الكثيرَ من الباحثين يرون في الفتوحات العربيَّة آخرَ مسمارٍ يُدقُّ في نعش العالم القديم، ونذيرًا بولادة مجتمع العصور الوسطى. وهذه رؤية الباحث البلجيكيِّ هنري بيرين الذي يجادل أنَّ «البرابرة» الجرمان الغربيِّين كانوا مسؤولينَ عن إطالة أَمدِ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة وليس تدميرها كما يرى المؤرِّخ الإنكليزيُّ أدوارد جيبون. وبذلك أُعيد للقرنين الخامس والسادس الميلاديِّين رونقهما وتأهيلهما بوصفهما عصرًا بقيت فيه القيم الكلاسيكيَّة القديمة سارية وإن بشكلها المسيحي جنبًا إلى جنب مع التقاليد «البربريَّة» لدى الفرنجة أو القوط أو اللومبارد التي لم تختفِ بعد بالتأكيد. وبذلك فإنَّ الوصف الكئيب «للعصور المظلمة» يمكن استبداله الآن، واستعمال الوصف المبهج لتلك الفترة وتسميتها «العصور القديمة المتأخِّرة». وأصبح (العرب) الشرقيُّون «البرابرة» الحصان الأسود لهنري بيرين الذي يرى أنَّ استيلاء العرب على الشمال الأفريقي وبلاد الشام جعل حوض البحر الأبيض المتوسِّط حاجزا أكثر منه قناة اتصال، وبذلك قُطعت بلدان جنوب أوروبا عن الشرق، مِمَّا قادها إلى الركود، وفي الجهة الأخرى جعل العربُ الإمبراطوريَّةَ البيزنطيَّةَ مشغولةً بنفسها، وهذا ما سمح بظهور شكل «دويلة» في الشمال الأوروبيِّ الذي تُوِّج بقيام الإمبراطوريَّة الكارولنجيَّة[1].

1- لقد هاجم الكثير من الباحثين أطروحة هنري بيرين "محمّد وشارلمان" (بروكسل،1937) ولاسيَّما R. Hodges and D. Whitehouse (محمد وشارلمان وأصول أوربا، أتيكا، 1983)، ولكنَّ E.Scott دافعَ عنها مؤخَّرًا (محمد وشارلمان: مرَّة أخرى، ناشفيل،2012).

يـرى المؤرِّخـونَ المسـلمونَ فـي الفتوحـات العربيَّة نقطـة تحوُّلٍ أيضًـا، على الرغـم مـن وجهة نظرهـم أنَّهـا بدايةٌ جديـدةٌ بحد ذاتهـا وليس نهايـة للعالـم القديم. وبذلـك فإنَّهـم محكومـون بالمصـادر الإسـلاميَّة فـي العصـر الوسـيط التـي أعادت تحديـد الفتـرة، وجعلـت تأسـيس النبـيِّ محمَّـدٍ دولتَـه وانطـلاق الفتوحـات العربيَّة نقطـةَ بدايـةٍ للتاريـخ الإسـلاميِّ. لقـد أُلِّفت هـذه المصادر فـي الغالب مـن مؤرِّخين عاشـوا فـي العـراق فـي القرنيـن التاسـع والعاشـر الميلاديِّـن، الذيـن لا يميلـونَ ولا يتعاطفـونَ كثيـرًا مـع الفتـرة المتأخِّـرة مـن العالـم القديم التـي تجاوزهـا العرب عمومًـا ولـم يهتمـوا بها فـي كتاباتهـم، وبذلك عـزَّزوا من الإحسـاس أنَّه حينمـا يعبرُ المـرءُ في الشـرق الأوسـط مـن عالم ما قبـل الفتوحـات الذي عـاشَ فيـه ثيوفلاكت سـيموكاتا ويدخـل إلـى عالـم مـا بعـد عصـر الفتوحـات وهـو عالـم حكـم الخلفاء المسـلمين الأوائـل؛ فـإنَّ المرء يعبر حـدًّا فاصلًا فـي التاريخ، مسـتبدلًا مجتمعا بآخر مختلـف تمامًـا. والواقـع إنَّ هـذا مجـرَّد تضليـلٍ مـن المصـادر، ولكن لسـوء الحظ أصبـح ذلـك التضليـل صلبًـا مـن مجموعتيـن مختلفتيـنِ مـن المؤرِّخيـنَ المحدثين (الرومـان المتأخـرون والمسـلمون الأوائـل) ولأهـدافٍ مختلفـةٍ تمامًـا، وبمهارات لغويـة، وبفرضيَّـات مـن كلٍّ منهمـا. إنَّ هـدف هـذا الكتـاب محاولـة تخفيـف هـذه القطيعـة المصطنعـة والتركيـز علـى الاسـتمراريَّة والتغييـرات كذلـك، وعلـى المعالجـات والأحـداث أيضًـا. وهـذا يمكـن إنجـازه فقـط بفهـم أوَّلًا مـاذا حـدث سـابقًا، وهـذا هـو موضـوع بقيَّـة هذا الفصـل، حيـث وكما هو الحـال مـع كلِّ ظاهرة التحـوُّلات العالميـة، يوجد شـرحٌ طويـلٌ لأحداث تلـك التغيُّرات، وهي فتـرة طويلة كان مفتاحهـا التحـوُّلات التـي وقعـت في الشـرق الأوسـط وجعلت مـن الفتوحات ممكنة ومرغوبًا فيها.

المواجهة بين القوتين العظميين

لكي نفهم الفتوحات العربيَّة لا بدَّ من الرجوع دائمًا إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديَّين حينما اندفعت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة اندفاعتها الكبيرة نحو الشرق، التي بدأت مع حرب الإمبراطور تراجان في عام 106م ضدَّ بلاد فارس، ثمَّ تبعها الكثير من الحملات العسكريَّة نحو الشرق بقيادة عسكريينَ كبارٍ وأباطرة قام الواحد بعد الآخر بإلحاق أراضي الإمارات العائليَّة المستقلَّة في البتراء وتدمر والرها، مِمَّا جعل روما على اتصالٍ مباشرٍ مع القبائل الرعويَّة التي كانت تنسِّق في السابق علاقاتها مع تلك الإمارات. وخلال حكم الإمبراطور سبتيموس سيفريوس (193-211م) شُكِّل فيلقان إضافيَّان للخدمة في الشرق، وهذا يعني مرابطة ثمانية فيالق الآن في منطقة تمتدُّ من ولاية بلاد ما بين النهرين الجديدة (الجنوب الشرقي من تركيا الحديثة وغرب العراق) وجنوبًا حتَّى شبه الجزيرة العربيَّة. ومِمَّا يظهر من ذلك أنَّ روما أخذت تسيطرُ تدريجيًّا على الشرق الأوسط كلِّه. بيْدَ أنَّ تغيُّر الوضع في عام 224م حينما اعتلت عائلةٌ ساسانيَّةٌ نشطةٌ عرشَ الإمبراطوريَّة الفارسيَّة (تضمُّ العراق وإيران الكبرى) وتبنِّيها سياسات أكثر مركزيَّة وتوسعيَّة مِمَّا كان يتبعه ملوكها السابقون[1]؛ شنَّ الساسانيُّون سلسلةً من

1- لتسهيل الفهم سأستخدم في هذا الكتاب مصطلح "فارسي" للإشارة إلى كلِّ سكَّان المناطق التي حكمتها الأسرة الساسانيَّة الفارسيَّة (العراق، بلاد فارس الكبرى، أي إيران الحاليَّة، تركمستان وأفغانستان)، مع أنَّحكمهم انتهى في عام 652م، وكان للكثير من السكَّان هناك هُويَّات محليَّة أخرى. وكذلك استخدم المؤرِّخون المسلمون في العصر الوسيط مصطلح "فرس"، وفي بعض الأحيان "عجم"، التي تعني بصورة عامَّة غير العرب، ولكن كصفة أُطلقت بشكلٍ خاصٍّ على الفرس في الأعمِّ الأغلب. يُفضِّل بعض الباحثين المحدثين استخدام تسمية "إيرانيين" بمعنى يتكلَّمون اللغة الإيرانيَّة،لكنَّ هذه التسمية نادرًا ما تُستخدم في مصادرنا، لها مدلول قويٌّ في الوقت الحاضر وتسحب تحت معناها شعوبًا مختلفة في أواسط آسيا، وعلى الرغم من أنَّهم يتحدَّثون اللغة الإيرانيَّة، فإنَّهم يحتفظون بهُويَّات وثقافات مختلفة خاصَّة بهم.

الهجمات المدمِّرة على الجناح الشرقي للإمبراطوريَّة الرومانيَّة في منتصف القرن الثالث الميلاديّ، وأنجزوا الكثير من الانتصارات حتَّى تمكَّنوا من إلقاء القبض على الإمبراطور الرومانيّ نفسه. كان تدخُّل حاكم تداستمر مر وحده الذي جهَّز جيشًا من رجال القبائل والمدن لإنقاذ روما من هجومٍ فارسيٍّ شرسٍ كما يبدو. ثمَّ توصَّلوا إلى قبول أحدهم للآخر على مضضٍ، وعيون أحدهم مفتوحة على الآخر بحذرٍ عبر الصحراء السوريَّة، يحترم كلٌّ منهم سيادة الآخر، ما عدا بعض المناوشات والغزوات المتقطِّعة؛ للحصول على الإتاوات والأسرى واستعراض القوَّة للناس عند عودتهم. (صورة 1.1).





صورة رقم 1.1

موزائيك يصوِّر الإمبراطور جستينيان الأوَّل في البلاط. سان فيتالي، رافنا وصحن فضي يصوِّر يزدجرد الثالث وهو في الصيد، المكتبة الوطنية بباريس. ويُلاحَظ منهما نموذجان مختلفان كليًّا لشرعيتهما، ويصور استعراض ممارسة كلٍّ من الإمبراطوريَّتين للقوَّة.

استمر الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية بالازدهار على الرغم من معاناته من عدم الاستقرار وفقدان الأراضي خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين، ولا سيَّما أنَّه اعتمد على عاصمته الجديدة القسطنطينيَّة التي أُقيمت على أنقاض مدينةٍ يونانيةٍ قديمةٍ في بيزنطة، وهو الاسم الذي يستخدمه الباحثون المحدثون عند إشارتهم بوضوحٍ إلى الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الشرقيَّة المسيحيَّة (على الرغم من أنَّ مواطنيها استمرُّوا بالتفكير على أنَّهم رومان). هذه الحالة الجيوسياسيَّة الذي وصفناها أعلاه - أنَّ الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة في حالةٍ متوازنةٍ من الحرب الباردة - بقيت مستقرَّة نسبيًّا خلال القرنينِ الرابع والخامس الميلاديَّين، ولكنَّ القرن السادس الميلاديَّ شهِد تصعيدًا حادًّا في الأعمال العدائيَّة واندلاع مناوشات بين الطرفين في الفترات 530-532 م، 540-545م، 572-590م. انتهت الفترة الأخيرة من المناوشات بتفاهمٍ ودِّيٍّ بعد أن لجأ الإمبراطور الفارسيُّ خسرو/ كسرى الثاني إلى القسطنطينيَّة لطلب المساعدة البيزنطيَّة ضدَّ منافسيه في الداخل. جُهِّزَ خسرو/ كسرى الثاني بقوَّات وعاد للاستيلاء على العرش بنجاح، ثمَّ التطلُّع لعهدٍ جديدٍ من السلام والتعاون بين هاتينِ القوَّتينِ الكبيرتينِ. ومع ذلك، حينما تعرَّضت بيزنطة إلى انقلابٍ عسكريٍّ في 602م قرَّر خسرو/ كسرى الثاني أنَّ الوقتَ قد حان لتجديد الأعمال العدائيَّة، وشنَّ هجومًا شاملًا ضدَّ حليفه السابق. ويبدو كان من المستحيل إيقاف اندفاع قوَّاته التي استولت على سوريا في عام 610م، وعلى فلسطين عام 614م، وعلى مصر عام 619م، وعلى الأناضول وصولًا إلى أسوار القسطنطينيَّة نفسها عام 626م. أمَّا الإمبراطور البيزنطيُّ هرقل الذي استولى على العرش الإمبراطوريِّ من الذي اغتصبه في عام 610م؛ وقام باستدارةٍ دراماتيكيَّة والسير عبر بلاد القوقاز ومهاجمة بلاد فارس من الشمال وبمساندة قوَّةٍ كبيرةٍ من الأتراك. وبذلك استطاعَ مهاجمة قلب إمبراطوريَّة عدوِّه والتقدُّم نحو

عاصمته سلوقس - طيسفون وطرد المساكن الملكيَّة خلال مسيره، وإجبار المهزوم والمخذول خسرو/ كسرى الثاني على الفرار.

وفي لحظةٍ ما يظهر وكأنَّ الفرس ذاهبون لاختطاف المشهد كلِّه، ولكن في وقتٍ مبكرٍ جدًّا من القرن السابع الميلاديِّ أخبر رئيس الكنيسة الجورجيَّة زميله في الكنيسة الأرمنيَّة: «أنَّ ملك الملوك (خسرو/ كسرى الثاني) هو سيِّد الرومان بقدر ما هو سيِّد أرض الآريين»[1]، أمَّا الآن فإنَّ الطاولات قد قُلبت وتمكَّن هرقل من فرض شروطه على فارس المقهورة، وتوصَّل ابنُ خسرو/ كسرى الثاني إلى سلامٍ مع هرقل في 628م وافق فيه على إعادة جميع الأراضي التي استولت عليها القوَّات الفارسيَّة إلى بيزنطة. واحتفل هرقل في عام 630م بانتصار العالَمِ المسيحيِّ بإعادة بقايا صليب السيِّد المسيح إلى القدس ودخوله المدينة بموكبٍ احتفاليٍّ مَهيب بعد ست عشرة سنةً من اجتياحها على أيدي الفرس. ومرَّة أخرى، يبدو أنَّ المسرح مهيَّأ لمستقبل يسوده السلام بين الطرفين، والصورة قد تبدو أكثر وردية للبيزنطيِّين حينما قدَّم الجنرال شهربراز «نفسه خادمًا لهرقل» واعتنقَ ابنه الديانةَ المسيحيَّة وارتقى العرش الفارسيَّ في نيسان 630م بمساعدة «القوَّات البيزنطيَّة - الفارسيَّة»[2]. يبدو وكأنَّ بلاد فارس أصبحت تابعةً لبيزنطة وربَّما مسيحيَّة فوق كلِّ ذلك. ومع ذلك، فالآمالُ قد تحطَّمت باستمرارِ سلامٍ دائمٍ بين القوَّتينِ الكبيرتينِ آنذاك. فشهربراز لم يكن من البيت الملكيِّ الساسانيِّ، وعلى الرغم من تأييد هرقل له فقد اغتاله النبلاء الفرس الساخطون عليه، ثمَّ ذهبت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة إلى الحرب الأهليَّة، تاركةً حدودها - المهملة أصلًا خلال ربع قرن من النزاع مع بيزنطة - عرضةً للبؤس والإهمال.

1- رسالة رئيس الكنيسة الجورجيَّة إلى نظيره الأرمنيِّ، اقتُبست من:

T.Greenwood, "Sasanian Reflections in Aremenia Sources," e-Sasanika 5(2008),18.

2- Nikephoros, §17; Chronicle of Khuzistan, 29-30.

انتشار العقيدة التوحيديَّة
(مذهب الإرادة الواحدة Monotheism) عالميًا

أصبحت المسيحيَّة خلال حروبِ العالمِ القديم الكبرى الأخيرة أكثرَ ارتباطًا بصورة أساسيَّة بمصير الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. وكان يُعتقد أنَّ العذراء مريم هي التي أنقذت القسطنطينيَّة في تلك الساعات الحرجة، حينما كان الفرس يرابطونَ في خليجها بمحاذاة أسوارها. ولذلك كانت حملات هرقل ضدَّ الفرس بمنزلةِ حربٍ مقدَّسةٍ؛ كان هرقلُ النبيَّ «داود» الجديد الذي يقود جيشًا من الصليبيِّين يقاتل من أجل قضيَّة إلهيَّة. لقد بدأت هذه الفكرة العالميَّة شكلها في أعقاب تحوُّل الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى المسيحيَّة في عام 312م، الذي جعل منها ديانةً معترفًا بها في الحال، وأن يكون هو نفسه مسيحيًّا ولو ظاهريًّا. إنَّ هذا الاعتراف المهمَّ أعطى لمراتب الكنيسة المسيحيَّة الوليدة سلطةً سياسيَّة؛ فالبطاركة والأساقفة والرهبان بإمكانِهم الاعتماد الآن على الدعم الإمبراطوريّ في فرض إراداتهم. وأقاموا تدريجيًّا الكنائس والأديرة بدلًا من المعابد والمسارح الوثنيَّة، وتخلَّى أعضاء المجلس المحلِّيِّ ببطءٍ عن سلطاتهم لرجال الدين المسيحيِّ، وأصبح غير المسيحيِّين عرضةً للشكِّ ومعرَّضين للاضطهاد أكثرَ، وقرَّرت المجالس الكنسيَّة اعتماد الآرثدوكسيَّة عقيدةً رسميةً، وأخذت تطارد من لا يؤمن بها. وباختصار: أصبحت الإمبراطوريَّةُ الرومانيَّةُ مسيحيَّةً. وأُعيد تشكيل المقرِّ الإمبراطوريِّ ليعكس الوضع الجديد، حيث يشارك الإمبراطور الآن العقيدةَ نفسَها لأتباعه المتزايدة أعدادهم بسرعة، وبذلك أصبح اهتمامه يَنصبُّ على تقرير معتقداتهم العامَّة والدفاع عنها.

إنَّ هذا الترابط بين السلطتينِ السياسيَّة والدينيَّة أصبح أكثر صلابةً في القرون اللاحقة، وأعطى حوافز إضافيَّة لمشهد الحرب الباردة بين بيزنطة وبلاد فارس: فحينما تكون مسيحيًّا يعني أصبحت تدريجيًّا من أنصار بيزنطة، وإن لم تكونوا مسيحيِّين يُنظر إليكم بشكٍّ كبيرٍ وأنَّكم متعاطفون مستترون مع بلاد فارس، وهو اتهامٌ كان يُوجَّه لليهود مرارًا. وفي هذه الحالة أخذت النزاعات السياسيَّة شكلًا دينيًّا. وهكذا، فحينما حكمت السلالةُ الحِميريَّةُ اليمنَ في هذا الوقت وتحوَّلت إلى اليهوديَّة في أواخر القرن الرابع الميلاديِّ بدأت بيزنطة تُشكِّك بميلها نحو بلاد فارس. وحينما شرع حكَّام إثيوبيا المسيحيُّون في مطلع القرن السادس الميلاديِّ بتوسيع حربِهم على اليمن كانوا يبرِّرون حركتهم على أنَّها حربٌ مقدَّسةٌ ضدَّ السلالة الحِميريَّة اليهوديَّة. واحتُفِلَ بنجاحهِم في العالم البيزنطيِّ؛ كونه يُمثِّل انتصارًا للمسيحيَّة. وإنَّ جهود أحد الملوك الحِميريِّين لاضطهاد العناصر المؤيِّدة لإثيوبيا في مملكته في عشرينيَّات القرن السادس الميلاديِّ دُوِّنَت بوصفِها محاولةً من الخونة اليهود لمعاقبة الأبرياء المسيحيِّين الذين كانوا يعانون بشجاعةٍ من أجل عقيدتهم. فهذه القصَّة المعروفة «شهداء نجران» تمَّ تداولها في كلِّ مكانٍ وبلغاتٍ مختلفةٍ، ووُظِّفت لتكون مادَّة لدعاية قويَّة وعاطفيَّة.

ربَّما كانت المسيحيَّة من أوضح الأمثلة ولكنَّها من أبرز الديانات في العصور القديمة المتأخِّرة التي لا يمكن فصلها عن السلطة، وهذه الحقيقة لها أهمِّيَّةٌ كبيرةٌ في ظهور الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة، فالزرادشتيَّة لم تتمكَّن قطُّ من الحصول على المنزلةِ نفسِها في بلاد فارس، ولكن من المؤكد أنَّ رجال دينها حاولوا الحصول على المساندة الإمبراطوريَّة، فقد نقش أحد القساوسة الزرادشتيِّين في الثلث الأوَّل من القرن الثالث الميلاديِّ ما يلي: «لقد منحني ملكُ الملوك الصولجانَ والحزامَ، وأوجد لنا كرامةً ومرتبةً عليا في البلاط، وفي مملكة بعد مملكة، ومكان بعد مكان، وأعطاني الكثير من السلطة والقوَّة في الإمبراطوريَّة كلِّها في قضايا الخدمات الدينية، وأوجدَ لي لقب

رئيس أساقفة آهورا - مزدا، الذي يأتي بعد الإله منزلةً»[1]. واستطاعت اليهوديَّة إحراز مكانةٍ لدى السلالة الحِميريَّة الحاكمة من القرن الرابع حتَّى الخامس الميلاديِّين - كما ذكرنا -، وكذلك بين الصفوة الخزريَّة في السهوب الجنوبيَّة لروسيا من القرن الثامن حتى التاسع الميلاديِّين. ونجحت البوذيَّة نجاحًا كبيرًا أيضًا في هذا الوقت، وتمتَّعت برعاية الأباطرة الصينيِّين والكثير من الأمراء الصغار في أواسط آسيا، وأخيرًا تبنَّتها السلالةُ الحاكمةُ في إمبراطوريَّة التبت في القرن السابع الميلاديِّ. وبذل النبيُّ الفارسيُّ ماني (ت: 247م) وخلفاؤه جهودًا كبيرةً؛ للحصول على مساندةٍ قويَّة لديانتهم التي أطلق عليها تسمية «المانويَّة»، حتَّى أصبحت ديانةً شعبيَّةً في مناطق آسيا الوسطى والصين وعقيدة جماعة الأتراك الإيغور في سنة 762م.

ومع ذلك، فقد أحرزت المسيحيَّة مكانةً كبيرةً وبارزةً في هذا الوقت، وانتشرت في الجهات الشرقيَّة من الإمبراطوريَّة في الفترة المحصورة بين القرنين الخامس والسابع الميلاديِّين في إيران وآسيا الوسطى، بل وصلت حتَّى الصين. ففي منتصف القرن السابع الميلاديِّ كان هناك عشرون أبرشيَّة في المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر أكسوس Oxus ومنها سمرقند وكاشجر. ويمكن ملاحظة تطوُّر مشابه لذلك في شبه الجزيرة العربيَّة، فمنذ منتصف القرن الرابع الميلاديِّ أرسلت القسطنطينيَّة رسلَها إلى حاكم أهل (حِمير) ليصبحوا مسيحيِّين ويتخلّوا عن ضلال الوثنيَّة[2]. وكانت ديمومة هذا التوسُّع بفضل إثيوبيا الحليف البيزنطيِّ المسيحيِّ في الإقليم. كانت الكنيسة المسيحيَّة في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة نشطةً جدًّا، وأقامت فروعًا لها في كلِّ الجزر والسواحل الشرقيَّة لشبه الجزيرة العربيَّة في هذه الفترة، وكانت البعثات

1- Kartir inscription: www.avesta.org/mp/kz.html,;

لدراسة كاملة للمخطوطة أنظر:

P.Gignoux,Les quatre inscription du mage Kirdтr(Leuven,1991).

2- Philostorgius, Historia Ecclesiastica, ed. J. Bidez (Berlin, 1972), 3.4.

التبشيريَّة نشطةً في المناطق الحدوديَّة الشماليَّة مع بلاد وادي الرافدين وسوريا وفلسطين. ووُصفت قبائل الأقاليم الأخيرة بأنّها قبلت العقيدة الجديدة نتيجةً لسلطة السيِّد المسيح المتمثِّلة بالمآثر والمعجزات عند الكثير من الرجال المتديِّنين. إنَّ تحوُّل هذه القبائل من الوثنيَّة إلى «العقيدة الحقَّة» يعني اعتبار رجال هذه القبائل قد دخلوا ضمن القطيع المتحضِّر: «إنَّ أولئك الذين كانوا يُسمَّونَ سابقًا ذئاب الجزيرة أصبحوا أعضاء في الجماعات الروحيَّة للسيِّد المسيح»[1]. لقد أصبحت هذه القبائل في تثاقف مع العالم الرومانيِّ الأوسع، أوَّلًا من طريق نفوذ المسيحيَّة، وغالبًا ما شُجِّعت على الاستقرار الذي ساعد على تكامل ذلك التثاقف. مثلًا: احتفل أحدهم بأحد زهَّاد الصحراء Judaean الذي نشر المسيحيَّة بين عددٍ كبيرٍ من رجال القبائل الذين توسَّلوا به البقاء بالقرب منهم، وخطَّط لهم موقعًا للكنيسة في وسط خيامهم المحيطة بها، وعيَّن لهم قسِّيسًا ورئيس أساقفة، «ونتيجةً لذلك أصبحت أعدادهم غفيرة إلى حدٍّ كبيرٍ وانتشروا ليُشكِّلوا مخيمات مختلفة»[2]. أصبح من الممكن في مطلع القرن السابع الميلاديِّ الحديث عن المسيحيَّة العربيَّة الفتيَّة الواقعة في مستوطنات الرصافة (في شمال سوريا) والحيرة (جنوب العراق) ونجران (شمال اليمن) وفي عددٍ من الأماكن الواقعة في ولاية شبه الجزيرة العربيَّة الرومانيَّة الممتدَّة من الجابية في شمالها (الجنوب الغربي لسوريا الآن) حتَّى البتراء وكلوة (صورة 1.2) في الجنوب من الأردن الحالية وشمال غرب السعوديَّة. وارتقى بعض هؤلاء العرب المسيحيِّين ليصبحوا أعضاء

1- **Cyril of Scythopolis, Life of Euthymius, ed. By Shwartz (Leipzig, 1939), 24.**
وقارن ذلك مع تعليق Theodoret of Cyrrhus حول راهب يُدعى عبَّاس: "نشأ من أصول إشمايلاتية، ولكن لم يستبعد من إرث ابراهيم "ذكر ذلك F.Miller في .
The Theodosian Empire(408-450)and the Arabs, in E.S.Gruen ed., Cultural Borrowings and Ehnic Appropriations in Antiquity (Styttgart, 2005) 307.

2- **Cyril of Scythopolis, Life of Eutb ymius , 29.**



صورة رقم 1.2
نقش عربي من كلوة، مستوطنة في الشمال الغربيِّ من المملكة العربيَّة السعوديَّة من القرن السابع تقريبًا. كريستيان روبن.

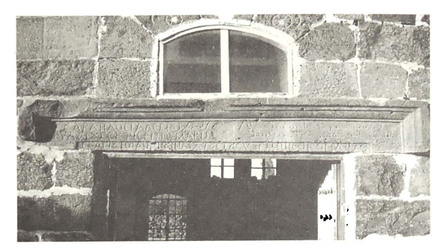
بالصفوة من البيزنطيِّين والفرس، ونراهم يُضيِّفونَ المجالس الدينيَّة ويتكفَّلون ببناء بعض الكنائس. لقد ترك أحدهم المدعو شارهل بن زالم Sharahil b. Zalim دليلًا جيِّدًا لهذه الحالة، وهو نقشٌ نُقِشَ على عتبةٍ عليا لإحدى الكنائس الصغيرة لشهيدٍ اسمه "جون" الذي جنَّده شارهل لخدمته في عام 567م (صورة 1.3). وأمر أن يُكتبَ نصُّ النقش باللغتينِ اليونانيَّة؛ ليبرهن أنَّه أحدُ أعضاء الطبقة المثقَّفة من المجتمع المسيحيِّ البيزنطيِّ، وباللغة العربيَّة؛ ليُوضِّح جذوره وهُويَّته المحلية وتفاخره بثقافته العربيَّة[1].

1- فيما يتعلَّق بشارهل والنقطة التي ذكرناها هنا، انظر:

R.Hoyland, ' Late Roman provincia Arabia Monophysite Monks and Arab Tribes,' Semaitica et Classica 2(2009);

وبصورة أكثر شمولًا، انظر:

Trimingham, Christianity among the Arabs in Pre Islamic Times.



صورة رقم 3. 1

نهضة سكان الأطراف

لا نعرفُ أيَّ شيءٍ عن شارهل عدا هذا النقش، ولكن نرى أنَّ عددًا من المعاصرين له من العربِ يمارسونَ دورًا أساسيًّا في الجيوش الإمبراطوريَّة. فالتنافسُ بين القوَّتينِ الكبيرتينِ الذي بدأ في القرن الثالث الميلاديِّ يعني أنَّ كلتا الإمبراطوريَّتينِ قد توسَّعت كثيرًا وبحاجةٍ ماسَّة لرصِّ صفوف جيوشها. ولذلك، فالرجال الذين أظهروا وأتباعهم مهاراتٍ في شنِّ الحروب قد رُحِّبَ بهم بأيدٍ مفتوحةٍ وحصلوا على مرتبات وألقاب عليا. فضلًا عن دخول البرابرة الخدمة الآن بصفة مجموعات متكاملة وبإمرة قادتهم «البرابرة»، في حين فُصِلوا في الأيَّام المجيدة السابقة للإمبراطوريَّة الرومانيَّة ووُزِّعوا في وحداتٍ مختلفةٍ، والخدمة تحت إمرة قائد إمبراطوريٍّ. إنَّ هذه السياسة الإمبراطوريَّة التي تبحث عن قادة أقوياء ومنحهم مساعدات وألقاب أدَّت إلى ظهور مجموعاتٍ أكبرَ وأكثر قوة؛ لأنَّ القادة الذين اختِيروا بدأوا يتنافسون فيما بينهم؛

من أجل السلطة والرفعة. مثلا: كان هناك نحو خمسة عشر قائدًا قوطيًّا حينما ظهروا لأوَّل مرةً في الغرب في القرن الرابع الميلاديِّ، ولكن ظهرت لهم مملكتانِ كبيرتانِ فقط القوط الشرقيِّين والقوط الغربيِّين في القرن السادس الميلاديِّ، واستخدموا سلطاتهم العسكريَّة ليتمكنوا من فرض مطالبهم على الإمبراطور البيزنطيِّ.

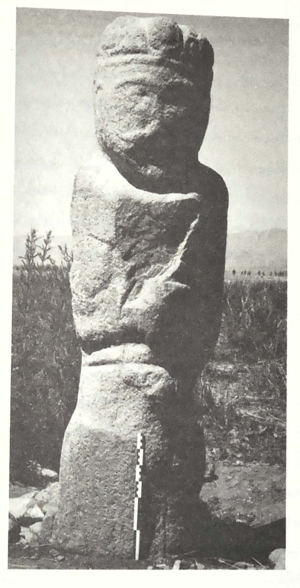
إنَّ قيام مثل هذه الممالك في أقاليم الأطراف في الإمبراطوريَّتينِ البيزنطيَّة والفارسيَّة في الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديِّين وصفها علماء الاجتماع بأنَّها تكويناتٌ لدول ثانويَّة. فالمجموعات التي تمتَّع باتصالاتٍ مكثَّفةٍ ودائمةٍ مع الإمبراطوريَّات بدأت بإقامة بنى عشوائيَّة خاصَّة بها في تلك الدول. وهكذا بدأنا نرى ظهور ممالكَ هجينة في كلِّ الأقاليم الحدوديَّة للإمبراطوريَّة البيزنطيَّة: ممالك جرمانيَّة - رومانيَّة في غرب أوروبا، ممالك عربيَّة - رومانيَّة في شمال أفريقيا، وممالك عربيَّة - رومانيَّة أخرى في أقاليم الأطراف الشرقيَّة. وحافظت هذه الممالك على خصوصيَّاتها المميَّزة لها - استخدام لغتها الخاصَّة بها، الاحتفاظ بأشكال أزيائها، وطقوس الدفن لديها، وتقاليدها الأخرى - ولكنَّهم يفتخرونَ في الوقت نفسه بروابطهم مع الإمبراطوريَّة. أعلن الملك ماسونا ألتابا of Altava Masuna نفسه «ملكًا للشعوب العربيَّة والرومانيَّة»[1]، وتحمَّس زعماء القبائل العربيَّة الغسَّانيَّة لإدخال ألقابهم الإمبراطوريَّة في الشعر العربيِّ وفي نقوشهم ومناصرتهم للمسيحيَّة.

وفي التصنيفات الصينيَّة القديمة، يُعدُّ هؤلاء برابرة «مطبوخين»، أي إنَّهم لطيفون ومعتدلون نتيجة تفاعلهم الوثيق والطويل مع الإمبراطوريَّات وتبنيهم للكثير من عاداتهم. ويأتي بعدهم البرابرة المدنيُّون الذين هم أقلُّ «طبخا» وبعضهم بدائيُّون بشكلٍ محضٍ. وكذلك كانوا يشتهون ما تملكه الإمبراطوريَّات من ثراءٍ ماديٍّ، الا أنَّهم لا يملكون وسائل سهلة للوصول إلى ذلك الثراء لأنهم بعيدون كثيرا عن مراكز

1- J.Marcillet-Jaubert, Les Inscriptions d'Altava (Aix-en-Provence,1986), I 24- 25 (no.194).

الاستيطان هناك. ومع ذلك، فإنَّهم سيستغلُّون ثغرات الضعف في الدفاعات الإمبراطوريَّة عند رصدها؛ من أجل الحصول على الثراء من طريق الابتزاز بطلب الإتاوات وفرض الضرائب على طرق التجارة. ويمثِّل القرنانِ السادس والسابع الميلاديانِ مجرَّد فرصةٍ لهم حينما انتهزت الأقوامُ الساكنةُ على أطراف الإمبراطوريَّتينِ تلك الفرصة للإغارة عليها. وهذه الحالة نفسها تشبه بأوجه متعدِّدة الحالةَ التي سادت وأفسدت النصفَ الغربيَّ من الإمبراطوريَّة الرومانيَّة في القرنينِ الخامس والسادس الميلاديَّينِ حينما قطَّعتِ المجموعاتُ البربريَّةُ المختلفةُ الولايات وجعلتها تحت إدارتها، ثمَّ كوَّنت دولها المستقلَّة بمرور الزمن. يبدو أنَّ الشرق كان بعيدًا عن مثل هذا التخريب؛ لأنَّ اقتصاده المتنوِّع والمعقَّد كان يسمحُ بالإنفاق على دفاعات أفضل ومساندة جيش أكبر. بيْدَ أنَّ الفتن الخطيرة التي ضربت الإمبراطوريَّتينِ البيزنطيَّة والفارسيَّة وهزيمة إحداهما للآخرى في القرنين السادس ومطلع السابع الميلاديَّينِ استنزفت مواردهما وتركتهما عرضةً للهجمات.

كان الأتراك من أقوى هذه الأقوام الفتيَّة، كانوا عصبةً واحدةً من عدَّة قبائل متحالفة بصورة متماسكة على الحدود الصينيَّة الشماليَّة، إلَّا أنَّ خاقانهم (زعيمهم) بومين Bumin مع أخيه إشتيمي Ishtemi حاولوا الحصول على السلطة في عام 552م وأعلنوا أنفسهم أسيادًا جُددًا على الأقليم هناك، يساعدهم في ذلك أنَّ الصين ربَّما كانت ضعيفةً ومفكَّكةً في ذلك الوقت. ونتيجة لذلك توسَّعوا غربًا وهزموا في ستينيَّات القرن السادس الميلاديِّ اتحاد الهفثيليِّين Hephthalite (الهون البيض) الذين كانوا يسيطرونَ على أواسط آسيا خلال القرن السابق. لم يكن هؤلاء الأتراك عاديِّين من بين القوى في تلك المنطقة؛ لأنَّهم تركوا لنا عددًا من النقوش باللغة التركيَّة القديمة ولهجة السوجديِّين Sogdian التي تُخبرُنا عن مآثرهم وأفكارهم، ومن بينها تذكار لحاكمٍ لهم يعود للقرن الثامن يتعلَّق بتأسيس مملكته.



صورة رقم 1.4
من تمثال زهاو صو (مونغول كور) الشمال الغربي للصين، يُصوِّر الخاقان نيلي Nili (ت: نحو 600م) والتاج على رأسه ويحمل بيديه مزهريةً وسيفًا قصيرًا. سورن ستارك.

"حينما تكون السماء الزرقاء في الأعلى والأرض السوداء في الأسفل لتأخذان شكلهما، خُلقَ البشر بينهما. لقد نهض أسلافي الخاقانات بومين وإشتيمي وهم من أسمى أبناء الرجال. وحينما أصبحوا أسياد الشعب التركي أقاموا وحكموا إمبراطوريَّتهم وأقرُّوا قانون البلاد، إلَّا أنَّ الحملات الموجَّهة ضدَّهم أخضعتهم وعملت على تهدأتهم وطأطأة رؤوسهم، والركوع على ركبتيهم. لقد اندفعوا شرقًا إلى غابة قاردرخان Qardirkhan، وغربًا إلى باب الحديد، وهكذا جعلوا من مملكة الأتراك واسعة الأطراف. كان الخاقانات حكماء ومن البواسل، وكذلك كان عسكريوهم ونبلاؤهم وعامة شعبهم مستقيمين. وهذا يفسِّر لماذا أنَّهم قادرون على حكم إمبراطوريَّة شاسعة، ويحكمون الإمبراطوريَّة لأنَّهم يؤيِّدون القانون"[1].

انقسمت الإمبراطوريَّة «التركية» في عام 583م على قسمين: شرقيٍّ وغربيٍّ، وكانت أجزاؤها الشرقيَّة في البداية (منغوليا الحاليَّة) راضية بعلاقاتها مع الصين، لكنَّها انهمكت في نزاعات معها منذ أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديِّين. وأخذ الأتراك الغربيُّون الذين احتلُّوا المناطق الواقعة بين البحر الأسود وبحيرة آصيكول Issykul (في قيرغيزستان الحاليَّة) بالإغارة على بلاد فارس حتَّى تمكَّن اثنان من القادة الفرس في البحيرات الشرقيَّة من هزيمتهم في سلسلة من المعارك في ثمانينيَّات القرن السادس وأواسط العقد الأوَّل من القرن السابع الميلاديِّين. وبدلًا من ذلك، أرسل الأتراك مبعوثين لجسِّ نبضِ بيزنطة التي رحَّب بهم أباطرتها لمثل تلك المساعدة ضدَّ عدوِّهم الرئيسِ، ولشراء الحرير والسلع الفاخرة الأخرى التي كانوا يتاجرون بها مع الصين. وربَّما ابتسم رجال البلاط في بيزنطة حينما أشار مبعوثو الخاقان إلى الإمبراطور على أنَّه «السيد الأعلى للأقوام

1- Trans. D. Sinor in id. ed., Cambridge History of Early Inner Asia(Cambridge,1990), 297.

السبعة، وسيد الأقاليم السبعة»[1]، والآن وبمساعدة الأتراك فقط تمكَّن هرقل من هزيمة الفرس في عام 627م.

بدأت مجموعةٌ أخرى من البرابرة وهم الآفار بالظهور على المسرح منذ القرن السادس الميلاديّ. ويبدو أنَّهم كانوا يتجوَّلون في الجهات الغربيَّة لآسيا الوسطى، واندفعوا إليها بعد تقدُّم دولة الأتراك الجديدة حتَّى وصلوا إلى شمال القوقاز في شتاء عام 557م وإرسالهم المبعوثين إلى القسطنطينيَّة التي دُهش سكَّانها لجدائل شعرهم الطويلة. وافق الإمبراطور على منحهم المساعدات ووجَّههم لمهاجمة العناصر غير المنضبطة في البلقان. ولذلك استطاع الآفار إخضاع كلِّ شعوب تلك المناطق تدريجيًّا ومن بينهم السلاف والبلغار والإغارة على المناطق البعيدة على نهر الألب، حتَّى أصبحوا في مواجهة مع الفرنجة. ولكنَّ تلك الحملات ربَّما تتحوَّل ضدَّ بيزنطة في الوقت نفسه، ففي عام 582م فتحوا مدينة سيرميم Sirmium (سرمسكا متروفكا في صربيا الحاليَّة) ذات الموقع الاستراتيجيِّ، واستمرَّت الاشتباكات لسنوات متعدِّدة غالبًا ما كانت اليد العليا فيها للآفار وتُوِّجت تلك المناوشات في النهاية بهجومٍ شاملٍ على القسطنطينيَّة نفسها في عامي 619م و626م. حيث كان ذلك الهجوم مرعبًا بشكلٍ خاصٍّ لسكَّان العاصمة الذي تزامن مع هجومٍ آخر من الفرس عليها، لكنَّ البحريَّة البيزنطيَّة استطاعت قطع أيَّة اتصالات بين قوَّات الأعداء عبر مضيق البسفور، وأغارت على السفن الصغيرة للقوَّة السلافيَّة. ونتيجةً لنفاد التجهيزات وضخامة الأسوار التي تُطوِّق القسطنطينيَّة أدَّى إلى قلق العدوِّ ورفعه الحصار عنها. ولم يعد الآفار إلى مجدهم السابق، ولا سيَّما أنَّ السلاف والبلغار قد شقُّوا طريقهم لتأسيس دولة خاصَّة بهم.

1- Theophylact, History, 7.7.8.

يشمل مصطلح "الترك" مجموعات مختلفة تتحدَّث اللغة التركيَّة،أمَّا هذه المجموعة المحدَّدة التي يشير إليها الباحثون باسم جوك/ كوك؛ تُترجَم في الغالب"الأتراك الزرق".

وقد حُوصِرَ الآفار وتم تحجيمهم في الشرق من لاعبٍ سياسيٍّ ناهضٍ وهم الخزر الذين استوطنوا إقليم الفولجا الأسفل في وقتٍ ما في الفترة 630-650م. ويبدو أنَّهم بدأوا ظهورهم بصفة مجموعة ضمن التحالف التركيّ الذي أصبح يواجه ضغطًا قاسيًا آنذاك من عائلةٍ صينية ظهرت مؤخَّرًا وهي عائلة تانج Tang. لقد امتدَّت أراضي الخزر من أوكرانيا الحديثة حتَّى غرب كازاخستان، واستمرَّ حكمهم لمدة ثلاثة قرون (نحو 650-969م)، ليكونوا مثلًا لأطول إمبراطوريَّة عاشت في تلك السهوب. واستمرارهم الطويل هذا كان بسبب التطوُّر في شبكة التجارة المربحة كثيرًا عبر أوراسيا التي كانت تربط مناطق الغابات الشماليَّة مع الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والإسلاميَّة، فضلًا عن تعزيز خصوصيَّتهم واستقلالهم بتحوُّلهم إلى الديانة اليهوديَّة في الفترة من القرن الثامن حتَّى القرن التاسع الميلاديَّين. وباختصار: كان الخزر قوَّةً هائلةً شكَّلوا تحدِّيًا جدِّيًا للعرب في جناحهم الشماليِّ، ولا سيَّما في الفترة 708-737م حينما تواجهَ الطرفان بوصفهما نِدَّيْنِ متعادلينِ في معاركهم؛ من أجل السيطرة على بلاد القوقاز.

إنَّ نجاح شعوب الأطراف هذه ربَّما تمثِّل قصَّة نجاح في بعض الأحيان. وتفاعلهم الوثيق والدائم مع الإمبراطوريَّتين جعلهم يتعلَّمون تنظيم أنفسهم بصورةٍ أكثر تعقيدًا، ومكَّنهم الآن من تنظيم أعمالٍ عسكريَّةٍ أكثر تنسيقًا. لم يكن هؤلاء كيانات متجانسة، ولكن كانوا تحالفات لمجموعات متعدِّدة ومختلفة الأصول والإثنيَّات ترأسهم في الغالب سلالةٌ معروفةٌ. ومكَّنتهم الموارد الماليَّة التي حصلوا عليها من طريق السلب والنهب من شراء الولاء وتوحيد المجموعات المشتَّتة والمتنوِّعة في مجموعة أكثر تماسكًا، وتشكيل نوع من الشعور بالهُويَّة والترويج لثقافتهم الخاصَّة بهم. أمَّا بالنسبة إلى الإمبراطوريَّات؛ فهناك خطرٌ في هذا التطوُّر، ولا سيَّما أنَّ هؤلاء أصبحوا أقوياء بما يكفي لتحدِّيهم، فقد استفاد الإمبراطورُ الفارسيُّ بيروز (457-484م)

من الهفثليِّين في آسيا الوسطى لقتال أخيه الأصغر الذي اغتصب العرشَ، ولكنَّه قُتِلَ على أيديهم فيما بعد حينما تحوَّلت العلاقات إلى العداء. وبعد قرنٍ من الزمن تحالف الفرس مع القوَّة الصاعدة في أواسط آسيا وهم الأتراك لتدمير مملكة الهفثليِّين، إلَّا أنَّ الأتراك توصَّلوا إلى اتفاقٍ فيما بعد مع بيزنطة؛ لتعزيز الإمبراطور هرقل بقوَّاتٍ كافيةٍ لهزيمة خسرو/ كسرى الثاني. أمَّا الآفار؛ فقد ظهروا على المسرح في منتصف القرن السادس الميلاديِّ، ولكنَّهم سرعان ما سبَّبوا صداعًا كبيرًا لبيزنطة، وهجماتهم المفاجئة على القسطنطينيَّة جلبت الموت للإمبراطوريَّة. وحتَّى الآن، فإنَّ هذه الشعوب - ومن بينهم العرب - لم يهاجموا الإمبراطوريَّة بهدف تدميرها، على الرغم مِمَّا يدَّعي به مواطنو الإمبراطوريَّة، إنَّما البحث للاستيلاء على بعض ثرواتها لأنفسهم، أو لجعل أنفسهم سادتها الجُدد.

العرب وشبه الجزيرة العربيَّة

كان العرب من أكثر شعوب الأطراف نجاحًا، الذين تُشكِّل فتوحاتهم موضوع هذا الكتاب. فمن الصعوبة جدًّا الكتابة حولهم؛ لأنَّ مصطلح «العرب» ومنذ ظهوره لأول مرة في المصادر التاريخية قبل ثلاثة آلاف عام يعني - وكما هو متوقَّع - أشياء مختلفة لشعوب مختلفة، وفي أوقاتٍ مختلفة. لقد توصَّلت إحدى الدراسات الأكاديميَّة الأخيرة عن طبيعة العرب قبل الإسلام إلى أنَّهم بدو مترحلون، يقومون بتربية الجمال، محاربون صحراويُّون متحمِّسون دينيًّا، وبصورةٍ أساسيَّة يتحمَّلون معًا كلَّ الأنماط الحياتيَّة حولهم التي تتحمَّلها الشعوب المستقرَّة، وعلى كتاباتها يعتمد مؤلِّف هذا الكتاب في معلوماته[1]. لقد استمرَّت تلك الأنماط حتَّى وقتنا الحاضر

1- Retsö, The Arabs in Antiquity.

وتعزَّزت بإنتاج أفلامٍ مثل «لورنس في شبه الجزيرة العربيَّة»، ولذلك فمن الصعب جدًّا الاقتناع حتَّى عند الفئات المثقَّفة أنَّ العرب كلَّهم بدو ومن سكَّان الصحراء. وفي الواقع، كان بعضهم من المقيمين حتَّى من بين أعضاء النخبة الإمبراطوريَّة. إنَّ فكرة شبه الجزيرة العربيَّة على أنَّها عالم صحراويٌّ خشنٌ غيرُ متغيِّرٍ يسكنها البدو الشجعان الأبطال فقط؛ مجرَّد افتتان رومانسيٍّ للثقافة الغربيَّة، وحتَّى للكثير من المجتمعات في بلدان الشرق الأوسط أيضًا، التي تَعدُّ الصحاري العربيَّة وساكنيها مصدرًا لها يرحِّب الجميع به. وفي الواقع، تأوي شبه الجزيرة العربيَّة الكثير من الشعوب المختلفة تمامًا، وبعضهم لا يصف نفسه عربيًّا، وبعضهم يملك حضارات أكثر تقدُّمًا وتعقيدًا. وأيضًا هي ليست بعيدةً ومجهولةً كما يُفترض عمومًا، ولكنَّها كثيرًا ما تتعرَّض إلى نفوذ الإمبراطوريَّات ومكائدها، وتتمتَّع باتصالاتٍ تجاريَّةٍ مع الدول المجاورة كالهند وإثيوبيا.

أمَّا بالنسبة إلى الآشوريِّين واليهود؛ فإنَّ العرب هم سكَّان الصحراء السوريَّة الممتدَّة من العراق حتَّى فلسطين، وتضمُّ إلى الجنوب أراضيَ شاسعةً خالية من السكَّان (شبه الجزيرة العربيَّة). ولذلك، عُرفت هذه الأقاليم القاحلة باسم «أرض العرب»، وبصورة أوسع "شبه الجزيرة العربية". ونتيجة لذلك، تستنتج إحدى المنشورات الدوريَّة أنَّ كلَّ الذين يسكنون هذه المنطقة المسماة «شبه الجزيرة العربيَّة» يُشارُ إليهم مرارًا من الأجانب على أنَّهم "عرب" (وفي بعض الأحيان أعراب - المتحدِّثون بالإغريقيَّة يستخدمون عربا وعربيو Arabes and Arabioi). ولعلَّ هذا الوصف كان ولوقتٍ طويلٍ لا يعني لأولئك السكَّان سوى معنى فضفاض فقط، حيث كانوا يستخدمون مصطلحات أكثر دقَّة للتعبير عن أنفسهم مثل أسماء قبائلهم أو مناطقهم، ولكنَّ هناك اثنين من التطوُّرات أعطته معنى أكثر تحديدًا، الأوَّل: ظهور النبط الذين يصفون أنفسهم عربًا ويتحدَّثون بلهجة عربيَّة، وأقاموا مملكتهم في القرن

الثاني قبل الميلاد، التي ضمّت «كلّ الأراضي الواقعة بين نهر الفرات والبحر الأحمر». والتطوّر الثاني: إلحاق الرومان لهذه المملكة في عام 105م حينما اندمج سكّان هذه المملكة القديمة بالتقاليد الإمبراطوريّة، ليُكوّنوا ثقافةً متميّزةً في هذه الولاية «العربيّة» التي بدأ سكّانها الآن يسمّون أنفسهم عربًا، ويشير إليهم الأجانب بتلك التسمية[1].

إنّ الامتداد الجغرافيّ لهذه الولاية يتداخل مع أراضي المملكة النبطيّة السابقة، التي تساوي الجنوب السوريّ الحاليّ، والأردن كلّها، جنوب فلسطين/ وفلسطين المحتلّة، وشمال غرب السعوديّة. ولم تُحدَّد حدودها الشرقيّة والغربيّة، والأرض هناك قاحلة وجرداء تضمّ بعض الواحات، ولذلك لم تكن ذات أهمّيّة كبيرة للرومان. ومع ذلك، فإنّ بعض سكّان هذه الأراضي الصحراويّة يفتخرون بوصفهم جزءًا من الإمبراطوريّة. مثلا: فقد أقامت وحدة عسكريّة من قبيلة ثمود معبدًا تذكاريًّا للإمبراطور ماركوس أورليوس (161–180م) في موطنهم الأصلي ليس بعيدًا جدًّا عن مدينة النبي محمّد[2]. وبمرور عدّة قرونٍ أخذت الولاية تولد شعورًا قويًّا بهُويّتها بين السكّان وإن كانوا يختلفون من جانبٍ آخر. كان أحد الكهنة المدعو روفينوس يسكن مؤقّتًا في جزيرة ثيسوس Thasos في القرن الثالث الميلاديّ ويدّعي أنّه عربيٌّ، وكما يُذكرُ في نقشٍ لولده من مدينة قنوات Qanawat في شمال ولاية «العربيّة الرومانيّة» (بلاد الشام). وهناك نقشٌ على قبر اثنين من الجنود يعود تاريخه إلى سنة 522م عثرنا عليه في وادي الأردن يؤكدون فيه أنّهم كانوا ينادونهم «من سكّان أراضي العرب». كما وصف نقشٌ

1- Josephus, Antiquities (Loeb, 1930), 1.220-21 (Nabataeans).

مع ملاحظة أنّ الإمبراطور جستينيان الأوّل في قوانينه الجديدة 102 يشير إلى العربيّة بوصفها ولاية عربيّة. في عام 241م ألحق الفرس مملكة الحضر، التي تتمركز حول مدينة بالاسم نفسه الواقعة في شمال غرب العراق الحاليّ،وهذا يعني أيضًا ولاية العرب (BetArabaye)؛ ربّما كان هذا الوضع يُقارن بالولاية العربيّة البيزنطيّة/ الرومانيّة، ولسوء الحظّ أنّنا لا نملك معلوماتٍ حولها.

2- P. J. Parr et al., "Preliminary Survey in N.W. Arabia," Bulletin of the Institute of Archaeology10 (1971), 54-58 (Rawwafa Inscription).

على قبر زوج من الرهبان يعود للقرن السادس الميلاديِّ عثرنا عليه بالقرب من جرش أنَّهم «عرب»[1]. وقد يرى بعضهم أنَّ تلك النقوش قد تعكس اللغة العربيَّة بوصفها لغةً عامَّةً يُتَحَدَّثُ بها، ولكن هناك عدَّة لغات يُتَحَدَّثُ بها في هذه الأرض، وفي النهاية يعدُّ ذلك من حيث المبدأ مصادرة للولاية التي تضمُّهم.

كان هؤلاء من الأقوام العربيَّة المستقرَّة، ومواطني الإمبراطوريَّة الرومانيَّة (البيزنطيَّة)، ولكن هناك عرب يعيشون كبدو رعاة أيضًا، يرفضون أن يخضعوا للضرائب وأوامر البيروقراط. ولذلك فالشعوب المستقرَّة تضع تمييزًا واضحًا بينهم وبين أولئك العرب الرعاة؛ لأنَّهم يفتقرون للقيم الحضاريَّة. وعلى الرغم من حياتهم الهامشيَّة فإنَّ هؤلاء البدو العرب يظهرون بصورة بارزة في مصادر العصور القديمة المتأخِّرة، وذلك لسببين: ففي المقام الأوَّل لأنَّهم قد تحوَّلوا إلى المسيحيَّة، وبذلك فإنَّهم تأثَّروا بالحركة الزهديَّة المسيحيَّة المبكِّرة التي رأت في الأراضي الجافَّة في أطراف الإمبراطوريَّتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة مأهولة بمجتمعات النسَّاك والرهبان. وهنا ظهر نوع من الأدب الذي احتفى بممثِّلي الحركة الأبطال ومآثرهم المكرَّسة لتلك الحركة. وفي نصوص هذا النوع من الأدب يبرز السكَّان الأصليُّون في الأراضي الصحراويَّة بشكلٍ كبيرٍ، ويُوصفون عادة بالسارسين Saracens أو «الطائيين» Tayyaya، وهي مصطلحات كان مواطنو الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة يستخدمونها للتعبير عن العرب البدو. وكانوا أيضًا يُصوَّرونَ في بعض الأحيان على أنَّهم مخلوقات

1- References in R. Hoyland, "Arab Kings, Arab Tribes and the Beginnings of Arab Historical Memory," in H. Cotton et al., eds., From Hellenism to Islam (Cambridge, 2009), 379 (araps), 392 (apo khoron tou Arabon ethnous). For the monks' epitaphs, see K. M. Koikylides, Ta kata ten lauran ton cheimarron Chouziva (Jerusalem, 1901), 74-75 (Arab is written once as Arabos and once as Araps).

شهد القرن الرابع الميلاديُّ إعادة تنظيم إداريٍّ للمنطقة الواقعة بين فلسطين والجزيرة العربيَّة لصالح فلسطين، لكنَّ امتداد ولاية بيزنطة العربيَّة بقيت كما هي في المنظومة الذهنية الشعبية.

لصوصيَّة vawwe، وأنَّ توسُّل النسَّاك إلى الله غالبًا ما يحبط هجماتهم، وفي أوقاتٍ أخرى وُصفوا بأنَّهم كائنات غير طاهرة، وأنَّ حياتهم آنئذ نُوِّرت بتقوى القدِّيسين من الرجال: «كانت خرافاتهم كثيرة، وأكثر شعوب الأرض جهلًا حتى لحظة مجيء نور السيِّد المسيح إليهم». ولعلَّ أبرز مبشِّر مسيحيٍّ زار الصحراء هو «أهدومه» Ahudemmeh الذي - استنادًا إلى أحد معاونيه - كان يواظب على زيارة مخيَّمات البدو في شمال بلاد وادي الرافدين؛ لتعليمهم العقيدة ووعظهم بتعاليم الله. وافتتح الكنائس التي ذكر أسماءها بذكاء بعد ذكر أسماء زعماء القبائل، ولذلك شعر بالشجاعة للمحافظة عليهم «وهكذا كسب قلوب العرب إلى محبَّة الله»[1].

وفي المقام الثاني، كان البدو العرب يخدمون في جيوش الإمبراطوريَّتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة بأعدادٍ متزايدةٍ، وقد ظهرت تسمية «الوحدة البدويَّة» وأسماء قادة مثل تلك الوحدات على نقوش تلك الفترة، حيث ذكرت وثيقة تعود لنحو سنة 400م قائمةً بأسماء القادة العرب «الساراسين» لأفواج الخيَّالة في مناطق متعدِّدة من مصر، فينيقيا، وفلسطين[2].

1- **Ahudemmeh, "Histoire," ed. and trans. F. Nau, Patrologia Orientalis 3 (1905), 21, 26-28.**
لقد أبلغ الرسل العربَ أنَّهم ينحدرون من نسل النبيِّ إبراهيم من طريق ولده إسماعيل، وهي فكرة تعود إلى المؤرِّخ اليهوديِّ يوسفيوس
(F. Millar, "Hagar, Ishmael, Josephus and the Origins of Islam," Journal of Jewish Studies 4 4, 1993).

2- **See M.C.A. Macdonald, "Nomads and the Hauran," Syria 70 (1993), 374-76 (parem-bole nomadon).**
هذه الوثيقة عبارة عن "سجل الوجهاء"، (Notitia dignitatum) وهو سجل رسميٌّ لكلِّ الدوائر والمعسكرات في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة جمعها "رئيس كتَّاب العدول"، وطبعها مؤخَّرًا (R.Ireland, Saur,2002). كان للجيش - كما هو الحال في المسيحية - تأثيرٌ ثقافيٌّ متبادلٌ، كما نرى في بعض الأحيان من عيِّنات الأسماء؛ فنرى الجندي فالنز في عقد زواجه في عام 537م، يُدعى أبيه "الأُبي ألغب، al-Ubayy al-Ghubb"، ومن المحتمل جدًّا أنَّه غيَّر اسمه من الاسم العربيِّ "صالح"، إلى الاسم اللاتينيِّ فالنز (كلا الاسمين يعني faring well) لكي يتلاءم والحياة في الجيش. انظر:
(R. Katzoff and N. Lewis, "Understanding P. Ness. 18," Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 84,1990)

ولذلك، ذهب زعماء القبائل وبنشاط لنيل الاعتراف بهم من السلطات الإمبراطوريَّة؛ طمعًا في الحصول على الفوائد التي تدرُّها تلك العلاقات، ولا سيَّما الألقاب والرواتب. ومن الأمثلة على هؤلاء امرؤ القيس بن عمر الذي دُوِّنت مآثره في نقشٍ على عتبة ضريحه الذي يقع في صحراء بازلتية إلى الجنوب الشرقي من دمشق ومؤرخ في سنة 328م، ويسجل فيه كيف أنَّه فرض سلطته نيابةً عن روما على مختلف القبائل وصولًا إلى نجران في الجنوب على أطراف اليمن. وخلال القرون الثلاثة اللاحقة، كان الكثير يكافح من أجل تقليده وإبراز عضلاته للحصول على مطالب أعظم. وكانت الملكة الأكثر رهبة ماوية Mawiya (حكمت في سبعينيَّات القرن الرابع الميلاديِّ) التي غَزَتِ الولاياتِ الشرقية لتأخُّر تسلُّمها عطاياها الاعتياديَّة، وأظهرت نفسها أنَّها مستقلَّة تمامًا ضمن الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة وتجدد تحالفها معها حالما تُلبَّى مطالبها، بل حتَّى زوَّجت إحدى بناتها لأحد الضبَّاط الكبار في الجيش الإمبراطوريِّ. وهناك أبي كريب Abikarib (عاش في أربعينيَّات القرن السادس الميلاديِّ) الذي عيَّنه الإمبراطور جستينيان الكبير للحفاظ على الأمن بين القبائل الرعوية وصدِّ الغزوات التي تشنُّها القبائل من خارج الولاية. ونجح نجاحًا كبيرًا في مهمَّته، «فقد كان أبي كريب لكلِّ من البرابرة الذين يحكمهم وليس أقل من ذلك لعدوِّه، رجلاً ذا رهبة وتابعًا نشطًا وفعَّالًا»[1]. وورد ذكره في مخطوطة سريانيَّة من منطقة تدمر خاطبه ناسخها بصفته «ملكًا». وفي برديَّة إغريقيَّة من البتراء حيث كان يقوم بدور الحكم في نزاعٍ حول ممتلكات تعود لاثنين من سكنة المدينة. وبذلك، يبدو أنَّ هؤلاء القادة العرب أصبحوا منهمكين بازدياد في شؤون الولاية التي أوكلت السلطات الإمبراطوريَّة اليهم العمل بها بصفتهم وسطاء سياسيِّين محليِّين في شؤون تلك المجتمعات المستقرَّة على أطراف الإمبراطوريَّات.

1- Procopius, History of the Wars, ed. and trans. H. B. Dewing (Loeb, 1916), 1.19.7-11. For more on Abikarib, see F. Millar, "A Syriac Codex from near Palmyra and the Ghassanid Abikarib," Hugoye 16 (2013), 15-35.

وهكذا يمكننا التحدُّث في وقت أبي كريب عن شكلٍ من أشكال الحكومات العربيَّة - الرومانيَّة والعربيَّة - الفارسيَّة. وإنَّ عددًا من السلالات استمرَّت ثلاثة أو أربعة أجيال أو أكثر، وتوضح أنَّهم يملكون سلطات سياسيَّة كافية لتأمين وراثة السلطة من جيلٍ لآخر وغرس الولاء عندهم. ولديهم القواعد بدرجات مختلفة للبقاء حيث يمكنهم خزن الثروات واستقبال السفراء وتشكيل إدارة بدائيَّة وعقد المحاكم. ولديهم جميعا أبنية منتظمة لتنفيذ المهام، وكلهم يستطيع تجنيد قوَّة عسكريَّةٍ ضخمة وهي المفتاح الجذَّاب لأسيادهم الأباطرة. فضلًا عن كونهم يملكون موارد ماليَّة متواضعة يحصلون عليها من العطايا الإمبراطوريَّة ومن الغنائم، والإتاوات من القبائل الضعيفة، وهذه تُستخدم للحصول على الولاء لهم وتوسيع الفضل والإحسان الذي يتوضَّح لنا من بناء النقوش ومجموعات القصائد الشعريَّة التي تُنظم باللغة العربيَّة، وتمدح السيِّد وتُحقِّر الأعداء، وتمجِّد الحياة البدويَّة بصورة عامَّة: الذكور يشاركون الضيوف حول موقد النار، وعلاقات الحبِّ والغرام مع نساء المخيَّمات المجاورة، وركوب الجمال السريعة عبر الصحراء، وربح المعارك وخسارتها، والدفاع عن الشرف، والكفاح البطولي دائمًا ضدَّ القضاء والقدر والزمن، والمحيط العام بهم.

إنَّ انسجام الموضوعات التي ذكرناها والمبادئ التي اعتنقوها بشكلٍ واضحٍ تعكس وتعزِّز مجموعةً من التجارِب والقيم المشتركة للعرب، فقد أسهم الشعرُ في تشكيل الهُويَّة العربيَّة الأوسع، والكيانات الهجينة التي كفلته وتبنَّته مهَّدت الطريق لقيام الإمبراطوريَّة العربيَّة لاحقًا، وذلك باستيعاب الأعراف والتقاليد لكلٍّ من العرب البدو والمستقرِّين منهم على السواء.

كانت نهضة هذه السلالات الحاكمة واشتهارها نتيجةً لتصاعد الأعمال العدائيَّة بين بيزنطة وبلاد فارس وجعلهم يلاطفون أولئك الذين يُمكنُهم تقديم المساعدة العسكريَّة، وكلَّما تكثَّف النزاع بين الإمبراطوريَّتين، قامتا بمنح القبائل الحليفة والمفضَّلة

عندها سلطات أكبر، وهذا ما قام به أوّلا الإمبراطورُ الفارسيُّ قباذ (488-531م) الذي عيَّن المنذر بن النعمان الشجاع (504-554م) زعيمًا لقبيلة لخم في الحيرة إلى الجنوب الغربيِّ من العراق، وسيِّدًا وحيدًا على القبائل الأخرى في أراضيه. ومن أجل مواجهة المنذر الذي "أجبر الدولة الرومانيَّة على الركوع على ركبتيها" لفترة نصف قرن، تجمَّعت العشائر المختلفة والموالية للبيزنطيِّين تحت زعامة الحارث بن جبلة (529-569م) بصفته زعيمًا للغساسنة الذي منحه الإمبراطور الآن لقب (ملك)، "وهو أمر لم يقم به البيزنطيُّون من قبل". لقد برزت قوَّة الحارث العسكريَّة فيما بعد في هذا القرن حينما نفى الإمبراطورُ موريس (582-602م) ابنَ الحارث، مِمَّا دفع رجاله إلى الهيجان في سوريا وشبه الجزيرة العربيَّة وإرعاب سكَّان الأرياف، «الذين هربوا إلى المدن ولا يجرؤون على الظهور خارجها» كما ذكر أحد المعاصرين، وإنَّ بعض المبالغة في ذلك[1].

كان البيزنطينيُّون والفرس يستخدمون مصطلح «ساراسين» و«الطائيَّة» لوصف البدو في شبه الجزيرة العربيَّة والأراضي الحدوديَّة للإمبراطوريَّة، في حين يستخدمون كلمة «العرب» للسكَّان المستقرِّين في الولايات العربيَّة. ومن المهمِّ أن نضع في أذهاننا أنَّ القبائل العربيَّة المختلفة القاطنة على أطراف الإمبراطوريَّتينِ لا يسمون أنفسهم «ساراسين» أو «طائيَّة»، إنَّما كانوا يشعرون في الواقع بنوعٍ من الصلة مع العرب المستقرِّين. فعلى سبيل المثال: امرؤ القيس الذي يسمُّونه الرومان «بالساراسين» يُسمِّي نفسه «ملكًا لكلِّ العرب»، ويبدو أنَّه يشير إلى السكَّان «العرب» في الولايات الرومانيَّة - العربيَّة، والفارسيَّة - العربيَّة. كان أحد الشعراء الذي وُلدَ في عصر النبي

1- **Procopius, History, 1.17.40 and 1.17.48 (Mundhir and Harith); John of Ephesus, Ecclesiastical History, trans. R. Payne Smith (Oxford, 1860), 3.42 (Harith's son's rampage).**

محمدًّ ينشد ويقول «تنادينا بالبدو (الأعراب) ولكن اسمنا العرب»[1]. تُعدُّ اللغة بكلِّ تأكيدٍ عاملًا حاسمًا في تشكيل هذه الهُويَّة الجامعة، فقد كان النبيُّ محمَّد وشارهل بن زالم متعاصرين، وكان من الأهمِّيَّة بمكانٍ أنَّ كلًّا منهما يكتب بلسانٍ عربيٍّ أصيلٍ. لقد أوضح شارهل أنَّه يتفانى من أجل الشهادة التي يدفع ثمنها الكتابة باللغة العربيَّة وكذلك باللغة اليونانيَّة، وأنَّه أوَّل شخصيَّة يعمل ذلك كما نعلم. وأكَّد النبيُّ محمَّد أنَّ الوحي الذي نزل عليه من الله عزَّ وجلَّ كان «بلسانٍ عربيٍّ»، وبذلك كان أوَّل نبيٍّ يستخدم اللغة العربيَّة[2]. وأكَّد أنَّ الوحي لا يمكن أن ينزل بلسانٍ أجنبيٍّ «أعجمي»: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (الزخرف: 3؛ يوسف:2)، «وكذلك: «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» (الشورى:7؛ الأنعام:92). فمن الواضح إذن أنَّ سكَّان غرب شبه الجزيرة العربيَّة كانوا يتحدَّثون اللغة العربيَّة، وأسهموا إلى حدٍّ ما في تبلور هذه الهُويَّة العربيَّة الجديدة، بل تفاعلوا مع جيرانهم في الشمال بولاية العربيَّة البيزنطيَّة لقرون متعدِّدة، وإن كان الكثير من ذلك التفاعل يتم من موقع أدنى، إلَّا أنَّهم سيلعبون دورًا رئيسًا في القرن السابع الميلاديِّ، وينجحون بالحصول على مساندة الكثير من سكَّان بيزنطة وسكَّان الولاية العربيَّة الفارسيَّة (العراق)، ليسهموا في تشكيل الهُويَّة العربيَّة المشتركة واللسان العربيِّ.

1- ذُكرت ونُوقشت في دراسة ت. الخالدي المعنونة: "الشعر والهُويَّة في العصر الأمويّ"، الأبحاث 50-51 (2002-2003)، 81. إنَّ مصطلح البدو هنا يعني "أعراب" الذي استخدمه القرآن أيضًا، ومن الواضح أنَّه يرتبط بقوَّة مع مصطلح "العرب". وكما أوضحنا أنَّ أمرئ القيس ربَّما ذكر أنَّه ملك منطقة جغرافية تُعرف "العرب"، ولكن كلا المصطلحين لا يمكن الفصل بينهما: فالسكَّان العرب (ولاية عربية) سيُعرفون بالعرب "عرابيا" ؛ للاطلاع أكثر، انظر:

J. B. Segal, "Arabs in Syriac Literature," Jerusalem Studies in Arabic and Islam 4 (1984), 99-101.

2- لقد ذُكر أنَّ مصطلح "عرب" في القرآن يُطلق عمومًا على اللغة فقط وليس على السكَّان، ولكنَّ اللغة تعدُّ على الدوام واجهةً أساسيَّةً للهُويَّة الإنسانيَّة وتربطنا إلى مجموعة أوسع؛ لأنَّ استخدامها في القرآن له معنى كبير، ويفترض مسبقًا وجود مجتمع يتحدَّث تلك اللغة.

أزمة منتصف القرن السادس الميلاديّ وانحلال الإمبراطوريّة

إنَّ نهضة شعوب الأطراف هذه ترتبط على الأرجح - ولو جزئيًّا على الأقلّ - بتدهور مكانة الإمبراطوريّات البيزنطيّة والفارسيّة والصينيّة في القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين، الذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن السادس الميلاديّ. وهذا يعني أنّنا يجب أن نعدَّ الفتوحات العربيّة محصلةً نهائيّةً لهذا التدهور أكثر منه سببًا لها[1]. فقد لاحظ المعاصرون أنَّ هناك شعورًا يؤكد أنَّ الأمور آخذة بالتدهور، لقد «كان وقتا»، كما يروي أحد الشهود على غارة الافار على القسطنطينيّة في عام 619م: "حينما كانت الأمور تسير بشكل جيد لنا، ولا توجد حرب تخيفنا، ولكن ذروة ازدهارنا، كما يقولون، قد تغيّرت نتيجة إهمالنا، وصعدت من زلاتنا، مِمَّا جعلنا غير قادرين على المحافظة على ثرواتنا الضخمة وغير الناضبة". وبعد أقلّ من عقدٍ من السنين أكد تاجرٌ يهوديٌّ من فلسطين تلك النظرة خلال رحلة تجارية له بقرطاج: «كانت أراضي الرومان تمتدُّ في العادة حتّى وقتنا الحاضر من المحيط، أي من سكوتيا، بريطانيا، إسبانيا، فرنسا، إيطاليا، اليونان، وثراسيا، وبعيدًا حتّى أنطاكيا، وسوريا، وبلاد فارس، والشرق كله، مصر، أفريقيا، وحتى دواخلها... ولكن الآن نرى روما ذليلةً» [2].

وعلى الرغم من أنَّ الباحثين على حقٍّ في كرههم من الناحية السياسيّة استخدام مصطلح «انحلال» المُحمَّل بالقيم، فإنَّ الإدراك بالانكماش والتقلُّص الذي ذكره المعاصرون تؤيِّده الأدلَّة بالفعل كما يبدو. فعدد من الكيانات الصغيرة مثل جورجيا

1- CF. Halsall, Barbarian Migration, 34:
"ولذلك، كانت الهجرة البربريّة نتيجةً لنهاية الإمبراطوريّة الرومانيّة، وليس العكس".

2- For these last two quotations, see Palmer, Seventh Century, xiv.

وإثيوبيا التي ما زالت مزدهرةً في مطلع القرن السادس الميلاديّ بدأت تهتزُّ وتنحدر نحو الركود عند نهاية القرن. وأصبحت مملكة سبأ القديمة في اليمن ضعيفةً على الرغم من تاريخها الطويل لألف سنة ونصف، وأصبحت دولة ألعوبة بيد إثيوبيا أوّلا، ثمَّ بيد بلاد فارس. وتعرَّضت بقيَّة مناطق شبه الجزيرة العربيَّة إلى التدهور: فالتجارة في مدن الموانئ العربيَّة المطلَّة على الخليج الفارسي التي ازدهرت كثيرًا في العصر الهلنستيّ والفترة الرومانيَّة تضاءلت في القرنين الخامس والسادس الميلاديِّين، ولم نجد في واحات الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربيَّة وأماكن الحجّ أيَّ نقشٍ أو نصٍّ مكتوبٍ بأيِّ لغةٍ كانت يعودانِ إلى القرن السادس الميلاديّ عدا بعض الكتابات التقليديَّة المنقوشة التي تعود لأكثر من ألفِ عامٍ، فضلًا عن الأراضي الغنيَّة بإنتاج زيت الزيتون في شمال سوريا التي أظهرت انخفاضًا حادًّا في نقوش المباني والنشاط الاقتصاديّ في أواخر القرن السادس الميلاديّ[1].

أما بالنسبة إلى المعاصرين المعتنين بتلك الفترة؛ فهناك عاملان رئيسيان مسؤولان عن هذا التدهور: نوبات الطاعون الدبلي المتكرِّرة التي بدأت في عام 542م، التي «قضت على كلِّ العنصر البشريّ تقريبًا»، وتزايد المواجهات العسكريَّة بين البيزنطيِّين والفرس وتكثيفها. ومثلما ذكر أحد المؤرِّخين في عام 580م: "فالأمم قد أُزيلت، واستُعبدت المدن، واستُئصل السكَّان وأصبحوا نازحين، وهكذا أصبحت البشريَّة كلّها متورِّطة في هذا الجَيَشَانِ". كان لهاتين الظاهرتين تأثيرٌ أكثر إحباطًا في السكَّان، وبدوره أثَّر في الاقتصاد الذي كان حسَّاسًا جدًّا للتقلُّبات السكَّانيَّة، فضلًا عن

1- K.W. Butzer, "The Rise and Fall of Axum, Ethiopia," American Antiquity 46 (1981); D. Kennet, "On the Eve of Islam: Archaeological Evidence from East Arabia," Antiquity 79 (2005); J. Schiettecatte on "Shabwa, Marib et San'a" and R. Eichmann on "Tayma" in C. Robin and J. Schiettecatte, eds., L'Arabie à la veille de l'Islam (Paris, 2008); C. Foss, "Syria in Transition AD 550 -750," Dumbarton Oaks Papers 51 (1997).

كارثةٍ بيئيَّةٍ قد حلَّت في فترة الركود، كما يفترض بعضهم في منتصف القرن السادس الميلاديِّ. فكتَّاب الحوليَّات من آيرلندا إلى الصين يذكرون فترات فشل إنتاج المحاصيل، وفترات البرد غير الطبيعية، وفترات طويلة لغياب الشمس في المدَّة 536-537م، ويُعزى ذلك إلى الغيوم الناتِجة من الانفجارات البركانيَّة أو اصطدام النيازك بالأرض. إنَّ انكماشًا جوهريًّا ودائمًا في إنتاج المحاصيل الزراعية لا بدَّ أن يقود إلى عدم استقرارٍ اجتماعيٍّ واسع النطاق، وبإمكاننا رؤية ذلك بوصفه سببًا نهائيًّا في هيجان نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديَّين وتغيُّراتهما، بل تستفز الإمبراطوريَّات وسكَّان السهوب أيضًا للقتال من أجل الموارد الآيلة للنضوب. إنَّ الكثير من المؤرِّخين المحدثين الذين يعون هذه الآراء لا يُدركون أهمِّيَّة العلم هنا من ناحية، ويركِّزون بصورةٍ مبدئيَّةٍ على الأفعال البشريَّة أكثر من العوامل البيئيَّة من ناحيةٍ أخرى. ومن الطبيعي، فإنَّ البشريَّة يمكن أن تؤثِّر في مصيرها بالطريقة التي تستيجب بها حتى حين تقع الكارثة؛ والشيء المؤكد هنا أنَّ خيار القوَّتين العظميين في الشرق الأوسط بالانهماك في حروبٍ طويلة الأمد كان يُمثِّل استجابةً خاطئةً[1].

ومهما كان السبب، فمن الواضح أنَّ الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة فشلتا في مراقبة سكَّان السهوب ضمن حدودها أو خارجها في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديَّين. فالأتراك والآفار والعرب كان بإمكانهم جميعًا التجاوز على ممتلكات الإمبراطوريَّتين بمرور الوقت في هذه المدَّة. ويمكن القول نفسه بالنسبة إلى الصين، حيث سقطت أسرة ويي Wei في عام 534م، وبعد عقودٍ لاحقةٍ من القتال

1- هذان الاقتباسان من بروكوبيوس وأغاثياس على التوالي، واقتبسناهما من Palmer, Seventh Century, xvii-xviii.. ويجادل .A.Korotaev et al، في بحثه المعنون Origins of Islam, ActaOrientalia (Hungry) 52 (1999) أنَّ هناك عوامل اجتماعيَّة وبيئيَّة وراء نهضة الإسلام؛ لكنَّ A.Walmsley يُفضِّل في بحثه "Economic Developments and the Nature of Settlement." Dumbarton Oaks Papers 61 (2007)، تأكيد الاستمراريَّة من القرن السادس حتَّى القرن الثامن الميلاديَّين.

تقلّص نفوذها إلى حدٍّ ما خلال حكم أسرة سوي Sui (589-618م)، وأصبح ذلك القتال تحت السيطرة حينما أسّست أسرة تانج Tang حُكمَها بزعامة الإمبراطور كاوزو Gaozu (618-626م). وعانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة أكثر من ذلك؛ لأنَّ عاصمتها سلوقيا - طيسفون قريبةٌ بشكلٍ خطرٍ من أراضي السهول، والصحارى والجبال الواقعة ضمن أراضيها تساعدُ على إقامة الحكم الذاتي في الأقاليم، وبذلك تقلّص من السلطة المركزية هناك. وإنَّ الهزيمة المخزية على يد الإمبراطور هرقل وما تبعها من حربٍ أهليَّةٍ أضعفت قدرة النظام بقوَّة للاستجابة حينما اجتاح العرب أراضيها، في حين كانت عاصمتا الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والصينيَّة - من جهةٍ أخرى - بعيدتينِ جدًّا عن مناطق السهول ومحصَّنتين بشكلٍ كبيرٍ، والإمبراطوريَّتانِ أنفسهما تحيطُ بهما مساحات من المياه الواسعة (كالبحر الأبيض المتوسُّط والبحر الأصفر وأنهار اليانغستي على التوالي)، والمترابطة بصورة جيِّدة ومعقولة. وهذا يعني أنَّهم على الرغم من معاناتهم من الهزائم على أيدي المغيرين من السهول، فإنَّهم قادرون على استيعاب العاصفة. فالأتراك والآفار كانت لديهم طموحاتهم الواضحة للتغلغل أكثر في أراضي الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة، ولكنَّهم كانوا يأتون لهما من الجهات الشماليَّة والشرقيَّة الصعبة، حيث يواجهون عقباتٍ طبيعيَّة حقيقيَّة، أو حتَّى من صنع الإنسان، بينما كان العرب يجاورون الحدود الجنوبيَّة المنبسطة والسهلة للإمبراطوريَّتين مباشرة، وفي النهاية، هم الذين انتصروا في هذه اللعبة الكبرى للقرن السابع الميلادي.

الفصل الثاني

المعارك الأولى (630 ـ 640م)

انتهت تلك الحروب القاسية في صيف عام 628م بين الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة التي بدأت منذ ربع قرنٍ كاملٍ مضى، وبمرور هذه السنوات فقد الآلاف حياتهم، وتحطَّم رزق الكثير منهم، واجتِيحت الكثير من المدن. ونتيجة لذلك، عانت الجيوش الإمبراطوريَّة من خسائر فادحة، وتعرَّضت لغارات مجموعات مختلفة القبائل ومن بينها العربيَّة التي أصبحت متوطِّنةً الآن في المناطق الهامشيَّة من تلك الإمبراطوريَّات. ويفترضُ المراقبون المعاصرون لتلك الأحداث، بل يدركون جيِّدًا أنَّ مثل تلك الدول القديمة لديها الموارد والبنية التنظيميَّة لإعادة فرض إرادتها، أمَّا البيزنطيُّون؛ فبإمكانهم الشعور على الأقلِّ بالشجاعة والانتصار بفضل المساندة الإلهيَّة، وإحلال السلام وإعادة إصلاح دفاعاتهم وفرض الأمن مرة أخرى. ومن ناحية أخرى، كانت بلاد فارس تعاني من هزيمة عرجاء على يدي الإمبراطور هرقل والأتراك، والكثير من النبلاء المحليين المعادين علانيةً للعائلة الحاكمة، مِمَّا جعلهم يجلبون العارَ والدمارَ لهم ولأُمَّتهم. فقد اغتالوا خسرو/ كسرى الثاني الذي بدأ مؤخَّرًا حملةً

فاشلةً ضدَّ بيزنطة، مِمَّا أشَّر فترةً من إراقة الدماء والنزاع. وتقاتل مختلف المرشحون؛ للسيطرة على الدولة، ومن بينهم ابنة خسرو/ كسرى الثاني، ولكنَّ أغلبهم حكم لمدَّة قصيرة وفرض سلطته على جزءٍ من المملكة. ولم تُحلّ أزمة وراثة العرش إلَّا في الفترة 632–633م، حينما اعتلى العرش حفيد خسرو/ كسرى الثاني المدعو يزدجرد، وإن بقيت الأراضي الفارسيَّة عرضةً بشكلٍ خطيرٍ للغزاة الأقوياء.

بدأت بعض القبائل العربيَّة القاطنة على الحدود الشماليَّة لشبه الجزيرة العربيَّة باختبار إرادة الفرس للدفاع عن حدودهم الجنوبيَّة بشنِّ غاراتٍ استكشافيَّة، إلَّا أنَّ التهديد الأكثر خطورةً كان يأتي من بلاد القوقاز حينما اغتنم الخاقان التركيُّ الفرصة في عام 629م بقيادة جيشٍ ضخمٍ "نشر الخوف والرعب على وجه الأرض". لقد بدأ بتدمير المملكة القوقازيَّة في ألبانيا، ثمَّ توجَّه غربًا نحو أرمينيا حينما عرف أنَّ أحد قادة خسرو يسير لمواجهته. كان هذا التحوُّل في صالح القائد المشهور شاهربراز الذي أحرز انتصاراتٍ متعدِّدةً على البيزنطيِّين في العقدين الماضيين، وتولَّى قيادةَ وحدة من الخيَّالة العرب وأرسل إليه عشرة آلاف من الرجال «ليدوس الأتراك تحت حوافر الخيول وعلى صدورهم، وتمزيقهم كالغبار المتطاير مع الريح»، بيد أنَّ الأتراك أعدُّوا كمينًا لهم، فبينما تظاهر قسمٌ منهم بالهروب مِمَّا جعل الوحدة الفارسيَّة تلاحقهم، هاجمَ القسمُ الآخر الفرس من الخلف ومن الجانبين وقتلهم جميعًا. وهنا نظر الأتراك إلى بلاد فارس لإضافتها الآن إلى مكتسباتهم الرائعة. ومع ذلك لم يكن «المرجل الشمال إلَّا أن يدير وجهه ضدَّ أبنائه أنفسهم»، فقد اندلع نزاعٌ مميتٌ؛ من أجل السلطة في رأس الدولة، فقد قُتِلَ الخاقان نفسه، وانفجر الاتحاد التركيُّ من الداخل، وبذلك بدَّد الأتراك الفرصة وأصبح الطريق مفتوحًا الآن للجيوش القادمة من شبه الجزيرة العربية(1).

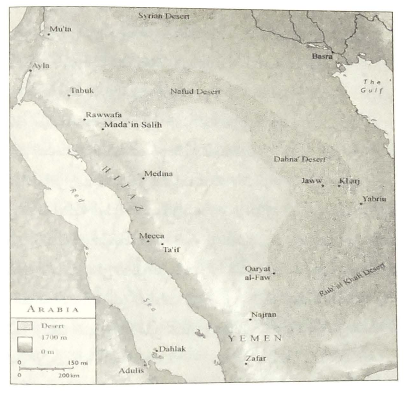
1- History of the Caucasian Albanians, 2.14-16.
قارن بين ملاحظات المراقب الصينيِّ: "لم يكن البرابرة الغربيُّون (أي الأتراك) أقوياء جدًّا" : Chavannes, 24-26.
ألبانيا هي الصيغة اللاتينيَّة والإغريقيَّة لتسمية محليَّة التي يمكن ردُّها بالفارسيَّة والعربيَّة إلى ران/ أران. Ran/Arran.

شبه الجزيرة العربية (الخارطة 2.1)

قد تبدو الأرض العربيَّة غير جاذبة للفاتحين من بقيَّة بلدان العالم؛ لأنَّ المسافات البعيدة والصحارى الشاسعة جعلت منها مقسَّمة على ممالك صغيرة وزعامات سريعة الزوال ومجتمعات معزولة في واحات ولقرونٍ متعدِّدة، ولكن بدأ التغيُّر في نحو عام 300م حينما استطاعت مملكة حِمير الواقعة إلى الجنوب الغربي من اليمن اخضاعَ الإماراتِ المختلفةَ حولها لتُصبح القوَّة المسيطرة في جنوب شبه الجزيرة العربيَّة. واتخذ قادتها قرارات لاثنين من السياسات الدراماتيكيَّة، الأولى: القطيعة مع الماضي ورفض عبادة الآلهة الوثنيَّة القديمة والتحوُّل نحو عقيدة التوحيد Monotheism، ولم نعثر على أيَّة نقوشٍ وثنيَّةٍ بعد عام 380م، والوصول إلى نهاية مفاجئة لعبادة تعدُّد الآلهة بين النخبة الحاكمة على الأقلِّ التي استمرَّت لألفٍ وثلاثمئة سنة. ويبدو أنَّ اليهوديَّة كانت الديانة المفضَّلة بين العبادات الواحديَّة، وإن كان بعضهم يُفضِّل المسيحيَّة، ولا سيَّما أولئك الذين كانوا على اتصالٍ وثيقٍ بإثيوبيا/ الحبشة على الجهة الأخرى من البحر الأحمر.

والسياسة الثانية: استخدام الموارد المختلفة لمملكتهم؛ للتوسُّع شمالًا، ونجحوا في إخضاع عدَّة قبائل عربيَّة في وسط شبه الجزيرة العربيَّة وشمالها تحت سلطتهم. وأيضًا استخدمت الفتوحات لمعاقبة بعضهم كما ذُكر في بعض فِقْرات الانتصارات الواردة في عددٍ من النقوش الملكيَّة، وإقناع الآخرين بالمساعدات والألقاب. ففي القرن الخامس الميلاديِّ - على سبيل المثال لا الحصر - حينما حصل شيخُ قبيلةِ كندة على وسام لمساندته العسكريَّة المخلصة لمملكة حِمْير أقام

احتفالًا للافتخار بهذا الشرف، وذلك بحفر اسمه على حجر باللهجة العربيَّة الجنوبيَّة، ملقِّبًا نفسه بلقب «ملك كندة»، وأصبح هو وذريَّته أقوياء جدًّا حتى جذبوا انتباه بيزنطة وبلاد فارس الذين تنافس كلٌّ منهم لكسبه إلى جانبه[1].



خارطة رقم 2. 1
شبه الجزيرة العربيَّة

1- فيما يتعلَّق بنقش كندة، وحِمْير، واليهوديَّة، انظر:

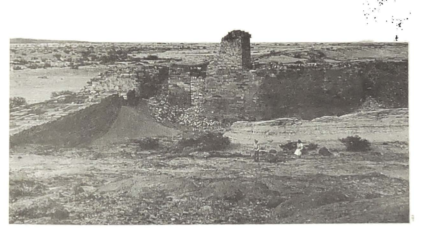
C. Robin, "Les rois de Kinda" in A. al-Helabi et al. 2.eds. Arabia, Greece and Byzantium (Riyadh, 2012), and his "Himyar et Israël," Compte rendu de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres 148 (2004).

ومع ذلك، واجهت نهضةُ مملكة حِمْير تحديًا من مملكة الحبشة المسيحيَّة التي غزت اليمن بحجَّة الدفاع عن المسيحيِّين هناك؛ لاضطهادهم من إحدى الأُسر الحِميريَّة الحاكمة التي تدين باليهوديَّة في الغالب. وبذلك، أنجزت انتصارًا رائعًا في تلك المغامرة وأدخلت شبه الجزيرة العربيَّة تحت الوصاية الحبشيَّة لفترة نصف قرن من الزمن (525-572م). كانت معظم تلك الفترة تحت حكم قائدٍ عسكريٍّ وإمبراطورٍ يُسمَّى إبرهة (الحبشي) (535-565م)، الذي كان يتوق ليُسمِّي نفسه ملكًا لحِمْير(صورة 2. 1) وتبنِّي كل الألقاب الشرفيَّة والبيانات الرسميَّة باللغة المحليَّة الرفيعة. وحافظ أيضًا، بل وسَّع من سيطرته على جنوب الجزيرة العربيَّة إلى أراضيها في الشمال، وسُجِّل ذلك في عددٍ من النقوش التي تفاخرت مطوَّلًا بانتصاراته. ويخبرنا



صورة رقم 2.1
نقشٌ صخريٌّ بارزٌ من العاصمة الحِميريَّة ظفار باليمن تُصوِّرُ الملك الحميري مع التاج والصولجان، نحو القرن الخامس - السادس الميلاديِّين. بول ييل

في أحد نصوصه المتأخرة من خمسينيَّات القرن السادس الميلاديِّ أنَّه يسيطر الآن على مدنٍ في عمق شبه الجزيرة العربيَّة ومن بينها المدينة (يثرب القديمة)، وأنَّه طردَ أمير قبيلة لخم إلى مضاربه في الحيرة في الجنوب الغربيِّ من العراق. ومن أشهر نصوصه الذي يحتفل بإصلاح سدِّ مأرب (صورة 2.2) وترسيم أسقفٍ لكنيسة المدينة نفسها في عام 548م، وهذا يُعبِّر عن نفوذٍ سياسيٍّ حقيقيٍّ ويسجل كيفيَّة وصول رُسلٍ من الحبشة وبيزنطة وبلاد فارس ومبعوثي ثلاث دول عربيَّة تابعةٍ له لتقديم الاحترام له.



صورة رقم 2.2
سد مأرب، عاصمة سبأ/ شبوة باليمن، فتحة تصريف المياه الشماليَّة.
المؤسَّسة الأمريكيَّة لدراسة الإنسان.

لم تستمر مملكة إبرهة الحبشيِّ في شبه الجزيرة العربيَّة طويلًا، فأولاده لم يستطيعوا المحافظة على انتصاراتِ أبيهم، ولم يحكموا سوى سنوات قليلة. فقد وصل إلى الحكم أميرٌ حِمْيريٌّ محلِّيٌّ بمساندةِ من الفرس، قتله الأحباشُ الساخطون

عليه، عندئذٍ قرَّر الفرس فرضَ الحكم المباشر هناك، وهذا حدث في وقتٍ ما من سبعينيَّات القرن السادس الميلاديِّ، وكان ذلك نذيرًا بنهاية الحضارة العربيَّة الجنوبيَّة التي ازدهرت لأكثر من ألف عامٍ وربع قرن. فمن المسلَّم به أنَّ نصف قرن من السيطرة الحبشيَّة تبعها نصف قرن آخر من سيطرة الفرس كان لهما تأثيراتٌ مضرَّة بالحضارة اليمنيَّة القديمة، وعلى الرغم من أنَّ اليمن كان يجهِّز الجيوش العربيَّة بأعدادٍ كبيرةٍ من الجند، فإنَّ قليلًا جدًّا من تراثها العريق في الأدب والتاريخ أصبح جزءًا من الرؤية العالميَّة للإسلام سوى بعض الذكريات البسيطة[1]. ولم يمضِ الوقت الطويل بعد استيلاء الفرس على جنوب الجزيرة العربيَّة في عام 582م، حتَّى تخلَّص الإمبراطور البيزنطيُّ موريس من قبيلة الغساسنة بصفتها حليفًا إمبراطوريًّا ونفى زعيمها، وهذا ترك المسرح لعقدينِ من الزمن خاليًا لقبيلة لخم القاطنة في جنوب العراق، التي سعى زعيمها لفرض سلطته بعيدًا حتَّى غرب شبه الجزيرة العربيَّة، ويبدو أنَّه حقَّق بعض النجاح، حيث وصفته المصادر المسيحيَّة الشرقيَّة «بملك كلِّ العرب في الإمبراطوريَّتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة»[2]. ومع ذلك، فإنَّ تحوُّلَه من الوثنيَّة إلى الديانة المسيحيَّة في عام 594م جعلته في موضع شكٍّ من أسياده الفرس، خصوصًا حينما فكَّر الإمبراطور خسرو/ كسرىٰ الثاني بشنِّ حربٍ شاملةٍ على بيزنطة، فدسَّ السمَّ لزعيم لخم وتخلَّص منه ثمَّ عيَّنَ حاكمًا فارسيًّا ليواصل مراقبة العرب. وبذلك ادَّعت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة السيطرة على كلِّ الأرض العربيَّة، ولكن من غير المناسب القول بذلك؛ لأنَّهم لم يسيطروا بشكلٍ كاملٍ إلَّا على الرأس الجنوبيِّ الغربيِّ والسواحل الشرقيَّة منها، وحتَّى

1- إنَّ السلالات الثمانية عشرة من حِمير المذكورة في النقوش المعاصرة، على سبيل المثال، قد ضُغطت في سلالةٍ واحدةٍ كما ورد في كتب التاريخ الإسلاميَّة عن اليمن ما قبل الإسلام. وربَّما قد عملت النظرة اليهوديَّة - المسيحيَّة الشاملة على تآكل التقاليد المحلِّيَّة لصالح شعوبٍ أخرى أيضًا، فبالنسبة إلى المصريِّين لا يملكون ذاكرةً حقيقيَّةً عن تاريخهم الوثنيِّ في القرن السابع الميلاديِّ عدا ما ذكره الإنجيل حول ذلك.

2- Chronicle of Siirt, 469 (ch. 61).

هذه السيطرة قد تكون ضعيفةً إلى حدٍّ ما إذا أخذنا بالحسبانِ أنَّ الكثير من الموارد الفارسيَّة كانت مقيَّدةً بالحرب ضدَّ بيزنطة.

إنَّ مصادرنا المعاصرة ولسوء الحظِّ لا تمدُّنا بمعلوماتٍ في الغالب عن شبه الجزيرة العربيَّة كلِّها في هذين العقدين العصيبين. ويرى المؤرِّخونَ المسلمونَ المتأخِّرونَ أنَّ في غياب أيِّ إشرافٍ سياسيٍّ من الدول المجاورة جعل بعض القادة المحلِّيِّين يتحرَّكون لملءِ الفراغ. ومنذ أن بِنية السلطة السياسيَّة قد تحطَّمت، فإنَّ هؤلاء القادة لم يكونوا من القادة التقليديِّين في السلطة، بل ادعوا بالسلطة استنادًا إلى دوافع دينيَّة، وأصرُّوا أنَّ الله قد دعاهم لذلك لحكم شعوبهم، وقدَّموا أنفسهم قادةً وأنبياء موحِّدين، وتخلَّوا عن التوسُّل بالآلهة الوثنيَّة[1]، ويُفترض أنَّهم تأثَّروا بالنماذج المسيحيَّة واليهوديَّة الكثيرة التي أُسِّست بصورةٍ جيدةٍ في شبه الجزيرة العربيَّة في هذا الوقت. وليس مستغربًا أنَّ واحدًا من هؤلاء القادة الأنبياء الذي بدأنا نسمعُ عنه بشكلٍ خاصٍّ في المصادر الإسلاميَّة المتأخِّرة يُدعى «محمد (بن عبد الله)» الذي اتخذَ من مكَّة في الوسط الغربيِّ من شبه الجزيرة العربيَّة قاعدةً له، وإن لم يكن معروفًا لدى العالم الخارجيِّ حتَّى بعد وفاته، ولذلك لا توجدُ لدينا مصادر خارجيَّة تتحدَّث عن حياته، وإذا ما تركنا النزعات المقدَّسة للمؤرِّخين المسلمين المتأخِّرين، نجد أنفسنا مضطرِّين للاعتماد على ما نستدلُّ عليه من التعاليم الدينيَّة المقدَّسة في القرآن الكريم. تذكر هذه التعاليم أنَّ النبيَّ محمدًا طلب من أصحابه الالتزام بالعقيدة التوحيديَّة الحقَّة التي أتى بها جدُّه نبيُّ الله إبراهيم، وحاول في البداية نشر رسالته بالتبشير وحده، لكنَّه قُوبل بالرفض والعداء من أغلب سكَّان مكَّة، مِمَّا أجبره على اللجوء إلى «الهجرة» إلى

1- مثل مسيلمة، طليحة، أسود، سجاح، لاقط وابن سياد. انظر:

A. Makin, Reconstructing the Enemy: Musaylima in Muslim Literature (Frankfurt-am-Main, 2010); C. Robin, "Les signes de la prophétie en Arabie," in S. Georgoudi et al. eds., La Raison des Signes (Leiden, 2012).

«المدينة» الواحة المجاورة. ولذلك قرَّر أنَّ وقت التبشير السلميِّ قد انتهى الآن، وأنَّ الوقت قد حان لاستخدام القوَّة، لما يعتقد أنَّها إرادة الله. وتوصَّل إلى اتفاقٍ (بيعة العقبة الأولى: المترجِم) مع عددٍ من المجموعات في المدينة لخلق مجتمعٍ واحدٍ (أمَّة) تكرِّس جهودها للقتال في سبيل الله (الجهاد في سبيل الله)، أي الدعوة لله عزَّ وجلَّ ضدَّ أعدائه من الكفَّار. وأعلنوا إخلاصهم لهذه الاتفاقيَّة وأنَّهم ملتزمون للمشاركة في جهود الحرب والوقوف إلى جانب أعضاء الأمَّة الآخرين دون غيرهم.

وبعد أن أسَّس النبيُّ محمَّد دولته في المدينة عام 622م شنَّ عددًا من الغارات ضدَّ القبائل والقرى المجاورة؛ بهدف انخراطها في رسالته، فضلًا عن مواصلة محاولاته للضغط على المكيِّين، ونجح في النهاية بتحقيقِ هدفه سواء بالحرب أم بالدبلوماسية في عام 628م. وختم تلك المحاولات بالزواج من ابنة أبي سفيان بن حرب الذي كان واحدًا من أقوى رجالات قريش، قبيلة النبيِّ محمَّد. وبعد تعزيز التحالف بين المكيِّين وأهل المدينة، توجَّه النبيُّ لضمِّ الواحة الخصبة الطائف التي كانت تحت سيطرة قبيلة ثقيف إلى تحالفه، وبذلك فهي ثالث مدينة تنضمُّ إليه. لقد أنجز ذلك الحلف في عام 630م، وبذلك أصبحت هذه المدن الثلاثة والقبائل المتحالفة معها تشكِّل قوَّةً قتاليةً ضخمةً، وإن كان من الصعوبة التأكُّد من نيَّات النبيِّ محمَّد في هذه الحالة. ويفترض المؤرِّخونَ المسلمونَ المتأخِّرون - ومن يؤيِّدهم من المؤرِّخين المحدثين - أنَّ النبيَّ كان يعتزم منذ البداية نشر الإسلام عالميًّا، ولكن من غير المحتمل بطبيعته أن يتوقَّع نشر رسالته إلى هذا الحدِّ آنذاك. ومن المؤكَّد أنَّ القرآن الكريم يذكر أنَّ النبيَّ محمَّدًا كانت لديه أهداف محليَّة كثيرة. فقد أمره الله «**لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى** (مكة) **وَمَنْ حَوْلَهَا**» (الشورى:7؛ الأنعام:92)، وأنزل عليه «**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**» (يوسف: 2؛ الزخرف: 3)، واعتمادًا على المبدأ العام لله «**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**...» (إبراهيم: 4) ولذلك، كان هدف النبيِّ منذ البداية وعلى الأقلِّ التوجُّه لأنصاره الذين

ينطقون اللغة العربيَّة في المنطقة المحيطة به. ومع ذلك، كان يدرك أن هدفه العالم الأوسع: لقد توجَّه أتباعه أصلا بصلاتهم نحو القدس، حيث كان يعلم أنَّها قبلة الموحِّدين الأولى، لربَّما وبعد أن جذب الكثير من المقاتلين إلى رسالته فإنَّه هدف الآن لتحقيق حلمه الذي طالما علق بذهنه[1]. وسواء كان حقيقة أم لا، فقد وجَّه حلف النبيِّ جهوده نحو الشمال، وأخضع الواحات المجاورة فدك وخيبر في عام 628م، ولكنَّهم الآن توجَّهوا إلى الشمال الأبعد؛ لتحدِّي الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة مباشرةً.

وبينما وجَّه النبيُّ محمَّد هذه الحملة نحو الشمال في عام 630م، أرسل رسله إلى بقيَّة المناطق في شبه الجزيرة العربيَّة يدعوهم للإسلام والمشاركة في جيشه. ويميل المؤرِّخون المسلمون في العصور الوسطى إلى تعظيم إنجازات نبيِّهم من جهة، وكانوا يصرُّون على تنظيم مصادر مادَّتهم التاريخيَّة بادعائهم بنجاح أولئك الرسل سواء بالطرق الدبلوماسيَّة أم الحربيَّة، وإخضاع شبه الجزيرة العربيَّة كلِّها للحكم الإسلاميِّ قبيل وفاة النبيِّ محمَّدٍ في شهر حزيران عام 632م، ولكنَّ بعض القبائل ارتدَّت وتراجعت، إلَّا أنَّها أُجبرت على العودة إلى الإسلام في زمن الخليفة الأوَّل أبي بكر. لقد تطلَّب تمرُّد القبائل العربيَّة (بالعربية: ردَّة) سنةً على الأقلِّ لسحقه (632-633م)، ويرى أولئك المؤرِّخون أنَّه في ذلك الوقت فقط أصبح من الممكن البدء بالفتوحات العربيَّة، أي في السنة الثانية عشرة من عصر الرسالة (633-634م). وللمرء أن يتصوَّر كيف بدأت قبائل الجنوب الغربيِّ من شبه الجزيرة العربيَّة بالمشاركة في هذه الحركة الجديدة في حياة النبيِّ محمَّد ولا سيَّما بعد رؤيتهم كيف كان نجاحها، وإن كان شرق الجزيرة العربيَّة معزولًا عن غربها بصحارى شاسعة قاحلة ومن بينها الصحراء المسماة بالربع الخالي. وعلى أيَّة حال - وكما سنرى لاحقًا - فإنَّ قبائلها قد بدأت أصلا بشنِّ

1- عن المناقشات الأخيرة حول هذا الرأي، انظر:

see S. J. Shoemaker, Death of a Prophet (Philadelphia, PA, (2012), ch. 4.

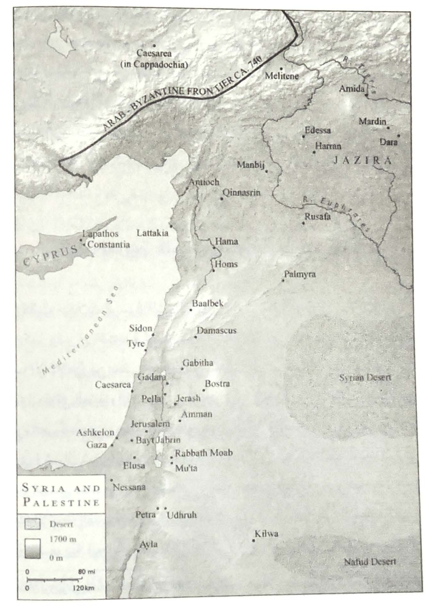
غاراتها على بلاد فارس. إذن، من المرجح أنَّ معظم شبه الجزيرة العربيَّة الواقعة خارج غربها لم تكن خاضعةً لسيطرة القوى الإسلاميَّة عند وفاة النبيِّ محمَّد. ولذلك، لم تكن مهمَّة الخليفة أبي بكر إعادة فتح شبه الجزيرة العربيَّة، بل وببساطة فتحها أصلًا، أو على الأقلِّ جلبها لصالح الديانة الجديدة. وربَّما لم يتمكَّن من إنجاز ذلك تمامًا، وبالاستناد إلى الحوليَّات الأرمنيَّة المعاصرة، فإنَّ العرب بعد انتهائهم من غزو سوريا والعراق، تمكنوا «من التغلغل بجيوشهم الضخمة في الحدود» الأصلية "من بلاد إسماعيل"[1].

بيزنطة العربيَّة: فلسطين وسوريا (خارطة رقم 2.2)

كانت حملات الرسول الشماليَّة في ولاية بيزنطة العربيَّة في عام 630م قد خُطِّطَ لها - كما يبدو - استجابةً لمعلومات استطلاعيَّة عن التحضيرات العسكريَّة ضدَّ الحلف الإسلاميِّ من بعض القبائل العربيَّة المؤيِّدة لبيزنطة[2]. ولذلك، قاد خالد بن الوليد، المقاتل العنيد والصلب، كتيبةً نحو دومة الجندل في الشمال الغربيِّ من شبه الجزيرة العربيَّة، وهي محطَّة مهمَّة على طريق التجارة الصحراويِّ الرابط بين الجنوب السوريِّ وشمال شبه الجزيرة العربيَّة، بينما قاد النبيُّ محمَّد بنفسه القسم الرئيس من الجند والمسير مباشرة نحو الشمال، فاجتاز مدائن صالح وهي العاصمة الجنوبيَّة لمملكة الأنباط القديمة، ووصل إلى تبوك، الواحة الواقعة الى الشمال الغربيِّ من العربيَّة السعوديَّة الحاليَّة. فلم تكن هناك حدود طبيعيَّة بين شبه الجزيرة العربيَّة

1- وبما أنَّ يوزيبوس يتحدَّث آنذاك عن شنِّ غاراتٍ بحريَّة ضدَّ بلاد فارس، قد يعني شرق الجزيرة العربيَّة هنا. إنَّ "إسماعيل" و"الإسماعيليين" تُستخدم من المؤلِّفين المسيحيِّين في الغالب للإشارة إلى الفاتحين العرب استنادًا إلى حقيقة أنَّ العرب كانوا من ذريَّة "إسماعيل" ابن إبراهيم من خادمته هاجر.

2- ذكر البلاذري تلك الرواية الإسلاميَّة المبكِّرة، 59-61، الذي ذكر قبائل عاملة ولخم وجذام.



خارطة رقم 2.2
سوريا، فلسطين والجزيرة

والأراضي الواقعة إلى الشمال منها، فبالعبور من العربيَّة السعوديَّة الحاليَّة إلى الأردن لا يمكننا ملاحظة أيِّ تغيُّر في الجغرافيَّة الطبيعيَّة - المرتفعات الصخريَّة الشامخة والمكسوَّة بالرمال نفسها، وصخور بركانيَّة، وصحارى رمليَّة جرداء متَّصلة كلَّما اتجهنا شمالًا. (صورة رقم 2.3). ولذلك كان من الطبيعيِّ ألَّا يواجه النبيُّ محمَّد أيَّة مقاومة في تبوك، وهناك 125 ميلاً أمامه إذا أراد المسير نحو أيالا، العقبة الحاليَّة، الميناء الواقع في أقصى شمال البحر الأحمر، فضلاً عن 65 ميلًا أخرى للوصول إلى عذرة بالقرب من البتراء العاصمة الرئيسة لمملكة الأنباط. هذا هو الطريق الذي كان يسلكه التجَّار، على أيِّ حال بين غرب شبه الجزيرة العربيَّة وجنوب سوريا المستخدَم لعدَّة قرون. ولذلك فمعاهدات «الصلح» التي توصَّل إليها النبيُّ محمد مع هذه المدن وما جاورها من المستوطنات تختلف إلى حدٍّ كبيرٍ، ويُستنتج منها عدم وجود مفاوضات جماعيَّة برئاسة وكلاء الحكومة البيزنطيَّة، إنَّما تركت المدن لحماية نفسها ولرؤساء كلٍّ منها التفاوض بشروط أفضل كلَّما أمكن ذلك.



صورة رقم 2.3
صورة لموقع حول مدائن صالح، شمال غرب العربيَّة السعوديَّة. ليلى نعمة.

ويُفترض أنَّ الفرس من الناحية الاسميَّة احتلُّوا هذا الإقليم خلال السنوات 614-628م، إلَّا أنَّهم كانوا مشغولين بإقامة سلطتهم على المدن وتوسيع فتوحاتهم إلى الأراضي البيزنطيَّة وتدبير أمن المناطق النائية. ففي مثل هذه الأوضاع لا نستغرب - كما تذكر الأدلَّة بوضوح - ظهور المبشِّرين لأتباع النبيِّ محمَّد. فقد ذكر أحد كتَّاب الحوليَّات في عام 610م «وصول جماعة من العرب من شبه الجزيرة العربيَّة إلى هذه الأقاليم السوريَّة، للسلب والنهب وتخريب مساحات من الأراضي، واقترفوا مذابح عدَّة للرجال، وأحرقوا من غير رحمة ولا شفقة». ويخبرنا أحد الرهبان من دير مار سابا في الصحراء الأردنيَّة بعد شهرين من اجتياح الفرس في عام 614م للقدس لا يزال الرهبان غير راغبين بالعودة إلى أديرتهم في الصحراء "لخوفهم من الساراسين". ووصف أحد الرهبان من أحد الأديرة بالقرب من جرش عمليَّات السلب والنهب من جماعات من "العبرانيِّين والساراسين". ولم تتحسَّن الأوضاع مباشرة بعد أن استعاد البيزنطيُّون السيطرة على هذا الإقليم، وذلك وكما أخبر أحد دافعي المصروفات مجموعة من العرب الذين جاؤوا يطالبون بإعاناتهم الماليَّة؛ للمحافظة على أمن الطريق الصحراويِّ «الإمبراطور بالكاد يدفع أجور جنوده، لم يبق إلا الكلاب!»[1].

لعلَّه من المفيد أن نوضِّح - وقبل أن ندخل في أخبار المعارك نفسها - أنَّه لا توجد تفصيلات جيِّدة عن التكتيكات والأسلحة المستخدَمة في المعارك ومن أيِّ الأطراف المشاركة فيها. وكما أوضحنا في الفصل السابق أنَّ صنف التاريخ الذي يؤرِّخ للتاريخ التقليديِّ لليونان والرومان الذي تناول السياسات وشؤون الحرب ودَوَّنَهُ أصحاب الخبرة قد مضى عليه الزمن. ونتيجة لذلك، فالناس الذين أرَّخوا في الشؤون العسكريَّة كانوا في الأعمِّ الأغلب من رجال الدين في الجانب المسيحيِّ

1- **Theophilus of Edessa, 63-64 (raid of 610); Antiochus of Mar Saba, "Epistola ad Eustat hiu m," Patrologia Graeca 89, col.1424; "Vita S. Georgii Chozebitae," ed. and trans. C. Houze, Analecta Bollandiana 1888, 134; Theophanes, 335-36 (dogs).**

ورواة الأخبار والمختصين المتديِّنين ومن كلِّ الأصناف في الجانب الإسلاميِّ. كان الهدف من التدوين إظهار الأفعال الإلهيَّة على الأرض، وليس مكائد الإنسان. لقد خدم قصاصو الأخبار - أو يمكننا القول الوعَّاظ - منذ أوقات مبكِّرة في الجيوش العربيَّة؛ لتشجيع القوَّات وتذكيرها بالأمجاد الماضية والمآثر البطوليَّة؛ وذلك لإضافة الأبعاد الإنسانيَّة للحقائق المجرَّدة. لقد أعطتنا تلك المصادر انطباعًا - على سبيل المثال لا الحصر - عن صفات المحاربين الأوائل (أبو عبيدة أمين الأمَّة، خالد بن الوليد المندفع، عمرو بن العاص الداهية)، صورة تعكس نفسيَّة الفاتحين «جنود في النهار، ورهبان في الليل»؛ «لتأكيد شوقهم للجهاد والزهد»[1]. ولم نحصل في الغالب من أيِّ مؤرِّخ على أيَّة تفصيلات موثوقة عن حجم القوَّات وتحركاتها أو خططها الدقيقة والأسلحة المستخدمة وحدود الميادين، ... الخ. والأعداد الواردة في المصادر مضلِّلة بشكلٍ خاصٍّ، ويجب أن يحمل القرَّاء بأذهانهم أنَّ تجهيز أعداد ضخمة من الجند كان صعبًا جدًّا في عصر ما قبل مكننة الزراعة ووسائط النقل، فإنَّ جيشًا بحجم 5000-10000 جندي ضخم جدًّا، وجيش بحجم 30000-40000 قريب من الحدود الممكنة لإدامته، ولا سيَّما في المناطق الأقل خصوبة.

إنَّ أولى المعلومات الموثَّقة والمعاصرة التي حصلنا عليها حول تحرُّكات الجيوش العربيَّة الغربيَّة جاءت من حوليَّة، يبدو من معلوماتها الدقيقة أنَّها اعتمدت على مصادر محليَّة، فهي تُخبرنا أنَّ في السنة اليونانيَّة 945، أي 634م، «في الساعة التاسعة من يوم 4 شباط، اشتبكت قوَّة بيزنطيَّة مع قوَّة من العرب المسلمين في فلسطين على بعد 12 ميلًا إلى الشرق من غزة». ولم تذكر شيئًا عن المواجهات بين الطرفين، ولكن يمكن الملاحظة ببساطة «هروب البيزنطيِّين تاركين وراءهم قائدهم الذي قتله

1- ذلك لا يعني أنَّ هذه الخصائص قد أُخذت من الفترة المبكرة، لكنَّها بالتأكيد قد وردت عرضًا بقوَّة جدًّا. انظر: L. R. Armstrong, The Qussas of Early Islam (PhD, Chicago, 2013)، أمَّا بالنسبة إلى مشاكل التراث الإسلاميِّ المتعلِّق بالفتوحات؛ راجع الملحق ذا العلاقة في هذا الكتاب.

العربُ مع نحو أربعة الآف قرويٍّ فقيرٍ من فلسطين، وقيام المسيحيِّين واليهود والسامارتيِّين والعرب بنهب الإقليم بالكامل». ويبدو أنَّ هذه المعلومات تنسجم مع معلوماتٍ مختصرةٍ تُوردها المصادر الإسلاميَّة حول معركة وقعت في ربيع عام 634م في داثن، وصفتها كإحدى قرى غزة، التي قُتل فيها قائدهم[1].

ونتيجة لاستمرار عمليات قطع الطرق، شعر حاكم فلسطين المقيم في العاصمة الإقليميَّة قيصرية أنَّه لا بدَّ من اتخاذ الإجراء المناسب؛ لأنَّ العرب الآن يدخلون المناطق الزراعيَّة ويقتربون من المستوطنات الكبيرة. ولذلك توجَّه نحو بيت جبرين التي تحمل اسمًا كبيرًا اليوثيروبولس Eleutheropolis، أي «مدينة الحرية». ولكنَّ العرب كانوا قد أعدُّوا كمينًا له وهجموا عليه في اللحظة المناسبة من أماكن اختبائهم وهم يصرخون ويصيحون، وانقضُّوا على وحدة من السامارتيِّين الذين كانوا لسوء الحظِّ في المقدِّمة وواجهوا الصدمة الأولى من انقضاض العرب عليهم والانبطاح تحت القوَّة المهاجمة و"هلك كلُّ واحدٍ منهم بالسيف". ومن هذا الوصف نرى تراجع القائد وعجل بهروب رجاله غير المنظَّم والسريع. فالمؤرِّخ لهذا الطريق على الرغم من أنه لا يملك نصرًا بيزنطيًّا ينفخ فيه، فقد عمل انعطافة إيجابيَّة في روايته للحدث، وذلك بإعلاء شأن الحاكم وشجاعته الذي نزل من على ظهر جواده في الطريق من أجل ملاحقة العرب مُلوِّحًا للحاضرين معه يدعوهم لإنقاذ أنفسهم "مخافة أن يشرب وهم معًا كأس الموت"[2]. ومن المحتمل أنَّ هذه المعركة تنسجم مع ما تذكره المصادر الإسلاميَّة عن معركة أجنادين التي حدثت في شهر تموز عام 634م، التي أدَّت أيضًا إلى مقتل موظَّفٍ بيزنطيٍّ رفيع.

وحدثت أيضًا مواجهة أخرى بالقرب من راباث مؤاب إلى الشرق من الشريط الجنوبيِّ للبحر الميِّت. وهنا تقع سلسلة من الجبال الجرداء الصلبة التي تصاحب

1- Hoyland, Seeing Islam, 120; Baladhuri, 109.

2- Theophilus, 93-94.

المسافر من شبه الجزيرة العربيَّة حتَّى تقوده إلى إقليمٍ أكثر ارتفاعًا وخصوبةً في شمال وادي الأردن. لقد أعاد الرومان تسمية راباث إلى آريوبولس Areopolis التي تقع في نقطةٍ على مفترق الطريق القديم المعروف باسم «طريق الملوك الكبير»، الذي يربط مدينة أيالا (العقبة) بعمان. وهناك يمكن رؤية بقايا معبدٍ وثنيٍّ لا يزال شاخصًا للعيان، ولكن كانت راباث في عصر الرسالة مركزًا مسيحيًّا كبيرًا ومهمًّا بما يكفي لحضور أسقفها مجلس أفسوس في عام 449م. وهنا، ربما توقَّع العرب مقاومة صلبة، ولكنَّهم أمسكوا بأعدائهم على حين غرَّة مرَّة أخرى. تذكر المصادر المعاصرة أنَّ قوَّةً بيزنطيَّة كانت تعسكر بالقرب من المدينة، حيث «انهال العرب عليهم بصورة غير متوقَّعة والسيف على رقابهم وإجبار ثيودور أخ الإمبراطور هرقل على الهروب». ولعلَّ المرء يستغرب وجود مثل هذه الشخصيَّة الكبيرة في المؤسَّسة البيزنطيَّة في هذا المكان - ربما هناك خلطٌ مع اسم مساعد حاكم الولاية (vicarious) الذي يحمل الاسم نفسه (أي ثيودور) الذي كان يقاتل العرب في هذا الإقليم أيضًا[1]. ومع ذلك، هناك الكثير من المصادر، ومن بينها المصادر الإسلامية تتَّفق على أنَّ أخ الإمبراطور هرقل قد اشترك في المواجهات المبكِّرة مع العرب، وعُوقب لهزيمته وإسراعه بالعودة إلى القسطنطينيَّة.

واصلَ العربُ تقدُّمهم عبر الطريق الصحراويِّ لتجنُّب المراكز الاستيطانيَّة الكبرى حتَّى وصلوا إلى بوسترا Bostra (بصرى) في خريف عام 634م إلى الجنوب من سوريا الحاليَّة وبالقرب من حدودها مع الأردن. كانت مدينةً غنيَّةً ومزدهرةً وعاصمةً لولاية بيزنطة العربيَّة، تقع في سهلٍ خصبٍ وتمثِّل سوقًا مهمًّا لرعاة المواشي الذين يأتون لبيع منتوجاتهم وشراء الحبوب والزيت والنبيذ والسلع المصنَّعة. وإلى

1- Sebeos, 96-97 (Theodore brother of Heraclius); Theophilus, 91 (Theodore vicarius). On Areopolis, see S. Thomas Parker, The Roman Frontier in Central Jordan I (Washington, DC, 2006), 16-17.

الشمال الشرقيِّ منها تقع مرتفعات حوران البركانيَّة، حيث تزرع فيها كلُّ أنواع الفواكه ومن بينها الكروم اللازمة لإنتاج النبيذ الذي طالما تغنَّت به القصائد الشعريَّة العربيَّة قبل الإسلام. وتتَّفق المصادر المسيحيَّة والإسلاميَّة على أنَّ الاستيلاء على بوسترا (بصرى) كان بمعركةٍ خاطفةٍ؛ لأنَّ المدينة استسلمت للعرب ببساطة وبالاتفاق على صون أملاك السكَّان وحياتهم مقابل دفعهم الجزية. ففي القرن السادس الميلاديِّ كان يوجد قائد عسكريٌّ بيزنطيٌّ في بصرى - كما يبدو - مسؤول عن القوَّات المرابطة في ولاية بيزنطة العربيَّة وعن الأمن العام فيها، ولكن من المحتمل وبعد الاحتلال الفارسيِّ جُمِّعَت الموارد العسكريَّة في دمشق التي تبعد نحو ستين ميلاً أو اكثر بقليل إلى الشمال، أو على الأقل قائد بصرى لم يكن موجودًا فيها، هذا ربَّما يفسِّر لماذا تخلَّت المدينة عن أيَّة مقاومة.

وتذكر المصادر المعاصِرة وقوع مناوشات قليلة جدًّا بين الجيوش العربيَّة والبيزنطيَّة في هذا الإقليم، ولكن بعض المصادر الأخرى تشير إلى أنَّ عمليَّات السلب والنهب كانت شائعةً. وعلى الضفَّة الأخرى من نهر الأردن في القدس كان لدى البطريق صفرينيوس الذي انتُخب حديثًا وهو الراهب السابق بميوله للمعرفة والبلاغة اليونانيَّة شعورٌ قويٌّ حول الغزاة. ففي رسالة كتبها بمناسبة ترقيته لرئاسة الكنيسة بفلسطين في عام 634م يشجب فيها «الساراسين الذين نهضوا الآن ضدَّنا، بسبب آثامنا، بصورة غير متوقَّعة ودمَّروا الجميع بقسوةٍ وبصورةٍ وحشيَّةٍ، دون تقوى وبوقاحة كافرة». وأصبح الوضع الأمنيُّ في وقتٍ متأخِّر من السنة سيئًا جدًّا حتَّى إنَّه لم يتمكَّن من السفر إلى بيت لحم وأُجبر على إقامة موعظة عيد الميلاد في القدس. وكما حدث للإسرائيليِّين على أيدي الفلسطينيِّين Philistines، فهو ينوح "أنَّ جيش الكفَّار الساراسين الآن استولى على بيت لحم المقدَّسة وحرَمَنا من المسير هناك، مهدِّدًا إيانا بالذبح والتدمير". إنَّ وصف البطريق الأخير والأكثر تفصيلًا عن الهجمات العربيَّة

ظهر أيضًا في موعظته للمعموديَّة المقدَّسة التي ألقاها في عيد الغطاس في يوم 6 كانون الأوَّل عام 635م أو 636م، وطلبَ من المحتشدين أن يتجنَّبوا الآثام، ولهذا السبب "قام الساراسين التوَّاقون للانتقام والكارهون للرب، والبغضاء والتدمير الذي تنبَّأ به الأنبياء بصورة واضحة، واستباحة الأماكن غير المسموحة لهم، لينهبوا المدن، ويدمِّروا الحقولَ، ويحرقوا القرى، ويشعلوا النار بالكنائس المقدَّسة، ويُسقطوا الأديرة المقدَّسة، وواجهوا الجيوش البيزنطيَّة التي تجحفلت ضدَّهم". ومن الطبيعيِّ لا يمكننا أن نأخذ هذه الاتهامات بمعناها الظاهريِّ منذ أن صفرينيوس ملأ خطبته البليغة ليفرض موعظته بالتوبة والامتناع عن الأعمال المحرَّمة، ولكن من الواضح، كان التهديد حقيقيًّا بما يكفي لجعل موعظته مقنعة[1].

لقد ركَّز المؤرِّخون الآن على مواجهةٍ تُعدُّ نقطة تحوُّل ضدَّ بيزنطة وفي صالح العرب، إنَّها معركة اليرموك. وترتبط التسمية بنهر اليرموك الذي يجري بمحاذاة الحدود السوريَّة الأردنيَّة الحاليَّة، ويصبُّ في نهر الأردن إلى الجنوب من بحر الجليل. كان العرب بقيادة أكثر قادتهم شهرةً وهما خالد بن الوليد الذي ذكرناه سابقا وأبو عبيدة بن الجرَّاح الذي التقى به صدفةً، وهو من الرجال الصارمين الكيِّسين والواقعيِّين. كان الاثنان من قريش، قبيلة النبيِّ محمد، ولكن في الوقت الذي كان خالد بن الوليد من إحدى بطون قريش التي عارضت النبيَّ لفترة طويلة، كان أبو عبيدة من الصحابة المقرَّبين للنبيِّ محمَّد منذ بدء دعوته. لقد سافر الإمبراطور هرقل إلى الشمال السوريِّ؛ للحصول على معلوماتٍ أدقَّ عن الأحداث، حيث أدركَ أنَّ الأوضاع خطيرة، ولذلك عيَّن أحد قادته الكبار في الشرق وهو فاهان الأرمني Vahan ليتولَّى مسؤليَّة العمليَّات العسكريَّة. كان الإمبراطور هرقل متخوِّفًا؛ لأنَّ دمشق المدينة الاستراتيجيَّة أصبحت مهدَّدة، ولذلك أرسل مبعوثيه لإبلاغ القوَّات التي لديها قوَّات فائضة عن حاجتها

1- **Hoyland, Seeing Islam, 67-73 (Sophronius).**

لإرسالها للدفاع عن العاصمة السوريَّة. توجَّه فاهان من أنطاكيا مع جيشه الرئيس لدحر قوَّة استطلاعيَّة عربيَّة صغيرة في الطريق بالقرب من حمص كما يبدو، في وقت «شرعت أعداد غفيرة من الساراسين من شبه الجزيرة العربيَّة بالتوجُّه إلى الإقليم المحيط بدمشق في مطلع صيف عام 636م»[1]. ربَّما كانت النجاحات التي حقَّقتها الغارات العربيَّة الأوَّليَّة قد شجَّعت الكثير من الآخرين للانضمام إلى تلك المغامرة. كان واهان متخوِّفًا من هذه الحملة، وكتب إلى ثيودور حاكم الرها وأحد المدراء الماليِّين الكبار في الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة لإرسال التعزيزات، حيث وصل ومعه عشرة الآف مقاتل. وبعد تجمُّعِ القوات كلِّها أقامت معسكراتها معًا على الضفَّة اليمنى من نهر اليرموك.

كانت القوَّة البيزنطيَّة قد ظهرت وكأنَّها قويَّة جدًّا، لكنَّ الحظَّ لم يكن في صالحها، حيث كانت المناوشات الأولى في شهر تموز عام 636م قد أدَّت إلى هزيمة قوَّة ثيودور. وهذا ما قاد إلى جدالٍ بين ثيودور والأرمن الذين نادوا بإمبراطورهم الخاصِّ بهم والارتداد عن الإمبراطور هرقل. ولذلك انسحب رجال ثيودور وانتهز العربُ الفرصةَ للهجوم، فاختبأ بعضهم في مكامن حول المعسكر البيزنطيِّ، ومنها انقضُّوا على العدو. حاول البيزنطيُّون الفرار، إلَّا أنَّ الطين الكثيف الذي غطَّى السهل نتيجة لفيضان النهر جعلهم يغوصون بالوحل من جهة، فضلًا عن أنَّ حرارة الشمس قد أربكت من بقي منهم من جهة أخرى. فالآف منهم إمَّا قُتل بحدِّ السيف أو تدحرج من على السفوح الشديدة الانحدار لوادي النهر، وكان مصيره إمَّا الموت أو الغرق في النهر. فمن الصعوبة استعادة المعلومات الدقيقة عن المعركة، لكنَّ خسارة البيزنطيِّين كانت كبيرةً؛ لأنَّها أرسلت موجات من الشعور بالصدمة عبر الإمبراطوريَّة حتَّى

1- Chronicle of 741, §15 (Damascus); Theophanes, 337 (multitude);

حول هذه الرواية عن معركة اليرموك، اعتمدتُ على ثيوفيلوس، 100-103، سيبيوس، 37.

وصلت أخبارها إلى بلاد الغال، حيث نشر أحد المؤرِّخين الفرنجة خبرَ الكارثة. لقد عزا هذا المؤرِّخ والمصادر اللاتينيَّة الأخرى سبب فقدان الأرواح البيزنطيَّة لانتشار مرض الطاعون الذي كان منتشرًا في سوريا في ذلك الوقت أيضًا. أدرك الإمبراطور هرقل أنَّه لا بدَّ أنْ يتأنَّى قبل أن يحشد قوَّات إضافيَّة، فأصدر أوامره إلى كلِّ الولايات يأمرها بعدم محاولة الاشتباك مع العرب في معركةٍ مفتوحةٍ، وبدلًا من ذلك، يجب على كلِّ قوَّة أن تحتفظ بمواقعها بأفضل ما يمكن. ثمَّ عاد الإمبراطور إلى القسطنطينيَّة، وتفترض المصادر المسيحيَّة والإسلاميَّة وهي تصوِّره وكأنَّه يودِّع سوريا وداعًا حزينًا قائلاً: "sosou Syria"، أي "عليك يا سوريا السلام، وكأنَّه يأس من رؤيتها مرَّة أخرى"[1].

سمح هذا النصر للعرب - كما ذكر أحد المؤرِّخين - «الإصرار على امتلاك الولايات التي لم يغزُها من قبل، ويؤسِّسوا لحكمهم في دمشق، المدينة الأكثر روعة في سوريا». لقد استطاع العرب التوسُّع من هذه القاعدة الصلبة بفتوحاتهم إلى بقيَّة بلاد الشام وما حولها. تتحدَّث المصادر المسيحيَّة عن ثلاث مدن رئيسة، هي: حمص، أو إميسا Emesa القديمة ومدفن رأس القديس جون المعمدان؛ والقدس وهي مقرُّ البطريق والعدد الكبير من الكنائس والأديرة؛ وقيصرية، عاصمة فلسطين وأحد الموانئ المهمَّة. كان الاستيلاء على حمص يعطينا تصوُّرًا عن الأسباب وراء سقوط عددٍ من هذه المدن بتلك السهولة الظاهرة بأيدي العرب. لقد حاولت حمص الصمود خلال شتاء الفترة 636-637م ضدَّ الحصار الذي فُرض عليها، على أمل أن يتخلَّى العرب عنها، وأن يتمكَّن الإمبراطور هرقل من تحشيد جيشٍ لإنقاذهم. ولكنَّ الشتاء انقضى ببطء، واندلعت النزاعات، وناقش بعضهم خيار الاستسلام الذي رأوه أفضل الآن

1- Hoyland, Seeing Islam, 219;

(فريدجار- الكثير من الرجال "يموتون بينما هم نيام"، ربَّما أصيبوا بالطاعون)، n 615.24 (حوليَّة عام 754، 9S، تتحدَّث عن "نبوءة الجرذان" و"الأورام تتضخم في بلاعيمهم")؛ ثيوفيلوس، 106-108، في حين أنَّ مصادر أمر هرقل بعدم إشراك العرب كانت هادئة.

ما داموا يستطيعون التفاوض بحسب شروط أفضل، لكنَّ الآخرين رفضوا ذلك: "كيف لنا أن نقوم بذلك والإمبراطور ما زال في السلطة والحكم؟". وأخيرًا، حينما أصبح واضحًا أنَّ المساعدات لم تعد وشيكة الوصول، التمس السكَّان السلام، وتحقَّق لهم ذلك كما حصل مع دمشق والتوصُّل إلى صلحٍ مكتوبٍ يضمن لهم "الأمان على حياتهم وممتلكاتهم، وكنائسهم وقوانينهم" مقابل دفع جزية عن المدينة قدرها 110 آلاف قطعة نقد ذهبيَّة[1]. إنَّ الاعتدال النسبيَّ لشروط الاستسلام شجَّع مدنًا كثيرةً على الخضوع أفضل من مواجهة الحصار المرهق، واحتماليَّة القيام بعمليَّات القتل ولا سيَّما أنَّها عانت أصلًا من مآسي الغزو والاحتلال الفارسيِّ قبل سنوات قليلة. فضلًا عن أنَّ هذه المدن محاذية للصحراء السوريَّة – ومن ضمنها المدن التي خضعت للعرب مبكِّرا مثل بصرى، دمشق، حمص، عمان، وحما – واعتادت على التعامل مع القبائل العربيَّة، ولديها علاقات كثيرة وبمستويات مختلفة. وكانت هذه المدن موطنًا للسكَّان الموسرين والمتعلِّمين من المسيحيِّين العرب مثل عائلة منصور التي خدمت الإمبراطور هرقل بصفة إداريِّين ماليِّين بمدينة دمشق، التي استمرَّت بعملها للعرب الفاتحين أيضًا حتَّى القرن الثامن الميلاديِّ. أمَّا بالنسبة إلى القدس؛ فإنَّ أخبار الاستيلاء عليها – كما يتوقَّع المرء لأقدس المدن مكانة – قد أُثقلت بالصبغة الدينيَّة التوافقيَّة، حتَّى كان من المزعج حرمانها من تفصيلات ماديَّة وملموسة. وكما ذكر أحد المصادر المسيحيَّة المتأخِّرة باختصار عن سنتين من الحصار، ولكنَّه لا يعطي أيَّة تفصيلات أو توضيح عنه. ومصدرنا المعاصر والوحيد ذكرَ "أنَّ صليب السَّيِّد المسيح وكل أتباع الكنائس" رُحِّلوا إلى القسطنطينيَّة؛ للمحافظة على حياتهم، ولكن في الجانب

1- Chronical of 741, §16.

(استولى العرب على دمشق)؛ الطبري، 1. 2390–1 (نزاعات)؛ ثيوفيلوس، 98 (ميثاق). خضعت الرها إلى الفرس للأسباب نفسها: "كثافة القوَّات الفارسيَّة، وانتصارهم في المعركة، وكون [سكان الرها] لا يتوقَّعون إنقاذهم من أيِّ مكان" (سيبيوس، 63).

العسكري، يذكر وببساطة أنَّهم طلبوا من العرب القسم بأنَّهم سيحترمون حياة السكَّان وممتلكاتهم، ولذلك خضع سكَّان القدس إلى العرب. وبخلاف ذلك، ركَّز المؤرِّخون المسيحيُّون على حدثينِ محدَّدين، الأوَّل: هناك بناية لجامع في مكان معبد يهوديٍّ سابق، الذي كما يذكر عددٌ من المؤلِّفين المعاصرين أو الذين عاشوا في فترة قريبة منهم أنَّ ليس هناك سبب للشكِّ في ذلك، بل لدينا وصف لذلك الجامع من حاج غالي (إفرنجي) سافر إلى إيونا Iona في إسكتلندا وسرد رحلته على رئيس الدير في سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، وأخبره أنَّه يتذكَّر أنَّه رأى في المكان الذي يُقام فيه معبد هيرود Herod's Temple بالقرب من الحائط الشرقي "بيتًا للصلاة" مستطيل الشكل بناه العرب "على بعض الأنقاض المدمَّرة". ومن الواضح أنَّه مبنى ضخم بإمكانه استيعاب - كما يقول - "ثلاثة الآف شخص على الأقل"[1].

والحدث الثاني: زيارة الخليفة عمر بن الخطاب (634-644م) إلى المدينة المقدَّسة. لم تتحدَّث المصادر المبكِّرة عن هذه الحادثة، وظهرت لأوَّل مرَّة في المصادر عند منتصف القرن الثامن الميلاديِّ، التي ركَّزت على اللقاء بين الخليفة عمر والبطريق صفرينيوس. وتدَّعي المصادر أنَّ الخليفة كان يرتدي ملابس وسخة مصنوعة من شعر الإبل، وحينما رآه البطريق عرض عليه ملابس داخليَّة وخارجيَّة، ولكنَّ الخليفة رفض ذلك، لكنَّه قبلها في النهاية بعد إلحاح صفرينيوس عليه؛ وذلك لارتداء ملابس نظيفة لبعض الوقت حتَّى تُغسل ملابسه. وهناك مناسبات كثيرة يذكرُ فيها الإنجيل غسل الملابس أو تبادلها، وهي جزء من طقوس التطهير والكسوة، كما هو الحال حينما حضر رئيس الأساقفة جوشو Joshua أمام أحد حواري الربِّ بملابس متَّسخة، فقد أُعطي كسوة جديدة خاصَّة بالأساقفة بدلًا منها (زكريا: 1:3-5). ولكنَّ

1- ثيوفانوس، 339، (حصار لستين)؛ سيبيوس، 98 (عبور وقسم)؛
Hoyland, Seeing Islam, 221 (the pilgrim Arculf and the abbot Adomnan).

هدف المؤرِّخين الدقيق غير واضح هنا، ففي الروايات الإسلاميَّة أنَّ الخليفة عمر في رحلته إلى القدس كان يرتدي ملابس خشنة ولكن ذلك يعدُّ جزءًا من اعتقاده بوصفه شخصيَّةً متواضعةً وبسيطةً حذرةً من مفاسد الحضارة. وهنا يحاجج المسلمون "أنَّ ارتداء الخليفة عمر ملابس لطيفة لكي لا يظهر أقلَّ مكانة من أولئك غير المسلمين، وأنَّ الخليفة رفض ذلك في البداية؛ لكي لا يعطي صورة أنَّ المسلمين يشتهون الملابس الفاخرة كما هو الحال عند البيزنطيِّين والفرس وأنَّهم يلهثون وراء الأمور الدنيويَّة"[1].

أمَّا قيصريَّة، فهي كبقيَّة المدن الساحليَّة المطلَّة على البحر الأبيض المتوسِّط، أقلُّ احتكاكًا بالعرب إلى حدٍّ كبيرٍ مِمَّا كانت عليه المدن الداخليَّة المحاذية للصحراء السوريَّة، فسكَّانها في الأعمِّ الأغلب يعتقدون بالقناعات والعقائد السائدة في القسطنطينيَّة نفسها، والإمبراطور يُطلق عليه تسمية خلقدوني (يؤمن بالعقيدة التي اتُّفقَ عليها في مجلس خلقدونية في عام 451م)، والأكثر من ذلك أنَّهم يتحدَّثون اللغة نفسها في القسطنطينيَّة، أي اليونانيَّة وليس الآراميَّة أو العربيَّة. ومع ذلك، فهي كعاصمة ولاية لديها الكثير للتعبير عنه، والكثير لحمايته، وجيش يرابط في المدينة، ومن الطبيعي أنَّ يُتوقَّع منها المقاومة. لقد أدرك القائد الجديد للقوَّات العربيَّة بسوريا معاوية بن أبي سفيان هذا التحدِّي، ولذلك جلب 72 منجنيقًا للحصار التي تقذف الحجر ليلًا ونهارًا. واستمرَّ ذلك طوال الفترة من كانون الأوَّل عام 640م حتَّى مايس 641م، إذ اختُرقت الأسوار الضخمة المحيطة بالمدينة. وبما أنَّ القوَّات رفضت بعناد الاستسلام، قرَّر معاوية أن يجعلها مثلًا للآخرين، فأمر بقتل جميع الجنود المرابطين بالمدينة، الذين يبلغ عددهم سبعة آلاف، عدا أولئك الذين استطاعوا الهرب بالقوارب إلى آسيا الصغرى. لم تُدمَّر المدينة وإن كانت ذات ميول ومشاعر قويَّة مؤيِّدة للإمبراطوريَّة

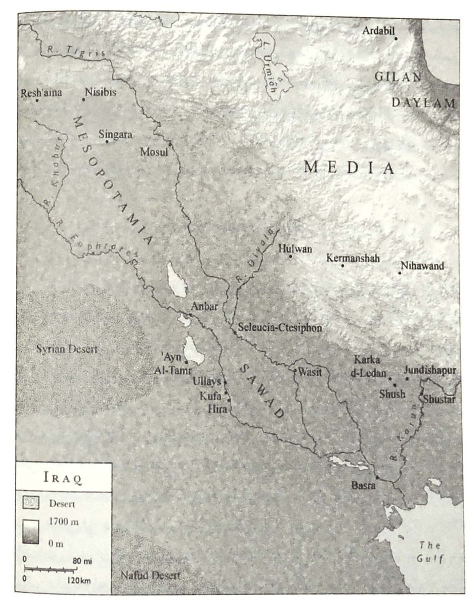
1- ثيوفيلوس، 114-117، بينما المصادر الإسلامية قد ذُكرته أيضًا.

وسهولة إمدادها بالتجهيزات من طريق البحر من القسطنطينيَّة، ولذلك لم يعدَّها العرب مناسبةً لتكون قاعدة إداريَّة. إنَّهم يُفضِّلون المدن الداخليَّة التي تتَّصل مباشرةً بالصحراء، التي تمتلك معرفةً أكثر بالعرب والقبائل العربيَّة. ونتيجةً لذلك، وبينما تدهورت الكثير من المدن الساحليَّة بعد الفتح العربيِّ (قيصريَّة خلال الفترة الإسلاميَّة المبكِّرة أصبحت عُشر حجمها في العصور القديمة المتأخِّرة)، في حين تمتَّعت المدن الداخليَّة كدمشق وبصرى وجرش وبيلا والقدس بدرجةٍ كبيرةٍ من النموِّ[1].

العراق (خارطة 2.3)

بعد قتل خسرو/ كسرى الثاني لرئيس قبيلة لخم وخسارتها للمساندة الإمبراطوريَّة «ثار جميع العرب في كلِّ الممالك البيزنطيَّة والفارسيَّة وتفرَّقوا، وبدأت كلُّ مجموعةٍ تعمل على وفق إرادتها الخاصَّة بها، كما ذكر أحد المؤرِّخين، «وأصبحوا أقوياء وسبَّبوا الكثيرَ من المشاكل في الولايات»، فعلى سبيل المثال، واجهت مجموعةُ القبائل الموالية لقبيلة لخم في ذي قار بالقرب من الكوفة القبائلَ الحليفة للفرس وهزمتها في عام 610م. ومن المحتمل كانت مناوشة بسيطة جدًّا اشتركت فيها بعض البطون العربيَّة، إذ احتفل العربُ بتلك المناسبة بوصفها أوَّل انتصارٍ لهم على الفرس، ولا سيَّما بعد تدهور أحوال الفرس حينما اندلعت الحرب الأهليَّة بعد وفاة خسرو/ كسرى الثاني في عام 628م، ووصلت إلى الحضيض في حزيران عام 630م بعد اعتلاء الإمبراطورةُ بوران العرشَ. انتشرت الأنباء بين القبائل العربيَّة المجاورة «بأن لم يعد للفرس ملِك، ولجؤوا إلى تنصيب امرأة عليهم»، ولذلك قاموا بعمليَّات نهب وسلب

1- ثيوفيلوس، 123-124. إنَّ دراسات J.Patrich لآثار وتاريخ قيسارية البحريَّة (لايدن،2011)، تتناقض وقيسارية مع القدس وسكيثوبولس.



خارطة رقم 2. 3

العراق وغرب إيران

في الأراضي الحدوديَّة للإمبراطوريَّة[1]. وذهب بعض الرجال من القبائل العربيَّة القاطنة في الشمال الشرقيِّ وانضمُّوا إلى أولئك المجتمعين على حدود بلاد فارس والإغارة على بعض ممتلكات النبلاء الفرس والاستيلاء على ما يستطيعون حمله. ويذكرُ المؤرِّخون المسلمون فيما بعد أنَّ الخليفة أبا بكر شارك في التخطيط لهذه الهجمات، ولكن من الواضح أنَّها محاولةٌ لاستعادة الماضي ووضع المعارك ضدَّ الإمبراطوريَّات كلِّها تحت راية الجماعة الإسلاميَّة. وهم أيضًا أرادوا رسم مخططٍ زمنيٍّ محكمٍ للمعارك، كانت أوَّل ردَّة للقبائل العربيَّة في السنة الحادية عشرة للجماعة (للهجرة) (632–633م)، التي أُخمدت أوَّلًا قبل أن تبدأ الفتوحات في السنة الثانية عشرة للجماعة (633–634م). ومع ذلك، وبما أنَّ المؤرِّخين ذكروا أيضًا الحكَّام الفرس الذين اعتلوا العرش لتلك الفترة (628–632م)، فترة تلك الغارات، كان من الواضح - كما هو الحال مع الشرق - أنَّ القبائل المختلفة والقاطنة على الحدود الإمبراطوريَّة بدأت بانتهاز فرصة ضعف الإمبراطوريَّة؛ للإغارة على المناطق المحاذية وقبل اشتراك قبائل الحلف الإسلاميِّ الغربيَّة في تلك الغارات.

واقتصرت المناوشات بصورةٍ رئيسةٍ في الفترة المبكِّرة بين القبائل العربيَّة الفرعيَّة المختلفة من جهة، وبين العاملين الفرس المحليِّين فقط. فعلى سبيل المثال لا الحصر، دعم قسمٌ من المتطوعين العرب من قبائل نمير وتغلب وإياد في واحة عين التمر الواقعة إلى الجنوب الغربيِّ من العراق الحامية الفارسيَّة المرابطة هناك لمواجهة قائد الخليفة أبي بكر المدعو خالد بن الوليد. وهكذا، كلَّما تضخَّمت تلك الغارات أصبحت تحت أنظار القادة المسلمين والمؤرِّخين المعاصرين. ولحسن الحظِّ ذكر أحد المؤرِّخين الأرمن بعد سنة 660م

1- Chronical of Siirt, 539 (فصل 87؛ تشتت العرب)؛ دينوري، 116–117 (بوران)، وقارن مع الطبري، 1. 2189. بالنسبة إلى ذي قار والغارة اللاحقة، فقد ذكرت في عين التمر، انظر: الطبري 1. 1016، 1. 2062–2064. والاستزادة عن التاريخ، انظر:

Pourshariati, Decline and Fall, 166-172.23.

بوقتٍ قصير، الذي أشار إليه الباحثون المحدَثون باسم سيبوس Sebeos، كان مهتمًّا بذلك وذكر رواية ساندها اثنانِ من المؤرِّخين، مِمَّا سمح لنا بتكوين صورة معقولة عن سير الأحداث[1]. وكما حدث في سوريا، كان نجاح المناوشات البسيطة في أواخر العشرينيَّات من القرن السابع ومطلع الثلاثينيَّات من ذلك القرن قد مهَّد الطريق للغزو على نطاق أوسع في عام 636م باشتراك أعدادٍ كبيرةٍ من رجال القبائل في شبه الجزيرة العربيَّة. سار الغزاة من وسط الجزيرة العربيَّة عبر تلك الصحارى الصخريَّة المتناهية والممتدَّة في الشمال الشرقيِّ منها حتَّى وصلوا مؤخَّرًا إلى الأراضي السهليَّة الخصبة لجنوب العراق. واندفعوا نحو عاصمة الفرس هناك سلوقيا - طيسفون، ولاقوا مقاومةً ضعيفةً في الاستيلاء عليها. كانت مستوطنةً كبيرةً تمتدُّ بشكل غير متَّسق على ضفتي نهر دجلة، وعلى بعد نحو عشرين ميلًا إلى الجنوب من بغداد، وتضمُّ الكثير من القصور التي بُنيت خلال قرون متعدِّدة من حياة المدينة. فرض العربُ الحصارَ عليها خلال شتاء عام 636-637م، ولكن في الوقت نفسه جَمَعَ رستم، أمير ميديا (الشمال الغربي من إيران) جيشًا ضخمًا، ومن بينها ألوية من أرمينيا، ألبانيا (شمال أذربيجان الحاليَّة) ومن سينوك Siunik (جنوب أرمينيا الحاليَّة)، هذا هو حجم جيش رستم وقوَّته، «الذي من المُتوقَّع أن يسحقَ بجبروته كلَّ الجنوبيِّين تحت أقدامه»، كما قيل آنئذٍ. وشارك الإمبراطور يزدجرد بتحشيد قوَّاته ليرفع من معنويَّاتهم وتوزيع المكافآت عليهم.

تحرَّك الجيش الفارسيُّ في خريف عام 637م وعبَرَ نهرَ دجلة واستطاع دحر العرب ببطءٍ ومن دون رحمة، وهزيمتهم في معركة ضارية (عُرفت هذه المعركة في المصادر الإسلاميَّة بمعركة الجسر) حتَّى استطاعوا في النهاية إجبارَهم على "العودة إلى حدودهم الخاصَّة بهم" عند الضفَّة الغربيَّة من نهر الفرات، وعسكرَ الجانبانِ هناك عند قريةٍ تُعرف باسم قداش Qadash (بالعربيَّة: القادسيَّة) الواقعة على مسافة قصيرة من جنوب الحيرة. كانت حالة

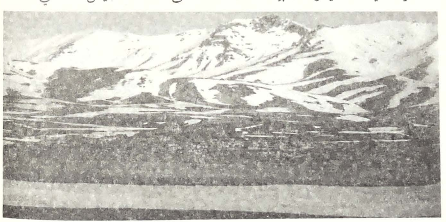
1- إنَّ هُويَّة المؤلِّف ليست مؤكَّدة، ولتسهيل الأمر استخدمتُ سيبيوس الذي نسبتُ إليه الحوليَّة أوَّلًا. كلُّ الاقتباسات في بقيَّة هذا المقطع أخذتها من سيبيوس، 98-99، وتاريخ الألبان القوقازيين، 2.18، إلَّا إذا أشرنا إلى خلاف ذلك.

العرب سيِّئةً خلال المناوشات الأولى، ولكن بعد أيَّام قليلة وصلت إليهم تعزيزات ضخمة من شبه الجزيرة العربيَّة «الكثير من الخيَّالة وعشرون ألفًا من المشاة»، وبعزيمة «أسرعوا نحو الأمام مدجَّجين بالتروس تملؤهم الرغبة لقتال القوَّات الفارسيَّة». وهذا أربك الجيشَ الفارسيَّ كما يبدو، وأدَّى إلى هروبِ قسمٍ من قوَّاته في هزيمةٍ منكرة، وقتلِ الكثير من الأمراء، من بينهم أمراء الأرمن وسيونك وميديا، في حين هرب آخرون مثل جوانشر Juansher ملك ألبانيا وألقوا بأنفسهم في نهر الفرات وعبروه سباحةً إلى الضفَّة الأخرى. تذكر المصادر الإسلاميَّة تلك المعركة باسم «القادسيَّة» التي وقعت في يوم 6 كانون الثاني سنة 638م، وصوَّرتها المصادر فيما بعد - كما هو الحال مع معركة اليرموك في بلاد الشام - نقطةَ تحوُّلٍ في الفتوحات العربيَّة في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة. جلبت هذه المعركة شهرة واسعة لقائدها العربيِّ سعد بن أبي وقَّاص، من قبيلة قريش، وكذلك أدَّت إلى مقتل رستم الذي صوَّرته إحدى الملاحم الوطنيَّة الفارسيَّة بطلًا شجاعًا - وإنْ قُتل بصورةٍ مأساويَّة - وآخر الفرسان النبلاء في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وتنبَّأت بأسى أنَّه "سوف لا يُروى نسبٌ أوشرفٌ بعده".

وبعد أن أصبحت يدُ العرب هي العليا، رجعوا الآن عن هجماتهم، واستطاعوا إحكام سيطرتهم خلال عام 638م على جنوب العراق، «وبدؤوا بجباية الضرائب»[1] كما يخبرنا أحد المؤرِّخين، وهذا مكَّنهم من إطعام رجالهم وتجهيزهم بشكلٍ كاملٍ، ولا سيَّما بعد إخضاعهم المنطقة المحيطة بسلوقيا - طيسفون، واستأنفوا حصارهم للعاصمة نفسها والمحافظة على موقفهم لمدَّة ستة أشهرٍ على الأقلِّ. وبعد أن رأى الإمبراطور يزدجرد أنَّ الوضع ميؤوس منه عيَّنَ قائدًا جديدًا لجيش ميديا، وهو خورزاد شقيق رستم؛ بهدف القيام بعمليَّة إخلاء لقوَّاته، حيث كانت الخطَّة تتضمَّن إخراج الإمبراطور إلى موقعٍ آمنٍ خارج سلوقيا - طيسفون إلى منطقةٍ تحت السيطرة الفارسيَّة

1- Ferdowsi, Shahnme D.Khaleghi-Motlagh (New York , 1987-2008), 8.814; (Rostam) Chronical of Siirt, 580 (ch.94: الضرائب)..

تبعد نحو سبعينَ ميلًا إلى الشمال الشرقيِّ. ولذلك حُزمَت محتويات الخزينة بسرعةٍ كبيرةٍ، وتجمَّع سكَّان العاصمة، وقاد خورزاد ورجاله الموكبَ نحو مقرِّهم الجديد. إلَّا أنَّ الموكب هُوجم في الطريق بصورةٍ غير متوقَّعة من قوَّة عربيَّة استطاعت عبور نهر دجلة، مِمَّا أدَّى إلى وقوع معركة سريعة (من المحتمل أنَّها عُرفت في المصادر الإسلاميَّة باسم معركة جلولاء)، ولكنَّ القوَّات الفارسيَّة المرتبِكة بعد هزيمتها النكراء في قداش تخلَّت عن القتال وهربت، مِمَّا أجبر يزدجرد على الفرار معها، وأدَّى ذلك إلى استيلاء العرب على الخزائن المتروكة والعودة إلى العاصمة المُستولَى عليها حديثًا سلوقيا - طيسفون. أسرع يزدجرد وبطانته إلى البحث عن ملجأ في سلسلة جبال زاجروس (صورة رقم 2.4) التي تعدُّ حاجزًا يحمي إيران من أيِّ جيشٍ يتقدَّم من سهول بابل وبلاد ما بين النهرين، وتوقَّف في طريقه بالقرب من مدينة حلوان القديمة. كان يزدجرد مستمرًّا في حركته خلال عام 640م؛ للبحث عن مكانٍ لالتقاط الأنفاس، واستغلال الوقت لتحشيد جيشٍ جديدٍ. نزلَ من الجبال متَّجهًا إلى الجنوب الشرقيِّ نحو أصفهان ومن هناك جنوبًا نحو إصطخر عاصمة بلاد فارس موطن العائلة الساسانيَّة، حيث كان يُدرك أنَّ بإمكانه الاعتماد على مساندة الجيش المحلِّيِّ هناك.



صورة رقم 2.4 منظر لجبال زاجروس من سهول العراق. هيو كندي

الجزيرة (شمال بلاد ما بين النهرين؛ خارطة 2.2):

إنَّ المناوشات التي سُردت حتَّى الآن وقعت في الأقسام الجنوبيَّة من بلاد الشام والعراق، ولا سيَّما المحاذية للصحراء السوريَّة. وعلى النقيض من ذلك، يذكر المؤرِّخون عدم حدوث أيَّة معركة في الأجزاء الشماليَّة من هذه الأقاليم. فمن المحتمل أنَّ تلك المدن كلَّها خضعت للعرب من دون قتال، فهي أصلًا قد عانت بشكلٍ سيئ في المراحل المبكِّرة من الحروب البيزنطيَّة الفارسيَّة للأعوام 603-628م، وربَّما لم تشجِّعها تلك الظروف على الصمود، ولا سيَّما أنَّ الأخبار بنجاح العرب في الجنوب كانت تصل إليها باستمرار. كانت الجزيرة هي مسرح الحرب الوحيد الذي بدأنا نسمع عنه الأخبار. ونعني بالجزيرة تلك الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات شمالًا، وتضمُّ اليوم أجزاء من شمال غرب العراق وشمال شرق سوريا وجنوب شرق تركيا، كانت وما زالت في الواقع موطن المسيحيَّة الآراميَّة حتَّى اليوم، وإن تناقصت أعدادهم بشكلٍ دراماتيكيٍّ الآن. «كانت أراضي الجزيرة كلها غنيَّة بمزارع الكروم، والحقول والمواشي، فلا يوجد فقير واحد أو رجل بائس في أيٍّ من قُراها إلَّا ويملك محراثًا وحمارًا وماعزًا»، ذكر ذلك أحد السكَّان المحليِّين[1]. وتضمُّ الجزيرة سهولاً شاسعةً صالحةً للرعي الكثيف تحتجزها الكثير من القبائل العربيَّة الرعويَّة القويَّة. إنَّ ثراء تلك الأراضي يعني أنَّها محطُّ جذبٍ للقوى الكبرى، وفي الواقع محطُّ قتالٍ بين البيزنطيِّين والفرس لقرون متعدِّدة قبل أن تصبحَ منطقةً حدوديَّةً بين بيزنطة والدويلات العربيَّة آنذاك.

1- حوليَّة Zuqnin، 215.

عَهِدَ القائد العربيُّ في سوريا أبو عبيدة إلى قريبه (ابن عمِّه) عياض بن غنم المشهور بكرمه للإشراف على إخضاع مدن الشمال السوريِّ. وبينما كان عياض يعسكرُ عام 638م في قنسرين بالقرب من كالسس Chalcis - وهي مدينة هلنستيَّة كبيرة تقع إلى الجنوب من حلب - جاء إلى لقائه جون كاتياس John Kataias الحاكم البيزنطيُّ لبلاد ما بين النهرين. كانت مهمَّته إنقاذ ولايته من الاحتلال العربيِّ، لكنَّه لم يملك قوات كافية لبلوغ هدفه بالوسائل العسكريَّة، وبدلًا من ذلك، وعد عياض أن يدفع له مئة ألف نقد ذهبيٍّ "بشرط عدم عبوره نهر الفرات بالسلم أو بالحرب طالما أنَّ هذا المبلغ من النقد الذهبيِّ يُدفع إليه"[1]. وافق عياض، وكان جون عند وعده، ثمَّ عاد إلى بلاد ما بين النهرين ليجمع الضريبة السنويَّة التي دفعها مباشرة إلى عياض. ولكن حينما سمع الإمبراطور هرقل بهذه الصفقة غضبَ كثيرًا؛ لأنَّها تمَّت دون علمه، فطرد جون ونفاه إلى أفريقيا، وجاء بقائدٍ عسكريٍّ يُسمَّى بطليوس Ptolemy بدلًا منه.

وحينما حلَّ موعد دفع النقود الذهبيَّة في السنة التالية رفَض بطليوس دفعها، الأمر الذي جعل عياض يعبر نهر الفرات مع جيشه، وزارَ كلَّ مدينةٍ في العام 639-640م ليطلب منها الخضوع، فبدأ بالرها في غرب الإقليم، وتدريجيًّا حتَّى وصل إلى نصيبين في الشرق منه. فتحت الرها أبوابها له، ولذلك كافأها بمعاملة مناسبة، فقد احترم حياة سكَّانها وممتلكاتهم، بل سمح لبطليوس الذي كان يقيم هناك بمغادرة المدينة مع جنوده إلى الأراضي البيزنطيَّة. وعُوملت أغلب المدن القريبة بتلك الصيغة التوافقيَّة نفسها، ومنحت معاملة كريمة. ولكن قرَّرت كلٌّ من مدن تلا Tella ودارا Dara المقاومةَ، وكانت تلا قد قرَّرت الاستعداد للحصار، لكنَّ "عياض" فاجأها بهجوم كاسح، وبعد الاستيلاء عليها قتلَ حرسَها البالغ عددهم ثلاثمئة جنديٍّ. أمَّا دارا الواقعة على الحدود البيزنطيَّة - الفارسية مباشرة، التي صمدت أمام الهجمات الفارسيَّة لمرَّات

1- ثيوفيلوس، 118-121، مصدر هذه الرواية عن عياض.

متعدِّدة من قبل؛ ربَّما شعرت أنَّها قادرة على الصمود أمام العرب كذلك (صورة 2.5)، ولكن استولوا عليها بسرعة أيضًا وقُضيَ على الجند المرابطين فيها. رجع عياض بعد ذلك إلى قنسرين، ومن هذه القاعدة البعيدة بقي يحكم الجزيرة كلَّها في العقود اللاحقة، وهذا البعد يعني أنَّ انهماك العرب بشؤون الولاية كان ضئيلًا. ولم نسمع بإقامة العربِ مدينةً خاصَّةً بهم هناك، وكما حدث في سوريا والعراق، وبِّما أنَّ هذه المدن أصبحت معزولةً الآن عن العالم البيزنطيِّ؛ فلم تعد محلَّ رعاية أو مضايقة إمبراطوريَّة. لقد بقيت نماذج الحكومات المحلِّيَّة وجباية الضرائب سليمة في الأعمِّ الأغلب، وبقيت العوائل الأرستقراطيَّة تتولَّى مسؤوليَّة الحكومات المحلِّيَّة منذ أن كانت أجزاء من الإقليم تحت سيطرة الفرس، وكما كان عليه الحال قبل الفتوحات. وكذلك بقي المسيحيُّون من ذوي المؤهَّلات اليونانيَّة يديرون الأراضي التي كانت خاضعةً لبيزنطة سابقا. "كان المسيحيُّون لا يزالون الكُتَّاب، والقادة، والحكَّام"، كما ذكر أحد المؤرِّخين[1]. ويبدو أنَّ هذه الحالة بقيت كذلك حتَّى نهاية القرن السابع الميلاديِّ على الأقلِّ.



صورة 2.5

أسوار مدينة دارا في الجنوب الشرقيِّ من تركيا (كما تمَّت رؤيتها في عام 1978م). جيم كرو

1- ثيوفيلوس، 294 185 .n (يذكر ديونيسوس من تلمهر، ت: 845).

من هم الفاتحون؟

إنَّ الانطباع الذي يحصل المرء عليه من المصادر المعاصرة التي رجعنا إليها ه
أنَّ الحلف العربيَّ الإسلاميَّ في غرب الجزيرة العربيَّة في أواخر عشرينيَّات ومط
الثلاثينيَّات من القرن السابع الميلاديِّ كان واحدًا من بين عدَّة مجموعات تحاو
الاستفادة من تدهور الوضع الأمنيِّ نتيجةً لظروف الحروب بين بيزنطة وبلاد فارس ق
الفتوحات، حتَّى أصبحت الغارات على مناطق الأطراف في تلك الإمبراطوريَّا
مستوطنة في العشرينيَّات من ذلك القرن. وحتَّى حينما كانت تقعُ عمليَّات الفتح ف
أواخر الثلاثينيَّات، استغلَّ بعض الانتهازيِّين ظروف الفوضى السياسيَّة؛ للثراء. فعا
سبيل المثال، أخذَ أحد الزعماء - الذي يحمل اسمًا غير عربي ولا إسلامي يُدع
"كنعان" - هو وأتباعه بعض الأسرى من جنوب الأناضول وقتلوا القائد البيزنطيَّ الذ
حاول تحدِّيهم[1]. إنَّ مثل هؤلاء الانتهازيِّين يُستبعدَون من التاريخ من المؤرِّخ
المسلمين المتأخِّرين، أو إذا ذُكروا فإنَّهم يُعيدون صياغة أخبارهم إمَّا كأنبياء كاذبين،
أنهم من المسلمين المخلصين. أمَّا المؤرِّخون المسيحيُّون؛ فقد أخبرونا عن بعض ه
الأطراف المغيرة، الذين لم يكونوا جزءًا من الحلف الإسلامي، ولكنَّهم غير مهتم
بتفصيلات شخصيَّاتهم، وعادةً ما يشيرون إليهم بمصطلحات عرقيَّة كالساراسين

1- ثيوفيلوس، 109. ومن أمثلة الذين شاركوا في الفتوحات العربيَّة، اللذين قيل إنهم اعتنقوا الإسلام، لكنَّهم يعرفون القليل منه، انظر: Tannous, Syria between Byzantium and Islam, 407-429. إذن، يمكن القول إنَّ الفتوحات العربيَّة يمكن أن تحدث دون النبيِّ محمَّد والإسلام، ولكن - كما حاولت أن أوضِّح في هذا الكتاب - هناك احتمال ضئيل أن تنتج لنا حضارة جديدة؛ وبعكس ذلك، ربَّما لم ينتشر الإسلام إلى تلك المناطق الشاسعة، وبالتأكيد ليس بالسرعة نفسها، وربَّما نجاحات العرب التي دعمت ادِّعاءاتهم بصورة دراماتيكيَّة على أنها بتأييد من الله لم تتحقَّق من دون الفتوحات العربيَّة.

الطائيِّين. ولذلك، فمن غير الممكن لنا إلَّا أن نغوص في مظان روايات الفتوح التي يذكرها المسلمون المتأخِّرون من أنَّ مغامرة الفتوح قد أُديرت بشكلٍ تامٍّ من النبيِّ محمَّد وأتباعِه من المدينة. لكنَّ هناك ما يكفي من الثغرات في روايات الفتوح، مِمَّا يجعلنا نرى أنَّ الفتوحات العربيَّة لم يبدأها النبيُّ محمَّد لوحده، إنَّما بدأت قبله، وكانت تُدارُ من قادةٍ آخرين في مناطق أخرى، لا يمكننا تحديد هُويَّاتهم وأهدافهم بسهولة حتَّى الآن.

فمن الناحية الإيجابيَّة نملك معلوماتٍ معاصرةً حول حلف الرسول من النصوص التي وردت في مواعظه (القرآن) ومن المعاهدة التي توصَّل إليها أثناء وصوله إلى المدينة. ومِمَّا يثير الدهشة أكثر خطَّة العمل التي وضعها النبيُّ محمَّد، وإن كانت بسيطة جدًّا لكنَّها فاعلة: تكوين الجماعة المؤمنة (الأمَّة) وعليها الذهاب إلى مكانٍ آمن (الهجرة)، ومن هناك الشروع بالجهاد ضدَّ المشركين الذين عرَّفهم القرآن بأنَّهم أولئك الذين ينكرون وحدانية الله أو يضعفونها، وإنْ لم نسمع كثيرًا عن رأيهم في هذا المجال. إنَّ معاهدة التأسيس التي توصَّل إليها النبيُّ محمَّد في المدينة لقتال المشركين كانت عبارة عن ميثاقٍ للدفاع المشترك (كلُّ الموقِّعين عليها في الجهد الحربي ضدَّ العدو المشترك). ومصطلح المُوقع على الوثيقة يعني «المؤمن»، أو «المُخلص». أمَّا بالنسبة إلى الكلمة الإنكليزيَّة «مخلص» «مؤمن»؛ فهي ذات معنى مزدوج، أي الموالي والمُعتقِد. وهي تُستعملُ في القرآن الكريم بشكلٍ عامٍّ في الغالب، ولكن في معاهدة التأسيس يبدو أنَّها ذات معنى اجتماعيٍّ وشرعيٍّ، وتُصنِّف أولئك الذين التزموا بالولاء للجماعة الجديدة وإرشادتها، الذين يقبلون أنَّ الحكم النهائيَّ والأسمى للجماعة هو الله الواحد الأحد ونبيُّه محمَّد[1]. كان أغلب المسلمين من

1- يُسمِّي الباحثون المحدثون في العادة هذه المعاهدة التأسيسيَّة "بدستور المدينة". بالنسبة إلى آخر ترجمة لها، انظر: S.A. Arjomand, "The Constitution of Medi na,"International Journal of Middle East Studies 41 (2009)، الذي يعدُّ المؤمنين "المعاهدين المخلصين". ومع ذلك، فإنَّ F. Donner في بحثه الموسوم From Believers to Muslims, Abbath 50-51 (2002-2003) يشعر أنَّه مصطلحٌ دينيٌّ بشكلٍ عامٍّ.

المهاجرين من مكَّة، أو من معتنقي الإسلام في المدينة، واليهود، وربَّما القلَّة من المسيحيِّين وأصحاب الطبيعة الواحدة من مختلف الجماعات. لقد أعلنت المعاهدة صراحةً "أنَّ للمسلمين دينهم ولليهود دينهم"، ولكن لأهداف الحرب «كلهم جماعة واحدة».

كان تحالف النبيِّ في هذه المرحلة ذا طبيعةٍ جماعيَّة، مع التزام كلِّ فردٍ منه بالجهاد ضدَّ المشركين ومهما كانت عقيدتهم الواحديَّة[1]. وبقيت هذه الحالة سائدة لبعض الوقت حتَّى وفاة النبيِّ، ولكن حينما دخلت الجيوش العربيَّة إلى بلاد الشام أصبح اليهود أقلَّ أهمِّيَّة والمسيحيُّون أقل بكثير. وقد قلَّل المؤرِّخونَ المسلمونَ المتأخِّرونَ من البعد الجمعيِّ، وأخذوا يُصوِّرون الفتوحات على أنَّها مغامرةٌ عربيَّةٌ بحتةٌ. وحينما سُئل الفقيه المشهور أحمد بن حنبل (ت: 856م) حول مكانة اليهود والمسيحيِّين في الجماعة الإسلاميَّة، أجاب: "إنَّه سؤال تافه، يجب على المرء ألَّا يناقشه"[2]. ولحسن الحظِّ أنَّ الطريقة الانتقائيَّة والشاملة لجمع المعلومات للكثير من هؤلاء الفقهاء تعني أنَّهم نقلوا معلوماتٍ قد لا تتطابق مع ما يَدعُونَ إليه، ومن ثَمَّ تسمح لنا في بعض الأوقات الحصول على ومضاتٍ لصورٍ مختلفةٍ مِمَّا كان يُجمعُ عليه في القرن التاسع الميلاديِّ. كان الفقهاء المسلمون يناقشون – على سبيل المثال لا الحصر – أحكام النبيِّ فيما يتعلَّق بتحديد الحصَّة من غنائم الحرب التي يجب أن تذهب إلى اليهود والمسيحيِّين الذين يقاتلون إلى جانب المسلمين.

وبالطبع، إنَّ الجيوش المتنوِّعة العقائد كانت تُكوِّن جميع القوى الغازية الكبرى في التاريخ، التي استفادت من مجموعاتٍ خارجيَّة إلى جانب مناصريها الأساسيِّين.

1- ربَّما يقارن المرء بينهم وبين أولئك الذين قاتلوا في الثورة العبَّاسيَّة عام 750م، الذين لم يعرفوا أنفسهم لا عرقيًّا ولا دينيًّا، ولكن بدورهم في الثورة وإنجازاتها المستمرَّة، مستخدمين شعار "أهل الدولة، أي أهل الثورة".

2- عن المصدر والنقاشات، انظر: ZizgorichK, Violence and Belief, 231-271.

وهذا ما يتوقَّعه المرء آنئذٍ. فقد كان يُرحِّبُ دائمًا بالقوى البشريَّة الإضافيَّة من المصادر المحلِّيَّة، ولا سيَّما إذا كانت الجيوش تقوم بعمليَّاتها الحربيَّة في أقاليم تكون فيها أقلِّيَّة صغيرة وغريبة، ولذلك فالجيوش الناجحة تذهب للتودُّد للعناصر الناقمة وتُجنِّد العناصر المحلِّيَّة الراغبة منهم. مثلا: كانت العناصر غير البريطانيَّة تُشكِّل نسبة 80٪ من قوَّات الجيش البريطانيِّ المتواجد في الهند. وفي المراحل المبكِّرة من الفتوح واجه حلفُ القبائل العربيَّة الإسلاميَّة من غرب الجزيرة القبائلَ العربيَّة المسيحيَّة في السهول السوريَّة وصحاريها، وكان عددٌ منهم من حلفاء الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة. وفي الغالب صُـوِّروا على أنَّهم منقسمون في ولائهم: بعضهم قاتل إلى جانب الإمبراطوريَّتين، وبعضهم الآخر قاتل إلى جانب الفاتحين، الذين كان بعضهم في الواقع قد تحوَّل إلى الإسلام، والآخر بقي على عقيدته. ففي المعارك الأولى بجنوب العراق - مثلًا - جاء زعماء قبائل نمير وتغلب لمناصرة القائد الإسلاميِّ برجالٍ من قبائلهم «الذين كانوا من المسيحيِّين»، إذ قاتلوا بصلابةٍ على الرغم من أنَّ المعركة كانت قاسيةً وطويلة الأمد، وشجَّع القائد الإسلاميُّ الزعيمين قائلًا لهم: «إنَّكم من العرب، وإن لم تكونوا من أتباع ديننا»[1].

أمَّا من الناحية الاجتماعيَّة؛ فقد كان الفاتحون متنوِّعين أيضًا، فالقيادة جاءت من قبائل واحات المدن الواقعة في غرب شبه الجزيرة العربيَّة، ولا سيَّما من مَّكة والمدينة والطائف، أو من بعض الأماكن الجبليَّة الخصبة من اليمن، حيث كانت أغلب القبائل من المزارعين المستقرِّين، وكما هو الحال اليوم. أمَّا القسم الأساسي من المراتب

1- الطبري، I. 2190، 2192. لمزيد من النقاشات وأمثلة أخرى، انظر: "Non-Muslims in the Muslim Conquest Army" في

A.Borrut et al., Christians and Others in the Umayyad State (Chicago, 2014)..

بعض القبائل العربيَّة - أو قسم منها - بقوا مسيحيِّين حتَّى القرن التاسع الميلاديِّ على الأقلِّ، ولاسيَّما في شمال بلاد الشام والجزيرة.

الأخرى؛ فكانوا من القبائل الرعويَّة البدويَّة، الذين وصفهم القرآن الكريم بشيء من الشكِّ، وعَدَّهم غير جديرين بالثقة ومن المتقلِّبين، ولكنَّ إمكاناتهم العسكريَّة وسهولة تجنيدهم كانتا من المتطلَّبات الحاسمة في نجاح الفتوحات العربيَّة، وكانت أيضًا ضروريَّة لخطط الغزو لرجال المدن العرب من بعدهم حتَّى وقت ابن سعود في مطلع القرن العشرين. فالبدو أقوامٌ متنقِّلون، اعتادوا القتال للدفاع عن شرفهم وعشائرهم، وكذلك لتعزيز مدخولاتهم، وإنَّ نسبة الرجال المطلوبين للقتال في المجتمعات البدوية تصل إلى ضعف ما هو مطلوب في المجتمعات المستقرَّة، سواء كانوا غير جديرين بالثقة أم لا، فهم ضمانة حاسمة آنذاك، ويمكن الحصول على الأدلَّة لكسبهم إلى الحلف الإسلاميِّ في غرب الجزيرة العربيَّة من أقوال الخليفة عمر بن الخطاب في قوله: «كن جيِّدًا مع الأعراب فهم أصل العرب وسند الإسلام»، وفي حثِّهم بصورة عامَّة على عدم ترك الحاميات العسكريَّة والعودة إلى حياة البدو (التعرُّب)[1].

وكلَّما أحرزت الفتوحات تقدُّمًا وأنجزت انتصاراتٍ اكثر، أخذت الكثير من المجموعات غير العربيَّة وغير الإسلاميَّة الانضمام إلى الفاتحين. وهذا بالطبع من الظواهر الثابتة في الجيوش الإمبراطوريَّة، حيث يكون الفاتحون الأوائل أقلِّيَّة، ولكن حينما يبرهنون على نجاحهم فإنَّهم سرعان ما يجذبونَ أناسًا آخرين إلى جانبهم، ولا سيَّما أولئك الذين لم يندمجوا بالمجتمع لأيِّ سببٍ كان، أو لا يتمتَّعون بالمكانة نفسها في دولتهم الأصليَّة. والأمثلة على ذلك: الديلم في السواحل الجنوبيَّة الغربيَّة من بحر الخزر، والزط، والسايابيجه Sayabija والأندوغار Andaghar الذين جاؤوا

1- J.Paul, 'The State and the Military - a Nomad Perspective ', Orientwissenschaftliche Hefte 12 (2003), n. 19
(بدأت الزراعة بالمعاناة أكثر من النسبة المحدَّدة للرجال - تختلف هذه النسبة، لكنَّها لا تتجاوز الواحد بالعشرة - بينما في المجتمعات البدوية يمكن أن ترتفع إلى واحد من أربعة أو أكثر):
Bashear, Arabs and Others, ch. (a'rab).

من الهند كما يقال، ولكنَّهم خدموا في الجيوش الفارسيَّة في فترة ما قبل الإسلام. كان بعضهم على علاقاتٍ سيِّئة مع أسيادهم السابقين، ولكنَّهم انتهزوا الفرصة للانضمام إلى الفاتحين؛ لتحسين وضعهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال قبائل لواته البربريَّة التي عانت حينما أعاد البيزنطيُّون الاستيلاء على شمال أفريقيا في أربعينيَّات القرن السادس الميلاديِّ، وتمَّ إقصاؤهم إلى حدٍّ ما من المجتمع البيزنطيِّ، ولذلك ليس من المستغرب انضمامهم بسرعةٍ إلى الفاتحين العرب في أربعينيَّات القرن التالي. وآخرون لم يرغبوا أن يكونوا ببساطة مع الجانب الخاسر. فعلى سبيل المثال، عرضت نخبة الخيالة الفارسيَّة (أساورة) مهاراتها على الفاتحين في أعقاب هزيمة الفرس الكارثيَّة في جنوب العراق في عام 638م بشرط أن يُمنحوا أعلى المكافآت على خدماتهم، وكذلك قوَّة من السلاف انشقَّت عن البيزنطيِّين حينما وُعِدَت بإعادة استيطانها في سوريا، وتزويجهم، ودفعات نقديَّة وعينيَّة[1].

يدَّعي المؤرِّخون المسلمون أنَّ تلك العناصر المتعاونة غير العربيَّة وغير الإسلاميَّة اعتنقت الإسلام حالما غيَّرت رأيها ووقفت إلى جانب الفاتحين. ومن الأمثلة التي ذُكرت على ذلك، احدى الجماعات التي كانت تسكن في جنوب العراق، «وكانت تسكن بين قبائل تميم في البصرة في أيَّام الخليفة عمر بن الخطاب، اعتنقت الإسلام وقاتلت مع المسلمين، ومَيَّزت نفسها حتَّى قال الناس «أنكم ليس عربا الا أنكم اخواننا ومن أهلنا» ومع ذلك نحن نعلم أحيانًا أنَّ التحوُّل ليس ضروريًّا، أو يحدث بصورةٍ مباشرة». فقد كتب الراهب جون فينيك John Fenek في سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، وهو من شمال بلاد ما بين النهرين، يخبرنا أنَّه كان من بين الجيوش الإسلاميَّة «عددٌ غير قليل من المسيحيِّين، بعضهم من الهراطقة، وبعضهم الآخر منَّا». ويذكر أحد المصادر الإسلاميَّة بصراحة أنَّ قوَّات الديلم التي قاتلت إلى

1- الطبري، 1.2497، 2562-2563 (أساورة)؛ ثيوفيلوس، 185-186 (سلافيين).

جانب المسلمين «لم تكن قد اعتنقت الإسلام»[1]. وعلى الرغم من أنَّ قوَّة الخيَّالة الفارسيَّة قيل إنَّها اعتنقت الإسلام حالًا بعد انشقاقها في عام 638م، فإنَّها اقتنت أسماء غير إسلاميَّة مثل ماه أفريدون Mah Afridhun ومعاوية Mahawayh حتَّى أواخر القرن السابع الميلاديِّ. وفي الواقع، على الرغم من أنَّ الكثير من جوانب الحياة في مثل هذا العصر يُعبَّر عنها بمفرداتٍ دينيَّة، فإنَّ التعاون والتحوُّل الدينيَّ غالبًا ما يُصوَّران على أنَّهما شيءٌ متشابهٌ تقريبًا[2].

وباختصار: كانت تركيبة الفاتحين مختلطة إلى حدٍّ ما ومتغيِّرة بمرور الوقت، على الرغم من أنَّ النواة الأساسيَّة لهم كانت من رجال القبائل من الجزيرة العربيَّة ومن المناطق الحدوديَّة للإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة. ولذلك ألصقَ مؤرِّخو العصور الوسطى وكذلك المحدثون صفةَ العرب على تلك النواة الأساسيَّة، ولكن من الصعب أن نعرف بالتأكيد ما هو مدى وعمق هذا التوصيف العربيِّ ليشمل السنوات الأولى من الفتوحات. فهذا المصطلح كان نادر الاستعمال إلى حدٍّ كبيرٍ في شعر ما قبل الإسلام، وربَّما كان ذلك بسبب أنَّ الشعراء كانوا يركِّزون في الغالب على قبيلتهم أو على القبائل المتحالفة معها. ففي الفترة المبكِّرة من تاريخ الإسلام اتُّهمت بعض القبائل

1- الأصفهانيُّ، كتاب الأغاني (القاهرة، 1927-1947)، 3.257 (تميم)؛ A.Mingana، مصادر سريانيَّة (لايبزك، 1908)، 147 و175 (جون فينيك)؛ الطبري، 1.2341 (ديلم). إنَّ مسألة من الذي اعتنق الإسلام ومتى قد تعقَّدت بغموض معنى الفعل "أسلم"، الذي يمكن أن يعني الاستسلام لكائن بشري، أو التسليم لله ولرسوله (أي يصبح مسلما). ويميل المؤرِّخون في العصور الوسطى ومعهم قليل من المؤرِّخين المحدثين إلى الافتراض إلى المعنى الدينيِّ فقط لا غير؛ لأنَّ المعنى المدنيَّ يمكن أن يُطبَّق على عدَّة حالات، ولا سيما في الفترة المبكِّرة.

2- ما يتعلَّق بمسألة الخيالة الفرس، انظر: Crone, Slaves and Horses, 237-238n.362. ومن الملاحظ أنَّ التعاون/ الاعتناق كان كالطريق المزدوج، مثلا يذكر سيبيوس أنَّه في بداية الحرب الأهليَّة العربيَّة عام 656م، كان قسم كبير من القوَّات في مصر، "نحو 15،000 مقاتل يؤمنون بالسيِّد المسيح وتمَّ تعميدهم" - ومن المحتمل جدًّا كانوا من العرب المسيحيِّين أو من البيزنطيِّين الذين انتقلوا إلى الجانب العربيِّ بعد فتح مصر، ولكنَّهم الآن "اتحدوا مع الإمبراطور البيزنطيِّ، وعقد معاهدة وأعادوا الانضمام إليه" (سيبيوس، 154؛ ابن عبد الحكم، 129، يتحدَّث عن "أبناء حنا، أزرق ورويل" سجَّلوا في جيش عمرو بن العاص، وربَّما كانوا من البيزنطيِّين).

العربيَّة بأنَّها ليست عربيَّة، إذ نرى أحد أفراد قبيلة عبد القيس يستهزئ بقبيلة الأزد العمانيَّة قائلًا: «في العصور القديمة هم أنفسهم قد تطهَّروا روحيًّا، ويمضون في خداعهم بأنَّهم عربٌ، على الرغم من أنَّهم من الفرس (عجم)»[1]. ومع ذلك، ففي مثل هذا النوع من الشعر الهجائيِّ كان من الشائع أن ترمي نسب الخصوم بالشكِّ والريبة. إنَّ ما يمكن قوله بدرجةٍ من الثقة هو أنَّ الفتوحات وفَّرت عمقًا وشموليَّةً للهُويَّة العربيَّة؛ لأنَّ حياة الجنديَّة من شأنها أن تعمل على توحيد الأثر النفسيِّ لدى الجند، وما على القادة العرب المسلمين إلَّا أن يضبطوا إيقاع ذلك. فضلًا عن أنَّ الأحداثَ الناجحة والمهمَّة لا بدَّ أن تُمنح درجةً من التضامن والفخر والشعور العام بين أولئك الذين أسهموا في صنعها، التي تقودهم للاتصال بالشعوب الأخرى، وإعطائهم إحساسًا أكبر بخصائصهم التي تميِّزهم من غيرهم. وبصورةٍ عامَّة حينما يترك الإنسان موطنه الأصليَّ ويسكن في بلدٍ أجنبيٍّ فإنَّه يفكِّر بالانتماء إلى المجموعات الكبيرة فيه، بينما يتبنَّى مفردات أكثر محلِّيَّة حينما يكون بين أبناء بيئته الأصليَّة. وكذلك الفاتحون، فهم يتعاملون الواحد مع الآخر بالإشارة إلى قبائلهم وعشائرهم، ولكنَّهم حينما يواجهون الفرس والبيزنطيِّين والبربر والسوجنديِّين Sogdians والأتراك وغيرهم فإنَّهم يضعون وزنًا أكبر لهُويَّتهم الأشمل وهي «العروبة» Arabness. وقد تعزَّز هذا الشعور بحقيقة كونهم الفاتحين، وهو ما منحهم إحساسًا بالتفوُّق على الشعوب الأخرى[2].

1- لقد ذُكرت عند الخالديِّ "الشعر والهوية في العصر الأموي"، الأبحاث، 50-51 (2002-2003)، 72-73، الذي لاحظ أنَّ مصطلح "العرب" أصبح شائعًا في الشعر بازدياد خلال الفترة الأمويَّة (661-750م). وبعض النقوش الأمويَّة (مثل نص إعادة إعمار حمام حماة قادر لعام 662م)، والوثائق (مثل طلبات الضريبة من سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ التي وُجدت في نيسانا Nessana بجنوب فلسطين) المؤرَّخة حتَّى سنوات "بالاستناد إلى العرب" (كاتا أرباس Kata Arabas)، وأناستاسيوس أوف سيناء (ت: نحو 701م) يستخدمون مصطلحات العرب والساراسين بطريقة متبادلة
(Binggeli, Anastase le Sinaite, Ph.D thesis, Paris IV , 2001, 1.4, 2.2, 2.13).

2- وبالعكس، إذا لم تؤدِّ الفتوحات إلى إمبراطوريَّة موحَّدة، فإنَّها إما أن تكون خائبةً، أو تنتج لنا عدَّة دويلات منفصلة، عندئذٍ ستتحدَّث عن مجموعات قبليَّة عربيَّة منفردة، مثل معد وكندة، بالطريقة نفسها التي نتحدَّث بها عن المجموعات الجرمانيَّة في العصور الوسطى كالقوط والوندال في العصور الوسطى المبكِّرة.

القتال في سبيل الله، القتال من أجل المكاسب

اذن، يجب ألَّا نَعُدَّ الفتوحات نوعًا من المشاريع القوميَّة كما اقترح بعض الباحثين الأوروبيِّين أحيانًا، ولا سيَّما أولئك الذين تأثَّروا بنهوض الأمَّتينِ الألمانيَّة والإيطاليَّة في نهاية القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أنَّ الهُويَّة العربيَّة كانت بالتأكيد موجودةً في فترة ما قبل الإسلام، فإنَّ الفتوحات عمَّقت تلك الهُويَّة ونشرتها، وفوَّض الحكَّام المسلمونَ الأوائل المؤرخينَ والشعراءَ إعطاءَها جوهرَها وشكلَها. فهل كانت هذه الهُويَّة من حفَّز الفاتحين للإقدام على المغامرة؟ قد يجادل المرء بعدم الحاجة لافتراض أسباب لذلك؛ لأنَّ بعض القبائل القاطنة على هامش تلك الدول قد تنقلب عليها مرارًا؛ لاستكمال مدخولاتها سواء بالسلب والنهب بفدية الأسرى لديها أم بابتزاز المساعدات. وفي العادة كانت عناصر أمن الدولة تتابعهم وتتخلَّص منهم بسرعة، وعكس ذلك يعني أنَّهم سيعودون بأعدادٍ كبرى للممارسات نفسها تقريبًا، وإذا لم يُراقَبوا فإنَّ تلك الممارسات ستكبر وتتحوَّل إلى غزوات على المدى البعيد. وهذا ما يمكن تصنيفه ضمن عملية التحفيز الذاتيِّ: فالأحداث الأوَّليَّة الصغيرة تحفِّز وتقود إلى سلسلةٍ من ردود الأفعال وتتطوَّر بمعدَّلات أسرع وأكبر. وهذا ما يقودنا بعض الأحيان إلى تفسير اندلاع غارات الفايكنغ التي حدثت بعد الهجوم المربح كثيرًا على جزيرة ليندزفارن Lindisfarne الإنكليزية في سنة 793م، وكذلك اندفاع أوروبا لحملات الاستكشافات البحريَّة بعد «اكتشافات» كولومبس للعالم الجديد (الأمريكيتين) في عام 1492م. وقد يعترض بعضهم؛ لأنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى الفوضى وليس إلى كسب مكانة رفيعة، ولكن إذا تمَّ الحصول على أراضٍ شاسعةٍ فإنَّ القادة

الماهرين سيشرعون بإدارة الأوضاع هناك، كما حدث مع الفايكنغ ومع المغول فيما بعد. وهذا بالتأكيد ينطبق على ما تعلَّمناه من الأوصاف المعاصرة للمراحل المبكِّرة من الفتوحات العربيَّة حينما أنتجت الغارات العشوائيَّة والصغيرة نجاحًا، وحفَّزت رجال القبائل العربيَّة على المشاركة بأعدادٍ كبيرةٍ جدًّا في تلك الفتوحات. وفي هذه الحالة ربما كان الحلف الإسلاميُّ واحدًا من بين عدَّة مجموعاتٍ استفادت من الفوضى التي كانت سائدةً بسبب النزاع البيزنطيِّ الفارسيِّ، على الرغم من تنظيمهم العالي وارتباطهم الأيديولوجيِّ الذي ساعدهم على أن يصبحوا المجموعة المسيطرة.

إنَّ فكرة «الصدفة» في التاريخ (أي التاريخ عبارة عن استجابات إنسانيَّة قابلة للخطأ لأفعال وحوادث غير مقصودة) لا تنطبق هنا بشكلٍ عامٍّ، وفي العادة يُقترَح نظام عوامل الدفع والجذب بهذه الحالة. ومن أبرز العوامل الشائعة المذكورة هو سهولة توافر السلب والنهب؛ نتيجةً لضعف الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة (عامل الجذب)، وفقر البيئة والاقتصاد في شبه الجزيرة العربيَّة (عامل الدفع). والحالة التي كثيرًا ما تُقدَّمُ هي الإنهاك والضعف الإمبراطوريُّ، وإن لم يُوثَّق في الواقع، وإنَّ هزيمة هرقل للفرس وما نتج منها من فشلٍ لإسناد حكومتها في ساعة ضعفها الأكبر قد وُصفت مؤخَّرًا بأنَّها «هبة هرقل للإسلام». وكانت الفكرة بوجود ظروف اقتصاديَّة أو بيئيَّة سيِّئة تسود شبه الجزيرة العربيَّة في النصف الأوَّل من القرن العشرين، ولكنَّها انتهت إلى شيءٍ بغيضٍ بعد ذلك. ومع ذلك، فإنَّ نتائج المسوحات الأخيرة للتنقيبات في شرق وغرب شبه الجزيرة العربيَّة أوضحت انخفاضًا جوهريًّا في النشاط الاستيطانيِّ في القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين، وكان الانهيار في اليمن القديمة مروعًا بعد تراثٍ استمرَّ لألف وخمسمئة سنة، ولا بدَّ أن تكون لهذا الانهيار نتائج سلبيَّة على المجتمعات المجاورة. ومن المفترض أنَّ شبه الجزيرة العربيَّة عانت تدهورًا مشابهًا في نشاطها الاقتصاديِّ في القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين كما حدث لأوروبا

في القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين، ثمَّ اعتناق الكثيرُ من المقيمين الإسلامَ في شبه الجزيرة العربيَّة والإغارة على أسيادهم الإمبراطوريِّين؛ لموازنة الانخفاض الحادُّ في مداخيلهم. ومع ذلك فإنَّ عدم الاستقرار السياسيِّ والانكماش الاقتصاديِّ أنهكا مناطق كثيرة امتدَّت من البلقان حتَّى الصين، ومن المحتمل كان ذلك التدهور في الأحوال الماديَّة شائعًا إلى حدٍّ كبيرٍ.

كانت هناك ضغوط اقتصاديَّة أو بيئيَّة في الظاهر أثَّرت في أجزاء كبيرة من أوراسيا، مِمَّا وضع الإمبراطوريَّات في حالة إنهاكٍ، وتركتها بشكل أكبر عرضة للافتراس من سكَّان السهول والصحارى المحيطة بها، ولكن ذلك يحتاج إلى بحث أوسع[1].

وبعد ظهور الجماعات الإسلاميَّة المتطرِّفة مثل القاعدة في السنوات الأخيرة بشكلٍ خاصٍّ كان الإسلام عامل الجذب الأكبر الذي كثيرا ما تردَّد ذكره، ومن المفترض أنَّه هو الذي وحَّدَ رجال القبائل العربيَّة تحت راية واحدة وشحنهم بالحماس لخدمة الله بقتالهم المشركين وفرض حكم الله على العالم كلِّه. كان المؤرِّخون المسلمون في القرن التاسع الميلاديِّ ينشرون مثل هذه الرسالة، واعتنقها الباحثون الغربيُّون المحدثون مؤخَّرًا. "كانت العقيدة القوَّة المحرِّكة وراء الفتوحات الإسلاميَّة"، كما وضعها أحد الباحثين بإحكام[2]. ومع ذلك، شعر بعض هؤلاء الباحثين بقليلٍ من الضيق حينما رأوا أنَّ الدين «يجسِّد قلقًا شديدًا للحصول على الخلاص الشخصيِّ من طريق السلوك السويِّ» ويدفع أتباعه لامتشاقِ سلاحهم أيضًا. ولذلك فإنَّهم يكافحون

1- Bowersock, Empires in Collison, ch. 3 (Heraclius 's gift);

وحول التفسيرات البيئيَّة، راجع الهوامش 26-27 في الفصل الأوَّل من هذا الكتاب، و

J.Halden ," Resources of Late Antiquity," in Robinson ed., New Cambridge History of Islam I, 22-25.

2- Howard-Johnston, Witnesses, 464.

يُذكر من فترة لأخرى أنَّه العامل الرئيس في الفتوحات العربيَّة (مثل، Spuler, Iran , 6، وبيرين، محمد وشارلمان، 150-151)، ولكن أصبح مؤخرا التفسير المسيطر والسائد.

لتقليل دور العنف في الفتوحات، على الرغم من عدم استطاعتنا رؤيتهم يتخلّون عن جوهر تلك الرؤية "بوصفها عمليَّةً سلميَّةً تمامًا خاليةً من العنف ضدَّ الشعوب المفتوحة أو إكراهها"(1).

تعكس هذه الآراء محاولةً لتقديم الإسلام بصورةٍ أكثر إيجابيَّة في عالمٍ تنمو فيه ظاهرة «الإسلام فوبيا». ولكنَّ مثل هذه الأهداف التبريريَّة - على الرغم من نبلها - لا مكان لها في الكتابات التاريخيَّة. فالإمبراطوريَّات كلُّها كانت تعتمد على العنف والإكراه من أجل بقائها، ومع ذلك، وعلى الرغم من قلَّة عدد النخب الإمبراطوريَّة دائمًا بالنسبة إلى أعداد بقية مواطنيها، فإنَّ الإمبراطوريَّات استفادت من السياسات اللاعنفية للحفاظ على حكمها: احتواء الراغبين، ومكافأة المتعاونين، والوعد بالحماية مقابل الخضوع، واتباع سياسة فرِّق تسد، وهكذا. والإمبراطوريَّة العربيَّة ليس استثناء من ذلك، ولا تحتاج إلى معالجة خاصَّة بها. ومع ذلك، ففي الوقت الذي ظهر فيه العرب على المسرح كان استخدام العنف للأغراض الدينيَّة مقبولًا منذ زمن بعيدٍ، إن لم يكن جديرًا بالثناء في الشرق الأوسط وفي ظروف معيَّنة على الأقلِّ. فحينما هاجمت زمرة من المسيحيِّين أحد المعابد اليهوديَّة في الشمال السوريِّ عام 388م أراد الإمبراطور أن يُطبِّق القانون الرومانيَّ ويعاقب المتَّهمين، لكنَّ أمبروز أسقف ميلان نصحه أنَّ المتديِّنين يجب أن يُذعنوا للمتديِّنين. وحينما رغب الإمبراطور هرقل في أن

1- Donner, Muhammad and the Believers, xii; Donner, F.,"Visions of the Early Islamic Expansion" in N. M. El Cheikh and S. O'Sullivan, Byzantium in Early Islamic Syria (Beirut, 2011), 28

إنَّ أولئك الذين يكرسون "النموذج غير العنفي للفتوحات" يشيرون إلى نقص الأدلَّة الأثريَّة عن انتشار التدمير (يذكرون P.Pentz, The Invisible Conquest, Copenhagen, 1992)، ولكنَّ القتال الرئيس كان يتكوَّن من معارك الميدان، أكثر من فرض الحصارات، وهذا ما يترك الجثث منتشرة على الأرض، وإنْ لم تكن لفترة طويلة. وهذه الحقيقة في الكثير من الفتوحات؛ على سبيل المثال، "فقد تمت الإشارة إلى أنَّ الأدلَّة الأثريَّة لا تعطينا أيَّة فكرة على الإطلاق من أنَّ الوندال قد غزو شمال أفريقيا" (Halsall, Barberian Migrations, 327).

يحشِّد جيشه لقتال الفرس أكد «أنَّ الموت في ساحات الوغى يفتح الطريق نحو الخلود»، ولذلك طلبَ منهم التضحية بأنفسهم من أجل الله ومن أجل مواطنيهم، و"نيل تاج الشهادة"[1]. وتنسجم هذه المواعظ بصورةٍ جيِّدة مع الإشارات المشجِّعة والمشابهة لها في القرآن « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». (النساء: 74).

والقرآن صريح أيضًا في مكافأة أولئك الذين يقاتلون في سبيل الله ويأملون في هذه الحياة «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» (الفتح :20)، وكذلك « فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» (الأنفال :69). وأوضح بما يكفي بأن «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً». (النساء :95)، وبأنَّ الله يجيز القتال والحصول على الغنائم، فلا حاجة لمناقشة أنَّ جنود الحلف الإسلاميِّ في غرب الجزيرة العربيَّة قاتلوا أكثر في سبيل الله أو من أجل المغانم، فالاثنان لا يمكن الفصل بينهما. وهي أيضًا تعزِّز بعضها الآخر: فالغنائم التي يغنمونها بالحرب في سبيل الله تجعل المحاربين أكثر رغبةً لخدمة الله سواء بالحرب أم بالعبادة. ومع ذلك، يجب ألَّا يفكِّر المرء أنَّ هذه الفكرة تسير يدًا بيدٍ بوصفها محاولةً لتحويل الشعوب المفتوحة إلى الإسلام. وكثيرًا ما ذهبت تلك الفكرة عكس ذلك وبعدَّة طرق؛ لأنَّ الغنائم سوف تتضاءل قيمتها إذا كان الآخرون لا بدَّ من مشاركتهم فيها. وهذه النقطة قد طرحها بقوَّة القادة المسلمون العرب في محاولتهم لتحفيز قوَّاتهم عشية اندلاع الحرب: «ترثونَ هذه الأرض كما وعدكم الله»، قال سعد بن أبي وقَّاص لجنوده قبل معركة القادسية، و«إنَّكم قد خبرتموها، وأكلتم منها، وقتلتم سكَّانها، وجبيتم الضرائب منهم، وأخذتموهم سجناء عندكم»، ولذلك من

1- Sizgorich, Violence and Belief, ch. 3 (Ambrose), J.Howard-Johnston, " The Official History of Heracliuas' Persian Campaigns,' in E. Dabrow, ed., The Roman and Byzantine Army in the East (Karkow, 1994), 85.

الضروري المحافظة على الوضع الآن[1]. وفي الواقع إنَّ ذلك يمثِّل فهمًا حرفيًّا لما ذكره القرآن ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: 105)، وهذا ما ورد بوضوحٍ في الإنجيل (سفر المزامير: ترنيمة 29).

ومع ذلك، هناك جانبٌ سلبيٌّ في الافتراض بأنَّ العقيدة هي المحرِّك الرئيس للفتوحات العربيَّة. ففضلًا عن صعوبة الحدس بحماسة مجموعة أكثر من الأخرى (ولماذا يجب أن نفكِّر أنَّ البيزنطيِّين والساسانيِّين أقلُّ حماسةً لعقيدتهم من العرب؟) فإنَّ هذا التفسير يركِّز بشكلٍ ضيِّق جدًّا على وقتٍ محدَّدٍ ومكانٍ معيَّن، أي على شبه الجزيرة العربيَّة في مطلع القرن السابع الميلاديِّ، ورجل واحد وهو النبيُّ محمَّد، ويتجاهل مجريات الأحداث الرئيسة في التاريخ العالميِّ. ولنأخذ مثلًا حديثًا وهو محمَّد بوعزيزي، بائع الفواكه التونسي الذي أشعل النار بنفسه في شهر كانون الأوَّل عام 2010م وكان الشرارة التي أشعلت الربيعَ العربيَّ، ولكنَّ أيَّ تحليلٍ دقيقٍ لهذه الظاهرة سيأخذ بالحسبان المعدَّلات العالية لبطالة الشباب، وارتفاع أسعار الموادِّ الغذائيَّة، والقيود المفروضة على وصول الشباب إلى مواقع السلطة، وهكذا. فمن الطبيعي أن نرى النبيَّ محمَّدًا مارس دورًا مهمًّا في الانتفاضة التي حدثت بعد وفاته، وكانت مواعظه السياسيَّة والدينيَّة وتنظيماته المفتاح الرئيس لاتجاهات الفتوحات في المستقبل. ومع ذلك، حقيقة أنَّ الشعوب الأخرى كالأتراك والآفار كانوا يتوقون لغزو بيزنطة وبلاد فارس في ذلك الوقت، وحقيقة وجود شخصيَّات متعدِّدة نشطة تدَّعي النبوَّة في شبه الجزيرة العربيَّة في مطلع القرن السابع الميلاديِّ؛ هذا كلُّه يستدعي الحاجة للنظر بشكلٍ أكثر شمولًا للأسبابْ النهائيَّة للفتوحات العربيَّة.

1- الطبري، 1. 2289.

الفصل الثالث

الفتوحات نحو الشرق والغرب (640 - 652م)

بعد خسارته أعدادًا كبيرةً من قوّاته في معركة اليرموك عام 636م، أرسل الإمبراطور هرقل تعليماته إلى قادته وحكّام الولايات بعدم الاشتباك في معارك مع العرب؛ وذلك للاحتفاظ بالقوّة البشريّة الثمينة ولشراء الوقت لحشد جيشٍ جديدٍ والبدء باستراتيجيّة جديدة. وربّما كان يأمل أنّ الله سيُقيِّد العرب كما فعل ذلك قبل سنوات قليلة مع الفرس. ولكن بدأ القلق حينما أخذت المدن بالاستسلام الواحدة بعد الأخرى، وكان ذلك واضحًا عند موت الإمبراطور في شهر شباط 641م، الذي أدّى إلى إشعال أزمة وراثة: ساند بعضهم ابن هرقل من زوجته الثانية وابنة عمّه مارتينا التي تؤيِّد التفاهم مع العرب، والآخر وقف إلى جانب حفيد هرقل كونستانس البالغ من العمر عشر سنوات ويمثِّله أحد القادة الكبار المدعو فالنتاين، الذي كان يؤيِّد سياسة أكثر حدَّة وشدَّة مع العرب. دخل فالنتاين القسطنطينيَّة في حالةٍ من الشغب والصخب في شهر أيلول سنة 641م، ونحّى مارتينا وابنها من العرش وتوَّجَ الشاب كونستانس إمبراطورًا. بدأ فالنتاين باغتصاب السلطات العسكريَّة والسياسيَّة للعرش

الإمبراطوريّ لنفسه، مستغلًّا قصور العمر للإمبراطور الشابّ، مِمَّا أثار غضب الرأي العامّ، ما أدَّى إلى اعتقاله وجلبه أمام الإمبراطور كونستانس الذي قبل التماسه وادَّعى أنَّه عمل ذلك بشهامة وبصورة لا إراديَّة؛ من أجل إنقاذ الإمبراطوريَّة من العرب، ولذلك عيَّنه الإمبراطور رئيسًا للحرس الإمبراطوريّ. وبعد سنتين كان فشلُ فالنتاين في إنجاز أيَّة نجاحات عسكريَّة تُذكر قد أدَّى إلى إضعاف مكانته ثمَّ شنقه من الجماهير. أصبح كونستانس مطمئنًّا في العرش، غير أنَّ ذلك يعني أنَّ الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة أصبحت تحت حكم إمبراطورٍ مراهقٍ، في وقتٍ كانت تواجه تهديدًا وجوديًّا من العرب[1].

أمَّا في مملكة بلاد فارس؛ أصبح الوضع حقيقة بعد أن كان مضربًا للأمثال: فالرأس متصدِّع، والجسم مترنِّح نتيجة لذلك. لقد توقَّفت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة بوصفها كيانًا متكاملًا؛ لأنَّ يزدجرد في حالة هروب، ومصدر القوَّة الاقتصاديَّة في جنوب العراق بيدِ العرب، ونبلاء إيران وزعماؤها المحليون أرهقتهم ثلاثة عقود من الحروب والنزاعات الداخليَّة، وهم غير مبالين لنجحات العرب، وبدؤوا مفاوضاتٍ منفصلة مع الفاتحين؛ للاحتفاظ بأكبر ما يمكن من سلطاتهم وثرواتهم. والعوائل تحرِّض الواحدة ضدَّ الأخرى، وفي بعض الأحيان كانوا ضحايا سياسة (فرِّقْ تسد) التي اتبعها العرب، وفي أحيانٍ أخرى استخدموا العرب لتصفية الحسابات القديمة. مثلا: عرض خورزاد مساعدة العرب للاستيلاء على الري - إحدى ضواحي طهران الحاليَّة - مقابل البقاء في السلطة في ميديا (الشمال الغربيّ من إيران) التي كانت في يومٍ ما المدينة القديمة والفخمة ومقرَّ عائلة مهران Mihran النبيلة. وكان من يرأس هذه العائلة قد تورَّط بمقتل والد خورزاد. ولذلك، كان للضغينة بين العائلتين دورٌ في

1- John of Nikiu, 116.2-9, 119.18-24, 120.1-6, and 39-69;

ويعطي نظرة معاصرة على الصراعات بعد وفاة هرقل؛ انظر: سيبيوس 104-106.

قيام خورزاد بالثأر ومساعدة العرب لمعرفة الطريق السرِّي إلى الري، مِمَّا سمح لهم بمباغتة المدافعين عن المدينة، فقاموا بنهب المدينة وتفتيش بيوت المهرانيِّين بدقَّة ومن دون رحمة، ولكنَّهم منحوا عائلة خورزاد مرورًا آمنًا وسمح له وذريَّته بترسيخ سلطته في المدينة. فبالنسبة إلى العرب - كما هو الحال مع من سبقهم من الفاتحين أو من جاء بعدهم - مثل هذه الصفقات العمليَّة لها نتائج جيِّدة، ولا سيَّما في أراضٍ يصعبُ الوصول إليها، ويتطلَّب إخضاعها موارد ماليَّة وبشريَّة كبيرة. ففي المناطق الجبليَّة المحاذية لبحر الخزر - على سبيل المثال - تمَّ التوصُّل إلى الكثير من المعاهدات، فإلى الجنوب وقَّع أمير دامفند Damavand معاهدة عدم اعتداء مع العرب مقابل حقِّ البقاء في الحكم والاحتفاظ به له ولذريَّته من بعده. وأُعفيَ أمير جورجان والعاهل الفارسي في دربند - الواقعة ممالكهم إلى الشرق والغرب من بحر الخزر على التوالي - من الضرائب مقابل مساعدة العرب عسكريًّا ضدَّ الأعداء المحتملين[1].

ولم نسمع إلَّا القليل عن بنية القيادة العربيَّة في هذه الفترة من المصادر المعاصرة، إلَّا أنَّ المؤرِّخ البيزنطيَّ زيبيوس أكَّد لنا وجود نوعٍ من الحاكم العام؛ لأنَّه مَيَّزَ بين القائد أو الأمير (إسبخان) الذي يقيم في دمشق، والملك (آركي أو تاغوار) الذي يقيم في شبه الجزيرة العربيَّة، وهو لا يشترك في المعارك - ولا سيَّما حين يخرج العرب من الصحراء، «فالملك لا يذهب معهم» - ولكن يبدو أنَّه يملك مسؤوليَّة اتخاذ القرارات المهمَّة. وبذلك، هو الذي يأمر بتجميع السفن وتجهيزها للقيام بالغارات البحريَّة ضدَّ السواحل الجنوبيَّة الغربيَّة لبلاد فارس كما يذكر زيبيوس[2]. ووصفت المصادر الإسلاميَّة هؤلاء الحكَّام في المدينة خلفاءَ للنبيِّ محمَّد، وأنَّهم يديرون السلطتينِ الدينيَّة والدنيويَّة بصورة مطلقة. كان القائد العامُّ في دمشق يتولَّى

1- Pourshariati, Decline and Fall, 249-254 .

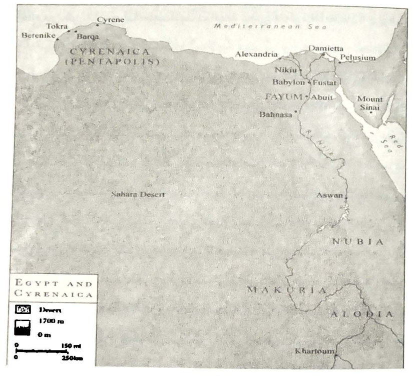
2- سيبيوس، 101 و102.

مسؤوليَّة تسيير الأعمال اليوميَّة التي كانت بيد معاوية بن أبي سفيان بن حرب في الفترة (640–660م)، الذي تزوَّج النبيُّ محمَّد من اخته، وهو ابن عمِّ الخليفة الثالث عثمان بن عفَّان (644–656م). ومن الواضح أنَّ عشيرة أبي سفيان الأمويَّة استطاعت تشديد قبضتها على زمام مشروع الفتوحات منذ وقتٍ مبكِّرٍ جدًّا، وإنَّ بقاء معاوية طويلًا في السلطة بصفة قائدٍ لمدَّة عشرين عامًا في سوريا، ثمَّ خليفة لعشرين سنة أخرى (661–680م)؛ عزَّز من مواقعها في السلطة.

مصر (خارطة رقم 3.1)

كان عمرو بن العاص من البيت الأمويِّ الذي قاد واحدةً من أكثر الحملات ربحًا في هذه الفترة، وهي الحملة على مصر، التي كانت تُمثِّل الجوهرة الثمينة في التاج البيزنطيِّ؛ بسبب حجم تحويلاتها الضريبيَّة وثباتها، ومحاصيلها، وكلتاهما من نتائج خصوبة وادي نهر النيل. كانت مصر ترسل نحو 300 مليون بوشل من الحبوب إلى القسطنطينيَّة؛ لتأمين الخبز لسكَّان الإمبراطوريَّة ولجيشها. ومع ذلك وعلى الرغم من ثرائها كان أعداؤها قليلين، ولا سيَّما النوبيين في الجنوب والبدو البلميين Blemmyes في المناطق الصحراويَّة الشرقيَّة. وقد تعرَّض هؤلاء إلى النقد والاستهجان في عدَّة كتابات؛ لعدم احترامهم لحياة الرهبان وأملاك الأديرة، ولكن كانت غاراتهم ذات تأثير بسيط، ولا سيَّما تلك التي حدثت بعد الغارة السريعة للملكة زنوبيا ملكة تدمر على مصر في عام 269م. بعد ذلك لم تواجه مصرُ أيَّ اعتداء خارجيٍّ آخر حتَّى القرن السابع الميلاديِّ، وربَّما بسبب عدم استعداد الجيوش المصريَّة حينما أُجبرت على مواجهة هجوم الفرس الضاري عليها في الفترة 617–619م، ثمَّ هجوم العرب عليها في الفترة 640–642م. وأمر الإمبراطور هرقل حاكمه على نوميديا

(الغرب التونسيُّ حتَّى الشرق الجزائريِّ الآن) بالدفاع عن مصر ضدَّ الهجمات العربيَّة، وأرسل بعد سنتين من ذلك جون البرقيَّ (نسبة إلى برقة شمال شرق ليبيا الحاليَّة)؛ لإكمال المهمَّة نفسها. فمن المفترض إذن، كانت هناك بعض الاستعدادات لمواجهة هجوم العرب الرئيس في عام 640م، ولكن بما أنَّ المصادر الإسلاميَّة لا تذكر شيئًا عن ذلك، فلا يمكننا التأكد من تحديد نيَّات تلك الغارات المبكِّرة ولا أهدافها[1].



خارطة رقم 3-1
مصر والبلدان المجاور

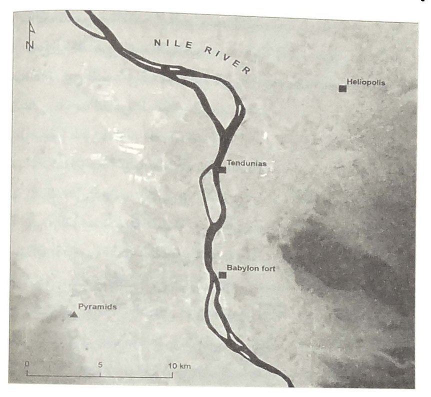
1- Hoyland, Seeing Islam , 525, 585 (حاكم نوميديا)؛ Nikephoros, §23؛ (جون أوف برقة). هناك نقش من الإسكندريَّة مؤرَّخ بالسنة 414 لحادثة الشهداء (698م) والسنة الخامسة والخمسين من "سيطرة أمَّة الساراسين على البلاد" التي تؤرِّخ لبداية الفتوحات العربيَّة إلى عام 633م؛ (S. Timm, Das christlich-koptische Agypten in arabischer Zeit 5, Wiesbaden, 1991, 2146).

ولحسن الحظِّ توجد لدينا حوليَّة تحت أيدينا لأحد الأشخاص الذين عاشوا خلال الفتح العربيِّ لمصر وهو جون أسقف نيكيو (إحدى مدن الدلتا) John of Nikiu تسرد أحداث تلك الفترة، وعلى الرغم مِمَّا تمثِّله هذه الحوليَّة من ثروة جيِّدة، فإنَّها عُولجت قليلا؛ لأنَّ نصَّها جاءنا بصيغة ترجمة أثيوبيَّة متأخِّرة من النسخة العربيَّة للنصِّ القبطيِّ الأصليِّ[1]. تغطِّي هذه الحوليَّة الأحداث من بدء الخليقة حتَّى سنة 643م، ولكن الشيء المحبط فيها أنَّ هناك فجوة للفترة 610–639م، وهذا يعني أنَّ لدينا خبرًا واحدًا ذكرته المصادر الإسلاميَّة وهو شروع عمرو بن العاص في شتاء عام 639–640م بقوَّة عسكريَّة من فلسطين. وذكرت تلك المصادر أنَّه سار غربًا بمحاذاة الطريق الساحليِّ حتَّى وصل إلى بليسيوم Pelusium على الحافَّة الشرقيَّة من دلتا نهر النيل والاستيلاء عليها بعد مرور شهرٍ من القتال المتقطِّع. وعلى الرغم من أنَّ هذه الأخبار لم يتم التأكُّد من صحَّتها من مصادر أخرى معاصرة، فإنَّها بالتأكيد تبدو معقولةً لأيِّ جيشٍ غازٍ من جهة الشرق لإخضاع بليسيوم؛ لتأمين طرق تجهيزاته عند السير نحو الغرب. تحوَّل عمرو بعد ذلك نحو الجنوب الغربيِّ باتجاه بابليون التي هي إحدى ضواحي القاهرة الحديثة. عند هذه النقطة بدأ جون أسقف نيكيو سرد أخباره، وأوضح وجودَ جيشينِ عربيَّين في الواقع. ففضلًا عن جيش عمرو وهو الجيش الوحيد الذي ذكرته المصادر الإسلاميَّة، كان جيشٌ عربيٌّ ثانٍ يسير من جهة الجنوب، ربَّما أوَّل جيشٍ عربيٍّ يبحر عبر البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربيَّة، ثمَّ السير برًّا للوصول إلى نهر النيل. وبعد التوجُّه نحو الغرب من النهر واصل سيره شمالًا حتَّى وصل إلى بهنسا، اوكسرينخوس القديمة، التي تقع على بعد مئة ميلٍ إلى الجنوب من بابليون وبالقرب من المدخل الجنوبيِّ لواحة

1– إنَّ الرواية والاقتباسات أخذتها من John of Nikiu, III-21 إلَّا إذا ورد خلاف ذلك. لقد ذكرت الرواية كاملة إلى حدٍّ ما، وهي من الروايات القليلة المفصَّلة والمعاصرة للفتوح التي نملكها.

الفيوم الخصبة، ومن المفترض أنّهم ينوون الانضمام إلى رفاقهم في الشمال. ولم يعتنِ عمرو بن العاص بالمدن المحصّنة، حيث وصل الآن إلى مكانٍ يُدعى تندونياس Tendunias، من المحتمل أنّه أم دونين التي ذكرتها المصادر الإسلاميَّة، التي تقع الآن على أطراف القاهرة الحديثة على الضفَّة الشرقيَّة لنهر النيل. كان هدفه تأمين السيطرة على بابليون، وهو الموقع البيزنطيُّ الحصين الواقع قليلًا إلى الجنوب من المدينة، لكنَّه انزعج حينما علم أنَّ الفرقة العسكريَّة العربيَّة القادمة من الجنوب كانت آنذاك على الجانب الغربيِّ من النهر. وبدلًا من فرضه الحصار على بابليون، بينما كانت القوَّات العربيَّة منفصلة عن بعضها؛ حاول خداع البيزنطيِّين بالخروج إلى ميدانٍ مفتوحٍ، وقسَّم جيشه على ثلاث وحدات، وجعلها ترابط في ثلاث نقاط على شكل مثلثٍ يتألَّف من بابليون في الجنوب، وتندونيوس في الشمال، وهليوبولس إلى الشمال الشرقيِّ. (خارطة رقم 3.2). كانت الخطَّة كالآتي: بينما تشتبك الوحدة التي يقودها عمرو في جبهة هليوبولس مع مقدِّمة القوَّة البيزنطيَّة، تتقدَّم القوَّة المرابطة عند بابليون في الشمال لمهاجمتهم من الخلف. نجحت هذه الخطَّة واستطاع العرب تحقيق أوَّل نصرٍ كبيرٍ لهم على الأرض المصريَّة في صيف عام 640م.

كان لنجاح العرب عدد من النتائج المهمَّة، والأكثر أهمِّيَّة من بينها أنَّ العرب أحكموا سيطرتهم على تندونيوس التي دُمِّرت حاميتها العسكريَّة خلال معركة هليوبولس بعد أن هرَبَ سريعًا ما تبقَّى فيها من جنود. أمَّا النتيجة الثانية؛ فقد تمثَّلت في جعل سكَّان مصر يدركون أنَّ هذه ليست مجرَّد غارة سريعة، بل هي تهديدٌ جدِّيٌّ وهناك حاجة لخطَّة سريعة لاحتوائه، بيد أنَّ السكَّان فضَّلوا الهروب. يذكرُ جون نيكيو مع بعض المبالغة كما يبدو قائلا: «ساد الاضطراب في كلِّ المدن المصريَّة، ولجأ سكَّانها جميعًا إلى الهروب عبر الطريق إلى الإسكندريَّة تاركين وراءَهم ممتلكاتهم



خارطة رقم 3.2 معركة هليوبولس

وثرواتهم ومواشيهم». حتَّى القادة العسكريُّون الكبار أصابهم الجبن، فالقائد المسؤو
عن الدفاع عن واحة الفيوم - مثلًا - هرب إلى مدينة نيكيو Nikiu في الدلتا، بين
سارت القوَّات العربيَّة من الجنوب نحو عاصمة هذه الواحة الزراعيَّة واستولت علي
بعد معركةٍ داميةٍ. وقرَّر آخرون أنَّ مصلحتهم الأفضل تكمن في التعاون، ويخبرنا جو
أنَّ بعض الموظَّفين «بدؤوا بمساعدة المسلمين»[1] بتنظيم عمليَّات النقل وبن

1- موظَّفان اثنان فقط وليس كما ترجمها Charles "الناس"، مِمَّا زاد بشكل غير مقصود من سخونة النقاش من أنَّ مسيحيِّي مصر اللاخلقدنيِّين قد رحَّبوا بالعرب. للرجوع إلى هذه التنقيحات المهمَّة، انظر:
P. Booth, " The Muslim Conquest of Egypt Reconsidered," Travaux Memoires 17 (2013).

الجسور. أمَّا ما يتعلَّق باثنين من الإداريِّين الكبار الذين نظَّموا إيصال التجهيزات الغذائيَّة بسهولة للعرب "لأنَّهم يحبُّون الوثنيِّين ويكرهون المسيحيِّين"، وكما يذكر جون أنَّ ما تبقَّى من مراسلاتهم تذكر أنَّهم بقوا على مسيحيَّتهم، ولكن كان التعاون مع العرب غير مرغوب فيه إلى حدٍّ كبيرٍ كما يُفترض[1]. لقد ذهب بعضُهم كثيرًا مع الجانب الآخر، حتَّى سجَّل جون ذلك بتعبيراتٍ مقتضبة «إنَّهم ارتدُّوا عن الديانة المسيحيَّة واعتنقوا ديانة البهائم».

وعلى الرغم من انتصار العرب الكبير في هليوبولس، فإنَّهم ما زالوا يجدون مصاعب كثيرة في التقدُّم في فتحهم لمصر، فالكثير من المدن المصريَّة في دلتا النيل محاطة بالمياه التي تُشكِّل عائقًا أمام دخول الخيول إليها، والمدن الأخرى مثل دمياط ونيكيو أغلقت أبوابها بإحكام ورفضت الاستسلام. ويذكر جون أنَّ عمرو قضى اثني عشر شهرًا في حربه ضدَّ المسيحيِّين في الشمال المصريِّ، لكنَّه «مع ذلك فشل في إخضاعه» (شهر آذار 640–641م). كان ذلك تباهيًا فارغًا إلى حدٍّ ما؛ لأنَّ العرب في الواقع لم يستطيعوا تحقيق أهدافهم الحاسمة، ولا سيَّما حصن بابليون الكبير الذي بقي بأيدي البيزنطيِّين. كان الحصن يشغل مساحة تُقدَّرُ بنحو خمسة هكتارات، ويبلغ ارتفاع أسواره خمسة عشر مترًا، وبسمك ثلاثة أمتار، وأبراجه المدوَّرة أعلى من ذلك وبقطر يبلغ ثلاثين مترًا، ويجري نهر النيل بمحاذاة الجهة الغربيَّة من السور، حيث يوجد ميناءٌ صغيرٌ يسمح بدخول القوارب البيزنطيَّة وخروجها.

بدأ العرب بفرض الحصار بعد هبوط مياه نهر النيل في شهر أيلول سنة 640م. وكانت تعوزهم الآليَّات لاختراق الأسوار، وأخذوا يركزون على تثبيط معنويَّات من هم في داخل الحصن، وبنوا جسرًا واطئًا وكبيرًا على النهر بالقرب من بابليون؛ لمنع

1- وبالتحديد فيلوكسينوس دوق أركاديا، وShenute والي Antinoe، انظر:
John of Nikiu, 120. 29-30, and F.Morelli L'archivio di Senouthios (Berlin, 2010)
الذي ذكر أيضًا بردية فيلوكسينوس.

مرور السفن إلى نيكيو وإلى الإسكندريَّة، ولتسهيل حركتهم وخيولهم الخاصَّة بهم وتجهيزاتهم عبر النهر. اعتقلوا الموظَّفين وقيَّدوهم بالحديد والقيود الخشبيَّة، ونهبوا الممتلكات، وأحرقوا المحاصيل، «وأنزلوا السيف بكلِّ الجنود الذين واجهوهم». ولكن من المحتمل أنَّ الأكثر إيلاما للسكَّان المحاصرين كان نبأ وفاة الإمبراطور هرقل الذي حكم لمدَّة ثلاثين عامًا، وحرَّر مصرَ من نير السيطرة الفارسيَّة، وكذلك تأمين صراعه من أجل وراثة العرش، مِمَّا جعل إمكانيَّة المساعدة في أيٍّ وقتٍ من القسطنطينيَّة بعيدة المنال. وهكذا، فحينما وعد عمرو جنودَ الحصن بضمان حياتهم، قرَّروا الاستسلام وإخلاء مواقعهم في اليوم الثاني بعد عيد النشور في شهر نيسان 641م، عقبَ حصارٍ دام سبعة أشهر. بدأ عمرو الآن المسير نحو الإسكندريَّة ببطءٍ وثباتٍ، دافعًا ما تبقَّى من القوَّات البيزنطيَّة نحو الشمال، التي بدأت أعدادها تتضخَّم نتيجة لانضمام الجند الذين تركوا مواقعهم في المدن مثل نيكيو وكاريون Kariun حينما رأوا اقتراب الجنود العرب منهم. حاولت القوَّات العربيَّة مهاجمة مدينة الإسكندريَّة نفسها بوقتٍ مبكر، إلَّا أنَّ المدافعين على أسوارها انهالوا عليهم برمي الحجارة، مِمَّا أجبرهم على التراجع وإقامة معسكرهم ونصب خيامهم هناك في مطلع صيف عام 641م؛ استعدادًا لفرض حصارهم الطويل على المدينة.

يناقش بعض الباحثين المحدثين - استنادًا إلى ما ذكره شهود متأخِّرون - أنَّ المصريِّين غير المؤيِّدين لمجلس خلقدونية (المنعقد بخلقدونية في عام 451م) والرافضين لتعاليمه قد رحَّبوا بالعرب، وأنَّ المؤيِّدين لذلك المجلس فقط عارضوا العرب[1]. ومع ذلك، لم يعلن قطُّ أنَّه أو اتباعه من الرافضين للعقيدة الخلقدونية كانوا

1- لقد صدرت هذه الفكرة من المصريِّين المناهضين للعقيدة الخلقدونيَّة حينما أصبح واضحًا أنَّ الحكم العربيَّ سيدوم حتمًا؛ لكي يحصلوا على مساندة العرب لتشويه صورة منافسيهم الخلقدونيين. انظر:
E.Coghill, " Minority Represetation in the Futuh Misr of Ibn 'Abd al-Hakam" in R.Hoyland, ed., The Late Antique World of Early Islam (Princeton, 2014).

يميلون للفاتحين بأيِّ حالٍ من الأحوال. وأوضح أيضًا أنَّ العرب أنفسهم كانوا لا يميِّزون في هجماتهم، وأنَّ التفرقة بين المصريِّين لم تكمن في الاختلافات المذهبيَّة، إنَّما تكمن في كيفيَّة مواجهة التحدِّي: هل من الأفضل الخضوع والتوصُّل إلى سلام، أم الصمود والقتال. "اندلع نزاعٌ كبيرٌ بين سكَّان مصر السفلى، وكانوا منقسمين على فئتين"، فئة وقفت إلى جانب ثيودور القائد العامِّ للقوَّات بمصر الذي قرَّر المقاومة، في حين شعرت الفئة الأخرى أنَّ من الأفضل خدمةً لمصالحها التفاوض وتسوية الأمر مع الفاتحين. ويبدو أنَّ حالة عدم القرار قد استحوذت على الأنساق العليا في الحكومة، فقد وعد الابن الأكبر للإمبراطور هرقل القائد ثيودور أنْ يرسل له قوَّةً كبيرةً في خريف عام 641م، التي يمكن لها أن تصدَّ العدوَّ، ولكن لم يتم ذلك؛ بسبب موته قبل الأوان، ومجيء أخيه الأصغر الذي اختار ألَّا يفي بالوعد، وعيَّن بطريرق الإسكندرية سايروس (الخلقدوني العقيدة) خلال الثلاثينيَّات من القرن السابع الميلاديِّ، لكنَّه طُرِدَ بسبب موقفه المتساهل مع العرب. والواقع، كان معروفًا أنَّ سايروس لم يكن يؤيِّد دفع الجزية للفاتحين فقط مقابل السلام، إنَّما أوصى بعرض زواج عمرو من إحدى بنات الإمبراطور «على أمل أن يُعَمَّدَ بعد ذلك في طريق الهداية ويصبح مسيحيًّا؛ لأن عمرو وجيشه لديهم ثقة كبيرة بسايروس ويعاملونه بمحبَّة كبيرة»[1]. أغضب هذا المقترح الابن الأكبر لهرقل، لكنَّ خليفته منح سايروس السلطة والصلاحيَّة للتوصُّل إلى سلامٍ مع العرب، وأن يوقف أيَّة مقاومة ضدَّهم، وإقامة نظام إداريٍّ يتناسب مع الظروف الجديدة.

وصل سايروس إلى الإسكندريَّة في مطلع شهر أيلول عام 641م، وتوجَّه إلى الكنيسة القيصريَّة (نسبةً إلى الإمبراطور قيصر) في المدينة؛ للاحتفال بعيد الصليب المقدَّس في 17 أيلول، وغصَّت الطرق بالأهالي لاستقباله وهم ينشدون الأناشيد على

1- Nikephoros, §23.

شرفه. كان الكثير يساند سياسة سايروس اللطيفة في الظاهر، ويعتقدون أنَّ صفقةً ما مع العرب تُمثِّل الطريق الأفضل لمصر. وحالما أكمل مشاوراته مع النخب بمدينة الإسكندرية توجَّه سايروس نحو حصن بابليون؛ لبحث عرض الجزية والحصول على السلام، وليضع حدًّا للحرب في مصر. رحَّب عمرو بقدومه قائلًا له: «فعلت جيِّدًا بالمجيء إلينا»، أجاب سايروس قائلًا: «لقد سَلَّمَ الله يديك هذه الأرض، فليتوقَّف العداء من الآن فصاعدا بينك وبين زوما». بعد ذلك حدَّدوا مبلغ الجزية الواجب دفعها، واتَّفقوا أن يتعهَّد العربُ بعدم التدخُّل في الشؤون المصريَّة لمدَّة أحد عشر شهرًا، مقابل السماح للقوَّات البيزنطيَّة في الإسكندريَّة بإزالة جميع ممتلكاتها وأدواتها والعودة بحرًا إلى الوطن، وألَّا يُستبدَلوا بأيَّة قوَّات بيزنطيَّة أخرى، وأن يتوقَّفوا عن قتال العرب، وأن يكفَّ العربُ من جانبهم عن الاستيلاء على الكنائس والتطفُّل على المصالح المسيحيَّة. ومع ذلك، أن يُسمح لليهود بالبقاء في الإسكندرية. أخذ العرب 150 جنديًا و50 مدنيًّا رهائن لضمان تنفيذ هذا الاتفاق.

عاد سايروس إلى الإسكندريَّة بقلبٍ منقبضٍ، ونقل إلى القائد العسكريِّ البيزنطيِّ بمصر ثيودور فِقْرات المعاهدة؛ لكي ينقلها إلى الإمبراطور ويقنعه بجدارة هذه المعاهدة. وأحاط الناس علمًا بنتائجها والمداولات بشأنها وشروطها. كان بعضهم ساخطًا في البداية لتصوُّرهم أنَّ التسوية ذهبت كثيرًا لصالح العدوِّ، ولذلك انتفضوا ضدَّ البطريرق وقذفوه بالحجارة، لكنَّه قال لهم: "إنِّي أنجزت هذه المعاهدة من أجلكم وأجل أطفالكم"، وعلى الرغم من استقباله بالدموع والأسى فإنَّه توسَّل إليهم أن يحكموا عقولهم. ولذلك أذعن الإسكندرانيُّون تدريجيًّا، وجمعوا كمِّيَّة الذهب التي يجب أن تُسلَّم للعرب. وأمَّا المصريُّون الذين هربوا من مدنهم ولجؤوا إلى الإسكندرية؛ فقد طالبوا بإمكانية العودة إلى بيوتهم، وتفاوض سايروس بالنيابة عنهم مع العرب. وهكذا أصبح العرب «يملكون كلَّ الأرض المصريَّة». تُوفِّي

سايروس عقب ذلك بفترة قصيرة، وفي عيد الفصح التالي لم يعش ليشهد تسليم الإسكندريَّة في نهاية شهر أيلول سنة 642م على وفق بنود المعاهدة. غادر ثيودور المدينة مع قوَّاته وضبَّاطه ودخلها عمرو من دون أيَّة عوائق. إنَّ أيَّة نظرة إلى الماضي تشير إلى أنَّ هذه الأحداث تُمثِّل مرحلةً خطيرةً، فهي تؤشِّر نهايةً لألف سنة من السيطرة اليونانيَّة والرومانيَّة على مصر، وبدايةً لفترة أطول منها للحكم الإسلامي لها. ولكنَّ ما أثار دهشة واستغراب المعاصرين أكثر آنذاك أنَّهم خسروا «العطف الإلهي». «لم يستطع أيُّ أحدٍ أن يروي الحداد والعويل الذي حدث في المدينة ... ليس لديهم من يساعدهم، والله قد دمَّرَ آمالهم وسلَّم المسيحيِّين لأيدي أعدائهم». وحتَّى الآن هذه ليست نهاية الأمر آنذاك؛ لأنَّ «الإحسان الراسخ لله سيخزي أولئك الذين يُسبِّبون الحزن لنا، وسيجعل محبَّته للإنسان تنتصر على خطايانا، ويحول النيَّات الشريرة إلى لا شيء لمن أراد بلاءنا».

يتوقَّف جون نيكيو عن سرده للأحداث هنا، لكنَّ مصادر أخرى تذكر أنَّ البيزنطيِّين حاولوا لمرَّة واحدة إعادة الاستيلاء على مصر، حينما أرسل الإمبراطور كونستانس قائدًا أرمنيًّا يُدعى مانوئيل وبتعليمات لطرد العرب. واستنادًا إلى روايةٍ ترجع إلى منتصف القرن الثامن الميلاديِّ تذكرُ أنَّ مانوئيل التقى عمرو بن العاص واقترب منه بازدراء قائلًا: «أنا لست الأسقف سايروس الذي أعطاك الأموال خوفًا منك؛ لأنَّه راهب تقي، أنا رجلُ سلاحٍ وحربٍ وشجاعةٍ»، محذِّرًا إيَّاه أن يغادر على الفور «أو سأقوم بتدميرك». ومع ذلك، تمكن عمرو من هزيمته سريعًا في المعركة. كانت المصادر الإسلاميَّة تعرف مانوئيل الأرمنيَّ، وتذكر في روايتها أنَّ كونستانس قرَّر استعادة مصر حينما أرسل السكَّان له رسالةً يخبرونه فيها أنَّ عدد المسلمين في الإسكندريَّة بسيط، وأنَّ أحوال البيزنطيِّين فيها يرثى لها. ولذلك، أرسل ثلاثمئة سفينة أبحرت من العاصمة الإمبراطوريَّة مليئةً بالمحاربين. في بداية الأمر نجحوا في إزاحة

الحامية العربيَّة من الإسكندرية، وشنُّوا غارات متفرِّقة ضدَّ العرب المرابطين في القرى المحيطة بالمدينة. وحينما وصلت الأخبار إلى عمرو توجَّهَ إليهم بقوَّة بلغ تعدادها خمسة عشر ألف محاربٍ، واشتبك مع العدوِّ في نزالٍ كان ساخنًا جدًّا حتَّى عدَّه أصحاب النبوآت المسلمين واحدًا من نُذر معركة هرمجدون Armageddon النهائيَّة الكبرى المشؤومة. انتصر العرب في النهاية بعد أن استخدموا آليَّات حربيَّة مختلفة في هذا النزال لاختراق أسوار الإسكندريَّة. قرَّر قسم من السكَّان حينئذٍ المغادرة إلى أراضٍ ما زالت تحت السيطرة البيزنطيَّة، ومن الآن فصاعدًا بقيت الإسكندريَّة بأيدي العرب[1].

التوجُّه من مصر جنوبًا: نوبيا وإثيوبيا

ازدهرت عدَّة ممالك في المنطقة الجنوبيَّة من مصر الممتدَّة بين أسوان الحاليَّة والخرطوم، وكانت الممالك النوبيَّة، نوباديا Nobadia، ماكوريا Makuria، وعلوة Alwa الأكثر شهرةً من بينها، ووريثة الحضارة الماورية Meroe القديمة. استطاعت المسيحية النفاذ في هذه المنطقة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديِّين، وتحدَّثت المصادر اليونانيَّة واللاتينيَّة المختلفة حول نشاطات الإرساليَّات الخلقدونيَّة واللاخلقدونيَّة هناك في القرن السادس الميلاديِّ. أرسل العربُ قوَّاتهم في عام 650م من أسوان لجسِّ نبض الدفاعات الموجودة هناك، ومن المحتمل أنَّها لم تكن أكثر من غارة استكشافيَّة، لكنَّهم واجهوا أنوفًا حاميةً. كان القتال شرسًا بصورة غير متوقَّعة، ولكنَّ ما صدم العرب وأنزل بهم الرعب بشكلٍ خاصٍّ السرعة الفائقة والدقَّة لرماة

1- Theophilus of Edessa, 111
(يبدو أنَّه أخطأ في مكان الملاحظة)؛ البلاذريُّ، 221؛ ابن عبد الحكم، 191؛ اليعقوبي، 189؛ نُعَيْم بن حماد، كتاب الفتن، الناشر الزهيري (القاهرة، 1991)، 445-446 (هامش 1286).

السهام النوبيّين، مِمَّا مكَّنهم من إجبار الغزاة على التراجع «وجرح الكثير وعمى العيون»[1]. طلب العربُ عقدَ هدنةٍ مباشرةٍ، ووقَّعَ حاكم مصر آنذاك معاهدةً تنصُّ على أن يجهِّز النوبيُّون العربَ عبدًا واحدًا كلَّ يوم مقابل تجهيزهم بالموادِّ الغذائيَّة المختلفة، فضلًا عن السماح للتجَّار والرُّسُل بممارسة أعمالهم دون عوائق من أيٍّ الطرفين وتسليم الهاربين أيضًا.

وعلى الرغم من صدِّ العرب فإنَّ هجومهم ربَّما حفَّز الممالك المختلفة في المنطقة على التحالف؛ لأنَّنا بدأنا نسمع في الفترة اللاحقة في هذه المنطقة من العالم بوجود «ملك أعظم» وتحته ثلاثة عشر ملكًا أصغر. وأُقنِعَ بالمجيء؛ لمساعدة البطريرق القبطي الذي سجنه حاكم مصر آنذاك، واستعراض قوَّته أمام العرب الذين اعتادوا اختطاف النوبيِّين وبيعهم عبيدًا. وخرج من نوبيا في مسيرة عام 747م بجيشٍ ضخمٍ بصحبة خيول تساوي عددها عدد جنده، حتَّى إنَّ أحد شهود العيان يخبرنا أنَّها تدرَّبت على القتال في المعركة بأرجلها الأماميَّة والخلفيَّة حتَّى استخدموها بصورةٍ جيِّدةٍ، وقتلوا وألقوا القبض على عددٍ قليلٍ من العرب، وغنموا الكثير من الغنائم، مِمَّا جعل حاكم مصر - وهو يسمع بهذه الأخبار ولا يملك وسائل للمقاومة - أن يكون حكيمًا ويقرِّر إطلاق سراح البطريرق قبل أن يصل النوبيُّون إلى العاصمة. وهناك ورقةُ بردي عربيَّة كُتبت في عام 758م أصدرها حاكمٌ مصريٌّ آخر مخاطبًا «سيد ماكوريا ونوبيا» مقترحًا اندماج هاتين المملكتين تمامًا[2]. وفي كلتا الحالتين يسود الانطباع بأنَّ هذه الممالك البعيدة تمتَّعت بنفوذٍ كبيرٍ، وهذا ما تعزَّز بخبر الزيارة الفخمة لجورج،

1- البلاذريُّ، 237. إنَّ صيغة الهدنة بين العرب والنوبيين وردت عند ابن عبد الحكم، فتوح مصر،189، على عهدة أحد الشيوخ الذي قرأها في إحدى محاكم الفسطاط؛ وإنَّها تتوافق مع التلميحات إلى أصلها في إحدى البرديَّات عام 758م (انظر: الهامش التالي).

2- History of the Patriarchs; ed. and trans. B. Evetts, Patrologia Orientalis 5 (1910), 144-45 (great king and patriarch); J. Plumley, "An Eighth-Century Arabic Letter to the King of Nubia," Journal of Egyptian Archaeology 61 (1975).

ابن الملك النوبي زكريا، لبلاط الخلافة ببغداد سنة 836م، التي أثارت دهشةً كبيرةً بين السكَّان المسيحيِّين المحلِّيِّين في العراق. وفي القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديَّين استطاع بعض الحكَّام النوبيِّين مدَّ سلطاتهم إلى مناطق مصر العليا، بل استمرَّت الحضارة النوبيَّة بالازدهار لفتراتٍ طويلةٍ من أواخر العصور الوسطى، كما هو واضح من انتشار نماذج الفخار النوبي بشكلٍ واسعٍ، والوثائق المدوَّنة باللغة النوبيَّة القديمة، وهي قريبة جدًّا من بعض اللهجات النوبيَّة التي ما زالت سائدةً في السودان اليوم.

إنَّ المرونة التي أبدتها الممالك النوبيَّة تعني عدم محاولة العرب الاندفاع أكثر نحو الجنوب، أي عبر الطريق البريِّ نحو إثيوبيا، نعم، هناك خيار الهجوم من طريق البحر كما يتوقَّع المرء حدوثه، ولا سيَّما أنَّ إثيوبيا تُمثِّل محطَّةً تجاريَّةً مهمَّةً للعرب من غرب شبه الجزيرة العربيَّة، ولكون إثيوبيا غزت اليمن من قبل وحكمته لبعض الوقت في العقود الوسطى من القرن السادس الميلاديِّ. والآن هناك فرصة لليمنيِّين لأخذ دورهم بحكم إثيوبيا. ولكن لم تشنَّ أيَّة حملات بحريَّة كبيرة من شبه الجزيرة العربيَّة حتَّى الآن. وفي الواقع، الحادثة الوحيدة التي سمعنا عنها هي محاولة قوَّة بحريَّة أثيوبيَّة صغيرة الإغارة على السواحل الغربيَّة لشبه الجزيرة العربيَّة، وقد صُدَّت بقوَّة أرسلها النبيُّ محمَّد سريعًا في عام 630م، أو أغلب الظنِّ من الخليفة عمر بن الخطَّاب في عام 641م. وهناك محاولة لربط هذه الحادثة بنبوءة مسيحيَّة من أواخر القرن السابع الميلاديِّ، تذكرُ أنَّ البيزنطيِّين سيهاجمون العرب «من بحر الكوشيين Kushites (الأثيوبيين) ويُنزِلونَ الخرابَ والدمارَ في قفار يثرب (المدينة)»[1]، ولكنَّنا لا نملك أيَّة شواهد تؤيِّد ذلك. ومع ذلك، تخبرنا الكثير من المصادر الإسلامية أنَّ الحكَّام الأمويِّين المتأخِّرين اعتادوا على إبعاد أولئك الذين يغضبون عليهم إلى جزيرة

1- Pseudo-Methodius, " Apocalypse " in Palmer, Seventh Century, 237-238;

(يفترض أنَّ الأثيوبيِّين كانوا يعملون بالنيابة عن البيزنطيِّين).

دهلك الواقعة على بعد خطوة من أدولس Adulis ميناء إثيوبيا القديمة في أريتريا الحاليَّة. إذن، يبدو أنَّ طرفًا عربيًّا مُغيرًا أراد أن يصل إلى هذا الحدِّ في نهاية القرن السابع الميلاديِّ ومطلع القرن التالي. ولا ندري لماذا لم يقيموا موطئ قدمٍ قويٍّ على البرِّ الأثيوبيِّ، ربَّما بسبب أنَّهم واجهوا مقاومةً عنيفةً من السكَّان الأصليِّين، كما هو الحال مع نوبيا، أو من أيَّة مجموعات أخرى؛ لأنَّ الغنائم عُدَّت غير كافية، ولا سيَّما أنَّ مملكة أكسوم كانت في هذا الوقت قد قطعت فترة طويلة من عمرها هناك.

التوجُّه من مصر غربًا: برقة وطرابلس الغرب (ليبيا الحالية)

كانت الأراضي الواقعة إلى الغرب من مصر من أكثر المناطق سهولةً بالنسبة إلى العرب، ويذكر جون نيكيو أنَّ عمرو بن العاص بعد توصُّله إلى الاتفاق مع البطريرق سايروس وقبوله إخضاع الإسكندريَّة أرسلَ أطرافًا للإغارة على بنتابولس (برقة)، وهو الإقليم الشماليُّ الشرقيُّ من ليبيا الحاليَّة، الذي يُسمَّى سيرينكا ويضمُّ خمس مدنٍ رومانيَّة مزدهرة، من بينها برنيق (بنغازي الحالية)، برقة (المرج الحالية)، وسيرن (سيرت) العاصمة. تبعد بنتابولس نحو ستمئة ميلٍ عن الإسكندريَّة على الأقلِّ عبر طريقٍ ساحليٍّ منبسطٍ جدًّا يمتدُّ جنوبًا بمحاذاة الصحراء. وبنتابولس تتحكَّم بها سلسلةٌ جبليَّةٌ تُسمَّى بالجبل الأخضر الذي تسقط عليه أمطار كافية لتجعل من الأراضي الخصبة المحيطة به مناسبة للاستيطان والاستقرار. انسحب حاكم الولاية البيزنطيُّ مع قوَّاته والأثرياء من السكَّان إلى مدينة توكرا Tokra القديمة المحصَّنة بأسوارٍ حصينةٍ منذ قرنٍ مضى، وبذلك وفَّرت ملاذًا آمنًا على أمل الخروج سالمين من عاصفة العرب. ويخبرنا جون نيكيو أنَّ المغيرين حالما غنموا غنائم كافية وعددًا من الأسرى تراجعوا إلى من حيث جاؤوا. وتذكر المصادر الإسلاميَّة أيضًا أنَّ عمرو هاجم الكثير من الأماكن في

المنطقة حتَّى دخوله إلى طرابلس ونهبها، ولكن الانطباع العامَّ أنَّ تلك العمليَّات كانت مجرَّد غارات أكثر منها إقامة وجود دائم هناك. وكما أكَّد أحد الباحثين المسلمين من مطلع القرن التاسع الميلاديِّ «لم يدخل أيُّ جابٍ للضرائب إلى برقة (من المحتمل إلى بنتابولس كلِّها) في ذلك الوقت، بل كانوا يرسلون الجزية حينما يحين موعدها»[1].

وتعزو المصادر الإسلامية أيضًا إلى عمرو أوَّل مواجهة مع البربر، أي في هذه الحالة مع قبيلة لواته التي تقطن على أطراف المناطق الصحراويَّة الممتدَّة إلى الجنوب من سواحل برقة. وربَّما كانت المصادر البيزنطيَّة تسمِّيهم لاجوتان Laguatan وهم المشهورون بعدم تعرُّضهم للغزو أبدًا، وأنَّهم يمتلكون الآلاف من الرجال الذين لا يمكن عدُّهم. وهؤلاء مارسوا دورًا كبيرًا في ثورة البربر الكبرى ضدَّ البيزنطيِّين في أربعينيَّات القرن السادس الميلاديِّ، وعلى الرغم من إخضاعهم يبدو أنَّ الحكم البيزنطيَّ لم تتم إعادة ترسيخه بالفعل في هذه المناطق الداخليَّة، وبذلك تمتَّعت لواته بدرجةٍ كبيرةٍ من الحكم الذاتيِّ في القرن الذي سبق الفتح العربيَّ. استمرَّ عمرو في استعداداته، فهو لم يحاول قتال لواته، ولكن توصَّل إلى معاهدةٍ معها - كما يذكر المؤرِّخون المسلمون الأوائل - تنصُّ على أن يقوموا بدفع مبلغٍ من المال جزيةً، يمكن أن يُجمع «من طريق بيعهم أيًا من أبنائهم الذين يرغبون بيعهم». ولم يعطِ أولئك المؤرِّخون أيَّ توضيح لذلك، ولكن من المحتمل كانوا يلمِّحون إلى تجارة العبيد شديدة الحساسيَّة في أفريقيا. لقد رثى القدِّيس أوغسطين - على سبيل المثال - وجود تجَّار العبيد في أفريقيا الذين «أفرغوا جزءًا كبيرًا من الأراضي من سكَّانها، وصدَّروا ما يشترونه منهم - وغالبيَّتهم من الأحرار - إلى مناطق ما وراء البحار»[2].

1- ابن عبد الحكم، 171، يذكر عثمان بن صالح (ت: 835م).

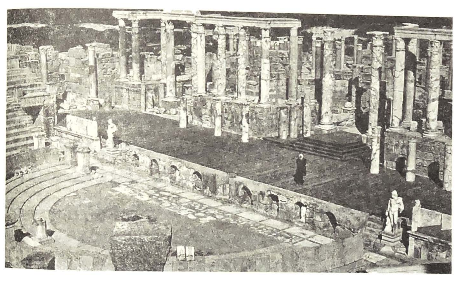
2- Corippus , Johannide, 2.85، ذكره Moderan في بحثه "Les Maures, 45 and 49" (لواته)؛ ابن عبد الحكم، 170؛ البلاذري، 224 (بيع الأطفال)؛

Augustine, Epistolae, ed., J.Divjak(Vienna,1981), letter 10.

ينهي جون نيكيو سرد رواياته في هذا التاريخ (643م تقريبًا)، ومن هذه النقطة فقدنا أيَّة أخبار مفصَّلة من القرن السابع الميلاديِّ عن الفتوحات العربيَّة في شمال أفريقيا. ولم يشعر أيٌّ من السكَّان المقيمين هناك أنَّه مجبر على تسجيل خسارة بيزنطة التدريجيَّة لهذه الأراضي، أو إذا ما عمل ذلك فإنَّه لم يصلنا. ولدينا كتابان للتاريخ يعودان إلى منتصف القرن الثامن الميلاديِّ كُتِبَا في إسبانيا، ولكن ضَمَّا معلوماتٍ من بلاد الشام تُزوِّدنا بخطوطٍ عامَّة ومجرَّدة عن الهجمات العربيَّة اللاحقة بقيادة عبد الله بن سعد، الأخ بالرضاعة للخليفة عثمان بن عفَّان، الذي نصَّبه حاكمًا لمصر في سنة 645م بدلًا من عمرو بن العاص. يذكرُ المؤرِّخون أنَّه بعد وصوله إلى طرابلس الغرب تقدَّم سعد نحو لبدة وسيدامو، وهي واحة مدينة غدامس الواقعة إلى الجنوب من طرابلس الغرب، ربَّما ذهب العرب إلى هناك للتفاوض مع القبائل البربريَّة المحلِّيَّة. أمَّا لبدة؛ فهي مدينة لبدة الكبرى الواقعة إلى الشرق من طرابلس الغرب، وهي واحدة من المدن الفخمة، وأفضل المدن الرومانيَّة المحتفظة بملامحها اليوم (صورة رقم 3.1)، على الرغم من أنَّها كانت تُمثِّل صورةً باهتةً لما كانت عليه في السابق حينما وصل العرب إلى هناك؛ لأنَّها عانت سوءًا حينما أعاد الوندال الاستيلاء عليها في عام 533م. وبعد أن قام عبد الله بن سعد بالكثير من عمليَّات النهب والسلب حصل على «ولاء السكَّان في المناطق المفتوحة، وتقدَّم غربًا حتَّى وصل إلى أفريقيا (تونس الحاليَّة وشرق الجزائر) وهو لا يزال عطشانَ للدمِّ». يبدو أنَّ عبد الله بن سعد بعد أن اجتاز طرابلس الغرب تقدَّم غربًا بمحاذاة الساحل ودخل أفريقيا كما يسمِّيها الرومان وهي تونس الحالية وولايات شرق الجزائر، وهذا يعني أنَّه دخل إلى قلب ولاية بيزاسنا Byzacena التي وصفها أزيدور الاشبيلي (ت:636م) «أنَّها غنيَّة بزيت الزيتون، وترتبتها الخصبة التي تدرُّ غلَّةً تبلغ مئةَ ضعفٍ من الحبوب التي يتم بذارها فيها»[1]. يبدو أنَّ

1- Etymologies, trans. S. A. Barney et al. (Cambridge, 2010), 14.5.7 .

هدف عبد الله بن سعد تحدي حاكم أفريقيا جريجوري الذي عيَّنه الإمبراطور هرقل، إلَّا أنَّه تمرَّدَ ضدَّ كونستانس «مع الأفارقة»، وبدأ بسكٍّ نقوده الخاصَّة به، ويقال إنَّه «سيطر على كلِّ شيءٍ في المناطق الواقعة بين طرابلس الغرب وطنجة». ربَّما كان يرى في نفسه أنَّه يقوم بإنقاذ الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة التي بدأت بالتفكُّك أمام عينيه: فأفريقيا هي التي أولدت هرقل الذي حرَّر بيزنطة من قبضة الفرس، ولذلك، ربَّما يمكننا الآن المساعدة بنجدتها من تهديد العرب[1].



صورة رقم 3.1

المسرح في مدينة لبدة الكبرى، ليبيا.

1- إنَّ رواية عبد الله في أفريقيا وهزيمته على يد جورج أخذناها من حوليَّة عام 741م، القسم 24؛ والحوليَّة 754م، القسم 28؛ ومن ابن عبد الحكم، 183. وكذلك انظر: خليفة، 159 (27 هجرية)؛ اليعقوبي، 191 (الذي يقول إنَّ جريجوري تراجع إلى سبيطلة)؛ ثيوفيلوس، 130 (الذي يقول إنَّ جريجوري هرب إلى القسطنطينية). فإذا كان جريجوري هذا، كما يفترض الباحثون، الذي كان جدُّه نائب القائد العام لوالد هرقل، وكان حاكم أفريقيا، وعمَّته جريجوراس التي تزوجت من ابن هرقل الأكبر، وأنَّه شعر هو المؤهل للادعاء بالعرش لنفسه.

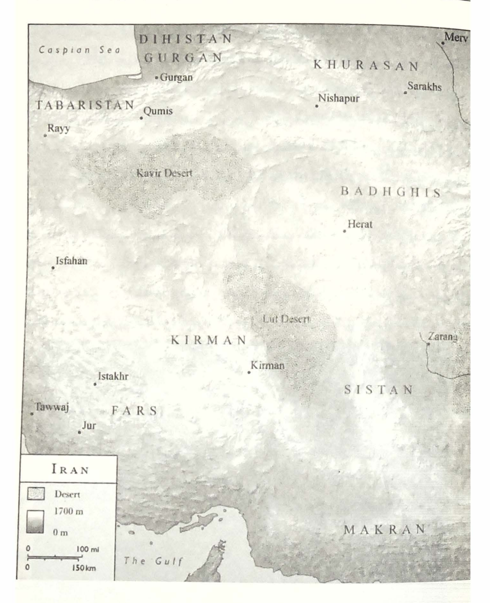
كان جريجوري يقيم في ذلك الوقت - أي في صيف 647م - في سبيطلة، سوفتولا Sufetula القديمة، التي ما زالت تتفاخر بالفورم الجميل والكابيتول الرومانيين وبقايا الكثير من المعابد والكنائس. لم تكن سبيطلة بذاتها مركزًا تجاريًا كبيرًا أو ذات أهمِّيَّة ثقافيَّة، حتَّى إنَّها لا تملك حصنًا أو أسوارًا لمدينة قويَّة، ولكنَّها تقع عند ممرِّ قسرين Kasserine في سلسلة جبال تيبسا Tebessa، ولذلك هي تقف بوجه أيَّة مسيرة للفاتحين المتوجِّهين نحو الغرب، فضلًا عن الخصوبة النسبيَّة لأراضيها التي سهَّلت تزويد القوَّات بالغذاء، مِمَّا يُفسِّر قيام جريجوري باتخاذها مقرًّا له. ولكنَّه حينما سمع أنَّ عبد الله بن سعد يتقدَّم من الساحل باتجاهه خرج جريجوري مع رجاله لصدِّ المعتدي. لا توجد لدينا تفصيلات عن المعركة ما عدا عبارة مقتضبة تقول: «تحوَّلت جبهة العرب من المعركة إلى ساحةٍ للهروب والقضاء على الكونت جريجوري وجميع نبلاء أفريقيا المتواجدين معه». وبعد أن أنجز عبد الله بن سعد هذا الانتصار الكبير عاد إلى مصر مُحمَّلًا بالغنائم. لا توجد إشارة إلى أنَّ العرب قد أقاموا قاعدةً في أفريقيا في هذا الوقت، وتذكر المصادر الإسلاميَّة بوضوح أنَّ البيزنطيِّين حينما رأوا المدى الذي وصل إليه العرب في السلب والنهب بعد معركة سبيطلة طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم الأموال شريطة أن يترك البلد. وافق على طلبهم وعاد إلى مصر «من غير أن يُعيِّن أيَّ أحدٍ عليهم أو يُنشئ حاميةً عسكريَّةً هناك»[1].

1- ابن عبد الحكم، 183.

إيران/ بلاد فارس (الخرائط رقم 2.3 و3.3):

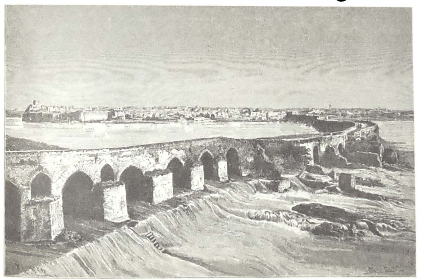
في الوقت الذي كان فيه عمرو يندفع في مصر كانت الجيوش العربيَّة تعملُ على إحكام قبضتها على العراق وتهيئة الاستعدادات؛ لتوسيع فتوحاتهم في بلاد فارس. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف فإنَّهم كانوا بحاجة إلى مقرَّاتٍ. كان بإمكانهم استخدام العاصمة الفارسية سلوقيا -طيسفون، لكنَّ مثل هذا الموقع المترامي الأطراف لم يكن مناسبًا بوصفه قاعدةً عسكريَّةً، وربَّما يحمل نكهةً قويَّةً من النظام القديم أيضًا. وبدلًا من ذلك، أنشئوا قاعدتين عسكريَّتين كبيرتين هما البصرة والكوفة. البصرة أنشأها أبو موسى الأشعريُّ اليمنيُّ الأصل، وأحد صحابة النبيِّ محمَّد «في نقطة يصبُّ فيها نهر دجلة بالبحر الكبير، وتلتقي فيها الأرض المزروعة بالصحراء». أمَّا الكوفة؛ فقد استُخدمت من أحد صحابة النبيِّ محمَّد الأوائل ومن الفاتحين المخضرمين في بلاد فارس سعد بن أبي وقَّاص، وتقع إلى الشمال من البصرة عند انعطافةٍ لنهر الفرات مقابل مدينة الحيرة العربيَّة المسيحيَّة القديمة[1]. وعلى الرغم من أنَّها قد أُقيمت في البداية لإيواء الجنود العرب الذين سيُرسلون فيما بعد للمشاركة بفتوحاتٍ أخرى في الشمال والشرق، لكنَّ هاتين القاعدتين سرعان ما غصَّت بأسرى الحروب الذين جُلبوا من كلِّ مناطق الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وبعناصر تأمل أن تصبح غنيَّة بعرض خدماتها على الأثرياء الجُدد من العرب، مِمَّا حَوَّلَ تلك المواقع إلى مدنٍ عالميَّةٍ مزدهرة.

1- حولية خوزستان، 36. وهي من المصدر أيضًا للرواية التالية عن فتح العرب لخوزستان؛ انظر أيضًا: دينوري، 130-140، الذي يقول كان هورزمدان خال شيروا، ابن خسرو الثاني.



خارطة رقم (3.3) وسط وشرق وإيران

شنَّ العرب غاراتٍ في السنين الأولى من أربعينيَّات القرن السابع عشر في بلاد فارس من ثلاث جهات مختلفة. تقدَّموا في إحداها نحو خوزستان وهي المنطقة الواقعة إلى أقصى الجنوب الغربي من إيران الحاليَّة، حيث يجري في قلبها نهر الكارون الهادر الذي ينبع من جبال زاجروس ويجري غربًا وجنوبًا إلى أن يصبَّ في الخليج الفارسيِّ مباشرةً بعد نهر دجلة. لقد استثمرت العائلة الساسانيَّة أموالًا وجهودًا كبيرةً في المنطقة لاستعادة القنوات المائيَّة في الشمال أو بنائها لزيادة الإنتاج الزراعي، ولا سيَّما الحبوب وقصب السكَّر والرز، وبذلك يمثِّل هذا الإقليم جائزةً كبيرةً لأيِّ قائدٍ يستطيع السيطرة عليه. (صورة 3.2). استسلمت مدن جندشابور وكركدلان، لكنَّ أحد قادة الفرس الكبار هرمزدان استطاع تحشيد بعض القوَّات وأمسك مدنيتينِ أخريين مهمَّتين هما الشوش وشوستر. توصَّل هرمزدان إلى صفقة مع أبي موسى في البداية ووعده بدفع الجزية، ولكن بعد أن عزَّز موقفه عقب سنتين نقضَ معاهدة السلام



صورة رقم 3.2
جسر على نهر الكارون في شوستر في جنوب غربي إيران. رُسمت في عام 1880 تقريبًا.

وقتل كلَّ الأشخاص الذين كانوا يخدمون بصفة سفراء بين الطرفين. أرسل أبو موسى قوَّاته لمواجهة هرمزدان الذي أرسل هو الآخر عددًا من السرايا، إلَّا أنَّها هُزمت جميعها. بدأ العرب بمدينة الشوش، وهي سوسة القديمة، السكن المفضَّل للملك درايوس الكبير، واستولوا عليها خلال أيَّام قليلةٍ، «وقتلوا أبرز مواطنيها، واستولوا على مبنىً يُسمَّى بيت دانيال، وصادروا خزائنه المحفوظة هناك»، ومن بينها صندوقٌ فضِّيٌّ يحتوي جثَّةً محنَّطةً يُقال إنَّها تعود إلى النبي دانيال أو إلى الملك درايوس نفسه. تحرَّك العرب بعد ذلك نحو المدينة القديمة شوستر الواقعة على جزيرة في نهر الكارون، وبذلك تكون محميَّةً بشكلٍ جيِّد من جميع الجهات. حاصرت القوَّات العربيَّة المدينة لسنتين دون أن تُحرز أيَّ تقدُّم. ولكن هناك مواطنًا قطريًّا يسكن فيها تآمر مع صديقٍ له يملك بيتًا عند أسوار المدينة سمح لهم بالدخول إليها شريطة حصوله على ثلث الغنائم. وافق العرب في الخارج على ذلك، ومكَّنهم من دخول المدينة من طريق نفقٍ تحت الأسوار «وبذلك استولى العرب على شوستر، وجرى الدم فيها كما لو كان ماء».

أمَّا خطُّ المسير الثاني للعرب في بلاد فارس؛ فكان عبر الطريق القديم في جبال زاجروس الذي سلكه من قبلُ الإسكندر الكبير، ثمَّ سلكه المغول فيما بعد. عبَروا من العراق خلال ممرِّ كرمنشاه وتقدَّموا نحو نهاوند التي تؤدِّي إلى دخول الأراضي الخصبة من الهضبة الفارسيَّة. كان ذلك أمرًا حاسمًا للفرس بعد خسارتهم للسهل الخصب في جنوب العراق، أن يوقفوا تقدُّم العرب هنا قبل خسارتهم لمنطقة كبيرة أخرى معروفة بإنتاج الغذاء. ولذلك عَدَّ سيبيوس - المؤرِّخ البيزنطيُّ المعاصر - تلك المواجهة مهمَّة، واعتنى بتاريخ حدوثها قائلًا: «إنَّها حدثت في السنة الأولى من حكم كونستانس ملك البيزنطيِّين، أي في السنة العاشرة من حكم يزدجرد ملك الفرس»، وبالتحديد في سنة 641-642م. أنزل العرب إلى الميدان «أربعينَ ألفًا من الرجال

المدجَّجين بالسيوف» ضدَّ ما حشده الفرس من قوَّةٍ بلغت «ستين ألفًا مجهَّزين تمامًا بالسلاح». استمرَّ القتال لمدَّة ثلاثة أيَّام يواجه أحدهم الآخر وبخسائرَ فادحة، مِمَّا أضعف قوَّات المشاة لكلا الطرفين. ولكن سرت إشاعة فجأة بين الفرس أنَّ العدوَّ وصلته تعزيزات، ولم تنتظر القوَّات الفارسيَّة وهي بحالة من شدِّ الأعصاب التأكد من تلك الأخبار، غادرت معسكرها في الليل، فهجم العربُ في الصباح التالي على مواقع الفرس لكنَّهم لم يجدوا أحدًا، وبدلًا من ذلك أغاروا على المناطق المحيطة بهم. «ناشرين غاراتهم على كلِّ الأراضي وأنزلوا السيف بكلِّ الرجال والمواشي، واستولوا على اثنينِ وعشرينَ حصنًا ليقتلوا كلَّ الكائنات الحيَّة فيها».

والخطُّ الثالث للفتوحات تُمثَّل بتلك الهجمات التي قادها العربُ على طول السواحل الجنوبيَّة المحاذية للخليج والممتدَّة من جنوب مصبِّ نهر دجلة حتَّى موانئ الهند الشماليَّة الغربيَّة. وهنا يُعدُّ المؤرِّخ سيبيوس مصدرنا الرئيس عن هذه العمليَّات، ويخبرنا أنَّ مصدره «رجال أُخذوا أسرى». ويقول: إنَّ ملك العرب أرسلَ سفنًا من الساحل الشرقيِّ للجزيرة العربيَّة؛ للإغارة على طول السواحل الجنوبيَّة لبلاد فارس وصولًا إلى الحدود الهنديَّة. كانوا في المراحل المبكِّرة يعودون إلى قواعدهم في شرق الجزيرة العربيَّة، ولكن بمرور الوقت أخذوا يقيمون معسكراتهم في الجنوب الغربيِّ من بلاد فارس؛ لكي يواصلوا هجماتهم البحريَّة والمناورة في البرِّ أيضًا. كان عثمان بن أبي العاص من قبيلة ثقيف هو المسؤول عن هذه الاستعدادات، وهو الذي عمل حاكمًا للبحرين وعمان للفترة 636–650م، وقاد العمليَّات ضدَّ المناطق الساحليَّة من بلاد فارس للفترة 640–650م. واستولى على مدينة تواج Tawwaj في الجنوب الغربيِّ من شيراز سنة 640م حيث رابطت قوَّاته هناك. يبدو أنَّ أعدادهم كانت قليلةً؛ لأنَّهم لم يستطيعوا الاستيلاء على الحصون الجبلية في إصطخر وجور Jur. وهذا لم يُنجز حتَّى تولَّى عبد الله بن عامر سنة 649م حكمَ البصرة وهو من قريش، قبيلةِ النبيِّ

محمَّد، ويبدو أنَّه من القادة النشطين والكفوئين. لقد حشد قوَّةً بشريَّة ضخمة عسكرت في البصرة للقيام بهجوم على الأراضي الداخليَّة للعائلة الملكيَّة الساسانيَّة في فارس. واستنادًا إلى المصادر الإسلامية فإنَّ إصطخر وجور قاومتا بشراسةٍ ولكنَّهما خضعتا في النهاية في السنوات الأولى من العقد السادس من القرن السابع الميلاديّ. ويقال إنَّ إصطخر شهدت مذبحةً لأربعينَ ألفًا من سكَّانها من بينهم عددٌ من الوجهاء الساسانيِّين الذين لجؤوا إليها؛ كونها موطن ملوكهم المقدَّس[1].

كان العرب يرغبون في التأكُّد من عدم عودة الساسانيِّين مرَّة أخرى، وهذا ما يفسِّر المعاملة القاسية لمناطق بلاد فارس الجنوبيَّة الغربيَّة واستئصال أعضاء هذه العائلة الملكية وأنصارها وحصونها. وبعملهم هذا تركوا مهمَّةً واحدةً لم يعملوها حتَّى الآن: إزالة آخر حاكمٍ ساسانيٍّ. ولذلك سار جيشٌ عربيٌّ من الجنوب الغربيِّ لبلاد فارس على طول الطريق نحو الشمال الشرقيِّ إلى «بلاد البارثيِّين» لملاقاة يزدجرد الذي كان يتحصَّن آنذاك في مرو، في تركمستان الحاليَّة، بعد أن «رفضه النبلاء الكبار» في بلاد فارس. أمَّا خورزاد أمير ميديا (شمال غربي بلاد فارس) وبعد موت أخيه رستم؛ توجَّه أيضًا نحو الشرق بهدف الانضمام إلى قوَّاتٍ فارسيَّةٍ أخرى لقتال العرب، لكنَّ زيبيوس يخبرنا لسوء الحظِّ ودون توضيح أنَّه تمرَّد «وتحصَّن في بعض الأماكن». لكنَّ المصادر الإسلاميَّة تذكرُ أنَّه اختلف بقوَّةٍ مع يزدجرد حول سير الأحداث اللاحقة. فبينما أراد يزدجرد الذهاب إلى الأترك أو إلى الصينيِّين لطلب المساندة ضدَّ العرب لأنَّهم الشعوب الوحيدة التي لديها قوَّة بشريَّة فائضة؛ كان خورزاد مُصرًّا على ألَّا يترك أهله، وكان يرى أنَّ الدخول إلى أراضٍ غريبةٍ من الخطوات الخطيرة في مثل هذه الحالة من الضعف. كان الخيار الأفضل لديه التوصُّل إلى صفقةٍ ما مع العرب؛ لكسب بعض الوقت.

1- سيبيوس، 104-105 (نهاوند)، 102 (الغارات البحرية)؛ البلاذري، 386-391 (فارس).

قرَّر خورزاد أنَّه شخصيًّا سيقوم بما يراه مناسبًا مع العرب ومهما كان السبب، وكان ذلك كارثة بالنسبة إلى الإمبراطور؛ لأنَّ جيش ميديا القوي يُعدُّ حاسمًا لتحقيق أهدافه في هزيمة القوَّات العربيَّة التي تقترب منه بسرعة، وأنَّ ارتداده سيجعل حالة من بقي خلفه غير مستقرَّة. ولذلك توجَّه شرقًا، لكنَّ العرب أمسكوا به وهزموا قوَّاته بسرعة. أمَّا يزدجرد؛ فقد استطاع إنقاذ نفسه من هذه المواجهة، ولكن قُتِلَ بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ في ظروفٍ غامضةٍ. والمصادر المعاصرة تمدُّنا بتفصيلات مقتضبة، لكنَّ الأخبار والتكهنات بموته انتشرت بسرعة. والأخبار الشعبيَّة الأكثر رواجًا تذكر أنَّه اختفى في طاحونةٍ تقع على ضفَّة نهرٍ عند بوَّابة مدينة مرو، حيث اكتشفه مالكها وقتله وجلب رأسه إلى حاكم المدينة. ومع ذلك، هناك عدَّة آراء مختلفة حول هُويَّة القاتل (صاحب الطاحونة، أحد الأتراك، تحالف الأشراف من شرق بلاد فارس الغاضبين من الضيق والشدَّة التي جلبتها إليهم العائلة الساسانيَّة). إنَّ حالة الوفاة (ضربة بالرأس أو الغرق) سواء كانت صدفة (ربَّما صاحب الطاحونة لم يُدرك من هو المتسلِّل) أم مؤامرة (صفقة بين مهاويه حاكم مرو ونيزاك Nizak الأمير البوذي الذي عنَّفه يزدجرد؛ لرفضه طلبه بالزواج من ابنته)[1].

تُمثِّل حادثة مقتل يزدجرد على أيدي سكَّان السهوب حادثةً خطيرةً وصادمةً، ولكنَّها وقعت من قبل، فقد قُطِّعَ الإمبراطور بيروز الأوَّل وجيشه من الهفثليِّين Hephthalites في جورجان عام 484م، وحينما كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة بعد على قيد الحياة. إذن، هناك فرصة للعودة هذه المرَّة، وبالتأكيد كان ابن يزدجرد يكافح؛ من أجل التمسُّك بحقِّ الوراثة. أمَّا الابن الأكبر بيروز الثالث؛ أخذ يتوسَّل ويتملَّق

1- Chavannes, 172;

(يزدجرد المزدري). تذكر المصادر الإسلاميَّة أنَّ يزدجرد تعامل بعجرفة مع النبلاء/ حكام كرمان وسيستان، ولذلك رفضوا مساعدته؛ البلاذري، 315. وفاة يزدجرد في عام 651-652م: سيبيوس، 135؛ ثيوفيلوس، 136-137؛ البلاذري، 315-316؛ دنيوري، 148-149.

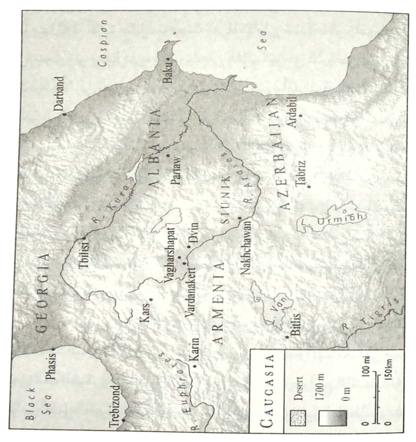
للأتراك والصينيِّين لتزويده بالقوَّات، واستطاع إحراز بعض التقدُّم في شرق بلاد فارس في أثناء الحرب الأهليَّة الأولى للعرب (656-660م)، وحتَّى سُكَّ النقد باسمه. وفي هذا الوقت أسَّس الإمبراطور الصينيُّ جواسونج (650-683م) - ربَّما القوَّة الوحيدة في الصين آنذاك - والإمبراطورة التي لا تُقهر وو Wu (655-705م) محميَّةً في أقصى الشرق من بلاد فارس سُمِّيت «قيادة المنطقة الفارسيَّة» واعتُرفَ ببيروز رئيسًا لها. ومع ذلك، استأنفَ العرب تقدُّمهم نحو الشرق في عام 663م مُجبرينَ الأمير الشابَّ على التراجع واللجوء إلى العاصمة الصينيَّة شانجون Chang'an (اكسون الحاليَّة Xi'an)، حيث أُقيم البلاط الفارسيُّ في المنفى. قام بيروز وربَّما ابنه نارسه Narseh بمحاولةٍ أخرى في عام 677م، لكنَّ القوَّات الصينيَّة رافقته إلى منتصف الطريق، ولذلك لم يحقِّق المشروع أيَّ شيء؛ لأنَّ المسير من الشرق الأقصى لمهاجمة المدن العربيَّة المحصنة الواقعة في الغرب ولا سيَّما في العراق أمرٌ في غاية الصعوبة. تُوفِّي بيروز في بلاطه البديل في شانجون في نحو عام 680م، وخُلِّدت ذكراه بتمثالٍ نُقشت عليه الخرافة التالية: «بيروز ملك الفرس القائد الكبير للحرس الحق الشجاع، والقائد العام لبلاد فارس». أمَّا أخوه المدعو بهرام؛ فقد خُلِّد أيضًا، ليس لما قام به من الكثير من الأعمال، ولكن لما أمكنه من العمل لتحقيق آمال الفرس بالعودة إلى الماضي، وهذه الآمال صاغوها في شعرٍ يتنبَّأ بالعودة إلى الماضي المجيد الذي سيصطحب «قدوم المعجزة بهرام»[1].

1- **Chavannes, 172; Cambridge History of China 3.1 (ed. D. Twitchett), 280; Daryaee, Sasanian Persia, 37-38.**

القوقاز (بلاد ما وراء النهر)، خارطة 3.4

أحرز العرب مكتسباتٍ مهمَّةً في الشرق والغرب خلال أربعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، ولكن الطبيعة الجبليَّة فيما وراء الجزيرة وشمال العراق تمثِّل أكثر من تحدٍّ خطرٍ للغزاة المتطلِّعين للغزو. كانت هذه الأراضي حتَّى عام 428م تعود إلى مملكة أرمينيا، أي الأجزاء الشرقيَّة من تركيا الحاليَّة، وأرمينيا والجبال الشماليَّة الغربيَّة من بلاد فارس. أخذت القوَّتان الكبيرتان بيزنطة وبلاد فارس تنهمكَّان بازدياد في شؤون هذه المنطقة، قُسِّمت بينهما عام 428م، على الرغم من وعورتها التي تعني أنَّ العوائل النبيلة الأرمنيَّة كانت تتمتَّع بدرجةٍ من الحكم الذاتيِّ، وإنَّ بسالتهم العسكريَّة المشهورة جعلت منهم حلفاء ذوي مكانة من الطرفين. لكنَّ معاوية القائد العسكريَّ العامَّ في الغرب كان مصممًا على الانقضاض على هذه الأرض الأبيَّة. ولذلك اختار لهذه المهمَّة حبيب بن مسلمة، وهو محاربٌ عنيدٌ وذو مزاجٍ قاسٍ حتَّى وصفه أحد المؤرِّخين المسيحيِّين بـ «الرجل السوريِّ الشرير». سلك حبيب الممرَّات الجبليَّة الأكثر سهولة إلى الشمال الشرقيِّ من الجزيرة، ومنها سار على طول السواحل الشماليَّة لبحيرة فان، واستمرَّ في مسيره باتجاه الشمال الشرقيِّ بمحاذاة سلسلة جبال آرارات الشاهقة التي يبلغ ارتفاع قمَّتها نحو خمسة آلاف مترٍ، وهو الآن في شهر تشرين الأوَّل حيث تغطِّي الثلوج سطح الأرض هناك. ولم يؤجِّل مسيرَه، وضع العربُ خطَّةً بجلب الثيران للسير أمامهم لفتح الطريق، مِمَّا مكَّنهم من التقدُّم بسرعة والدخول منطقة آرارات وهي المركز الإداريُّ لأرمينيا، والإغارة على العاصمة (دفن Dvin) التي تبعد نحو عشرينَ ميلًا عن العاصمة الحاليَّة يرفان Erevan. لم يتوقَّع الأرمن الهجوم عليهم

بحلول الشتاء في هذا الوقت والانقضاض عليهم على حين غِرَّة. واستطاع العربُ السلبَ والنهبَ بنجاحٍ في منطقةٍ واسعةٍ، وبوسط الدخان وتحت وابلٍ كثيفٍ من السهام واستخدام السلالم؛ تمكَّنوا من دخول مدينة دفن نفسها في شهر تشرين الأوَّل عام 640م، منزلين السيف بالسكَّان والاستيلاء على الكثير من الأسرى والغنائم[1].



خارطة رقم 3.4
القوقاز (بلاد ما وراء النهر)

1- ثيوفيلوس، 140؛ سيبيوس، 109-111، وهي المصادر التي استخدمتها في بقية هذا القسم.

وبعد ثلاث سنوات، شنَّ العربُ في صيف عام 643م حملةً أخرى على أرمينيا، وكانت جزءًا من حملة أكبر على الإقليم كلِّه، وربَّما كان الهدف محاولة اختبار الدفاعات الفارسيَّة على الحدود الشماليَّة الغربيَّة للإمبراطوريَّة، التي يجب أن نتذكَّر أنَّها ما زالت قائمةً حتَّى هذا الوقت. توجَّه العربُ في البداية إلى منطقة أذربيجان إلى الشمال الشرقيِّ من بحيرة أورمية. وهنا انقسم العرب على ثلاث فرقٍ، بلغ عدد كلِّ واحدةٍ منها ثلاثة آلاف مقاتل. توجَّهت الفرقة الأولى شمالًا نحو وادي نهر أراكسي الكبير، متجاوزينَ مدينة دفن، وأغاروا على هلالٍ كبيرٍ من الأراضي إلى الشمال من المدينة وصولًا إلى سواحل البحرين الأسود والخزر. أمَّا الفرقة الثانية؛ فقد توجَّهت نحو الشمال الغربيِّ ودخلت إلى الأراضي الجبليَّة لجنوب أرمينيا، في منطقةٍ تقعُ الآن حول الحدود الحاليَّة بين تركيا وإيران. أمَّا الفرقة الثالثة؛ فحاصرت مدينة ناخشاوان Nakhchawan الاستراتيجيَّة التي تسيطر على وادي أراكسي إلى الجنوب من دفن. كانت المهمَّة الأكثر صعوبة تقع على عاتق الفرقة الثانية؛ لأنَّ السكَّان المحليين بإمكانهم الانسحاب والاحتماء بالحصون الجبليَّة. هاجم العرب حصنين، إلَّا أنَّهم تكبَّدوا خسائرَ فادحةً أجبرتهم على الانسحاب، لكنَّهم استولوا على حصنٍ ثالثٍ، غير أنَّ القائد البيزنطيَّ المجرب في أرمينيا ثيودور رشتوني انقضَّ عليهم في اليوم التالي بهجومٍ مفاجئٍ وقضى على «النخبة من القوَّات العربيَّة»، ولم ينجُ من الثلاثة آلاف مقاتل إلَّا العدد اليسير الذي هرب مشيًا على الأقدام ووجدوا لهم مخبأً في مستنقعات الأراضي المنخفضة. ومن أجل أن يجعل ثيودور انتصاره واسع الانتشار، اختار مئة حصانٍ من أفضل الخيول العربيَّة وأرسلها هديَّةً إلى الإمبراطور البيزنطيِّ. وعند سماع هذه الهزيمة رفعت الفرقة الثالثة حصارَها عن ناخشاوان وتراجعت سريعًا. كانت الغنائم الوحيدة التي طمأنت العرب من هذه الحملة هي التي حصلت عليها الفرقة الأولى، وما عدا ذلك كانت حملةً كارثيَّةً عليهم.

ولذلك بقيت أرمينيا حليفًا حرًّا للبيزنطيِّين لوقتٍ أطول، ولكن في العام 652-653م قرّر رشتوني الوقوف جانبًا، ربَّما لتأثُّره بأنباء موت الإمبراطور الساسانيِّ يزدجرد. ولذلك لم يوافق الأرمن على خضوعهم بوصفهم شعبًا فتحه العربُ، ولكنَّهم وافقوا على أن يكونوا تابعين، وربَّما هذا يناسب العرب، ولا سيَّما أنَّ مغامرتهم الفاشلة قبل عقد من السنين ما زالت عالقةً في الذهن وأنَّهم ليسوا في عجلةٍ على العودة لقتال هذا البلد الوعر وسكَّانه الشجعان. ولذلك كانت ترتيبات الصلح مناسبةً للأرمن ما داموا معفيينَ من الجزية لمدَّة ثلاث سنوات، وبعد ذلك عليهم دفع مبلغ الجزية الذي يعتقدونه مناسبًا لهم. وعليهم تجهيز قوَّة تتكوَّن من ألف وخمسمئةٍ من الخيَّالة مساعدةً للعرب إذا احتاجوا إليها، ومقابل ذلك يحتفظونَ بحكمهم الذاتيِّ. هذه الوثيقة التي صاغها معاوية تنصُّ على: «لن أرسل أمراء على حصونكم، ولا جيشًا عربيًّا – لا أعدادًا أخرى ولا خيَّالًا واحدًا»، وعلاوة على ذلك، إذا هاجم أيُّ أحدٍ أرمينيا فسيقوم العرب بإرسال قوَّاتهم لمساندتها وبأيِّ عددٍ تطلبه. لكنَّ هذا الاتفاق لم يكن مقبولًا بوجهٍ عامٍّ في أرمينيا. ربَّما يعكس المؤرِّخ سيبيوس مشاعر رجال الدين الذين لاموا ثيودور، «الذي عمل اتفاقًا مع الموت، وعقد حلفًا مع جهنَّم، وتركه العهد المقدَّس».

فتح جزيرتي قبرص وأرواد

إنَّ السهولة التي أبحر فيها الجيش البيزنطيُّ والوصول إلى ميناء الإسكندرية في عام 646م وإعادة السيطرة على المدينة؛ جعل معاوية يدرك حاجة العرب إلى أسطولٍ بحريٍّ لصيانة مكاسبهم. ومع ذلك، إذا أراد العرب الاستيلاء على القسطنطينيَّة فإنَّ الهجوم من البحر سيكون دوره متمِّمًا بشكلٍ حاسمٍ لأيِّ هجومٍ من البرِّ. ولذلك أمر معاوية كتيبةً من الجند بإجبار العمَّال في مصانع السفن بمصرَ وبلاد الشام على الشروع

ببناء أسطولٍ بحريٍّ. وبعد ثلاث سنوات أصبح الأسطول جاهزًا، وقرَّر معاوية اختبار هذه القوَّة الجديدة بالهجوم على قبرص. لقد أعطتنا رواية عاطفيَّة معاصرة تعود إلى منتصف القرن الثامن الميلاديِّ صورةً حيَّة لهذه الغارة البحريَّة الأولى للعرب[1]. أصدر معاوية أوامره في ربيع عام 649م لتجمُّع الأسطول الذي بلغ تعداده نحو 1700 مركبٍ مقابل السواحل السوريَّة، حيث كانت سواريه تشبه غابةً تطفو على سطح البحر، حتَّى إنَّ الناظرين إليها من الساحل امتلئوا رعبًا من حجم هذه الحملة البحريَّة، ولم يستطيعوا رؤية أمواج البحر. كان البحَّارة يقفون على سطوح مراكبهم بملابسهم الكاملة وعدَّتهم القتالية، ويتفاخرون أنَّهم ذاهبون لتدمير عاصمة القبارصة الفخمة التي لم تخضع من قبل إلى السلب والنهب ومن أيِّ غازٍ كان.

وحينما اقتربوا من الجزيرة أمرَ معاوية قباطنة المراكب إبطاء الإبحار وبقاء السفن قريبة من الساحل؛ لأنَّه أراد أن يستخدم الرأفة بسكَّان الجزيرة ومنحهم فرصة الخضوع مقابل ضمان سلامتهم. وجعل سفينته الخاصَّة به تقف أمام الأسطول كلِّه وقال لأصحابه: «دعنا نبقى هنا ونرى هل سيأتي القبارصة إلينا للتوصُّل إلى معاهدة سلام لكي يجنبوا بلدهم الدمار»، إلَّا أنَّ الوقت مضى دون أن يظهر أحد للتوصُّل إلى سلام. وأخيرًا أذعن معاوية للاتهامات المضادَّة من القوَّة المصريَّة، وأعطى الإشارة للنزول برًّا والهجوم على الجزيرة. وحينما رأى القبارصة العدد الكبير من السفن افترضوا أنَّها سفنٌ بيزنطية، إلَّا أنَّ العرب نزلوا إلى اليابسة بعد رسوِّ سفنهم وتسليح أنفسهم وصلوا إلى الساحل دون أن يواجهوا أيَّة مقاومة. شقَّ معاوية وقادته والبطانة المخلصة له طريقهم مباشرةً نحو العاصمة كونستانتيا، وبعد إخضاعها أقام معسكره في مقرِّ إقامة أسقفها. أمَّا الجنود العرب؛ فقد انتشروا عبر الجزيرة كلِّها وغنموا كميَّات

1- ثيوفيلوس، 131-134. إنَّ ما يأتي هي النسخة المضغوطة، التي أعدنا صياغتها من الرواية الأصليَّة، وتشير تفاصيلها إلى أنَّها مستمدَّة بشكلٍ جوهريٍّ من مصدرٍ معاصرٍ وثقةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ. سيبيوس، 111-112، يذكر هجوم معاوية على القسطنطينيَّة.

كبيرة من الذهب والعبيد والملابس الفاخرة الثمينة، وجاؤوا بها إلى معاوية الذي كان سعيدًا لكميَّة الأسلاب المتراكمة وأعداد الأسرى من الذكور والإناث ومن مختلف الأعمار. لقد قُسِّمَ الذهب والفضة وكلُّ شيء جُمع على قسمين: أحدهم ذهب للجيش المصريِّ للجيش السوريِّ. وبعد أيَّام قليلة حُمِّلت السفن بالأسرى وتوجَّه بعضها نحو الإسكندرية والآخر نحو بلاد الشام.

اغتنم معاوية الفرصة لشنِّ هجومٍ بحريٍّ على القسطنطينية، إلَّا أنَّه صُدَّ وهربَ بسرعة، لكنَّه كان مصرًّا، فوجَّه انتباهه نحو جزيرة أرواد بدلًا من القسطنطينية، وهي جزيرة صغيرة تقع قبالة الساحل السوريِّ. بذل معاوية كلَّ جهدٍ للاستيلاء عليها، مستخدمًا أدوات الحصار وما يشابهها من الآلات، لكنَّ سكَّانها صمدوا واحتموا بالحصن الكبير الذي يقع داخل العاصمة. أرسل بعد ذلك أحد الأساقفة لإقناعهم بإخلاء الجزيرة والتوجُّه إلى بيزنطة، لكن سكَّان الجزيرة قاموا بحبسه ولم يعيروا لرسالته أيَّ اهتمام. ونظرًا لحلول فصل الشتاء غادر معاوية الجزيرة وعاد إلى دمشق، غير أنَّه عاد بحلول فصل الربيع مرَّةً أخرى إلى الجزيرة بقوَّاتٍ أكثر، واستعدَّ لفرض الحصار عليها لأطول مدَّةٍ ممكنةٍ. وحينما رأى سكَّان الجزيرة تلك القوَّة الهائلة التي تصطفُّ أمامهم قرَّروا قبول الضمانات التي قدَّمها معاوية لهم، ضمان حياتهم والرحيل إلى أيَّة جهة يرغبون الرحيل إليها. ذهب بعضهم إلى الأراضي البيزنطيَّة، وتوجَّه آخرون إلى بلاد الشام. وعند مغادرة سكَّان الجزيرة أمر معاوية بتدمير التحصينات وإشعال النيران بالمدينة حتَّى ساواها بالأرض. ويُقال إنَّه عمل ذلك بالمدينة «لكي لا تُبنى مرَّة أخرى ولا يعاد استيطانها أبدًا»، وربَّما نفترض أيضًا أنَّه لا يمكن استخدامها قاعدةً من البيزنطيِّين لشنِّ الهجمات على الساحل السوريِّ.

عاد العرب إلى جزيرة قبرص مرَّة أخرى في السنة نفسها، أي في عام 650م بقيادة أبي الأعور، وهو من القادة المخلصين للأمويِّين ومن أكفأ قادتهم البحريِّين.

كان السبب وراء الهجوم الثاني على الجزيرة انتشار الأخبار بنزول قوَّة بيزنطيَّة على الجزيرة أرسلتها بيزنطة لإخضاعها لسيطرة الإمبراطوريَّة. شجعت القوَّات البيزنطيَّة السكَّان على الصمود وعدم الارتباك، ولكن حينما رأت تلك القوَّة والسكَّان حجم القوَّة العربيَّة الكبير انهارت معنوياتهم وهربوا، ولا سيَّما الأثرياء والجنود الذين هربوا بالسفن نحو الأراضي البيزنطيَّة، أمَّا الآخرون ولكي يتجنَّبوا القتل أو الاستعباد قرَّروا اللجوء إلى مدينة لابثوس Lapathos وإغلاق أبوابها عليهم. أخذ العرب يطوفون عبر الجبال والسهول بحرِّيَّة؛ للبحث عن الغنائم «ويلقطون السكَّان المحلِّيِّين من شقوق الأرض كالبيض يترك عشَّه». حدَّدوا بعد ذلك مواقعهم في لابثوس، وحاولوا لعدَّة أيَّام تنفيذ وعودهم بالسلام، ولكن حينما وجدوا القبارصة غير متقبِّلين لهم، قصفوا المدينة بالمنجنيق من جميع الجهات. وحينما رأى السكان أنَّه لا طائل من عنادهم، وعدم وجود وصول أيَّة مساعدة لهم، طلبوا من أبي الأعور إعطاءهم ضمانًا بالحفاظ على حياتهم، الذي أظهر رأفةً سريعةً وبعث إلى السكَّان التعليمات التالية: «إنَّ الذهب والفضة وكلَّ شيء ثمين في المدينة يصبح لي، وأعقد معكم معاهدة سلام وميثاقًا مقدَّسًا أن أولئك الذين يرغبون بالذهاب إلى الأراضي البيزنطيَّة أو يفضِّلون أيَّ مكانٍ آخر لا يُقتلون ولا يستبعدون». وهكذا تم تسلُّم المدينة وتحميل خزائنها على السفن مع بقيَّة الغنائم وضمنها العبيد، ثمَّ أبحرت نحو بلاد الشام وهي منتصرة. وهناك نقش معاصر يذكر هذا الاستعباد الهائل، حيث قُدِّر عدد الذين جُلبوا بمئة وعشرين ألفا في عام 649م، وبخمسين ألفا في عام 650م، وهذه الأعداد ربَّما مبالغ فيها أو على الأقل تخمين سخيٌّ، ولكنَّه يعكس بالتأكيد حقيقة أنَّها كانت كبيرةً جدًّا[1].

1- Soloi: Dix campagnes de fouilles (1964-1974). Volume premier (Sainte-Foy, 1985), 115-25.

نجاح الفتوحات العربيَّة

كانت جميع الانتصارات التي أنجزها العرب في ثلاثينَّات القرن السابع الميلاديِّ قد حدثت في مسافاتٍ ليست بعيدةً عن الصحراء السوريَّة: فلسطين وبلاد الشام في الجهة الغربيَّة، والعراق شرقًا، والجزيرة شمالًا. وتوسَّعت مديات الهجمات في العقد الخامس من القرن السابع الميلاديِّ كثيرًا والتقدُّم نحو مصر غربًا، وبلاد فارس شرقًا، وإلى القوقاز (بلاد ما وراء النهر) شمالًا، التي كانت من المناطق الصعبة على العرب؛ لأنَّهم لم يألفوا مسالك الأراضي الجبليَّة. ولكنَّهم تمكنوا في بلاد فارس ومصر من إخضاع المدن الرئيسة، وأحكموا سيطرتهم على أراضيها تماما. كان ذلك إنجازًا مدهشًا. وفي النهاية نطرح السؤال التالي: لماذا كانت الفتوحات العربيَّة ناجحة جدًّا؟ بالنسبة إلى المؤرِّخين المعاصرين الجواب بسيط: الله أراد ذلك سواء بعقاب الناس على آثامهم (كما يقول الكثير من القادة المسيحيِّين ذلك)، أم لمكافأة العرب على إخلاصهم لدينهم القويم (كما يقول الفاتحون)، ولكن كيف يمكننا تفسير ذلك؟

إنَّ ضعف الامبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة مارس دورًا مؤكَّدًا في هزيمتهم السريعة. فاندلاع الحروب المتواصلة بين هاتين الإمبراطوريَّتين منذ عام 502م ولا سيَّما الصدام الهائل في المدة 603-628م يمثِّل استنزافًا هائلًا لمواردهم الماليَّة والبشريَّة. وكانت عمليَّات تجنيد القوَّات قد تأثَّرت أيضًا بفترات حدوث مرض الطاعون الذي أحدث مصاعبَ جمَّة للمنطقة منذ عام 550م تقريبًا. فقد انتشر الطاعون بسرعة في المناطق المكتظَّة بالسكَّان وأخذت العدوى مأخذها المميت، ولكن في المناطق المفتوحة حيث المهن متباعدة فإنَّها فقدت تأثيرها بسرعة.

وبذلك، فإنَّ الأقاليم الرئيسة في بيزنطة وبلاد فارس والمدن الساحليَّة لحوض البحر الأبيض المتوسِّط والمستوطنات الزراعيَّة في جنوب العراق - هاجمها الوباء بضراوة، في حين كانت المناطق الداخليَّة القريبة من السهوب السوريَّة والأراضي الزراعيَّة الشاسعة لآسيا الوسطى خسائرها أقل بكثيرٍ من المناطق الأخرى. والمثال الأبرز لمحدوديَّة الموارد البشريَّة المتاحة لبيزنطة توضِّح في حملة هرقل القوقازيَّة المشهورة على العراق لضرب قلب الإمبراطوريَّة الفارسيَّة. كانت قوَّته تتألَّف من خمسة آلاف مقاتلٍ، بينما تمكَّن الخاقان التركيُّ الذي جاء لمساعدته من حشد أربعين ألف مقاتل. وهكذا كانت المصادر الصينيَّة على صواب حينما ذكرت في عام 627م هزيمة الأتراك للفرس بشكل عرضيٍّ، ولم تذكر البيزنطيِّين إطلاقًا[1]. الآن جاء دور عالم السهوب للضرب على الوتر، كانت بلاد فارس - وهي الخاسر في هذا الصراع الهائل - تعاني من أزمة فقدان الثقة، كانت العوائل النبيلة تشكُّ في أنَّ العائلة الساسانيَّة الحاكمة قد خسرت عطف الآلهة. ولأوَّل مرَّة منذ أربعمئة عامٍ تمَّ تحدِّي الامتيازات الملكيَّة الساسانيَّة، وكشفت الحرب الأهليَّة الكارثيَّة عن لحظة الضعف التي كانت تنخر النظام.

وحتَّى الآن لم تكن حالة الضعف للخصوم فقط من سهَّلَ تقدُّم العرب. إنَّ صورة الفاتحين العرب بوصفهم «قبائل بدوية لا تملك الخبرة العسكرية»، وغرباء على عالم الحضارة تعدُّ صورةً خاطئة[2]، وهذا ما نُشر في بعض الأوقات في الأعمال الأكاديميَّة. كانت القبائل العربيَّة طوال القرون السابقة وربَّما أقدم من ذلك توفِّر للإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة الخدمات العسكريَّة. وبعضهم خدم في الكتائب التي كانت تقاتلُ

1- Chavannes, 52, 171

عن نظرة أشمل لتأثيرات الطاعون، انظر:

(London.2008) W. Rosen, Justinian's Flea

2- Gabrieli, Muhammad and the Conquest of Islam, 103.

بوصفها جزءًا من الجيش الإمبراطوريِّ لأيٍّ منهما، بينما عمل الآخرون أتباعًا مستقلِّين متحالفين مع الإمبراطوريَّة ويقاتلون معها حينما تدعوهم إلى ذلك. وأبرز مثل على ذلك القائد العربيُّ أتفار Atfar، وهو من رجالات القرن السادس الميلادي الذي وصفته المصادر المعاصرة بأنَّه «رجل ذو خبرة حربيَّة، ومدرَّب تدريبًا جيدًا على التقنيَّات العسكريَّة البيزنطيَّة»[1]. إنَّ هؤلاء الحلفاء العرب للإمبراطوريَّتين على الرغم من استمرارهم في القتال إلى جانب سادتهم الإمبراطوريِّين لبعض الوقت؛ فإنَّهم سرعان ما بدأوا بالتحوُّل إلى الحلف الإسلاميِّ في غرب الجزيرة العربيَّة في زمن النبيِّ محمَّد وخلفائه من بعده. وكان ذلك جزئيًّا بسبب أنَّهم رأوا التحالف قد أحرزَ انتصارات وحصلَ على الغنائم، فضلًا عن أنَّ ولاية بيزنط العربيَّة أقامت خلال خمسة قرون من وجودها روابط متعدِّدة - تجاريَّة، شخصيَّة وغيرها - بين القبائل القاطنة على أطراف الصحراء السوريَّة والأردن وفي غرب الجزيرة العربيَّة، وهذه سهَّلت لأعضاء حلف غرب الجزيرة العربيَّة اللجوء إلى إخوانهم في الشمال. وأبرز مثال على ذلك القائد عمرو بن العاص الذي قاد القوَّات العربيَّة نحو فلسطين في عام 634م، الذي يرتبط برابطة الدم من خلال جدَّته بقبيلة بالي التي كانت من أولى القبائل العربيَّة الحليفة لبيزنطة وحوَّلت تحالفها وقاتلت مع قبائل غرب الجزيرة العربيَّة. وكما لاحظ أحد المؤرِّخين للاشتباكات العربيَّة - البيزنطيَّة الأولى «كان الجنود البيزنطيُّون من ولاية بيزنطة العربيَّة يقاتلون العرب في تلك الولاية»[2]. وتشير المصادر

1- Pseudo-Zachariah, Chronical, trans. G.Greatrex (Liverpool, 2011), 9.2.
تباهى الشعراء العرب الأوائل كثيرا ببسالة رجال قبائلهم، وأعطوا الانطباع أنَّهم يملكون كلَّ الأسلحة الحربيَّة المعدنيَّة في تلك الأيَّام.
(F.W.Schwarzlose, Die Waffen der alten Araberaus ibren Dichtern dargestellt, Leipzig, 1886).

2- ابن عبد الحكم، 116 (بالي)؛ ثيوفيلوس، 101-102، يذكر ميشيل الشامي وهو المؤلف الأخير، لكنَّه اعتمد على الكثير من الروايات المبكرة. الأزدي (ت: نحو 820م)، فتوح الشام، نشره أي. أم. أمير (القاهرة،1970)، 97، 150، يتحدَّث عن "أهل البلد" الذين ساعدوا المسلمين ضدَّ الجنود البيزنطيِّين (الروم)؛ وقسَّمَ البدو على المؤيدين للمسلمين، والمساندين للبيزنطيين، والمتردِّدين منهم.

الإسلاميَّة إلى أنَّ القبائل العربيَّة المسيحيَّة التي كانت تقاتل إلى جانب الحلف الإسلاميِّ لغرب الجزيرة العربيَّة في معركة اليرموك كانوا يقاتلون «في موطنهم». والحالة نفسها بالنسبة إلى الفرس، حيث قاتلت القبائل «التي كان موطنها العراق» وكلاء الحكم الإمبراطوريِّ الفارسيِّ[1]. ومن هذا المنظور بدأت الفتوحات العزبيَّة بوصفها عصيانًا مسلَّحًا، أي لم يكن الفاتحون الأوائل غزاة جاؤوا من خارج الإمبراطوريَّة، ولكنَّهم من سكَّان الداخل الذين حاولوا أخذ حصَّتهم من السلطة والثروة في الدولة البيزنطيَّة. وهذا يفسِّر لماذا لم تكن الفتوحات العربيَّة مدمِّرة بشكلٍ خاصٍّ؛ لأنَّ قادتها لديهم معرفة وثيقة بالإمبراطوريَّتين، وأرادوا أن يحكموهنَّ لا أن يدمروهنَّ.

كانت خسارة الحلفاء العرب تمثِّل ضربةً قاسيةً للإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة. وبعد معركة اليرموك في عام 636م تحوَّلت أعداد غفيرة من العرب المسيحيِّين إلى جانب المنتصرين، وكانت النتيجة أنَّ الإمبراطور هرقل «لم يتمكَّن من تجنيد أيَّة قوَّات منهم لمواجهتهم». وعلى العكس، استطاع العرب في غرب الجزيرة العربية تجنيد أعدادٍ كبيرةٍ من البدو، وهذا ما لاحظناه في الفصل السابق، كانت نسبة المجنَّدين من المجتمعات البدويَّة أكبر بكثير من أولئك الذين جُنِّدوا من المجتمعات المستقرَّة. لقد أظهر إحصاءٌ للحاميات العسكريَّة في البصرة والكوفة الذي أجراه المشرف على ديوان الجند في أثناء حكم معاوية وجود ستين ألف مقاتلٍ من الكوفة وثمانين ألفًا من البصرة[2]. وإذا افترضنا وجود الأعداد نفسها تقريبًا في الحاميات في

1- أبو عُبيد (ت: 837 م)، كتاب الأموال، نشره K.M.Harras (Beirut, 1978, 345) (في ديارهم)؛ الأزدي، 218 (العراق). من الملاحظ أنَّ بعض الحوليَّات على ورق البرديِّ من جنوب فلسطين يعود تاريخها إلى عقد السبعينيَّات من القرن السابع الميلاديِّ ولصالح عشائر مسيحيَّة (ربَّما اليوم مسلمة) من قبائل لخم وجذام العربيتين. (C.J.Kraemer Excavations at Nessana 3, Princeton, 1958, nos.60-64: عن سعد بن مالك وسعد بن زر).

2- سيبيوس، 98 (هرقل)؛ البلاذريُّ، 350 (إحصاء).

بقيَّة أنحاء الأراضي المفتوحة فإنَّ ذلك سيعطينا عددًا يساوي 250 ألفًا على الأقلِّ، وهذا يُمثِّل قوَّةً رائعةً بكلِّ المعايير، ولا سيَّما إذا ما قُورنت بالجيوش المنهكة لبيزنطة ولبلاد فارس. إنَّ التفوُّق البشريَّ ربَّما لم يساعد العرب في غرب الجزيرة العربية إن لم يكن هناك تنظيم جيِّد له أيضًا، وهذا ما جعل الإسلام يتقدَّم. فالباحثون المحدثون يميلون لتأكيد الحماسة التي حفَّزت المقاتلين، ولكن الأهمَّ من ذلك كلِّه الدوافع الواضحة وخطط التحرُّك التي أُعطيت لهم: الهجرة إلى الحاميات العسكريَّة والقتال في سبيل الله (الهجرة والجهاد) أعداء الله. كانت رسالةً واضحةً وبسيطةً وكافيةً لجلب الناس من مختلف الخلفيات للقتال معًا؛ من أجل قضيَّة عامَّة[1] تقوم على أن يتعاهد الجميع بالانضمام إلى مجتمعٍ إسلاميٍّ يقرُّ بحاكميَّة الله ورسوله فقط على الدولة والحكم. وذهبت هذه المسؤوليَّة بعد وفاة النبيِّ محمَّد إلى خلفائه الذين حكموا ولو نظريًّا على الأقل كسلطة نهائيَّة للمجتمعات المفتوحة في الشؤون الروحيَّة والماديَّة. وهذا يعني وجود بنية قياديَّة واضحة بإمكانها تحديد بعض الاتجاهات العامَّة للفتوحات على الأقلِّ، حتى وإن كان نظام الخلافة محطَّ نزاعٍ في الغالب.

ولكنَّ العرب لم يستخدموا الوسائل العسكريَّة فقط لتحقيق أهدافهم، إنَّما استخدموا معاهدات الصلح بصورة مكثَّفة لاحترام الحياة والممتلكات والتقاليد مقابل الخضوع ودفع الجزية. كانت هذه المعاهدات جزءًا من تراث الشرق الأوسط في الحكم ولأهداف عسكريَّة أيضًا، حيث ترجع الأمثلة على ذلك إلى الألف الثالث قبل الميلاد. والنموذج الأبرز لهذه المعاهدات في زمن الفتوحات العربيَّة يتمثَّل بالصيغة الرومانيَّة - البيزنطيَّة المعروفة بـ deditio in fidem التي تنصُّ على أن يعرض مجتمع ما الاستسلام (deditio) ويتعهَّد المنتصرون العمل بإخلاص (fides) في العادة

1- يمكن للقارئ أن يقارن ذلك لما يُسمَّى الآن أيديولوجيَّة الجهاد؛ كما أفاد أحد الجهاديين السعوديين في سوريا إلى أحد المراسلين الغربيِّين: "إنَّ الجهاديين جاؤوا من كلِّ بلد يمكن لك تصوره" لقتال نظام الأسد و"إقامة الخلافة"، (جريدة الغارديان بتاريخ 9 أيلول 1913، 1 و 26).

على ضمان الأرواح والممتلكات وقوانين المجتمع مقابل إنجاز شروط معيَّنة، وكل ذلك يُدوَّن في معاهدة (صلح) يُقسَمُ عليها. وعلى الرغم من أنَّ مصير الشعوب المفتوحة أصبحت الآن بأيدي الفاتحين، وتتوقَّع تلك الشعوب العدل والرأفة، وليس كما كان يقال: «يجب ألَّا نُظهر الاحترام لمن هُزموا بالقوَّة»، وإنَّما الاعتراف بمقولة رجل الدولة الرومانيِّ شيشرون «يجب أن نستقبل أيضًا أولئك الذين وضعوا سلاحهم والتجأوا إلى النيَّات الصادقة لقادتنا على الرغم من أنَّ كباشهم (مناجيقهم) قد دكَّت أسوارنا»[1]. وطُبِّقت هذه المبادئ الأساسيَّة نفسها عند الفرس، حثَّ الإمبراطور خسرو الثاني قادته «أن ينزلوا السيف بكلٍّ من يقاومهم»، ولكن في الوقت نفسه أصدر تعليماته لهم «باستقبال أولئك الذين يستسلمون بصورةٍ وديَّة والإبقاء عليهم بسلام ورخاء»[2].

أدرك القادة العرب أنَّ مثل هذه الصفقات تجنِّبهم عمليَّات الحصار الطويلة التي تقيِّد القوى العسكريَّة المهمَّة وتكسب إلى جانبهم الأعداء من مثيري المشاكل المحتملين. فالمؤرِّخون المسلمون من القرن التاسع الميلاديِّ الذين يرغبون بوضع أخبار الفتوح في قالبٍ معيَّن غالبًا ما يؤكدون أنَّ الفاتحين كانوا يعرضون الخيارات الثلاثة نفسها، وهي اعتناق الإسلام، الاستسلام، ودفع الجزية، أو القتل في المعركة.

1- ذكر ذلك P.J.Burton في دراسته المعنونة

Friendship and Empire: Roman Diplomacy and Imperialism in the Middle East (Cambridge, 2011), 118.

إنَّ المصطلح العربي "أمان" و"ذمة" يقابله باللاتينية مصطلح fides، ويستخدم القضاة المسلمون التصنيفات الرومانية/ البيزنطية التسليم الإرادي والتسليم الإجباري. والمسألة هنا لا تعني أن العرب استعاروا هذه المفاهيم من الرومان/ البيزنطيين، لكن العرب يعودون إلى العالم نفسه، وبذلك يشاركون الفرضيات والمفاهيم نفسها. للاستزادة من المناقشات حول قضايا الاستسلام، انظر:

(M. Levy-Rubin, Non-Muslims in the Early Islamic Empire Cambridge , 2011), ch.I.

2- سيبيوس، 63، ذكر أن الرها قد قاومت، ولكن بعد أن واجهت الهجوم الأولي للقوات الفارسية قررت التوجه نحو السلام "وطلبت أن يقسم الفرس على عدم تدمير المدينة".

ولكنَّ بعض الروايات التي وصلتنا وغير المتَّفق عليها تسمح لنا بالتلميح إلى صورة أكثر تنوُّعًا. فالسامارتيُّون في فلسطين - على سبيل المثال - وافقوا على العمل مرشدين وجواسيس مقابل إعفائهم من ضريبة الخراج، والجراجمة الذين سكنوا لفترة طويلة في إقليم الجبال السوداء حول أنطاكيا خدموا حرسَ حدودٍ بشرط ألَّا يدفعوا أيَّة ضرائب ويحتفظوا بالغنائم التي يحصلون عليها عند قتالهم إلى جانب العرب. وأعفي حاكم دربند الفارسيّ وقوَّاته من ضريبة الجزية مقابل تقديم خدماته العسكريَّة، وفي الواقع «أصبحت عمليَّة الإعفاء من الضريبة مقبولة من كلِّ شخصٍ من غير المسلمين قاتل عدوَّ العرب، وكذلك من أولئك الذين كانت مساهمتهم الاستعداد للقتال فقط»[1].

وباختصار كان الموقف التوافقيُّ بين الفاتحين والشعوب المفتوحة، والاستخدام الواسع للتعاون من طريق الإعفاء من الضريبة؛ من العوامل المؤثِّرة في نجاح الفتوحات العربيَّة. والفكرة القديمة في أنَّ السكَّان الأصليِّين قد رحَّبوا بالفاتحين على الرغم من خطئها فإنَّها ما زالت تلاقي قبولًا في الدراسات الأكاديميَّة الحديثة. لقد قام الباحثون المسيحيُّون المتأخِّرون بعرض تقييمات إيجابيَّة للفتوحات العربيَّة، وإن كان إدراك ذلك متأخِّرًا غير أنَّه يهدف إلى التكامل مع السلطات الإسلاميَّة. وفي الواقع، على الرغم من أنَّ المسيحيِّين من أتباع العقيدة اللاخلقدونية واجهوا الاضطهاد على أيدي السلطات الخلقدونيَّة منذ أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديِّين، لكنَّ ذلك على الأرجح جعل الكثير من العناصر في المجتمعات اللاخلقدونية في بلاد الشام ومصر تبتعد وتصبح أكثر مَيلًا للتكيُّف مع الحكم العربيِّ بمجرَّد الانتهاء من الفترة الأوَّليَّة للقتال وتوقُّف عمليَّات السلب والنهب، وأصبح من الواضح أنَّ العرب يتوجَّهون لترك الناس يمارسون عقائدهم الخاصَّة بهم بسلامٍ ما داموا يدفعون الجزية.

1- البلاذري، 158-161؛ الطبري، 1. 2664. للاطلاع على معاهدات الفتوح والأصول القديمة لها، انظر: Levy-Rubin, Non-Muslims, 8-57

بدايات الحكومة العربية:

على الرغم من أنَّنا يمكن أن نتتبَّع ملامح بنية قياديَّة عند تنفيذ الفتوحات المبكِّرة، فإنَّنا لا نملك معلوماتٍ معاصرة في الغالب حول الخلفاء في المدينة (632–660م). من المحتمل كان ذلك بسبب امتداد 650 ميلًا من الجبال والصحارى، والسهوب التي تفصل المدينة عن مدنٍ مثل دمشق والبصرة، أو بسبب التمرُّد في هذه السنوات مِمَّا خرَّب قنوات الاتصال العاديَّة آنذاك. ومهما كان السبب فإنَّ الكُتَّاب الذين عاصروا الخلفاء الأربعة الأوائل - أبا بكرٍ (632–634م)، وعمرَ (634–644م)، وعثمانَ (644–656م)، وعليًّا (656–660م) - لم يسجِّلوا عن هؤلاء الخلفاء أيَّ شيء تقريبًا، فلم تظهر أسماؤهم على النقود أو على النقوش أو في الوثائق. وعلينا أن ننتظر الخليفة الخامس معاوية (661–680م) لنرى بعض الشواهد عن عمل الحكومة العربيَّة ولا سيَّما أنَّ اسمه ظهر على وسائل إعلام الدولة آنذاك. ومنذ أن رابطَ في دمشق واليًا لبلاد الشام لمدَّة عشرين عامًا (640–660م) فقد عمل مع الموظَّفين الإداريِّين المحليِّين، وبذلك كان أفضل من أسلافه، ومتخذًا قاعدته بعيدًا عن المدينة، وبدأ جهوده لتأسيس دولةٍ مركزيَّةٍ، التي كانت خطوةً حاسمةً إذا ما أريد للفتوحات أن تنتج أيَّ شكلٍ من أشكال التراث الدائم. وهذا ما جعله غير محبوب، على الرغم من أنَّ الكثير رفضوا التخلِّي عن غنائمهم أو حكمهم الذاتي لصالح وكلاء (عمَّال) الحكومة المركزيَّة. كان الكثير من الأشخاص يشعرون أنَّ الأمور كانت أفضل قبل أن يبدأ معاوية نشاطاته لبناء دولته، ونسبوا أفكارهم حول كيفيَّة عمل الحكومة إلى الخلفاء الذين سبقوه، ولا سيَّما عمر الذي أصبح تدريجيًّا نموذجًا لرجل الدولة وحكمًا لكلِّ الشؤون المتعلِّقة بآليَّات عمل

الدولة. فعلى سبيل المثال لقد ذُكرَ عنه أنّه كان يُصرُّ على أن تقوم الدولة بتوزيع الثروة على أعضائها أفضل من اكتنازها عنهم. وحينما وضعت المسألة أمامه «يا أمير المؤمنين ألم يكن الرأي الصائب أن نخزن هذه الثروة حينما تظهر الحاجات الملحّة لها»، أجاب: «لقد وضع الشيطان هذا الرأي في رؤوسكم، إنّه لن يؤثّر عليَّ بشكلٍ سلبيٍّ، ولكن سيغري من يأتي بعدي»[1].

إذن كيف كانت تُدار الأراضي المفتوحة في زمن خلفاء المدينة الأوائل؟ والجواب عن ذلك: الاحتفاظ بدرجةٍ كبيرةٍ بآليّات عمل الأنظمة القائمة أصلًا في تلك المناطق. ومن أبرز الأمثلة استمرار وصول كميّات كبيرة من النقود البيزنطيّة النظاميّة التي كانت تُسكُّ في القسطنطينيّة في الغالب إلى بلاد الشام وتداولها هناك، وبقاء الدرهم الساسانيّ الفضّيّ العملة الرئيسة في بلاد فارس حتّى تسعينيّات القرن السابع الميلاديّ. لقد كتب أحد المؤلّفين الدمشقيّين نحو عام 660م «ما زال الحديث عن «إمبراطوريّتنا» و«وإمبراطورنا»، وكان يُدرك أنّ «الآخرين» يحكمون القدس، ولكنّه أكّد وبثقةٍ «وما دامت الإمبراطوريّة بقيت ورأسها صامدين، فإنّ كلّ جسد الإمبراطوريّة يجدّد نفسه بسهولة». ويفسّر أحد الكتّاب المعاصرين - وهو الراهب جون فينك - ذلك الشجار التافه بين العرب حول الاختلافات القديمة بين البيزنطيّين والفرس كما لو أنّ الإمبراطوريّتين ما زالتا تبنيان نسيج عالمه الخاصّ به. لقد اختفى الفكر القديم بصعوبة، ولكن لا يمكن لنا أن نؤمن أيضًا أنّ الفتوحات العربيّة ستؤدّي إلى ارتقاءٍ دائمٍ للحضارة الجديدة في الحال إذا جاز لنا القول. ففي دمشق ما زال المسيحيّون يسيطرون ولم تتضرّر الكنائس، وبقيت الأسوار سليمةً، كما لاحظ كاتبنا السوري. ومع

1- عبد الجبار، تثبت دلائل النبوة، نشر، أي. كي. عثمان (بيروت، 1966)، 328-329. وعلى العكس، وقد تم لوم معاوية "كأمير يراكم الأموال كالتجار"، (خليفة، 230، سنة 60 هجرية).

ذلك بقي رجال القبائل المتحدثون باللغة العربيَّة يُشكِّلون نسبةً كبيرةً من سكَّان المنطقة، ولا يبدو ذلك غريبًا كما نميل إلى الظنِّ الآن[1].

ولذلك تركت السلطة الجديدة في البداية ماكنة الدولة تُسَيِّر الشؤون اليوميَّة آنذاك، والاستمرار بالوسائل نفسها التي كانت سائدة قبل الفتوحات، وتُدار بالإداريِّين نفسهم إلى حدٍّ كبيرٍ. ففي مصر على سبيل المثال بقيت أنظمة pagarchs (مسؤول عن المدن وأراضيها الزراعيَّة)، والأدواق (مسؤولون عن أقسام البلاد) وجميع الدوائر المرتبطة بهم كما هي في البداية[2]، ولكن استُحدثت سياستانِ عظيمتانِ خلال فترة حكم الخلفاء الأربعة الأوائل كان لهما انعكاسات على المدى الطويل جدًّا، الأولى: اتخاذ القرار بدفع معاشٍ للجند (العطاء)، ومقدار العطاء يختلف استنادًا إلى طول فترة الخدمة، ويُموَّل من الموارد الماليَّة من غير المتأتِّية من الضرائب المباشرة. والثانية: العمل بضريبة الرأس التي تتضمَّن نسبةً معيَّنةً من ضريبة سنويَّة تختلف باختلاف مقدار الثروة لدافعها وإعفاء النساء والقاصرين والفقراء منها. إنَّ هذا النوع من الضريبة ربَّما تُستخدم للراحة؛ لأنَّها سهلة وواضحة للحساب والجباية (دفعة واحدة لكلِّ شخص)، وبذلك كانت تُفرضُ في أوقات الاضطرابات أو الغزو (فرضها المغول على مواطنيهم على سبيل المثال). وتوحي المصادر الإسلاميَّة أنَّها طُبِّقت بحسب نموذج ضريبة الرأس الفارسيَّة التي صنفت الدافعين لها على وفق مقدرتهم على الدفع أيضًا، وإعفاء

1- Hoyland, Seeing Islam, 79-81 (Syrian auther) ; Mingana, sourc syriaqueses , 156 and 184 (John of Fene).

2- للاطلاع على ما تمدنا به البرديات المصرية عن الحكم العربي في الفترة المبكرة، انظر: Sijpestejin, Shaping a Muslim State، وقد فكَّرت الباحثة مليًّا لماذا تبنَّى العرب "مقاربة عدم التدخل"، (المرجع نفسه: 64)، ولكن كان من الشائع أن يترك الفاتحون في المكان الكثير من الممارسات البيروقراطية من النظام القديم وموظفيه الكبار، ويتخلصون من العسكريين فقط، ولا سيما أنَّهم لا يملكون المعرفة بالشؤون المحلية للإشراف على المستويات الدنيا من الحكومة، ولا يلجؤون إلى المجازفة بهدف أن يصبحوا إداريين.

النخب الاجتماعيَّة منها (تتشابه مع إعفاء الفاتحين في الحالة العربيَّة)[1]. وأيضًا كان نظام الرواتب يُعزى في بعض الأوقات إلى نظامٍ فارسيٍّ سابقٍ، وعلى الرغم من أنَّ هذا النظام قد فَرَضَ نفسه ببساطة لأنَّ العرب الذين عملوا مع الإمبراطوريَّتين اعتادوا على تسلُّم معاشاتهم مقابل خدماتهم العسكريَّة. ومن أجل تسهيل عمليَّة الدفع إلى القوَّات العربيَّة، كانت السلطات في مصر والعراق - على الأقلّ - تحتفظ بالجند معًا وبأعدادٍ صغيرةٍ في المعسكرات التي ترابط على مسافةٍ بسيطةٍ من المدن المأهولة بالسكَّان، كالفسطاط (بالقرب من بابليون بمصر)، والكوفة (بالقرب من الحيرة)، والبصرة (بالقرب من الأبلة). سواء ذلك متعمدا أم لا، كانت نتيجته السماح للجند بتوثيق روابطهم، ولكن في الوقت نفسه عزلهم عن السكَّان المحلّيِّين إلى حدٍّ ما. وهذا يؤدِّي إلى الشعور بنوعٍ من التضامن الجمعي، ويقلِّل من فرصة ذهاب الجند إلى السكَّان الأصليِّين في العقود المبكِّرة، وقد يحدث ذلك إذا دُفِعَ لهم من طريق منحهم الأراضي والانتشار في الريف كما كان سائدًا بين الغزاة في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة[2].

ولا نعرف إلَّا القليل عن الإجراءات في البلدان الأخرى عدا مصر التي وهبت الباحثين كميَّاتٍ كبيرةً من وثائق أوراق البردي المحفوظة بسبب جفاف مناخها القاسي. ووجدنا من بينها نصوصًا كثيرةً تتعلَّق بالإدارة العربيَّة المحلّيَّة في مصر منذ

1- الطبري، 1. 962-963؛

Z.Rubin, " The Reforms of Khusro Anushirwan" in Cameron, ed., The Byzantian and Early Islamic Near East III,240-243..

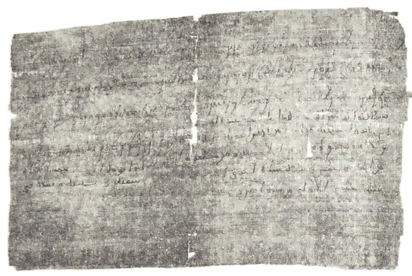
ليس من غير الممكن أنَّ الفرس قد أدخلوا ضريبة الرأس إلى مصر وبلاد الشام خلال فترة احتلالهم لها في مطلع القرن السابع الميلاديّ؛ وحتَّى الآن لا يوجد دليل يحمل تاريخًا واضحًا عن ضريبة الرأس قبل عصر الفتوحات، ولكن هناك الكثير غير المؤرِّخة، وهناك افتراض غير متَّفق عليه أنَّها تعود إلى الفترة الإسلاميَّة. وللاطلاع على أدلَّة أوراق البردي، انظر:

Sijpestejin, Shaping a Muslim State, 52, 72-74

2- **H.Kennedy, " Military Pay and the Economy of the Early Islamic State" Historical Research 75,(2002).**

مطلع عام 642م. فلم تُدفع الرواتب للجيوش الجديدة فقط، بل يجب أن يُقدَّم لها الطعام والمأوى والتجهيزات، مِمَّا أدَّى إلى فورة في التوثيق كحوالات الطلب المرسلة، وإصدار وصولات التسلُّم لأنواعٍ مختلفةٍ من السلع، كالحبوب وزيت الزيتون وعلف الماشية والأغطية والسروج والخيول. ومن أجل تلبية طلبات تجهيزات الجيش اعتنى الحكَّام العرب عنايةً وثيقةً بالشؤون الماليَّة وحركات السكَّان كما يتوضَّح من حجم الرسائل الهائل التي أصدرها الحكَّام إلى الموظَّفين الصغار، إمَّا بصيغة الأمر أو تملُّقًا لمتابعة الضرائب المتأخِّرة ومحاسبة المتخلِّفين عن دفعها. ومن النصوص المبكرة التي وصلتنا برديَّة تحمل رقم 558 في مجموعة الوثائق التي جمعها الأرشيدوق رينر Rainer في فيينا، وهي عبارة عن «وصل بالخرفان التي أعطيت إلى magaritai وآخرين أوصلوا دفعةً نقديَّةً عن ضرائب السنة الماليَّة الأولى» (صورة رقم 3.3). إنَّه عبارة عن نصٍّ نثريٍّ عاديٍّ، وورقة البزدي تبدو متكسِّرة جدًّا، لكن يمكنها إخبارنا الكثير عن عالم الفاتحين الجُدد.
أوَّلًا: إنَّها دُوِّنت بدقَّة متناهية بتقويمين مختلفين من التاريخ، بفترة الاستشهاد المسيحيِّ المصريِّ، والتقويم الإسلاميِّ حتَّى تاريخ 25 نيسان 643م، بينما كان المسلمون يؤرِّخون بالسنة التي هاجر فيها النبيُّ حينما ترك مكَّة وذهب إلى المدينة؛ لتأسيس المجتمع الإسلاميِّ الجديد في المدينة سنة 622م. ونجد هذا التقويم مُستخدَمًا على الوثائق في عام 643م، وليس بعيدًا وجدناه على النقوش العربيةً على النقود، وعلى المقابر.

وثانيًا: إنَّ هذه البرديَّة كُتبت باللغتين اليونانيَّة والعربيَّة، وهذا ما يثير الدهشة؛ لأنَّنا لا نملك وثائق مدوَّنة باللغة العربيَّة قبل عام 643م. ولكنَّنا نعرف أنَّها كانت تُستخدم قبل ذلك كما يتوضَّح من النقوش القليلة المدوَّنة بالعربيَّة من القرون السابقة، ولكن يمكننا الاستدلال الآن - واستنادًا إلى البرديَّة المرقَّمة 558 والمكتوبة بلغةٍ رصينةٍ إلى حدٍّ ما - أنَّ التراث الإداريَّ العربيَّ كان موجودًا قبل القرن السابع الميلاديِّ. ومن الواضح أنَّ هذا التراث قد تغذَّى من عالم بيزنطة وتراثها، فهو يشاركها في صيغ



صورة رقم 3.3
ورقة بردي اشتراها الأرشيدوق رينر من مصر، مؤرَّخة في سنة 643م. المتحف الوطنيُّ بفيينا.

العقود والكفالات والضمانات المتبادلة. وهو يتبع الممارسات التي أُسِّست بموجب مرسوم الإمبراطور موريس (580-602م) التي تبدأ بالتضرُّع إلى الله: باللغة العربية «بسم الله»، وهي ترجمة دقيقة للنصِّ اليونانيِّ en onomati tou theou (بسم الله). كانت القبائل العربيَّة المختلفة والمتحالفة مع الإمبراطوريَّتين البيزنطيَّة والفارسيَّة في القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين هي المرشحة لحماية مثل هذا التراث، الذين نعرف عنهم أنَّهم كانوا يستخدمون اللغة العربيَّة في القرن السادس الميلاديِّ، ويمارسون نوعًا من البيروقراطيَّة البدائيَّة على الأقلِّ.

وثالثا: الميزة التي تكشفها برديَّة رقم 558 تصف الفاتحين بـ magaritai (وتُكتب أيضًا moagaritai) التي غالبًا ما تشير إلى ما يُكتب في الوثائق اليونانيَّة في القرن السابع الميلاديِّ بصورة عامَّة. ونجد ما يتعلَّق بمثل هذا المصطلح في نصوص الأدب السريانيِّ

من القرن السابع الميلاديِّ فصاعدًا، وبالتحديد مصطلح mahggre. وكلا المصطلحين يحمل معنى المصطلح العربيِّ muhajir «مهاجر» الذي استُخدم في معاهدة التأسيس في المدينة ووصف أولئك الذين تركوا مكَّة مع النبيِّ محمَّد ووجدوا لهم ملجأً في المدينة وبدؤوا الحربَ على المشركين. ومن الواضح أصبح هذا المصطلح يُطبَّق منذ ذلك الوقت على كلِّ أولئك الذين تركوا موطنهم وشاركوا في المعارك ضدَّ الإمبراطوريَّتين. ومن المضامين الحاسمة لهذا المصطلح هو الاستقرار، وهذا يتناقَض في الغالب مع مصطلح «التعرُّب» ta'arrub، الذي يعني العودة إلى حياة الصحراء، كما قال أحد حكَّام العراق الأوائل: «المهاجر ليس بدويًّا أبدًا». أمَّا في القرآن؛ يرتبط هذا المصطلح بالجهاد، وكلاهما يُؤدَّى «في سبيل الله». إذن، يحمل المصطلح معنى الجندي والمستوطن، ولكن بالنسبة إلى الشعوب المفتوحة يعني ببساطة تعريفًا للجيوش الفاتحة، وفي بعض الحالات النادرة، فإنَّ مصطلح المهاجر magaritai الذي يظهر في الوثائق المدوَّنة باللغتين اليونانيَّة والعربيَّة يختفي تحت كلمة الجيوش juyush (1)؛ لأنَّها كانت الكلمة الأكثر شيوعًا في القرن السابع الميلاديِّ وتُستخدَم من الفاتحين أنفسهم، وكذلك من الشعوب المفتوحة، وبذلك، يجب أن نتحدَّث إذن عن فتوحات «المهاجرين» وليس عن الفتوحات العربيَّة أو الإسلاميَّة اللتين أصبحتا مصطلحاتٍ عامَّة في القرن الثامن الميلاديِّ. وفي أقلِّ الاحتمالات، يجب أن نُدرك هذا الدافع الأوَّليَّ للحركات بعد وفاة النبيِّ محمَّد، أي الفتح والاستيطان، وهي الرسالة التي نجد لها تأصيلًا في الحركات الأولى لتجنيد القبائل البدويَّة في شبه الجزيرة العربيَّة والصحراء السوريَّة.

1- P.Crone, " The First -Century Concept of Higra," Arabica 41(1994) ; K.Athamina , "Arab and Muhajirun in the Environment of the Amsar", Studia Islamica 66(1987) ; J.Gascou, "Sur la letter arabe de Qurra b. Sarik P.Sorb inv.2344", Annales Islamologiques 45(2011).
من الملاحظ أنَّ في اللغات السبأيَّة والأثيوبيَّة "هجر" تعني مدينة، ووجدنا في السبأية التناقض نفسه في العربيَّة بين "عرب" و"مهاجرين". (مثلا: النقش المرقَّم Ry508 يصف رجال قبائل أحد الأقاليم "من ساكني المدينة وبدوها" hgrhmw w-'rbbmu).

الفصل الرابع

الاندفاع نحو القسطنطينيَّة (652 ـ 685م)

كان التوسُّع العربيُّ محدودًا جدًّا في الأراضي العربيَّة خلال العقود الثلاثة، ويعود السبب في ذلك إلى تورُّط العرب في مستنقع حربينِ أهليَّتينِ (656-661م و683-692م) من جهة، وشعور الخليفة معاوية أنَّ من الحكمة أن يوجِّه بعض جهوده لإقامة سيطرةٍ إداريَّة على ما حصل عليه من مناطق خوفًا من انسلالها من الأيدي العربيَّة من جهة أخرى. ومع ذلك، كان مقتنعًا أنَّه إذا تمَّ الاستيلاء على القسطنطينيَّة فإنَّ بقيَّة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ستنهار حينئذٍ، كما حدث للإمبراطوريَّة الفارسيَّة بعد نجاح الحصار العربيِّ لعاصمتها. كان معاوية يردِّد القول دائمًا إلى المقربين منه: «كلَّما شدَّدت الخناق على البيزنطيِّين، فإنَّ الأمم الأخرى ستتبع»[1]. ولكي يحقِّق هذا الغرض أرسل حملاتٍ منتظمةً إلى الأناضول من الشمال السوريِّ؛ لكي يستنزف بشكل متواصل الموارد البيزنطيَّة، ثمَّ يغتنم الفرصة لشنِّ هجومٍ بحريٍّ وبريٍّ على العاصمة الإمبراطوريَّة نفسها.

1- خليفة، 230 (60 ميلاديَّة).

كانت أولى الحملات البريَّة والبحريَّة على القسطنطينيَّة قد بدأت في عام 654م، التي انتهت بالفشل حينما دُمِّرَ القسم الأعظم من الأسطول الإسلاميِّ؛ نتيجة هبوب العواصف. أدَّت هذه الخسارة إلى تدهورٍ في سمعة الخليفة عثمان إلى حدٍّ ما، وأسهمت في اندلاع الحرب الأهليَّة التي شغلت العربَ من عام 656م إلى عام 661م، حينما بدؤوا بالقتال فيما بينهم، حيث يذكر المؤرِّخ الأرمنيُّ سيبيوس: لقد توحَّد العرب في مصرَ وفي شبه الجزيرة العربيَّة وقتلوا عثمانَ، ونهبوا بيت المال، ونصَّبوا ملكًا آخر وهو عليٌّ صهر النبيِّ محمَّد. وحينما رأى معاوية - وهو القائد العسكريُّ العامُّ في سوريا - ما حدث حشد قوَّاته وانضمَّ إلى النزاع. وفي النهاية «وبعد أن سالت دماء الجماهير المذبوحة بكثافة بين جيوشهم» استمرَّ معاوية بالقتال إلى أن قتلَ عليًّا، وأخضع العرب جميعًا تحت سلطته «وتوصَّل إلى سلامٍ مع الجميع»[1]. وأيًّا كان الذي يحكم الإمبراطوريَّة العربيَّة الجديدة فإنَّه سيستخدم سلطته الواسعة، مِمَّا يؤدِّي حتمًا إلى المنافسة على منصب الخلافة، فضلًا عن غنائم الحرب الهائلة التي أدَّت إلى نزاعٍ شرسٍ حول كيفيَّة توزيعها. لقد شعر المخضرمون (المهاجرون) من المعارك الأولى أنَّهم يجب أن يأخذوا أكثر من أولئك الذين دخلوا في الإسلام مؤخَّرا (الأنصار)، في حين أرادت الدولة الجديدة أن تأخذ أهمَّ تلك الموارد إلى بيت المال، بينما يطالب عمَّال الولايات وقادة الجيش في الميدان بتوزيعها في المكان الذي جُمعت فيه.

كان معاوية مجبرًا على طلب الهدنة من بيزنطة؛ من أجل أن تُطلقَ يداه في التعامل مع ذلك النزاع ودفع ضريبةٍ ثقيلةٍ؛ للحصول على هذا الامتياز. كانت منحةً إلهيَّةً للإمبراطور كونستانس الذي انتهز فترة الراحة هذه لإعادة تنظيم الدفاعات

1- سيبيوس 154. عن المصالح التي تقف وراء النزاعات العربيَّة الداخليَّة، انظر:
M.Hinds, "Kufan Political Alignments" and "The Murder of Caliph," International Middle East Studies 2(1971) and 3(1972).

العسكريَّة فيما تبقَّى من إمبراطوريَّته. فالأناضول بحاجة إلى تعزيز القوَّات فيها؛ لكي تستطيع الصمود بوجه غارات العرب من الشمال السوريّ. وقُسِّمت على أربعة قطاعات، كلُّ قطاع له جيشه الخاصُّ به الذي يتكوَّن جزئيًّا مِمَّا تبقَّى من جيوش الميدان في الشرق وانضمَّت إليه قوَّات من ثراسيا (الإقليم الواقع إلى الغرب من القسطنطينيَّة) وأرمينيا ومِمَّا يُسمَّى أوبسكيوم Obsequium، وهي مجموعة من وحدات مخصَّصة لحماية الأباطرة في أثناء الحملات. لذلك قرَّر كونستانس تعزيز تحالفاته، في القوقاز أوَّلًا التي تجول فيها عام 660–661م، وبعد ذلك في إيطاليا حيث حصل على تأييد قائدها وأميرها اللومباردي. وبعد زيارة احتفاليَّة إلى روما في عام 663م سافر إلى سيراكوز بجزيرة صقلية، حيث قضى هناك السنوات الستة اللاحقة يجمع الأموال ويُشرف على بناء أسطولٍ بحريٍّ كبيرٍ وتجهيزه؛ للمحافظة على الهيمنة البيزنطيَّة على البحر الأبيض المتوسِّط، والاحتفاظ بأفريقيا بأيدي بيزنطة. لقد خدمت هذه الإجراءات ولده قسطنطين الرابع (668–685م) الذي استطاع الاعتماد عليها في الدفاع عن القسطنطينيَّة حينما شنَّ العربُ عليها هجومًا جديدًا في الفترة 668–670م، ليس بعيدًا عن يوم اعتلائه العرش.

لقد قام معاوية بخطوةٍ تمهيديَّة أوَّليَّة تمثَّلت بمحاولة توفير الاستقرار لإمبراطوريَّته، إلَّا أنَّها انتهت بنتائجَ معاكسةٍ تمامًا، وفي بدايتها على الأقلِّ. وذلك حينما سمَّى ابنه خليفةً له، مِمَّا أدَّى إلى اندلاع نزاعٍ واسعٍ فُسِّر بأنَّ العائلة الأمويَّة تحاول احتكار السلطة، بينما كانت عوائل أخرى كالزُّبيريِّين والعلويِّين الذين ادَّعوا أنَّ لهم الحقَّ نفسه في الحكم إن لم يكونوا الأفضل من غيرهم، ثمَّ ظهر أولئك الذين يعارضون أيَّة حركة من أيَّة عائلة؛ لفرض سيطرتها ويفضِّلون انتخاب الحاكم استنادًا إلى جدارته والتزامه بأحكام الله وليس لمصالح عشيرته الخاصَّة. كان تدشين معاوية الحكم العائليَّ قد أدَّى إلى حربٍ أهليَّةٍ ثانيةٍ كانت أكثر تدميرًا من الحرب الأولى،

كما ذكر أحد المؤرِّخين المسيحيِّين الأوائل بإيجازٍ بليغ: «نشوب معارك كبيرة ضدَّ أحدهم الآخر لا يمكن عدُّها، وسقوط أعداد كبيرة من الرجال ومن الجيشين في حروبهم الطائفيَّة»[1]، واستمرَّ القتال لأكثر من عقدٍ من الزمان (683-692م). وهذا ما منح الفرصة لعددٍ من الأطراف على حدود الإمبراطوريَّة العربيَّة؛ للتحلُّل من ولائها، وكان ذلك هديَّة لبيزنطة، حيث منحتهم راحة أكبر وأجبرت الأمويِّين مرَّةً أخرى؛ للتوصُّل إلى هدنةٍ لكي يتمكَّنوا من شنِّ حربٍ ضدَّ خصومهم في الداخل.

الحملات على القسطنطينية

استطاع البيزنطيون صدَّ غزوة معاوية الاستكشافيَّة بسهولة باتجاه القسطنطينيَّة في عام 649م، ولكنَّ التفكير بدخول العرب البحر أقلق الإمبراطور كونستانس بما يكفي حتَّى طلب هدنةً لمدَّة ثلاث سنوات (650-653م). ويمكننا العودة إلى سيبيوس للحصول على معلومات مفصَّلة بشكلٍ خاصٍّ[2]. كان موت الإمبراطور الفارسيِّ يزدجرد في عام 652م قد شجَّع معاوية على استئناف حملاته ضدَّ بيزنطة؛ «لكي يستطيعوا الاستيلاء على القسطنطينيَّة وإنهاء المملكة أيضًا». وذكر أيضًا أنَّه دبج رسالةً إلى كونستانس يعرض عليه أن يبقى «الأمير العظيم» في مناطقه، وأن يحتفظ بربع

1- Chronical of 741, §31.

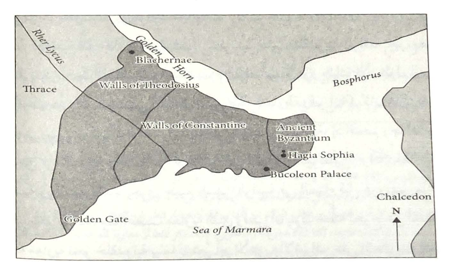
2- أخذنا الروايات التالية والاقتباسات من سيبيوس، 143-146. إنَّ معركة فونيكس Phoenix رواها أيضًا ثيوفيلوس، 141-144؛ Chronical of 741, § 24. (تمكَّن كونستانس من جمع ألف سفينة أو أكثر لمواجهة معاوية ولم ينجح في ذلك، ولم يهرب أيٌّ منهم إلا ما ندر)، وابن عبد الحكم، 189-191 أوَّل من سمَّاها معركة ذات الصواري (على الرغم من أنَّها رواية غامضة). الطبري، 1.2867 - 1.2871 يذكر لنا رواية طويلة، بينما خليفة، 167 (32 هجريَّة) واليعقوبي، 195، ذكر فقط أنَّ معاوية قاد حملة نحو "مضائق القسطنطينيَّة". وعن الأمور البحرية في البرديَّات المعاصرة، انظر:

C.Foss, “Egypt under Mu’awiya” ,Bulletin of the School of Oriental and African Studies 72(2009),18-19.

ثروات مملكته إذا ما «ترك العبادة غير المجدية التي تعلَّمها منذ طفولته، وإنكار السيِّد المسيح، والتحوُّل إلى عبادة الله العظيم الذي نعبده، وهو الله أبو النبيِّ إبراهيم». توجَّه معاوية خلال السنتين التاليتين لتحضير قوَّة هجوميَّة بريَّة وبحريَّة كبيرة، فجمع القوَّات من كلِّ المعسكرات المنتشرة في جميع الأراضي التي فتحها العرب. وبنى السفن الحربيَّة في الموانئ السوريَّة وفي الإسكندريَّة كما ذكرت تفاصيل ذلك إحدى البرديَّات التي وصفت النشاط المسعور للنجَّارين والفنيِّين بحشو شقوق السفن والحدَّادين والمجدفين الذين أُجبروا على الخدمة، ومصادرة التجهيزات للجيش وطواقم السفن. كانت هناك سفن النقل الاعتياديَّة الكبيرة التي بلغ عددها نحو 300 سفينة، التي بإمكان كلٍّ واحدةٍ منهنَّ نقل إلفٍ من صفوة الخيَّالة، وتحمل معدَّات عسكريَّة ثقيلة مختلفة كالمجانيق والأبراج التي تساعد على نقب الأسوار أو التسلُّق عليها. فضلًا عن السفن الخفيفة التي تحمل نحو مئة مقاتلٍ على سطحها؛ «لكي تقوم بالمناورة بسرعة بوجه أمواج البحر المحيطة بالسفن الكبيرة»، والتي - كما يُنتظر منها - أن توفر للأسطول العربيِّ فوائد تكتيكيَّة.

كانت خطَّة معاوية تقوم على السير برًّا حتَّى خلقدونية الواقعة عبر مضيق البسفور من جهة القسطنطينيَّة، بينما يقوم القائد أبو الأعور بقيادة الأسطول العربيِّ والإبحار حتَّى الوصول إلى العاصمة البيزنطيَّة. (خارطة رقم 4.1). كان هناك بعض التأجيل بسبب بعض الحوادث البسيطة في طرابلس السوريَّة، إذ اقتحم رجلان بوَّابة السجن في المدينة وأطلقَا سراح الكثير من السجناء البيزنطيِّين، وقَتَلَا معًا حاكم المدينة وبطانته والقيام بحرق جميع السفن الراسية في الميناء قبل هروبهم بمركبٍ صغيرٍ نحو بيزنطة، مِمَّا أغضب معاوية الذي رفض أن يترك خطَّته تخرج عن أهدافها. توجَّه معاوية نحو خلقدونية بينما استمرَّ أبو الأعور بالإشراف على إكمال بناء السفن قبل أن يبدأ رحلته أيضًا، من المحتمل في صيف عام 654م. وحينما اقتربوا من فونكس

Phoenix الواقعة على ساحل ليسيا Lycia إلى الجنوب من أنطاليا الحاليَّة واجهوا الأسطول البيزنطيَّ بقيادة الإمبراطور كونستانس نفسه وأخيه، الذين اصطحبوا الأسطول بأنفسهم دليلًا على تصوُّرهم بخطورة هذا التهديد. وفي أثناء المعركة استطاعت سفن العرب الخفيفة هزيمة السفن البيزنطيَّة الثقيلة. وأصبح واضحًا أنَّه سيُلقى القبض على الإمبراطور نفسه، ولكن قام أحد الجنود بحركة سريعة وبارعة بنقل الإمبراطور إلى سفينةٍ أخرى في الوقت المناسب والسماح له بالهروب السريع، بينما ارتدى مقاتل آخر الملابس الإمبراطوريَّة «والمرابطة بشجاعة على السفينة الإمبراطوريَّة، وقتل الكثير من الأعداء قبل أن يضحِّي بحياته نيابةً عن الملك». استطاع الإمبراطور وأخوه الإبحار بسهولة والعودة إلى القسطنطينيَّة، بينما دُمِّر بقيَّة الأسطول البيزنطيِّ قطعة بعد قطعة «في بحرٍ هائجٍ جدًّا حتَّى قيل إنَّ الدخان الكثيف بدأ يتصاعد بين السفن، كتصاعد الغبار من الأرض الجافَّة حتَّى امتزجت مياه البحر بالدم». أمر أبو الأعور بحَّارته باصطياد جثث البيزنطيِّين التي قُدِّر عددها بنحو عشرين ألفًا.



خارطة رقم 4.1 مدينة القسطنطينيَّة

واصل الأسطول العربيُّ إبحاره نحو القسطنطينيَّة ومطاردة السفن البيزنطيَّة الناجية حتَّى جزيرة رودس، وأصاب سكَّان العاصمة القلق الآن، ولا سيَّما بعد أن عرفوا باقتراب العرب بحرًا وبرًّا، واضطربوا لهزيمة أسطولهم في فونكس. دخل الإمبراطور كنيسة هاجيا صوفيا للتوسُّل بالربِّ لمساعدة المدينة، وخلع التاج من رأسه، ووضع جانبًا الملابس الأرجوانيَّة الإمبراطوريَّة، وارتدى الملابس الخشنة، وجلس على الرماد، وأمر بإعلان الصيام في القسطنطينيَّة. وحينما اقترب العرب في مطلع خريف عام 654م، أمر أبو الأعور سفنه بالانتشار بشكل خطوط والبدء بمهاجمة المدينة، ولكنَّ هبوب العاصفة من كلِّ الأنحاء كانت بمنزلة المعجزة الإلهيَّة التي أنقذت العاصمة البيزنطيَّة، كما ذكر سكَّان المدينة. لقد هاج البحر من أعماقه وارتفعت أمواجه عاليًا «كارتفاع قمم الجبال»، ومع الرياح العاتية أدَّت إلى تدمير الأسطول العربيِّ وابتلاع المحيط الهائج آلاته الحربيَّة وبحَّارته معًا. وحينما عسكر العرب في خلقدونية رأوا قوَّة العاصفة والتدمير الذي أحدثته، انسلُّوا ليلًا وبدؤوا المسير الطويل إلى الوطن. حاولت القوَّة التي تركها معاوية بالقرب من كبادوكيا وقيصريَّة (قيصري الحاليَّة)؛ لتأمين خلفيَّات قوَّاته، وإنقاذ بعض ماء الوجه ومهاجمة المعسكر البيزنطيِّ المحلِّيِّ، ولكن حتَّى هنا هُزِمَ العرب وأُجبروا على الفرار؛ لتأمين حياتهم في شمال بلاد ما بين النهرين. لم يذكر المؤرِّخون المسلمون هذه الهزيمة، لكنَّهم بدلًا من ذلك ركَّزوا على انتصارهم في فونكس التي أُطلق عليها بالعربيَّة «معركة ذات الصواري». ومع ذلك، فهناك أسباب جيِّدة لتصديق رواية سيبيوس؛ لأنَّه من المعاصرين للأحداث، ولا سيَّما أنَّه دوَّنها في مطلع سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، أي بعد أقلَّ من عشر سنوات من حدوثها. فضلًا عن أنَّه سرد الحادثة كلَّها بتفصيلاتٍ غنيةٍ بحيث من الصعب القول باختلاقها. وهذا يفسِّر أنَّ خلاف ذلك يبدو لا معنى له، أي لماذا تخلَّى الأسطول العربيُّ عن المعركة ببساطة وعاد إلى الوطن بعد أن هرب البيزنطيُّون.

تمتَّعت بيزنطة بفترة من الراحة نسبيًّا بينما انشغل معاوية بالحرب الأهليَّة في الداخل، ولكن تمرَّد قائد الجيوش الأرمنيَّة البيزنطيّ شابور ضدَّ كونستانس وطلب مساعدة الخليفة معاوية لمساندته للفوز بحكم الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. وقد رُويت هذه الحادثة بصورةٍ واضحةٍ جدًّا وبتفصيلاتٍ مطوَّلةٍ كثيرًا من مؤرِّخٍ سوريٍّ قريبٍ من معاصرتها[1]. وقعت الحادثة في بلاط معاوية بدمشق، حيث وصل مبعوث شابور المدعو سيرجيوس ليضع قضيَّة سيّده أمام الخليفة. وحينما وصلت أخبار التمرُّد إلى الإمبراطور كونستانس أرسل مسؤول غرفة نومه وهو الخصي أندرو؛ للالتماس من معاوية عدم التدخُّل في هذه المؤامرة. وقد صُوِّر سرجيوس على أنَّه ضعيف ومتملِّق؛ وقبل ذلك سجد بنفسه أمام سيّده. ولذلك، سَخَرَ معاوية منه ولمزه لخنوعه الجبان، ووبَّخ أندرو لعدم امتلاكه فحولة الرجال. كان أندرو بطل هذه الحادثة، ولكنَّه لم يهتزَّ أمام الخليفة وانتقده لأنَّه فشل في التمييز بين الحاكم الشرعيِّ وبين متمرِّدٍ خائنٍ، إلَّا أنَّ معاوية حذَّر بشدَّة مبعوث المتمرِّد سرجيوس من نتائج عدم احترامه للآخرين. سارت الأحداث جميعها على نحوٍ جيِّدٍ للبطل أندرو، فقد أُلقي القبض على سرجيوس عند عودته إلى أرمينيا وقتله، ووُضِعت خصيتاه أمامه - وهي العقوبة المناسبة لشخصٍ كان فخورًا جدًّا بأعضائه الخاصَّة» - كما تهشَّم دماغ شابور حينما وثب فرسه إلى الأعلى ورماه على الأرض في أثناء اجتيازه لبوَّابة المدينة.

تركت هذه الحادثة معاويةَ في ورطةٍ إلى حدٍّ ما؛ لأنَّه قد أرسل قوَّات إلى شابور بقيادة واحد من قادته المحترمين وهو فضالة بن عُبيد الأنصاري، الذي حين علم بوفاة شابور أرسل إلى معاوية يسأله عمَّا يجب عمله. كان الخليفة مصممًا على انتهاز هذه الفرصة لشنِّ هجومٍ آخر وواسع على العاصمة البيزنطيَّة. لذلك أصدر أوامره لفضالة

1- ثيوفيلوس، 153-161. يتناول القسم الثاني من الرواية الهجوم على القسطنطينيَّة، ونجدها أيضًا عند نيكفوروس، الفصل 34، الذي يعتمد على الحوليَّة رقم 720 تقريبًا.

بقضاء الشتاء في ميلتين Melitene في جنوب الأناضول، وأرسل ابنه يزيدَ مع قوَّةٍ كبيرةٍ من الخيَّالة للالتحاق بفضالة والسير معًا نحو القسطنطينيَّة. وهذا ما قاما به ووصلا في صيف عام 668م إلى خلقدونية. وفي الوقت نفسه جُهِّزت قوَّة بحريَّة وأُرسلت إليهم. وحينما علم الإمبراطور قسطنطين الرابع بتقدُّم هذه الحملة الكبيرة نحو القسطنطينيَّة أمر ببناء المراكب الكبيرة المعروفة باسم بيريم Bireme ذوات المجاديف على الجانبين، وأمرها بالمرابطة في الميناء الشرقي من المدينة. شرع الأسطول العربي بالإبحار في السنة التالية ورسى في إقليم ثراسيا الواقع إلى الجنوب الغربيِّ من العاصمة على الساحل الأوروبي منها. «وهناك اشتباك عسكريٌّ كلَّ يوم من الصباح حتَّى المساء بالهجوم والهجوم المعاكس»، واستمرَّت هذه الحالة من الربيع إلى الخريف. ولم يستطع أيٌّ من الطرفين إنزال هزيمة نهائيَّة بالطرف المقابل، وبما أنَّ الجوَّ بدأ بالتدهور بدأ العرب يبحثون عن مكانٍ ما لقضاء فصل الشتاء. لقد استولوا على المدينة القديمة سيزوكس Cyzicus في بحر مرمرة بالقرب من القسطنطينيَّة، واستطاعوا تأمين أسطولهم البحريِّ هناك، وشرعوا في فصل الربيع التالي بمنازلةٍ بحريَّةٍ مرَّةً أخرى.

استمرَّ فرض الحصار على العاصمة الإمبراطوريَّة لمدَّة سنتين، 668 و669م، ونعرف ذلك من شخصيَّة معاصرة مهتمَّة بالأرشفة الذي ذهب لاسترجاع بعض الوثائق في أثناء انعقاد مجلسٍ في القسطنطينيَّة عام 681م، ووجد أنَّ رسالةً تتعلَّق بذلك المجلس للبطريرق توماس (667-669م) يريد إرسالها إلى البابا وما زالت مختومةً ومغلقةً، ولكنَّه لم يتمكَّن من إرسالها منذ سنتين؛ «بسبب الغزو المستمرِّ للسارسين (العرب) غير المتَّقين وحصارهم»[1]. ولكننا لا نعلم ما الذي أدَّى إلى رفع ذلك

1- Acta conciliorum oecumenicorum II.2, ED., R.Riendinger Berlin, 1984), 612-614 (Council of 680-681.) . See : M.Jankowiak, " The First Arab Siege of Constantinople," Travaux et Memoires 17 (2013).

الحصار، في حين يذكرُ أحد المؤرِّخين الأوائل أنَّ العرب استمرُّوا بالحصار، «حتى إنَّهم لم يتمكَّنوا من تحمُّل آلام الجوع والطاعون»، وفي هذه الحالة عادت القوَّات البرِّيَّة، ونهبت المدن الأناضوليَّة الواقعة في طريقهم. وربَّما هناك عاملان رجَّحا الكفَّة إلى جانب البيزنطيِّين، الأوَّل: جلبُ الإمبراطورِ قسطنطين السفنَ من مناطق وسط حوض البحر الأبيض المتوسِّط، التي ما زالت خارج سيطرة العرب، ومن هناك سارت على طول السواحل اليونانيَّة، ثم نقلها برًّا عبر شبه جزيرة غاليبولي - مهمَّة شاقَّة، لكَّنها الحلُّ الوحيد لجلب التعزيزات البحريَّة في الوقت الذي يقبع فيه هلسبونت Hellespont تحت حصار العرب. والعامل الثاني: اختراع البيزنطيِّين سلاحًا جديدًا، وبالتحديد النار الإغريقيَّة، ويُعزى اكتشافها إلى جالينيكوس، وهو معماريٌّ أو نجَّار من بعلبك السوريَّة الذي جاء إلى الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة لاجئًا، حيث استطاع مزج مادَّة مشتعلة تُسمَّى نفثالين التي يمكن توجيهها ضدَّ السفن المعادية بواسطة أنبوبة معدنيَّة طويلة. (صورة رقم 4.1)[1]. استخدم البيزنطيُّون هذا السلاح بشكلٍ جيِّدٍ المرَّة تلو الأخرى. ففي عام 673م - على سبيل المثال - وصلت بعض الأطراف العربيَّة المغيرة إلى ليسيا بواسطة المراكب، ولكن استطاعت قوَّة بيزنطيَّة ضخمة بقيادة ثلاثة من القادة هزيمة أولئك الذين نزلوا منها ومعالجة من بقي في البحر منهم بالنار الإغريقيَّة من على بعض المراكب البيزنطيَّة الصغيرة المعروفة باسم Skiff التي استطاعت ملاحقتهم[2].

1- Chronical of 741, §27 (المجاعة والطاعون)؛
Cosmas of Jerusalem, cited by C.Zuckermann " A Gothia in the Hellespont in the Early Eighth Century," Byzantien and Modern Greek Studies 19 (1995);
ثيوفيلوس، 166-168 (النار الإغريقيَّة).

2- Chronical of 720 (in Nikephoros, §34, and Theophanes, 354-355) ; Theophilos, 167-168.



صورة رقم 4.1
مثال على استخدام النار الإغريقيَّة. المكتبة الوطنيَّة بمدريد.

القوقاز

كان على الإمبراطور كونستانس أن يقلق على الجناح الشرقيِّ من الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة؛ بسبب الاتفاق الذي أُبرم في عام 653م بين القائد الأرمنيِّ ثيودور رشتوني والعرب. لم تكن أرمينيا مهمَّة لبيزنطة؛ بسبب كونها حليفًا موثوقًا وثابتًا فقط، بل لأنها مصدر مهم للإمداد بالرجال وحصنٌ راسخٌ ضدَّ أيِّ هجوم من جهة الشرق. كتب كونستانس عددًا من الرسائل إلى ثيودور يطلب منه إعادة التحالف الراسخ بين مملكتيهما ولكن لم يحصل على جواب[1]. لذلك قرَّر الذهاب شخصيًّا في صيف عام 653م برفقة قوَّة حماية عسكريَّة ضخمة باستعراض للقوَّة بصورة واضحة لإثارة

1- اعتمدنا على سيبيوس (ص 136-143) بصفة مصدر أوَّليٍّ لنا في هذا القسم، وأكملنا معلوماتنا الباقية من:
History of the Caucasian Albanians, 2.20-22, 27-28 ; Lewond , History, 53-54 ; Theophilus, 181.

الانطباع والتوجُّه نحو كارين Karin التي تُسمَّى في الوقت الحاضر أرضروم الواقعة في شرق تركيا الحاليَّة. وفي الطريق وصل وفدٌ من معاوية إلى كونستانس يحذره «أنَّ أرمينيا تعود لي، لا تذهب إلى هناك؛ ولكن إذا ما ذهبت، فإنِّي سأهاجمك، وتأكَّد أنَّك لم تتمكَّن من الهرب». لكنَّ ثيودور رفضها بازدراء قائلًا: إنَّ الله من يحكم في مثل هذا الأمر. وحالما وصل إلى كارين استقرَّ لأيَّام عدَّة، التقى وتحدَّث إلى الأمراء الأرمن الذين ما زالوا على ولائهم له، الذين شرحوا نيَّات ثيودور و«عن المبعوثين القادمين من العرب والذاهبين إليهم». أعاد كونستانس الجزء الأعظم من الجيش الذي اصطحبه، واستمرَّ مع حاشية صغيرة حتَّى وصل دفن Dvin، حيث بقي مع رئيس الكنيسة الأرمنية للاحتفال معه بيوم القربان المقدَّس وكذلك التأييد على متانة العلاقات الأرمنيَّة - البيزنطيَّة.

وفي هذا الوقت وصلت الأخبار من القسطنطينيَّة أنَّ العرب يخطِّطون للهجوم على العاصمة نفسها، مِمَّا أجبر كونستانس على اختصار رحلته والعودة مسرعًا، بعد أن أعطى قيادة القوَّات البيزنطيَّة بأرمينيا إلى أحد النبلاء المدعو ماوريانوس Maurianus وأمره بمواصلة العمل على تشجيع الأمراء الأرمن للعودة إلى تحالفهم مع بيزنطة. أمَّا ثيودور رشتوني؛ فقد حصل على تعزيزات بحجم سبعة آلاف جنديٍّ عربيٍّ، وتمكَّن بسهولة بعد انقضاء فصل الشتاء من إجبار القوَّات البيزنطيَّة على الفرار وإبعادها إلى سواحل البحر الأسود. فضلًا عن انتشار الإشاعات بإطلاق حملةٍ ضخمةٍ ضدَّ القسطنطينيَّة، التي أجبرت بقيَّة النبلاء الأرمن على الخضوع إلى العرب. ذهب ثيودور الآن إلى معاوية ليعرض عليه الهدايا والحصول على الملابس المطرزة بالذهب، والراية بألوانها الأرمنيَّة، والأهم من ذلك رتبة أمير أرمينيا إلى جانب أشراف جورجيا، وألبانيا وسوينك. هذه الإمارات الثلاثة كانت حليفة للإمبراطوريَّة الفارسيَّة التي اختفت الآن، وأصبح ثيودور يأمل بإعادتها إلى صفِّ مملكة أرمينيا الكبرى التي وجدت قبل عام 428م.

بدأت أخبار الهزيمة المنكرة لقوّات الحملة العربيَّة على القسطنطينيَّة بالانتشار في القوقاز في خريف عام 654م، وكان تأثيرها مزدوجًا، حيث أضعفت القوَّة المعنويَّة للعرب المرابطين هناك، وعزَّزت من تصميم أولئك الذين يعارضونهم. أمَّا الوحدة العسكرية المرابطة بالقرب من دفن بقيادة القائد حبيب بن مسلمة «الجلَّاد الذي لا يرحم»، فقد كانت لمهاجمة جورجيا، إذ حُذِّر سكَّانها إمَّا «عليهم الخضوع أو مغادرة بلادهم». وتجاهل الجورجيُّون هذه التهديدات وأقسموا على القتال لآخر رجل، ولكنَّهم في النهاية تجنَّبوا المشاكل؛ لأنَّ تساقط الثلوج الكثيف أعاق تقدُّم العرب وأجبرهم على التراجع. أمَّا النبيل ماوريانوس ورجاله الذين قضوا وقتًا طويلًا من عام 654م مختبئين في طرابزون؛ شعروا الآن بالثقة الكافية والمحاولة مرة أخرى لتنفيذ التعليمات التي نُقلت إليهم من الإمبراطور كونستانس وبالتحديد للاستيلاء على أرمينيا وإلحاقها ببيزنطة. لذلك ضايقوا العرب المتقهقرين الذين لم يعتادوا على البرد القارس وغير راغبين بالقتال؛ مفضِّلين العودة إلى معسكراتهم السابقة في دفن، وعبروا نهر آراكس واستمرُّوا بالتوجُّه جنوبًا نحو السهول المحيطة ببحيرة أرومية. انتهز ماوريانوس الفرصة بالاستيلاء على حصن دفن ومهاجمة وقلعة ناخكوان Nakhchawan الواقعة على بعد سبعين ميلًا تقريبًا إلى الجنوب الشرقيِّ. وعلاوة على ذلك، تخلَّص سكَّان ميديا – الواقعة إلى الشمال الغربي من بلاد فارس – من خضوعهم للعرب «وقتلوا جابي الجباة». أرسل كونستانس في الحال مبعوثه إلى «أمير الميديين مقترحًا عليه السلام»، وتسلَّم الكثير من الهدايا بالمقابل، وتوسيع تحالفه الشمالي ضدَّ العرب أيضًا.

احتاج العرب الآن استعراضًا للقوَّة؛ من أجل استعادة هيبتهم على الأقلِّ وتجنُّب التمرُّد الشامل في جبهات كثيرة، ولذلك أرسلوا فوجين من العراق بسرعة إلى الشمال. كانت إحدى القوَّتين بقيادة حبيب بن مسلمة بهدف إعادة السيطرة على أرمينيا التي

تحرَّكت ضدَّ البيزنطيِّين في ربيع عام 655م، الذين كانوا يحاصرون ناخكوان، حتَّى هزموهم بسهولة وقتلوا الكثير منهم، فيما هرب من بقي على قيد الحياة ومن بينهم ماوريانوس نفسه. استمرَّ العرب بالسير نحو كارين حيث فتح سكَّانها أبواب مدينتهم لعجزهم عن المقاومة، وأعلنوا خضوعهم للعرب وقدَّموا كميَّات كبيرةً من الذهب والفضَّة وسلعًا ثمينةً أخرى. وبعد ذلك خرَّبَ العرب كلَّ الأراضي في أرمينيا وألبانيا وسيونك، وجرَّدوا كلَّ الكنائس من خزائنها، وأُخذَ أمراء البلاد البارزين رهائن لديهم، وزوجات وأبناء وبنات العديد من السكان.

أمَّا القوَّة الثانية؛ فقد أنيط بها مهمَّة ترويض الجهات الشرقيَّة من القوقاز، واستنادًا إلى المصادر الإسلاميَّة أُوكلت قيادة هذه القوَّة إلى أحد القادة المخضرمين وهو سلمان بن ربيع الباهلي، وكان هدفها القاعدة المتقدِّمة من بلاد الخزر بلانجار Balanjar في داغستان الحاليَّة. توجَّهت القوَّة نحو سواحل بحر الخزر ومن هناك سارت شمالًا «نحو سكَّان بوَّابات الخزر»، واجتازوا حصن مدينة دربند التي سمَّاها العرب «باب الأبواب» إشارةً إلى موقعها عند بداية السور الشرقيِّ – الغربيِّ الذي بناه الساسانيُّون بوصفه جزءًا من حاجز مع ما وراء القوقاز؛ لإبعاد البرابرة إلى الشمال. (صورة رقم 4.2). ففي البداية واجهوا قوَّةً دفاعيَّةً محليَّةً فقط، «حرَّاس ذلك المكان»، ولكن ظهر لهم فيما بعد جيشٌ كبيرٌ من البدو وأطبقوا على العرب في حركة كماشة تقليديَّة، حيث هاجمتهم قوَّة من الأمام، بينما برزت قوَّة أخرى من الخلف لتمنع تراجعهم، ولم يهرب منهم إلَّا القليل جدًّا عبر تلك الأراضي الوعرة من جبال القوقاز «عراة حفاة، جرحى وعلى الأقدام حتَّى وصلوا طيسفون موطنهم الأصلي». كان أولئك البدو في الأعمِّ الأغلب من الخزر الذين أقاموا سلطتهم في ذلك الوقت في السهوب الجنوبيَّة لروسيا وشمال القوقاز، وبدؤوا باستعراض عضلاتهم.



صورة رقم 4.2
أسوار دربند (باب الأبواب) في داغستان، روسيا على بحر الخزر، عام 1890م تقريبا

تُوفِّي رشتوني عام 665م وخلفه أميرًا لأرمينيا صهرُه همازاسب واميكونيان، «وهو رجل عفيف ومستقيم بكلِّ الاعتبارات... لكنَّه لم يكن مدرَّبًا وخبيرًا بتفصيلات المهارات العسكريَّة». إنَّ هزيمة العرب واندلاع الحرب الأهليَّة بينهم في عام 656م شجَّعت همازاسب الذي يفضِّل العيش «كأسلافه الشجعان» على تخلِّيه عن الخضوع للعرب، واستئناف العلاقات مرَّةً أخرى مع الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. رحَّب الإمبراطور كونستانس بحرارةٍ بتغيير هذا التحالف، وأهداه ساداتٍ من الفضَّة ولقب أمير أرمينيا. هناك ثمنٌ غالٍ يجب دفعه مقابل هذه السياسة، على الرغم من ربط معاوية الغاضب

كلَّ الرهائن الذين جُلبوا من هذا الإقليم وقتلهم جميعًا وهم «نحو 1775 رهينة». واتَّبع أمراء سوينك وألبانيا كلهم الأرمن وأعلنوا ولاءهم للإمبراطور البيزنطيِّ كونستانس. وهذا يعني بروز حلف مسيحيٍّ موالٍ لبيزنطة عبر القوقاز من جهة، وانتهاز كونستانس الفرصة كاملةً بانشغال العرب بحروبهم الأهليَّة من جهةٍ أخرى، مِمَّا جعل الإمبراطور يحاول تقوية حصونه ضدَّ العرب. وخلال السنة التاسعة عشرة من حكمه الملكيِّ (659–660م) شرع بالتجوُّل بمواكب ملكيَّة في الإقليم يلتقي النبلاء المحليِّين ومنحَهم الهدايا والألقاب. جاء جوانشر أمير ألبانيا للالتقاء به في ميديا، حيث كان كونستانس يأمل أن ينتزعه من السيطرة العربيَّة أيضًا، فأخذ الصليب المقدَّس بحضور جوانشر وأعطاه منه قطعةً، قائلًا له: «ليكن هذا رمزًا لذروة قوَّتك، لك ولأبنائك ضدَّ العدو».

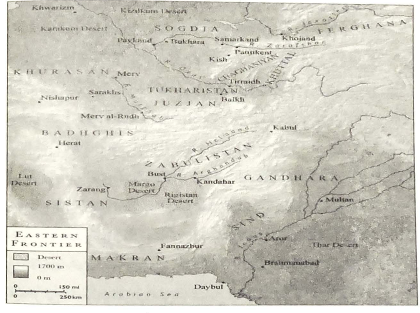
وصلت الحرب الأهليَّة العربيَّة إلى نهايتها في عام 661م، وبدأ معاوية بإعادة تأكيد سلطته على الأراضي المفتوحة، حتَّى لاحظ جوانشر كيف أنَّ الإمبراطور البيزنطيَّ أصبح عاجزًا وضعيفًا أمام العرب، «الذين أتلفوا الأسواق السابقة المأهولة والمدن كاللهب»، وأصبح قلقًا من أنَّهم قد يعملون ذلك في أراضيه. ولذلك، قرَّر تبديل موقفه والانضمام إلى العرب. فقد أحضرَ في عام 664م هدايا ثمينة وأخذهم «للسلام على فاتح العالم». احتفل معاوية بوصوله احتفالًا فخمًا ورسميًّا، ووضع ختمه على معاهدة الصداقة الدائمة بينهم. التقى جوانشر عند عودته مع الكثير من النبلاء الأرمن الذين استقبلوه كما يبدو بالترحاب، ومن المحتمل جعلهم يتَّخذون قرارًا مشابهًا لقراره، وبذلك انهار التحالف القوقازيُّ البيزنطيُّ. ومن أجل تعزيز إرادته عيَّن معاوية جريجوري ماميكونيان – الذي كان رهينةً في دمشق – أميرًا لأرمينيا وأعاده إلى بلده وبإجلالٍ كبيرٍ. استطاع جريجوري طوال فترة حكمه (662–685م) الحفاظَ على أرمينيا حرَّةً من كلِّ عمليَّات السلب والهجوم عليها، ولعلَّ هذا يفسِّر لنا بناء الكثير من الكنائس هناك خلال فترة حكمه. إذن وفي هذا الوقت، وعلى الرغم من «أنَّهم خضعوا إلى نير التبعيَّة لملك الجنوب»، لكنَّ

الأمراء القوقاز احتفظوا على الأقلِّ بمكانتهم وممارسة اليد المطلقة في ممالكهم. وكذلك منحتهم الحرب الأهليَّة العربيَّة الثانية (683-692م) فترةً أخرى من الهدوء، مِمَّا جعل الأرمن والجورجيِّين والألبانيِّين يتوقَّفون عن دفع الجزية للعرب في هذه الفترة. لكنَّ الأمور لم تتغيَّر كثيرًا في بعض الأحوال بالنسبة إلى النبلاء القوقاز، وكما في السابق كانوا مشتَّتين بين الإمبراطوريَّتين، والآن أخذ العرب مكانة الفرس لا غير.

شمال إيران والحدود الشرقيَّة (الخرائط رقم 3.3 و 4.2):

تمتَّعت مناطق شمال إيران وآسيا الوسطى - وكما هو الحال مع القوقاز - بطبيعة من الأرض، مِمَّا عرقل عمليَّات الفتح بسهولة، وتمكنَّتا من الاحتفاظ بدرجةٍ مناسبةٍ من الاستقلال طوال القرن السابع الميلاديِّ. ففضلًا عن سلاسل جبال البرز في الشمال وكوبر داغ في الشمال الشرقيِّ وباروباميسوس وهندو كوش في الشرق؛ هناك الكثير من الصحاري التي تعيق السفر: كافير ولوط في الوسط، وكاراكوم في الشمال الشرقيِّ، ومارجو وراجستان في الجنوب الغربيِّ. فمن البديهي، إذن، كان فتح العرب لمثل هذه الأراضي يسير ببطءٍ كبيرٍ. ففي سنة 652م أمسكوا بغرب الهضبة الوسطى حول نهاوند، وعلى ولايات خوزستان وفارس وكرمان في الجنوب الغربيِّ، ولكنَّهم لم يحقِّقوا تقدُّمًا يُذكر في الشمال والشرق على الرغم من قيامهم بأكثر من غارة بين الحين والآخر. كانت مرو المعسكر الوحيد للعرب، وحتَّى هناك لم تكن القوَّات مستقرَّة بشكل دائم، إنَّما كانت تأتي بالتناوب من العراق. لذلك، كان الحكم العربيُّ لا يزال غير مستقرٍّ، بيد أنَّ موت يزدجرد وفرار أبنائه نحو الشرق كان يعني عدم وجود شخصيَّة بارزة تقود العودة، وكان أغلب زعماء الإقليم سعداء للتعامل مع الحكَّام الجُدد مقابل أن يُتركوا أحرارًا في مناطقهم. وعلى سبيل المثال، حينما اقترب العرب من مرو الرض في

الشمالُ الشرقيِّ من أفغانستان الحاليَّة أرسل النبيل المحلِّيُّ هناك رسالةً يطلب فيها احترام المعاهدة التي أبرمها جدُّه الكبير مع الإمبراطور خسرو الأوَّل «بعد قتل الأفعى التي اعتادت أكل الناس»، التي أعفت عائلته من الضرائب وضمنت له حقَّ وراثة الحكم في الإقليم[1]. لقد وافق العرب في الأعمِّ الأغلب على طلباته؛ لأنَّها تمنحهم الوقت الذي يحتاجونه لإقامة البنية التحيَّة لإدارتهم تدريجيًّا، ولكسب أو ضرب النبلاء والمدن على انفراد واحدة بعد الأخرى، أفضل من مواجهتهم مرَّة واحدة.



خارطة رقم 4.2 الحدود الشرقيَّة

1- الطبري، 1. 2898. تفتتح الرسالة بالتضرع لله "الذي ينزع الملك ممن يشاء". لا توجد إشارة هنا إلى اعتناق النبلاء الإسلام، على الرغم من وجود الكثير من الحالات يُذكر فيها أنَّ النبلاء الفرس كانوا يأنفون من فكرة دفع الجزية (البلاذري، 314: (أنفوا من الجزية) ولذلك اعتنقوا الإسلام، وكانت النخبة منهم معفيَّة من ضريبة الرأس في الفترة الساسانيَّة المتأخِّرة، ولذلك فإنَّ دفعها لم ينل رضاهم، ربَّما لأنَّها تعني أنَّهم ينتسبون إلى الفئات الدنيا من المجتمع. ومع ذلك، فإنَّ الكثير من المدن والمناطق في القرن الأوَّل الهجريِّ دفعوا ضرائبهم إلى العرب بصورة جماعيَّة أكثر منها بصورة فرديَّة.

شمال إيران

هناك ثلاثة قطاعات سكَّانية في شمال إيران: أذربيجان في الجانب الغربيِّ تمتدُّ إلى الجنوب الغربيِّ من الضفاف الشرقيَّة لبحر الخزر. يسكن حاكمها في قاعدته في العاصمة أردبيل، وقاوم العرب في البداية، ولكن حينما تعهَّدوا له بأنَّهم لن يقتلوا أو يستعبدوا أيَّ أحدٍ، وألَّا يدمِّروا أيَّة معابد للنار، والسماح لهم بالاحتفاظ بالزرادشتية و«احتفالاتهم التقليديَّة الراقصة»؛ عندئذ وافق على التوصُّل لاتفاق معهم. وبالمقابل حصل العرب على جزية سنويَّة والحق بإقامة معسكرٍ لهم في العاصمة. أمَّا في الوسط؛ فتقع الولايات القوقازيَّة التي تفصلها سلسلة جبال البرز عن الهضبة الإيرانيَّة الوسطى، التي تنعم بحياة نباتيَّة غنيَّة ومتنوِّعة؛ بسبب رطوبة بحر الخزر. هذه العزلة تناسب الكيانات المحلِّيَّة القويَّة والحكَّام الصغار المتصلِّبين المشهورين بأعدادٍ كبيرةٍ في التواريخ المحلِّيَّة المدوَّنة في العصور الوسطى. «إنَّهم يطلبون معاهدة في وقت واحد»، اشتكى أحد المؤرِّخين المسلمين، «ولكنَّهم يرفضون دفع الجزية لاحقًا، يبدؤون الحرب باستمرار ثمَّ يبحثون عن السلام». كان حاكم طبرستان (يُعرف بالمازندران أيضًا) ذا عقليَّة مستقلَّة بشكل خاصٍّ، وكان معروفًا حتَّى للصينيِّين الذين أرسلوا إلى بلاطه الرُّسل، إنَّه رفض الخضوع للعرب. لقد عمل القادة العرب بين الحين والآخر ما في وسعهم؛ لتأكيد سلطتهم على هذه الأقاليم، ولكن ترك معظمهم المنطقة وأنوفهم دامية. فعلى سبيل المثال، قاد مصقلة بن هبيرة في عام 674م حملةً على طبرستان مكوَّنة من عشرة آلاف مقاتلٍ لتولِّي مسؤوليَّة المنطقة المخصَّصة له، ولكن حينما بدؤوا الصعود إلى الأودية الشديدة الانحدار دحرجَ السكَّان المحلِّيُّون الأحجار على

رؤوسهم ليقضوا على عددٍ كبيرٍ من الجيش. لذلك أجبر مصقلة على التوصُّل إلى سلامٍ مع السكَّان، والاعتراف بحقِّهم في الحكم الذاتيِّ مقابل دفعهم 500 ألف درهمٍ ومئة شوال و300 عبدٍ.

وأخيرًا، تقع على الجانب الشرقيِّ سهول جرجان الخصبة وسهوب ديهستان المحصورة بين بحر الخزر وصحراء كراكوم، حيث لقي الإمبراطور الفارسيُّ بيروز مصرعه في عام 484م، وموطن سلالة جول التركيَّة (بالعربيَّة: سول) التي اتَّخذت تلك المنطقة أصلًا موطنًا لها قبل عصر الفتوحات العربيَّة. وتركت المنطقة لحالها حتَّى حكم سليمان بن عبد الملك (715-717م) الذي أرسل القائدَ الشرس يزيد بن المهلَّب؛ بهدف إخضاعها ومحاصرة ملكها المغتصب للحكم لعدَّة أشهر، ولكنَّه لم يستطع الحصول على استسلامه، ووافق على المغادرة شريطة دفعه الجزية. وحالما غادر المنطقة تخلَّى السكَّان عن ولائهم وقتلوا عاملَ الحكومة الذي خلفه هناك. خلَّفَ هذا الحادث ردًّا عنيفًا من يزيدَ الذي قاتلهم لعدَّة شهور حتَّى أجبرهم أخيرًا على الاستسلام، وفي هذا الوقت «علَّقَ كلَّ محاربيهم على المشانق»، وتنفيذًا لتهديده السابق عجنَ الخبزَ بدمائهم ثمَّ أكله. وهكذا أصبح هذا البلد بالإكراه جزءًا من الإمبراطوريَّة العربيَّة، على الرغم من أنَّه احتفظ - وكما هو الحال بالنسبة إلى الولايات القوقازيَّة الأخرى - بتميُّزه واستقلاله عن الحكومة المركزيَّة ولعدَّة قرون لاحقة[1].

1- البلاذري، 326 (الرقص)، 329 (معسكر أردبيل)، 338 (نقض المعاهدات) 335-37 (مسقلة ويزد)؛ Chavannes, 173-174؛ خليفة، 223 (54م: مسقلة).

الحدود الشرقيّة

تقع الحدود الشرقيَّة لإيران بشكلٍ فعليٍّ في القطاعين الشماليِّ والجنوبيِّ، حيث تقع على جانبيها سلسلة جبال هند كوش. ويتحكَّم نهرا أكوس Oxus وجاكسارتس Jaxartes بالأجزاء الشماليَّة من القطاع الشماليِّ، وتحدده من الغرب صحراء كراكوم، وإلى الشمال صحراء قزل كوم. إنَّه عالم مقسَّم بين أقاليم صغيرة بهذه الجبال والأنهار والصحارى، وهذا التنوُّع الطوبوغرافيُّ تزاوج مع التنوُّع السياسيِّ، ومع عددٍ كبيرٍ مذهلٍ من الأمراء والنبلاء الذين يحكمون السكَّان المحلِّيِّين العقلاء. كانت طخارستان (باكتريا القديمة) الإمارة الأكثر أهمِّيَّة، وترتكز على مدينة بلخ الواقعة إلى أقصى الشمال من أفغانستان الحاليَّة، وسوجديا Sogdia التي تتكوَّن من المدن الواقعة على طول نهر زارفشان Zarafshan مع الأراضي الزراعيَّة المحيطة بها، ولا سيَّما بخارى وسمرقند الواقعتين في أوزبكستان الحاليَّة.

يعدُّ القطاع الشماليُّ الأكثر ثراءً من القطاع الجنوبيِّ، سوجديا بشكل خاصٍّ وسكَّانها الذين استطاعوا أن يصبحوا وسطاء رئيسين في فترة ما قبل الإسلام على الطريق التجاريِّ الذي يربط الصين بإيران وبيزنطة. وهذا يعني أنَّه وُثِّقت أخباره بصورةٍ أفضل من القطاع الجنوبيِّ، وكلاهما جذب انتباه القوى العالميَّة، ولا سيَّما الصين، بل وأمدَّنا ببعض المصادر المحلِّيَّة باللغات المحلِّيَّة لإقليمي باكتريا وسوجديا، وهذا ساعد على تشكيل التنوُّع الدينيِّ في هذه الأرض، بينما يميل المؤرِّخون المسلمون إلى رؤية المشركين فقط، فقد أوضح أحد النصوص المعاصرة أنَّه يجب على الإسلام أن يفرض موقعه مع الزرادشتيَّة والبوذيَّة والمانويَّة والمسيحيَّة ولفترة مناسبة، وفي

الوقت الذي يميل المؤرِّخون المسلمون إلى وصف كلِّ شخصٍ هناك إما بأنَّه تركيٌّ أو فارسيٌّ؛ تساعدنا النصوص الأخرى على تقديم نسيجٍ ثريٍّ للهُويَّات المحلِّيَّة السائدة في ذلك الإقليم.

سافر اكسوان زانج Xuanzang أحد الحجَّاج الصينيِّين خلال هذا الإقليم في مطلع القرن السابع الميلاديِّ وكشف بعض ملامح هذه الفسيفساء المعقَّدة. فقد ذكر أنَّ هذا البلد مقسَّم على سبع وعشرين دولةً، كلٌّ واحدة لها زعماؤها المستقلُّون، غير أنَّ السكَّان كلَّهم من الأتراك. ووصل إلى هناك قبل أن تتفكَّك إمبراطوريَّة الأتراك الغربيَّة بقليلٍ؛ نتيجة لضغط الصين المنبعثة من جديد. ومع ذلك، يبدو أنَّ الخاقان (القائد) لا يزال شخصيَّةً تثير إعجاب اكسوان زانج الذي زاره في سنة 629-630م بالقرب من بحيرة إيسكول Issykul في قرغيزسستان الحاليَّة. «محاط بنحو مئتين من أصحابه الكبار (طرخان) يلبسون الملابس المطرَّزة بالقصب، وجدايل شعرهم المتدلِّية. والقوَّات الواقفة على يمينه وشماله وهي مكسوَّة بالفرو، وغطاء رأس مغزول جيِّدًا، يحملون الزماح والأقواس والرايات، ويمتطون الخيول والإبل»، «ويجلسون في سرادق مطرز بالأزهار الذهبيَّة، وحليَّة تعمي الأبصار من لمعانها». والموظَّفون يرتدون الملابس اللامعة والمطرَّزة بالحرير، وينشرون الوسادات وكلَّ ما يحتاجه الحرس الواقفون بالاستعداد خلفهم. وبعد تناول الطعام والنبيذ والحديث وُدِّع الحاج بالأمنيات الدافئة والإطراء والمديح حاملًا الهدايا والملابس المصبوغة باللون الأحمر وخمسين قطعةً من الحرير الطبيعيِّ»[1]. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ بعد ذلك قُتل هذا الخاقان نتيجة ثورة ضدَّ حكمه، وأخذ النظام يترنَّح حتَّى إنَّ زعيمه الأخير تُوفِّي في

1- Xuanzang, Travels in India, ed., T.Watters (London, 1904)102; Life,ed., S,Beal (London,1914),42;

ومن طريق تجارة الحرير ودور السوجنديين في إدارته، انظر :

E.de la Vaissiere, Sogdian Traders (Leiden,2005).

السجن بالصين في عام 659م. وبذلك فقد وصل العرب إلى هناك، حيث يوجد نوع من الفراغ في أعلى هرم السلطة. ادَّعى الإمبراطور الصينيُّ جاو زونج Gaozong (650-683م) بالمنطقة التي أشرف عليها الأتراك سابقًا، لأنَّه يَعدُّ الحاكمَ التركيَّ مجرَّدَ تابعٍ للصين، ولكن من الناحية العمليَّة يعني وجود معطيات صغيرة بوعورة الأراضي، لبُعدها الشاسع عن الأراضي الداخليَّة للإمبراطوريَّة الصينيَّة، إلَّا أنَّ الظروف ستتغيَّر في نهاية القرن السابع الميلاديِّ حينما أعاد الأتراك تأكيد سلطتهم، وفرضوا تهديدًا خطيرًا على العرب الذين حتَّى هذا الوقت لم يكن لديهم خيار سوى التعامل مع كلِّ هذا العدد الضخم من زعماء الإقليم كلًّا على انفراد سواء بالقوَّة أو بالدبلوماسيَّة.

كان أوَّل عربيٍّ يعالج مسألة إخضاع القطاع الشماليِّ هو عبد الله بن عامر والي البصرة (649-656م، 661-664م) النشط والكفوء[1]. فقد بدأ أوَّلا بإخضاع مرو ومدن خراسان الصغيرة مثل نيشابور وسرخس، ثمَّ التوجُّه شرقًا نحو ما يُعرف اليوم غرب أفغانستان. كانت معاهدات الصلح التي يُتَّفق عليها في العادة تضمن حياة السكان وممتلكاتهم مقابل دفعةٍ نقديَّةٍ سنويَّة، وفي بعض الأحيان مع العبيد والحيوانات والأغذية تُعطى بديلًا عن المال؛ وأمَّا تحديد الجزية على السكَّان؛ تكون من مسؤوليَّة الزعماء المحلِّيِّين (الدهقان) والمسلون يتسلَّمونها فقط. وأيضًا دخلت قوَّة استكشافيَّة من العرب إلى طخارستان، في شمال أفغانستان الحاليَّة، وتوصَّلت إلى بنود اتفاق مع مدينة بلخ، وهي واحةٌ زراعيَّةٌ غنيَّةٌ ومركزٌ بوذيٌّ مشهورٌ، وإن لم تعبر نهر أكسوس بعد. لقد تفاوض ابن عامر بنفسه مع القادة فيما وراء هذه الحدود النهريَّة، ووافق على عدم العبور إلى جانبهم ما داموا سيدفعون الجزية بالمواشي والعبيد ذكورًا وإناثًا، وبالحرير الطبيعيِّ والملابس. ومع ذلك، تراجعت كلُّ هذه المكاسب خلال الحرب

1- عن هذه الرواية، انظر : البلاذري II-404؛ Chavannes, 172 (بيروز) ؛ خليفة، 211، 222، 224 (50، 54، 56 هجرية) ؛ Narshakhi, History of Bukhara, trans. By R.Frye (Cambridge , MA , 1954) 9-10 (خاتون).

الأهليَّة العربيَّة الأولى (656–661م)، حيث انتهزت كلُّ مناطق شمال شرقي إيران الفرصة وتخلَّت عن تبعيَّتها للعرب. وحينما تولَّى زياد بن أبي سفيان مسؤوليَّة بلاد فارس بتكليفٍ من معاوية في عام 670م تمكَّن من بسط نوعٍ من النظام والتماسك لمقاربة العرب لأراضيهم الحدوديَّة في الشرق. فقد ركَّز الإدارة في مرو، ووطَّن خمسين ألف عائلة من العراق في تلك المدينة وفي المناطق المحيطة بها، مع وعود بمكافآت دسمة لأولئك الذين يستقرُّون في ذلك الممرِّ نحو الشرق. وهذا يعني وجود قاعدة محلِّيَّة للعمليَّات الآن ومستودع للقوى البشريَّة العسكريَّة، الذي سهَّل من شنِّ هجماتٍ أكثر من قبل على ترانس أوكسانيا Transoxania (الأراضي فيما وراء نهر أكسوس)، في حين كانت القوَّات تُجلب من أماكن بعيدة من البصرة. استفاد الولاة اللاحقون لخراسان من هذه الطاقات البشريَّة لمحاولة توسيع السيطرة العربيَّة في هذا الإقليم. كان عُبيد الله بن زياد (673–676م) «أوَّل عربيٍّ يعبر نهر أكسوس إلى بخارى» ويسير لدحر بخار خدا (سيد بخارى) الذي حكم المراكز الغنيَّة في بيكند Paykand وبخارى.

وفي هذه النقطة، ركَّزت التقاليد التأريخيَّة المحلِّيَّة على شخصيَّة زوجة بخار خدا التي أشارت إليها ببساطة بالخاتون (السيِّدة) المشهورة بحكمتها وكفاءتها الإداريَّة، وعند وفاة زوجها ترك لها طفلًا صغيرًا، ولذلك تولَّت السلطة من بعده وحكمت البلاد لمدَّة خمس عشرة سنةً بوصفها وصيَّةً على العرش، وتوصَّلت إلى صفقات مع الكثير من القادة العرب وضمان أفضل الفوائد لرعاياها. ويقال: كانت تمتطي جوادها كلَّ يوم لتطوف حول الحصن، وتتوقَّف عند بوَّابة بائعي علف المواشي، وعند جلوسها على كرسي العرش كان يقف أمامها العبيد والخصيان والنبلاء، ويقف على بعد مسافة منها «مئتا شابٍّ من أبناء الملاكين والأمراء على أهبة الاستعداد لخدمتها مطوَّقين بأحزمتهم الذهبيَّة حاملين سيوفهم»، وحالما تظهر للعيان «الكلُّ

ينحني لها، ويقف في صفَّين بينما تقوم بالتحقيق بشؤون الدولة، وإصدار الأوامر والمحرَّمات». ففي عام 676م جهَّزت قوَّة من سكَّان بخارى لمساندة هجوم العرب على سمرقند عاصمة السوجنديِّين، الدرة الأخرى في تاج تلك الأراضي. وعلى الرغم من مقاومة المدينة فإنَّها سرعان ما استسلمت حينما استهدف العربُ وبمساعدة مشرفين محليِّين «القلعةَ التي كانت تأوي أبناء ملوكهم ونبلاءَهم»، وتخوفهم من أن يقتلوا جميعًا. وبذلك، استطاع العرب خلال حكم معاوية من الحصول على مكاسب ثابتة، وإن كانت بطيئة، ولكن اندلاع الحرب الأهليَّة المنهكة بعد وفاة يزيد الأوَّل في عام 683م أُوقفت تلك العمليَّات، بل عكستها، وعلينا الانتظار عقدين آخرين من الزمن قبل أن يتمكَّن العرب من استعادة خسائرهم.

الحدود الجنوبية الشرقية

كان الجزء المركزيُّ من القطاع الجنوبيِّ لحدود الإمبراطوريَّة العربيَّة في الشرق يتوازى بصورةٍ عامَّةٍ مع الأجزاء الشرقيَّة والجنوبيَّة من أفغانستان الحاليَّة، والأجزاء الشماليَّة الغربيَّة من باكستان الحاليَّة، وتضمُّ مدنًا مثل زارنج Zarang وبوست Bust وقندهار وكابل وكابيسا Kapisa. وتعدُّ هذه المناطق من الأراضي الوعرة على الترحال؛ بسبب انتشار الصحارى القاحلة والجبال الشاهقة، لكنَّ نهري هلمند وأرغنداب Arghandab جعلا الزراعة ممكنة في مناطق الجنوب الغربيِّ، ووجود الطبقات المعدنيَّة في الجبال الشرقية ولا سيَّما مناجم الفضَّة في بانجشير Panjshir وفَّر حياةً جيِّدةً للسكَّان هناك. تمكَّن العرب من إقامة سيطرة معقولة على زرانج ومحيطها الداخليِّ ولا سيَّما خلال حكم الوالي عبد الرحمن بن سمرة،

الذي استمرَّ فترة طويلة (654-656م، 661-670م). كان ذلك في غرب مقاطعة سيستان التي تفصلها عن زرانج صحراء مارجو Margo شرقا، حيث المسير فيها صعبٌ جدًّا، خاصَّة كلَّما توجَّهنا نحو سلسلة جبال هندكوش. وهنا يحكم الكثير من الحكَّام المحليِّين مثل الرتابله Rutbils في آروخاج Arrukhaj (أرخوسيا القديمة) وزابولستان، وشاهات كابل والخناجلة Khingals في منطقة كابل وجندهارا (حول بيشاور الحاليَّة بالشمال الغربيِّ من باكستان)، الذين كما نرى من نقودهم أنَّهم حافظوا على حكمهم وفنونهم المميزة وطقوسهم الدينيَّة. أمَّا ولاية باذغيس Badhghis؛ فتقع في النهاية الغربيَّة من جبال هند كوش وعاصمتها هرات التي كانت آخر ممتلكات الهفثليِّين هناك، وهم السكَّان الذين سيطروا على آسيا الوسطى تقريبًا منذ منتصف القرن الخامس حتَّى منتصف القرن السادس الميلاديِّين وقبل خسارتهم السلطة للأتراك. كان هؤلاء الحكَّام المحليُّون يتَّصفون بالغيرة من استقلال بعضهم عن الآخر، وتحميهم الأراضي الوعرة، وعلى الرغم من أنَّهم في بعض الأحيان يوقِّعون على الاتفاقيَّات والمهادنة، فإنَّهم سرعان ما يتخلَّون عنها في الظروف المؤاتية لهم. وعلى سبيل المثال، في عام 654م تخلَّت هرات وباذغيس عن ولائها للعرب وطردوا والي الحكم العربيِّ هناك، ويبدو أنَّهم عملوا ذلك بتحريضٍ من أحد أعضاء عائلة كارين النبيلة الفارسيَّة. وكذلك تخلَّت زارنج عن ولائها للعرب ثلاث مرَّات ونجحت في عام 671م في رفض أوامر زياد بن أبي سفيان بقتل رئيس أساقفة الزرادشتيِّين وإطفاء نيرانهم المقدَّسة. وعند وفاة عبد الرحمن بن سامورا، جَمَعَ شاه كابل قوَّةً كبيرةً وقويَّةً جدًّا لطرد العرب من كابل والمناطق القريبة منها، وأعاد الرتبل سيطرته على زابولستان وآرخج ووصل إلى بوست. ولذلك أُعيدَ التفاوض للتوصُّل لاتفاقيَّة جديدة، لكن عند وفاة الخليفة يزيد الأوَّل (680-683م) «غدر سكَّان كابل وخرقوا الاتفاق»، ومرَّة أخرى قهروا الجيش الذي أُرسل إليهم

لإعادة فرضه، وخلال الحرب الأهليَّة العربيَّة الثانية احتفظ الرتبل بسلطته، وذلك باللعب على الأطراف المشاركة بتلك الحرب[1].

أفريقيا (خارطة رقم 4.3)

واجهت القوَّات العربيَّة البطء الكبير أيضًا في توسُّعها سريعًا في الشمال الأفريقيِّ، حيث يقع الجزء الأعظم من بيزنطة الأفريقيَّة، ثمَّ أفريقيا العربيَّة التي كانت تتكوَّن من ولايات زوجتينة، أو أفريقيا المحتلَّة من الرومان (تونس الحاليَّة)، وبيزاسنا Byzacena (جنوب تونس الحاليَّة)، ونوميديا (شرق الجزائر الحاليَّة). وتقع إلى الغرب ولاية موريتانيا (غرب الجزائر وشمال المغرب الحاليَّين) التي تحيط بها سلسلة جبال الأطلس. استولى الوندال على هذا الإقليم في أربعينيَّات القرن الخامس الميلاديِّ، وبقي بأيديهم لمدَّة قرنٍ من الزمن قبل أن تستردَّه بيزنطة في أربعينيَّات القرن التالي. لقد حكم الوندال الإقليم بالرفق واللِّين، واقتصرت سيطرتهم غالبًا على المناطق الخصبة المحاذية للساحل، ولذلك بدأ سكَّان المناطق الداخليَّة - في الجبال والصحارى - بإقامة دويلاتهم التي عكست مزيجًا مهمًّا من المظاهر البيزنطيَّة والعربيَّة. فعلى سبيل المثال، هناك نقشٌ لعام 508م من مدينة ألتافا Altava (غرب الجزائر الحاليَّة) لإحياء ذكرى بناء قلعة نيابة عن ماسونا Masuna «ملك العرب والرومان». وفي وقتٍ قريبٍ من الفترة نفسها ولكن بعيدًا قليلًا إلى الشرق في جبال الأوراس في شرق الجزائر الحاليَّة، لدينا نقش Masties «الرئيس والإمبراطور»، الذي

1- خليفة، 167و 210 (33، 50 هجرية) ؛ البلاذري، 393-398. كان اللقب يُكتب في الأعم الأغلب "رتبل"، لكن العلامات المميزة في بعض الأحيان أما غير واضحة او مفقودة والتي تدعو الى الاقتراح بأنه يجب ان يقرأ " زُنبل"، لأنه من المفترض له علاقة بالاله المحلي " زُن Zun".



خارطة رقم 4.3 غرب البحر الابيض المتوسط

«لم يتخلَّ عن ولائه للرومان والعرب»[1]. ومع ذلك، كان الكثير من هؤلاء القادة ورعاياهم مسيحيِّين كما يتوضَّح من كثيرٍ من نقوش قبور المسيحيِّين بين القرنين الخامس والسابع الميلاديِّين، التي وُجدت مبعثرةً في هذه المناطق. وبعد أن استعاد البيزنطيُّون هذه المنطقة، ورغبتهم الطبيعيَّة هي إعادة فرض سلطتهم، لكنَّ السكَّان المحليِّين تعوَّدوا على تمشية شؤونهم بأنفسهم. وحينما رفض حاكم طرابلس الجديد الاستماع إلى شكاوى القادة العرب حول عمليَّات السلب والنهب التي قامت بها القوَّات البيزنطيَّة ومقتل أحد قادتهم بسبب انتزاع الفضَّة التي بحوزته؛ أدَّى ذلك إلى اندلاع ثورة عارمة هناك، ولم يستطع البيزنطيُّون قمعها إلَّا بعد أربع سنوات (544–548م) من اندلاعها، لكن ذلك لم يكن انتصارًا كبيرًا لبيزنطة، فقد بقي الاستياء يغلي بين السكَّان، مِمَّا أدَّى إلى انحسار الحكم البيزنطيِّ ليقتصر على السهول الساحليَّة فقط، في حين بقيت أغلبيَّة الدويلات العربيَّة تحتفظ بحكمها الذاتيِّ.

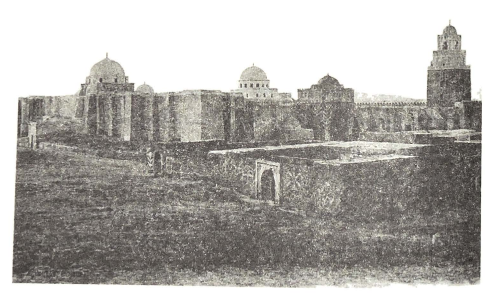
ولذلك، كان على العرب أن يتنافسوا مع هؤلاء «البربر» كما يسمُّونهم حينما أزاحوا عن السلطة جريجوري حاكم أفريقيا البيزنطيّ في عام 647م. وبعد ذلك، يبدو عدم ظهور أي تهديد لهم من القوَّات البيزنطيَّة، وهذا ربَّما يفسِّرُ سببَ ترك العرب الجزءَ الغربيَّ من الشمال الأفريقيِّ لفترةٍ طويلةٍ من الوقت. وأقرب إشارة لدينا من المصادر المسيحيَّة عن الغارات هناك ليس قبل عام 670م حينما غزا جيشٌ عربيٌّ هذا الإقليم «وأخذ معه 80 ألف أسير وعاد إلى بلده». ونجد الإشارة نفسها في المصادر الإسلاميَّة التي ذكرت أن ذلك الجيش كان بقيادة معاوية بن حديج زعيم قبيلة كندة الجنوبيَّة القويَّة التي كانت تستهدف مدينة جالولة، وهي كولولس Cululis القديمة في تونس الحاليَّة. ونعرف من نقشٍ لعشرة أسطر من الشعر باللغة اللاتينيَّة الكثير من

1- Moderan, Les Maures, 388(Masuna), 401-414(Masties), 420(Cululis);
اما بقية القسم رجعنا فيه الى ثيوفيلوس 164 ؛ خليفة، 210 (50 هجرية) ؛ ابن عبد الحكم، 193–197.

أعمال الترميم للاستحكامات التي نُفِّذت هناك في نحو عام 540م. وقد نُقشَت على عتبة أحد أبواب المدينة الجديدة والمزيَّنة بإسرافٍ قصيدةٌ كُتبت «بأيدي جستينيان»، كيف «أنَّ رعب العرب»، قد حلَّ محلَّ الإدارة الرصينة، وحكم القانون، وحماية الأسوار القويَّة. ومن المحتمل أنَّ جالولة لا تزال تأوي قوَّات بيزنطيَّة في القرن السابع الميلاديِّ، وبذلك كانت هدفًا واضحًا لهجوم العرب. جلب معاوية معه المجانيق لخرق التحصينات القويَّة هناك، وحالما أحدث خرقًا سرعان ما دخل المدينة وسحق المقاتلين فيها وتركها مع أعدادٍ من الأسرى.

أُسِّست مدينة القيروان في نحو هذا الوقت داخل بيزاسنا على بعد مئة ميلٍ إلى الجنوب من تونس (صورة رقم 4.3). والتاريخ الاعتياديُّ الذي تذكره المصادر الإسلاميَّة لهذا الحدث هو 670م، وهي السنة نفسها التي أُنشئ فيها المعسكر الدائم بمدينة مرو. ولذلك، يجب أن ننظر إلى هذه الأعمال بوصفها قراراتٍ لسياسات الخليفة معاوية نفسه. أمَّا في حالة مرو؛ كانت تلك الحركة تمثِّل خطوةً كبيرةً لتعميق الحكم العربيِّ واستقراره هناك. وتأسيس قاعدة متقدِّمة في أفريقيا تعني تمكين العرب من الاحتفاظ بقوَّاتهم وتجهيزاتهم هناك، واستخدامها منطلقًا لشنِّ حملاتٍ أخرى للفتح ودون العودة إلى الإسكندريَّة الواقعة على بعد 1200 ميلٍ إلى الشرق بأقصر الطرق. وفي الأعمِّ الأغلب كان معاوية بن حديج هو المسؤول عن البدء بالبناء بعد حصار جالولة الواقعة على بعد عشرين ميلًا إلى الشمال الشرقيِّ من القيروان، واقتُرح مرشَّحون آخرون للاستيطان هناك، إذ يشير أحد المصادر المبكرة بوضوح إلى أنَّ أبا المهاجر - وهو من العتقاء الذي برز من بين موظَّفي الإدارة في مصر - كان «أوَّل من سكن أفريقيا»، بينما كان كلُّ الذين من قبله يقودون حملات الإغارة فقط، ويعودون بعدئذٍ إلى مصر. وتؤيِّد المصادر الأخرى منافسه عقبة بن نافع الذي

ينكر على أبي المهاجر أخذه مكانه حاكمًا لأفريقيا. وكأحد تابعي التابعين لصحابة رسول الله وحفيدٍ لفاتح مصر عمرو بن العاص، كان عقبة يميل إلى التخلّي بشكلٍ أفضل. لقد صُوِّر على أنّه أكبر من الحياة ومتهور، ونتيجة لذلك حصل على إعجاب الآخرين وأنّه فتح لوحده باسم الإسلام الجزائرَ والمغربَ الحاليّين (لا يزال هناك ضريح له في وسط الجزائر). قال: «إنّه باع نفسه لله القوي العظيم» حينما شرع بالتوجُّه غربًا بصورة خطرة إلى حدٍّ بعيدٍ ليهزمَ جيشًا بعد آخر، حتّى وصل إلى المحيط الأطلسيِّ في نهاية المطاف، حيث اشتكى من التوقُّف الإجباريِّ لحملاته، وأنّه يُشهد الله لو وجد طريقًا لعبور البحر ومواصلة فتوحه فإنّه بالتأكيد سيفعل ذلك.



صورة رقم 4.3
جامع القيروان في تونس الذي أُسِّس في عام 670م، ووُسِّعَ في القرن الثامن الميلاديِّ.

فشل بيزنطة وبلاد فارس في الاسترداد

لم يكن نجاح الفتوحات العربيَّة مدهشً جدًّا بأيَّة حال من الأحوال. فالقبائل الصحراويَّة وفي السهوب بحركاتها وقواها البشريَّة أظهرت مرارًا قدرتها على الهجوم بقوَّة وبسرعةٍ والحصول على مكاسب سريعة. فعلى سبيل المثال، قادت الملكة العربيَّة المدعوَّة ماويا Mawiya قوَّاتها إلى فينيقيا وفلسطين والوصول بعيدًا حتَّى مصر، وأحرزت انتصارات أينما ذهبت حتَّى وجد الرومان في النهاية أنَّ من الضروري إرسال مبعوثٍ لها لطلب السلام. واستولى المغول على مساحات شاسعة من الأراضي أكثر من أيِّ دولةٍ مستقرَّة بسبعة عقود فقط (1206–1279م). ولكن حالما تُحرِّك الإمبراطوريَّة آليَّاتها العسكريَّة في نهاية المطاف، فمن الطبيعيِّ تستطيع أن توقف مسيرة الغزاة نتيجة لقدراتها التنظيميَّة المتفوِّقة، أو لتحييد التهديد بالطرق الدبلوماسيَّة وسلسلة من الحوافز. ولذلك، ما هو الخطأ الذي وقعت فيه الإمبراطوريَّات في القرن السابع الميلادي؟ أو لننظر للمسألة بمنظار آخر: كيف أصبح العرب على صواب؟ كان الانهيار التام للإمبراطوريَّة الفارسيَّة صادمًا، إذا ما أخذنا بالحسبان تمكُّن العائلة الساسانيَّة من إدارتها بنجاح لنحو 430 سنة.

ومن المؤكَّد أنَّ الإمبراطوريَّة الفارسيَّة لم تتخلَّ عن مكانتها دون قتال – المؤرِّخون المسلمون والمسيحيُّون يلمحون إلى الانتفاضات عبر إيران في مدنٍ مختلفةٍ وفي أوقات مختلفة. مثلًا، تخلَّى إقليم الري عن اتفاقيَّته للسلام مع العرب في عدَّة مناسبات، وانتشر التمرُّد في مناطق شمال غرب إيران في الفترة 654–655م، وانتهى بقتل المسؤول العربيِّ عن جباية الضرائب هناك[1]. لقد استفاد متمرِّدو إقليم هذه

1- البلاذري، 319 (الري)؛ سيبيوس،147–148 (تمرد الميديين).

الجبال الجرداء من «الوديان العميقة وذات الغابات الكثيفة، من قمم الجبال ومنحدراتها لقيادة حرب عصابات ضدَّ حكَّامهم المطلقين». لقد جمعوا بقيَّة القوَّات الشعبيَّة وتنظيمهم بشكلٍ كتائب للبدء بحركة المقاومة التي يأملون أن تحرِّرهم «من أسنان التنِّين». كان جزء من شكاواهم بسبب الضرائب المجحفة، والجزء الآخر يطالب بإلغاء قوَّة الخيَّالة ومنصب الأمير التقليديِّ في بلادهم. ومن الواضح أنَّ هذه الطرق أدَّت إلى فوائد جمَّة، لبعض الوقت على الأقل، فقد هلك الكثير من العرب في هذه الأراضي الوعرة، والكثير منهم من جُرح بالسهام المنطلقة من المستنقعات التي لا يمكن اختراقها، التي جعلتهم يهربون من هذه المناطق لبعض الوقت. ومع ذلك، فإنَّ هذه الثورات وغيرها لم تؤدِّ إلى خسارة دائمة للمكاسب العربيَّة. كانت مشكلة بلاد فارس أنَّ سلاسل الجبال الكثيفة والصحارى الشاسعة جعلت من الصعب تنسيق تعاون واسع النطاق، ولذلك بقيت الثورات شأنًا محليًّا أكثر منه واسع الانتشار في عموم البلاد. وتعني أيضًا أنَّ بلاد فارس مقسَّمة على أقاليم متعدِّدة، كلٌّ واحدٍ منها يُحكم من عوائل نبيلة وأسياد محليِّين مختلفين. ويرتبط هؤلاء كلُّهم بتحالفاتٍ وثيقةٍ مع العائلة الساسانيَّة الحاكمة، ولكن الهزيمة المنكرة لخسرو/ كسرى الثاني في عام 628م، وما تبعها من حرب أهليَّة في السنوات اللاحقة أدَّى إلى فقدان ذلك التحالف ثمَّ تفكُّكه بعد وفاة يزدجرد.

كانت بيزنطة في وضع أفضل من الفرس للوقوف بوجه الهجومات العربيَّة، فبينما لا توجد عوائق طبيعيَّة، ومسافة قصيرة جدًّا على وجه التحديد بين شبه الجزيرة العربيَّة وعاصمة بلاد فارس، سلوقيا - طيسفون؛ كانت هناك سلسلة جبال طوروس المعقَّدة ونحو ستمئة ميلٍ تفصل العاصمة البيزنطيَّة عن أقصى شمال الصحراء السوريَّة. ففي كلِّ سنة يرسل العرب حملةً على بلاد الأناضول، ولكن يُجبرون على الانسحاب بمجرَّد حلول فصل الشتاء البارد والطويل، ويخسرون كلَّ المكاسب التي

حقَّقوها في الصيف. والمشكلة نفسها بالنسبة إلى بيزنطة إذا ما أرادت إرسال جيشٍ جنوبًا عبر الأناضول إلى سوريا. كان كلُّ ما يستطيعون عمله البدء بعمليَّات تخريب على طول السواحل الشرقيَّة والجنوبيَّة للبحر الأبيض المتوسِّط. ومن الحملات الناجحة التي قام بها الإمبراطور قسطنطين الرابع في سبعينيَّات وثمانينيَّات القرن السابع الميلاديِّ استجابة للهجمات العربيَّة ضدَّ القسطنطينيَّة إرسال قوَّة شعبيَّة وُصفت «بالعصاة» Mardaites «المردة»، التي أبحرت إلى سواحل صور وصيدا، وبعد نزولها هناك شقَّت طريقها نحو سلسلة جبال لبنان، وحصلوا على قبول الجراجمة لقضيَّتهم، وهم الذين يسكنون منذ زمنٍ طويلٍ إقليم جبل الأمانوس المحيط بأنطاكيا ووصفتهم بعض المصادر القريبة من زمانهم (رجال يحملون السلاح منذ أقدم الأزمان يمارسون قطع الطرق في جبال لبنان». وحاولوا في البداية البقاء بعيدين عن الحروب البيزنطيَّة - العربيَّة، ولكن حينما تعرَّضوا لضغط العرب عليهم وافقوا تدريجيًّا على العمل جواسيسَ وحرس حدود لهم ما داموا لا يدفعون أيَّة ضرائب. كان الجَراجمة يكرهون الحكم العربيَّ، وعلى الرغم من أنَّ العصاة/ المردة شجَّعوهم على الثورة، فإنَّهم وافقوا على ذلك تلقائيًّا. فضلًا عن انضمام العبيد الهاربين والفلَّاحين الآراميِّين إليهم حتَّى إنَّ صفوفهم تضخَّمت بوقت قصير لتبلغ عدَّة آلاف. وحالما حصلوا على أعداد كافية من المقاتلين انتشروا من الجبال المحيطة بأنطاكيا في الشمال إلى مرتفعات الجليل في الجنوب، ومنها بدؤوا بشنِّ الغارات ضدَّ المناطق المأهولة بالسكَّان المحيطة.

كان من الواضح أنَّهم نجحوا جدًّا، وأصبحوا شوكةً حقيقيَّةً في الجانب العربيِّ، وحينما واجه عبد الملك الحرب الأهليَّة الشاملة في الداخل، وطلب تجديد معاهدة السلام التي وقَّعها أسلافه مع الجانب البيزنطيِّ، كان أحد مطالبه الأساسية أنَّه «يجب على الإمبراطور إزالة جماعة العصاة/ المردة من جبال

لبنان لمنع غزواتهم»[1]. ولذلك، كان باستطاعة البيزنطيِّين إنزال الخسائر بالحكم العربيِّ، ولا سيَّما بالمدن الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسِّط، لكنَّهم لا يستطيعون فعل ذلك على نطاق واسع لاستعادة ممتلكاتهم السابقة. كان تسيير جيش على طول الطريق عبر الجبال إلى دمشق أكبر من إمكاناتهم، وحينما نقل العربُ عاصمتهم إلى بغداد البعيدة، أصبحت حظوظ البيزنطيِّين بالعودة ضعيفةً جدًّا.

حكم (خلافة) معاوية

على الرغم من كلِّ ما يتوقع المرء من أحداث، لم تكن بيزنطة ولا بلاد فارس قادرتين على التوجُّه ببساطة لاستعادة أراضيها، إلَّا تشرذم الإمبراطوريَّة العربيَّة على جماعات متحاربة، كما حدث للكثير من الفاتحين في الأطراف، كالأتراك في أواخر القرن السادس الميلاديِّ. لقد أنهكت الحرب الأهليَّة العرب في الكثير من المناسبات، وإن تمكَّنوا بطريقة أو بأخرى من البقاء معًا والمحافظة على قبضتهم على الأراضي المفتوحة حديثًا. ومن أجل فهم هذا الإنجاز، من الضروري أن نضع في أذهاننا أنَّه على الرغم من أنَّ القبائل البدويَّة أسهمت بالقوَّات القتاليَّة الأوَّليَّة والأساسيَّة، فإنَّ قيادة الفتوح لم تأتِ من رجالٍ بعيدين عن الحضارة. كانوا بصورة رئيسة من اليمن التي تملك تاريخًا في تنظيم الدولة يمتدُّ إلى أكثر من ألفٍ وخمسمئة سنة، ومن مدن الواحات الواقعة في وسط شبه الجزيرة العربيَّة وشمالها التي كانت تربطها علاقات

1- المردة: ثيوفيلوس، 169 و 180-182؛ البلاذري،160-162؛ Nikephoros,§38 (using Chronical of 720). اما عن الغارات الساحلية لبيزنطة، أنظر: A.Elad, " The Coastal Cities of Palestine", Jerusalem Cathdra 2(1982)، الذي لاحظ ايضا سياسة العرب للاستيطان في مجمعة المدن الساحلية هذه، وخاصة الفارسية، ستكون غير مؤيدة لبيزنطة.

وثيقة بالعالم البيزنطيِّ والرومانيِّ لعدَّة قرون. وشارك النبيُّ محمَّد نفسه في رحلات تجاريَّة إلى بلاد الشام، وقبيلته قريش كانت لها علاقات متعدِّدة مع القبائل العربيَّة المسيحيَّة في تلك الأراضي. ولذلك، فالفاتحون لم يكونوا غرباء على شؤون الحكومة، حتَّى وإن لم يتوقَّعوا أن يجدوا أنفسهم في كرسي القيادة[1].

كان معاوية مؤسِّس الحكم الأمويّ (661–750م) أوَّل حاكم عربيٍّ يضع اسمه على النقود والنقوش والوثائق وفي كتب التاريخ المعاصرة له أيضًا. فماذا تخبرنا هذه المصادر عن فترة حكمه؟ ففي المقام الأوَّل، وكما ذكر أحد المؤرِّخين: «أنَّه رفض الذهاب إلى حاضرة النبيِّ محمَّد»، أي إلى المدينة، وهي مقرُّ الخلفاء العرب من قبله، ولكنَّه فَضَّلَ أن تكون دمشق عاصمته، حيث يقوم أصلا بإدارة العمليَّات العسكريَّة منذ عشرين عامًا. ومن الواضح، كان يدرك بوضوح أنَّه من غير العمليِّ أن يحكم إمبراطوريَّة واسعة الأطراف من مكانٍ بعيدٍ كالمدينة. ويبدو أنَّ هذه الخطوة تعبِّر عن قرارٍ عمليٍّ متقدِّم، لكنَّه من المحتمل جدًّا أن يكون مثيرًا للنزاع، إذا ما أخذنا بالحسبان مكانة المدينة التي أسَّس فيها النبيُّ محمَّد دولته الأولى. كان من الوعود الأولى لعبد الله بن الزبير – وهو المنافس الرئيس للأمويِّين في تسعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ – أن يجعل مكَّة والمدينة مرَّة أخرى في قلب الإمبراطوريَّة العربيَّة، جذب هذا الوعد الكثير من الناس إلى قضيَّته. وعلى أيَّة حال، ربَّما لم يكن قرار معاوية براغماتيًّا بحدِّ ذاته، غير أنَّه كان يَعدُّ حكمه بدايةً لدولة جديدة، ومن المؤكد كان ابنه يزيد يحمل الرأي نفسه، ولا سيَّما أنَّه اتخذ خطوةً تثير الدهشة في بداية حكمه حينما سكَّ النقد «بالسنة الأولى ليزيد»، ولم يستخدم التاريخ الهجريَّ الذي أصبح تقليدًا ثابتًا في أيَّامه باعتماد السنة التي أسَّس فيها النبيُّ محمَّد دولته في

1- كان رجال القبائل في شرق الجزيرة العربية على علاقات وثيقة مع بلاد فارس، ولكنهم لم يُعطوا في الغالب أية مناصب رفيعة في العصر الأموي، وهذا ما يفسر، ولو جزئيا، لماذا الكثير من المتمردين ضد الأمويين (الخوارج) جاءوا من بين صفوفهم.

المدينة. فهناك الكثير في تراث ملوك الشرق الأوسط القديم يشير إلى أنَّهم لا يرون أنفسهم مجرَّد وكلاء للنبيِّ[1].

وثانيًا: لقد وجَّه معاوية جلَّ اهتمامه لمسألة فرض السيطرة المركزيَّة على الأراضي الشاسعة الواقعة إلى الشرق من بلاد الشام، التي ستكون لوقتٍ طويلٍ في المستقبل تمثِّل الشوكة في الجانب الأمويِّ، ثمَّ إسقاطهم في النهاية. وكان حلُّه أن يعهد بتلك الأراضي إلى اثنين من الرجال المقرَّبين جدًّا إليه، وهما: عبد الله بن عامر وهو من قبيلته، وزوج ابنته، ثمَّ زياد ابن أبيه، الذي ألحقه معاوية به كأخٍ له. لقد ظهرت أسماء هؤلاء الولاة على نقود الشرق في السنوات 661–674م / 41–54 للهجرة. لكنَّ ذكر اسم زياد استمرَّ طويلًا كما يبدو، حيث ورد اسمه على نقوده التي سكَّها في الفترة 670–674م في أكثر من أربعة وعشرين دارًا للسكِّ المنتشرة عبر الأراضي الفارسيَّة، ولتؤكِّد ما ذكره المؤرِّخون المسلمون أنَّه كان يحكم بوصفه نائبًا لمعاوية في جميع الأراضي الشرقيَّة. وهو أيضًا أوَّل حاكم أضاف الشعارات الدينيَّة بالعربيَّة على النقد، ونقش عبارة «بسم الله ربِّي». واتَّبع أولاده أثره، حيث حكمت عائلته جزءًا واسعًا من المشرق الإسلاميِّ نيابةً عن معاوية وابنه يزيد ولمدَّة أكثر من عشرين عامًا[2].

وثالثًا: اتَّبع معاوية سياسة عدم التدخُّل في شؤون الشعوب المفتوحة – «تركُ كلِّ شخص يعيش كما يرغب»، كما ذكر أحد المعاصرين – وأخذ يؤكد لهم أنَّه ليس معاديًا لدياناتهم. فعلى سبيل المثال واعترافًا بحقيقة أنَّ غالبيَّة رعاياه الجُدد كانوا من المسيحيِّين، اتخذ قراره المدروس أن يُقسِمَ عددٌ من الزعماء العرب قسَم الولاء بوصفه قائدًا لهم في القدس، وبينما كان هناك «ذهب وجلس في جولكوثا Golgotha

---

1- Maronite Chronical, 32 (التحرك نحو دمشق)، 31 (الحركات في القدس)؛
M.Mochiri, " A Sasanian - Style Coine of Yazid b. Mu'awiya" , Journal of the Royal Asiatic Society (1982).

2- H. Gaub, Arabosasanidisch Numismatik (Braunschweig, 1973), 22-25.

وصلّى هناك، وذهب كذلك إلى الحديقة التي اعتُقل فيها السيِّد المسيح Gethsemane، ثمَّ توجَّه إلى ضريح السيِّدة العذراء وصلّى فيه. فضلًا عن أنَّه بذل جهودًا لكسب ودّ النخب المسيحيَّة العربيَّة في بلاد الشام (مثل شارهل بن زالم الذي ذكرناه في الفصل الأوَّل)، الذين لديهم خبرة مهمَّة في إدارة الحكومة. والكثير منهم من عمل مستشارين وإداريِّين مقرَّبين منه، مثل عائلة منصور الدمشقي، وكان الشعراء المسيحيُّون يتردَّدون على زيارة بلاطه مرارًا، وهناك عددٌ من مناصري قبيلته من المسيحيِّين. وهو نفسه تزوَّج ميسون ابنة زعيم قبيلة كلب المسيحيَّة القوي، التي وَلدت له ابنه يزيدَ خليفة المستقبل، الذي تزوَّج من امرأتين نبيلتين من الغساسنة، يقال: إنَّ إحداهما كانت ابنة آخر ملك غسَّانيٍّ مسيحيٍّ[1]. لقد سعى معاوية لإنجاز بعض الخطوات المؤيِّدة للمسلمين، مثل إزالة الصليب المقدَّس من النقد، وضم كنيسة القدِّيس جون المعمدان في دمشق إلى الجامع الأمويِّ، ويبدو حينما احتجَّ المسيحيُّون على تلك الخطوة تراجع عنها[2].

وأخيرًا، أسهم معاوية في تقديم بعض الأفكار الاقتصاديَّة. أعطى الفاتحون العرب تسهيلات للحصول على مبالغ نقديَّة كبيرة من الضرائب والجزية والغنائم، لكن كان الجزء الأعظم منها يُعاد استثماره مباشرةً وبسهولة في الجيش على شكل رواتب، التي لم تُدفع إلى الجند فقط، بل إلى عوائلهم وأقربائهم. ففي حسابات

1- H. Lammens, Etudes sur le rigne du calife omaiyyade Mo'awia I (Paris, 1908), esp. 3-13; (Abdarrahman ibn Khalid et les chretiens de Homs), 419-441 (Yazid et la societe des Chretiens).

وعن وصلتنا بعض الإشارات والمعلومات عن المسيحيِّين العرب من المصطلحات الإداريَّة، مثلا: شوريون/ كورة (Chorion/ كورة) مصطلح عن "منطقة" استخدمت في أوراق البردي الإسلاميَّة في مصر، في حين كانت تعني سابقا "مزرعة كروم" فقط، ولكنها تشير إلى "منطقة" أيضا في ولاية بيزنطة العربية قبل الإسلام (R.Hoyland , " Late Roman Provencia Arabia, Monophusite Monks and Arab Tribes", Semattica et Classica 2(2009), 130 : kura).

2- Maronite Chronical , 32(coinage)؛ البلاذري؛ 125 (كنيسة)؛ خليفة، 218 (51 هجرية) يوضح دون أيِّ شرحٍ "كان معاوية ملك الأراضي المقدسة وكان معاوية ملك الأراضي المقدسة وابنه كذلك".

الإيرادات والنفقات السنويَّة لجنوب العراق في عام 670م، بلغ ما جُمعَ من الضرائب ستين مليون درهم، ذهب منها اثنان وخمسون مليونًا رواتبَ وتجهيزاتٍ للجند وعوائلهم. وهذا يبلغ 87٪ من النفقات، التي تبدو عاليةً جدًّا، (تتفاوت التخمينات الحديثة للجيش الرومانيِّ في الفترة المتأخِّرة من ثلث إلى نصف واردات الدولة)، ولكن لا تشير إحدى البرديَّات من مصر الأمويَّة إلى الأموال التي تُرسل إلى بيت المال المركزيِّ. كيف كان معاوية يغطِّي نفقات بيته، وكيف كان يدفع لتمشية شؤون الدولة: إصلاح الطرق والجسور والقنوات وصيانتها؛ وبناء السفن وآليَّات الحصار وتجهيزها بالرجال؛ وتصنيع الأدوات والسلع ونقلها؟ ربَّما كانت لديه إمكانيَّة استخدام الأسرى والعبيد والعمل الإجباري، ولكن إحدى البرديات تذكر أنَّ متطلَّبات العمل لمشاريع البناء والحملات العسكريَّة توضِّح أنَّ الأجور تدفع بشكل عامٍّ بالنقد، وكذلك شراء المواد الخام بالنقد أيضًا. ولكن يبقى السؤال: كيف كان معاوية يجمع المال؟ يذكر أحد المصادر لنا أنَّه طرح هذا السؤال بالضبط على جابي الجباة في العراق، الذي بعد استشارة النبلاء المحلِّيِّين، نصحه باستغلال الأملاك الزراعيَّة للعائلة المالكة الفارسيَّة السابقة، التي لم تخضع لضريبة الأراضي (الخراج) المعروفة؛ وإنَّ الذين يديرونها يدفعون نسبةً مِمَّا يجمعونه مباشرةً إلى العائلة الساسانيَّة. لذلك، قرَّر معاوية العمل بهذه الممارسة التي أمدَّته بموارد ماليَّة كبيرة بعد إصلاح نظام السقي فيها[1].

1- **P.Sijpesteijn , " Army Economics " in R.E. Margariti et al., ed., Histories of Middle East: Studies ... in Honor of A.L. Udovitch (Leiden , 2011),**

وعن المعاشات التي تُدفع الى المستقلين ؛

H.Kennedy, "Military Pay and the Economy of the Early Islamic State", Historical Research 75 (2002), 159-160 ,

(يذكر حسابا آخر من عام 892م ويعطينا رقما يساوي 89٪ من النفقات العسكرية). اليعقوبي، 258 (أراضي التاج)؛ ورواية مشابهة نُسبت إلى عثمان حول أراضي التاج، وبذلك فإنَّ معاوية ربَّما لم يبتكر الحل، إلا أنَّه بالتأكيد استخدمه بصورة أكثر نظامية من أيِّ شخصٍ آخر.

وقام بالممارسة نفسها في كلِّ الأراضي التي تركها ملاكوها السابقون، الذين في أغلب الحالات إمَّا هربوا أو قُتلوا أو أُخذوا أسرى خلال عمليَّات الفتوحات. فقد خصَّصها إمَّا لأفراد عائلته، أو سلَّمها مكافآتٍ لأقربائه وحلفائه على أساس أن يطوِّروها. يذكر بعض المؤرِّخين المسيحيِّين المعاصرين مثل بعض هذه المشاريع، إحداها في كليسما Clysma في شرق مصر، حيث كان يعمل الأسرى المسيحيُّون بإشراف رئيس عمَّالٍ يهوديٍّ، ومشروع آخر بالقرب من البحر الميِّت في مناطق Zoara وTetraphrygia، حيث كانت الأملاك العامَّة تُدار من الأسرى القبارصة، ومن المحتمل جدًّا كان أولئك الذين أُسِروا في الغارات التي شُنَّت على الجزيرة في الفترة 649-650م. ولكن لم يكن الأمويُّون ومناصروهم وحدهم من أصابهم الثراء من عمليَّات الفتوحات، ففي بعض نبوءات القرن السابع الميلاديِّ تذكرُ أنَّ النبيَّ محمَّدًا تنبَّأ وقال: «إنَّ الثروة ستكثر بينكم إلى الحدِّ الذي يُعطى الرجل منكم مئة نقدٍ ذهبيٍّ ولم يكن راضيًا لأنَّه يعدُّها قليلة». إنَّ جزءًا كبيرًا من هذه الثروات ذهب إلى الاستهلاك العامِّ الذي يحفِّز الدورة الاقتصاديَّة، وهذا ما ذكره المؤرِّخون المسيحيُّون المعاصرون، مِمَّا ضاعف من حجم التداول التجاريِّ، ونمو الازدهار والسلام، وإعمار المباني العامَّة وحتَّى الكنائس منها[1].

وعلى أيَّة حال، كانت الاتصالات اليوميَّة مع الفاتحين في الكثير من الأقاليم محدودة، لأنَّهم وخلال العقود الأولى من الحكم العربيِّ كانوا منشغلين بالحملات أو

1- البلاذري، 356-372 يورد قائمة بالكثير من سندات الأرض في جنوب العراق معتمدًا كما يبدو على أدلَّة معاصرة؛ Hoyland, Seeing Islam, 98-100 (Clysma and Dead Sea), 331، (تنبؤ)؛ Mingana, Sources syriaques, 153 and 181 (ازدهار)؛ John of Nikiu, 120.31 يخبرنا كيف أنَّ المصريين قد أُجبروا على رفع الوحل من قناة تراجان الجارية بين بابليون والبحر الأحمر. ويلاحظ أنَّ معاوية كان يملك ضياعا أيضًا في غرب الجزيرة العربية استنادًا إلى النصوص الأدبيَّة M.Kister, " The Battle of Harra" Studies in Memory of Gaston Wiet, Jerusalem ,1977, 38-40، وتدعمها الأدلَّة المنقوشة، انظر: D.al-Rashid، "دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة"، الرياض، 2000، 46-60.

انكفؤوا في مدنهم العسكريَّة؛ وفي داخل بلاد الشام فقط حيث توجد أغلبيَّة كبيرة من السكَّان تتحدَّث اللغة العربيَّة، وفي خراسان حيث استقرَّ القادمون الجُدد بين السكَّان الأصليِّين. فعلى سبيل المثال، تذكر البرديَّة المصرية المعاصرة أنَّ خلال حكم معاوية كان كلُّ وجهاء القرية والإداريِّين في المناطق (Pagarchs) وحتَّى الأدواق في الولايات من المسيحيِّين، ومن المحتمل كلهم من المصريِّين الأصلاء. وكان الوالي فقط والموظَّفون الإداريُّون الكبار، والعسكريُّون اختيروا من بين الفاتحين. ففي أرشيف باباس Papas - وهو أرستقراطيٌّ وملاك للأراضي وإداريٌّ لمنطقة أعالي مصر في عقد الثمانينيَّات من القرن السابع الميلاديِّ - لا توجد إشارات واضحة عن وجود حكَّامٍ عرب. وكانت مراسلاته تُكتب باللغة اليونانيَّة لأناس من الطبقة نفسها وناشئة مثله. كانوا يتشاركون في لغةٍ أدبيَّة منتقاة: «أخي الرائع بكلِّ السبل»، «ربنا الحافظ لسيِّدي وأخي»، «صداقتكم الرائعة والمشرِّفة». وكعضو في السلطة الحاكمة في الكنيسة التي تشغل تقليديًّا مجالس المدن، كان باباس في أغلب الأحيان يتدخَّل لحلِّ النزاعات المحليَّة، ويعالج القضايا القانونيَّة الأساسيَّة على وفق ثقافته الشخصيَّة مثل الإيجارات والرهونات والقروض بالضمانات. ولكن خلف هذا المظهر الخادع من السوية والاستمراريَّة مع العهد القديم، بقي دائمًا في الذهن العهد الجديد الذي يتوضَّح في بعض عبارات الرسائل إلى باباس، مثل: «أنا لا أستطيع معصية أوامر ساداتنا»، و«القيادة الصارمة لسيِّدنا الأمير». ولذلك برزت ثلاث شكاوى على نحو غير متوقَّع ضدَّ الحكَّام الجُدد المرَّة تلو الأخرى، الأولى: تتعلَّق بالضرائب والتجهيزات اللازمة لإدامة الجيوش العربيَّة التي يبدو أنها فرضت بعناية من السلطات العليا. والثانية: تتعلَّق بتجهيز الرجال للعمل في الأسطول العربيِّ كالنجَّارين، والمجدافيِّين، والجلفاطيِّين الذين يملؤون شقوق السفن بالقطن والزيت وغيرهم. ويُدفع لهذه الأعمال نقدًا، لكنَّ السفر بحرًا كان محفوفًا بالمخاطر، والأكثر خطورة من ذلك

الاشتباك في معركة بحريَّة، ولذلك هناك القلَّة من يميل إلى المخاطرة بحياتهم في مثل هذه المغامرة، وبشكلٍ خاصٍّ إذا كانت ضدَّ إخوانهم مسيحيِّي بيزنطة. والثالثة: تتعلَّق بظاهرة الاستعباد. كانت سلطات الكنيسة تتسلَّم استفهامات متعدِّدة من أتباعها القلقين، مثل: «كيف يستطيع المرء التخلُّص من خطاياه إذا أُنزل إلى مرتبة العبودية أو ألقي القبض عليه في الحرب، ولم يعد بإمكانه الحضور إلى الكنيسة وممارسة الصيام وعشيَّة العيد بحرِّيَّة وبإرادته؟ وماذا يقول المرء فيما يتعلَّق بالنساء المسيحيَّات اللواتي يصبحن عبيدًا وأسيرات، ويُسلِّمنَ أنفسهن للبغاء؟»[1]. إنَّها تجرِبة مريرة حينما يُؤخذ المرء بقوَّة من موطنه، ويُجبر على خدمة الأسياد الأجانب في الأراضي البعيدة، وقد لا نستغرب تلك القصص المتعلِّقة بإزعاجاتها ومعاناتها التي تزخر بها مصادرنا.

معاوية: دينه والانطباع العامُ عنه

ففضلًا عن خدمته العامَّة لمدَّة أربعينَ عامًا قائدًا للجيش في بلاد الشام، وخليفةً للإمبراطوريَّة العربيَّة، كان معاوية أخًا لزوجة النبيِّ محمَّد، ويُزعَم أنَّه كاتب وحيه، ومع ذلك تُبرز المصادر الإسلاميَّة من القرن التاسع الميلاديِّ الكثير من الانطباعات السلبيَّة عنه. فمعارضته لعليٍّ في الحرب الأهليَّة العربيَّة الأولى التي قُتل فيها الكثير من الشخصيَّات الإسلاميَّة البارزة، وتسمية ابنه يزيد خليفةً له؛ فُهِمت من الأجيال المتأخِّرة أنَّها أعمالٌ لا تُغتفر، بل حتَّى نجاح معاوية وجهوده في وضع الإطار العامِّ لحكم الأراضي التي حصل عليها العرب بالفتح تعرَّضَ للنقد. يُجمع الباحثون المحدثون أنَّه بينما كان الخلفاء بالمدينة (أبو بكر، عمر، عثمان، وعلي) يعاملون رعاياهم بالعدل والإحسان، غيَّرَ معاوية ذلك إلى حكمٍ عائليٍّ أوتوقراطيٍّ كما هو الحال عند الأباطرة

1- Foss, “ Egypt under Mu’awiya”(Papas); Hoyland , Seeing Islam, 98(enslavement) .

الفرس والبيزنطيِّين. «كان أوَّل حاكم له حرسٌ يحميه، وقوَّة من الشرطة وحُجاب ... وبعض الأشخاص يمشون أمامه يحملون الرماح، ويأخذ الصدقات من المعاشات، ويجلس على كرسي العرش والناس تجلس تحته ... واستخدم العملَ الإجباريَّ في مشاريع البناء ... وصادر ممتلكات الناس لحسابه الخاصّ ... وهو الأوَّل من جعل الخلافة في عائلته»[1].

إنَّ المعاناة وإراقة الدماء التي رافقت الحرب الأهليَّة الأولى وتزايد تركيز السلطة بأيدي نخبةٍ صغيرةٍ أفقدَ بالتأكيد وهجَ وبريق الانطباع العامِّ عن معاوية. فإذا كان عثمان أوَّل من افتتح نموذج حكومة الأقارب، وعليٌّ قد شارك في الحرب الأهليَّة الأولى؛ فلماذا يُوصف هؤلاء الاثنان فضلًا عن أبي بكر وعمر بأنَّهم مُسدَّدونَ إلهيًّا، بينما معاوية وخلفاؤه صُوِّرُوا بأنَّهم طغاة؟ الجواب: كان نتيجةً للتسوية الأخيرة التي توصَّل إليها علماء الدين الذين كافحوا في القرنين الثامن والتاسع الميلاديِّين للتوضيح أنَّهم الورثة الحقيقيُّون للنبيِّ محمَّد وليس الخلفاء، ولهم الحقُّ وحدهم للعمل أمناءَ على تعاليم النبيِّ محمَّد وتشريع القوانين الجديدة. كان أبو بكر وعمر قريبينِ جدًّا من النبيِّ ونقلوا الكثير من أحكامه، لكنَّ العلماء لم يرغبوا أن يُنفِروا المعتدلين من المؤيِّدين للأمويِّين والعلويِّين بإدانة عثمان وعليٍّ. وهكذا، أُدخلَ موقفٌ وسطيٌّ يقف في منتصف الطريق في التاريخ الإسلامي: يُعدُّ الخلفاء الأربعة قبل معاوية مسدَّدين إلهيًّا، وعُدَّت فترات حكمهم العصر الذهبي للإسلام، حيث طُبِّق بالشكل الصحيح، بينما معاوية ومن خلفه في الحكم ظلمة أضعفوا أحكام الإسلام.

إنَّ فكرة العصر الذهبيِّ لحكمٍ عادلٍ جاء بعده ظلم حصل على قبول بطيء جدًّا في نهاية الأمر، لكنَّه أصبح منتشرًا ودخل في الاتجاه السائد في منتصف القرن التاسع

1- اليعقوبي، 276، وعن معاوية بشكل عام، انظر:
R.S.Humphreys, Mu'awiya ibn Abi Sufyan, (Oxford, 2996).

الميلاديِّ حينما انضمَّ إليه الفقيه البغداديُّ الجدير بالاحترام أحمد بن حنبل (ت: 855م)[1]، فأولئك الذين قبلوا هذه الرؤيا التاريخيَّة أطلقوا على أنفسهم السُّنَّة، (أولئك الذين التزموا سنَّة النبيِّ/ السبيل القويم)، وأولئك الذين رفضوها شكَّلوا طوائف واضحة خارج هذا الاتجاه «القويم». لقد ربح المعتدلون من المؤيِّدين لعليٍّ من هذه التسوية (أي قبلوا بشرعيَّة الخلفاء الراشدين الثلاثة فضلًا عن عليٍّ)، ولكن يوجد كثيرون قد تشدَّدوا واستمرُّوا بإصرارهم بأنَّ عليًّا وأبناءه هم المؤهلون وحدهم لحكم العالم الإسلاميِّ. إنَّ المناصرين لهذه الرؤية انشقُّوا الآن ومن غير رجعة عن الاتجاه السُّنِّيِّ السائد، وشكَّلوا جماعةً مستقلَّةً، سُمِّيت «حزب عليٍّ» (شيعة عليٍّ) أو الشيعة، ومنذ هذا الوقت (منتصف القرن التاسع الميلادي) بدأ التنافس التقليديُّ بين الشيعة والسنة. وعلى أيَّة حال، لم تكن في أيَّام معاوية طوائف متميِّزة ومعروفة بعقائد واضحة المعالم (مقابل تحالفات فضفاضة تعكس شكاوى محدَّدة) وعَدَّه الكثير من معاصريه أنَّه حاكم مُنصَّب إلهيًّا، وأنَّ حكمه شرعيٌّ وعلى قدم المساواة مع من سبقه من الخلفاء[2].

وأبدى المؤرِّخون المحدثون ارتيابهم في التزام معاوية بالإسلام، وإن كان في سياق مختلف. فعلى النقود والوثائق الرسميَّة استخدم معاوية دائما ألقاب «خادم الله» و«قائد المؤمنين»، وأشار إلى حكمه «بقضاء المؤمنين»[3]. ومصطلح «المؤمنين»

1- لقد استثنى علي كخليفة شرعي منذ وقت طويل؛ قارن: ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة (القاهرة، 1952)، 1.243، 1.393 (وحينما سُئل من زملائه حول تغيير موقفه، فأجاب بما أنَّ الخليفة عمر الأوَّل "كان مطمئنًا بفكرة أنَّ عليًّا خليفة للمسلمين ... وبما أنَّ عليًّا أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين، فهل يمكنني القول إنَّه ليس كذلك؟).

2- Maronite Chronical , 32;

تقول إنَّ "معاوية لم يلبس التاج كالآخرين من الملوك في العالم، ويلمح إلى أنَّه ليس أوتوقراطيًّا كما حاولت المصادر الإسلاميَّة المتأخِّرة تصويره. كما تذكر الحوليَّة رقم 741، القسم 27 أنَّ يزيد الأوَّل لم يبحث عن المجد لنفسه قطُّ، كما يريدون رجاله؛ لأنَّه من الصفوف الملكيَّة، لكنَّه كان يعيش كمواطن بين كلِّ العامَّة من الناس"، وهذا ربَّما يعكس وجهة نظر مؤيِّدة للأمويِّين.

3- Ragib, " Un ere inconnue d'Egypt musulmane," Annales islamologiques 41(2007);

ورقتان من البردي رقم 662 و 676 مؤرَّختان بالاستناد إلى قضاء المؤمنين.

سبق أن استخدمه النبيُّ محمَّد في معاهدة تأسيس دولته حينما ذكر أولئك الذين يدينون بالولاء إلى الدولة الجديدة بأهدافها وقائدها ومهما كانت عقائدهم الواحديَّة، ومن المفترض أنَّ معاوية استمرَّ بهذه الممارسة لا غير. ومع ذلك، فإنَّ غياب الإشارة إلى الإسلام وإلى النبيِّ محمَّد في بلاغاته العامَّة أثار بعضَهم ليُجادل بأنَّه كان إمَّا مسيحيًّا أو أنَّه متمسِّكٌ بشكل من التوحيد «غير الطائفي» أو بشكل «غير محدد» ومسكونيٌّ في نظرته[1]. وربَّما هناك شيء من الحقيقة في هذه الفكرة، فالمسلمون بداية لا يرون أنَّ دينهم يختلف تمامًا عن الديانات الواحديَّة الأخرى. لقد ذكر القرآن فكرة أنَّه لم يكن هناك سوى دين واحد منذ فجر التاريخ، يُسمَّى الإسلام، يعني الخضوع لإله واحد، وأنَّ أولئك الذين يقدِّسون السيد المسيح (أي المسيحيُّون) وعزرا (أي اليهود) منحرفون عن هذه الوحدانية الصافية. ومن هذه الزاوية لا توجد أديان واحدية منفصلة عن بعضها، إنَّما ديانة واحدة حقيقيَّة والأخريات نسخ معدَّلة منها. ومع ذلك، فالقرآن لم يتَّخذ موقفًا طائفيًّا أو مسكونيًّا، لكنَّه خصَّص جهدًا كبيرًا للمجادلة ضدَّ المسيحيِّين واليهود، لكنَّهم بإمكانهم أن يتركوا عقديتهم الزائفة والعودة إلى الوحدانيَّة الحقيقيَّة، وبخلاف ذلك يبقون في موقع تابع وخاطئ. كان معاوية يحمل هذه الرؤيا المتصلِّبة بوضوح أيضًا، ونرى من تحدِّيه للإمبراطور كونستانس: «أترك تقديس السيد المسيح وعُد إلى الله العظيم الذي أعبده، إله أبينا إبراهيم»[2].

1- K-H. Ohlig and G.R.Puin , eds., The Hidden Origins of Islam (New York, 2010), esp. 40-41, 52 , 144-145, (مسيحي); F.Donner, " From Believeres to Muslims," al-Abhath 50-51(2002-2003), 26 (غير المعترفين) ; Y. Nevo, " Toward a Prehistory of Islam", Jerusalem Studies in Arabic and Islam 17(1994), 110 (غير محدد); Donner, Muhammad and Believers, 47 and passim (عالمي).

الجميع يضع فترة المدينة الجانب عهد معاوية، ولكن لا نملك بيانًا عامًّا من خلفاء المدينة.

2- سيبيوس 144 (من المحتمل ترجع إلى عثمان). إنَّ أهميَّة إبراهيم عند المسلمين يمكن ملاحظتها منذ منتصف القرن السابع الميلاديِّ، Chronical of Khuzistan, 38 وأُكِّدت في القرآن. وقد اعتقد المسيحيُّون القدماء المتأخِّرون أنَّ عقيدتهم "أخذت بداياتها من إبراهيم أبي الآباء الأوَّلين". =

وربَّما نفهم موقف معاوية بشكلٍ أفضل حينما ننظر إلى الإمبراطور الفارسيّ خسرو الثاني، الذي يشكُّ أنَّه تحوَّل إلى المسيحيَّة فعلًا. وهذا محتمل جدًّا؛ لأنَّه أصدر مرسومًا يُحرِّم على أتباعه ترك ديانة آبائهم. وعكس ذلك، حاول أن يبيِّن ولا سيَّما بعد أن أصبح سيدًا لأعداد كبيرة من مسيحيِّي بلاد الشام وفلسطين ومصر في ثلاثينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، إنَّه - وليس الإمبراطور البيزنطي - المتلقِّي الرئيس الآن لبركة الله، وكما يتوضَّح بصورة جليَّة من نجاحه في المعركة. واستنادًا إلى ذلك، طلب البركة في حربه ضدَّ البيزنطيِّين من رئيس المسيحيِّين الشرقيِّين، وصلَّى في ضريح القدِّيس سرجيوس في شمال بلاد الشام، وكان لديه مستودع ملحق ببيت يضمُّ أجزاء من صليب السيِّد المسيح استولى عليها جيشه وجلبها من القدس[1]. بهذه الروحيَّة يجب أن ننظر إلى جولة معاوية للأماكن المسيحيَّة في القدس - وليس بدافع مسكوني، ولكن بحقيقة أنَّه هو ممثِّل الله على الأرض الآن وليس الإمبراطور البيزنطي.

وهناك نقشٌ من غرب الجزيرة العربيَّة يحتفل بذكرى تأسيس أحد السدود، ربَّما يضيف وزنًا لهذه الخلاصة، يتضمَّن طلبًا من معاوية العفو من الله، والقوَّة والمساندة، والتوسُّل ليترك «المؤمنين يستفيدون منه» (صورة رقم 4.4). وهذا يتضمَّن أنَّ معاوية وقف بين الله والمؤمنين الذين يحتاجونه في خيرهم وسعادتهم. ومن الواضح، أنَّه لا يرى ضرورة الإشارة إلى النبيِّ محمَّد لدعم شرعيَّته. فهناك وثائق أمويَّة محدَّدة

= A.H.Becker, Sources for the History of the School of Nisibis, Liverpool 2008, 25, (يذكر الأسقف سيمون أوف Bet Arsham "بيت أرشم" في القرن السادس الميلادي). وكذلك هم يتمسَّكون بفكرة أنَّ هناك ديانة حقيقية واحدة لا غير، والبقيَّة كلهم هراطقة ومخطؤون، ولذلك مسألة الباحثين المشكِّكين في أنَّ مؤلِّفي القرن السابع الميلاديِّ المسيحيِّين لماذا لم يذكروا وجود ديانة جديدة لدى العرب؛ هي تعكس رؤية عالميَّة حديثة جدًّا.

1- سيبيوس 29-30 (مرسوم)؛ Chronical of Siirt, 500 (رئيس المسيحيين)؛ ثيوفلات، 5.1.7، 5.13.5، 5.14. (سيرجيوس)؛ Chronical of Khuzistan، (صليب). وكذلك، كلاهما لديهم زوجات مسيحيات، والكثير من المسيحيين في البلاط ويعملون وسطاء في النزاعات الداخلية للمسيحيين. (Chronical of Khuzistan, 23, and Hoyland , Seeing Islam , 223).

تتعلّق بتعيين وريثٍ ملكيٍّ ذكرت النقطة نفسها: بعد أن « أخذ الله نبيَّه وختم الوحي به»، أودع الخلفاء إنجاز أحكامه وسن تعاليمه. تقوم الأيديولوجيَّة الأمويَّة بوضوح على فكرة أنَّ عصر الأنبياء كان في نهايته، وأنَّ الخلفاء يعملون الآن وكلاء لله في الأرض. وبالطبع، كانت سنَّة النبيِّ وتشريعاته مهمَّة لدولته: فالعرب «حافظوا على سنَّة النبيِّ، معلمهم، إلى الحدِّ الذي أنزلوا عقوبة الموت على أيِّ شخصٍ يتظاهر بالعمل بوقاحة ضدَّ تعاليمه»، كما يذكر الراهب جون فينيك من القرن السابع الميلاديِّ[1].



(صورة رقم 4.4)
نقشٌ عربيٌّ لمعاوية من الطائف في غرب العربيَّة السعوديَّة

1- (رسائل الخلافة) P. Crone and M.Hinds, God's Caliph (Cambridge , 1986), 120 وتمدُّنا بنقاشات جيدة عن طبيعة الخلفاء الأوائل؛ Mingana, Soueces syriaques, 146-147 and 175 (عقوبة الموت).A. Marsham, " Public Execution in the Umayyad Period," Journal of Arabic. and Islamic Studies, II (2011), 113. اختار كلمة "brazenly" (بوقاحة) ويقترح أنَّ جون كان يتحدَّث عن العنف العام الذي يُوجبُ عقوبة الموت في القانون الروماني. ومن الممكن أيضًا انَّ جون يشير إلى الخوارج الذين كانوا يتواجدون في شمال بلاد ما بين النهرين بكثرة، والذين تبنوا نهجًا مشدَّدًا في خرق شريعة الله.

ولكنَّ الأمويِّين يرون أنَّ القوانين الجديدة هي من أعمال الخلفاء، لكنَّ الفقهاء سرعان ما بدؤوا يتحدّون هذه الرؤية، كما ذكرنا، وبعضهم أكد ذلك وادَّعى أنَّ أفعال النبي محمد وأقواله قد نُقلت بدقَّة إلى الخلفاء. فمن النادر من يقول ذلك خلال الجيلين الأوَّلين بعد وفاة النبيِّ محمَّد، كما ذكر أحد العلماء «إنِّي قضيت سنة أجلس مع عبد الله بن عمر (ت:693م)، ولم أسمعه يقول بنقل أيِّ شيء من النبيِّ محمَّد». ومع ذلك، ليس بعيدا بكثير، اكتسبت هذه الفكرة مساندة أساسية، كما نعلم من عالم آخر كتب (نحو عام 740م)، ويذكر: «لم أسمع من جابر بن زيد (ت: نحو 720م) يقول: «قال النبيُّ ... والشباب من الرجال يردِّدون قوله حتَّى الآن عشرين مرَّة في الساعة»[1]. بعد ذلك بقليل، وُضعت أقوال النبيِّ محمَّد - مرَّة أخرى - بمساواة القرآن بوصفها مصدرًا لتشريع القوانين الإسلاميَّة. ولكن ذلك لا يزال بعيدًا في أيَّام معاوية ومن يليه من الخلفاء الذين شرَّعوا القوانين في وقتهم، وليس الفقهاء.

1- ابن سعد، (ت:845م)، طبقات، نشر E.Sachau (لايدن، 1904-1940) 4.1.106 يذكر الشعبي (عبد الله)؛ فسوي (ت: 890م)، كتاب المعرفة والتاريخ، نشر: A.D.al-Umari (بيروت، 1981)، 215 (جابر بن زيد). ومنذ ذلك الوقت تقريبًا نلاحظ لمحات لتلك المشادَّة بين الباحثين والحكومة؛ مثلا، نرى مؤلفًا من منتصف القرن الثامن الميلادي وهو موسى بن عيسى الكسروي كتب بحثًا عن "تناقض أولئك الذين يؤكدون أنَّه لا يجب على القضاة اتباع ما يُملي عليهم الخلفاء في تأدية واجباتهم الرسمية"، ابن النديم، الفهرست، نشر G.Flugel (لايزك، 1872)، 128.

الفصل الخامس

الطفرة الكبرى للأمام (685 ـ 715م)

تُوفِّي يزيد بن معاوية في شتاء عام 683م بعد قضائه ثلاث سنوات في الحكم، ولم يعش ابنه من بعده سوى أربعة أشهر، وهذا يعني نهاية لاستمراريَّة هذه العائلة، وأصبح الطريق مفتوحًا لمرشَّحين آخرين. كان هناك اثنان من المتنافسين الرئيسين: مروان بن الحكم الذي ينحدر من بني أميَّة - كما هو معاوية - وعبد الله بن الزبير الذي كان والده من صحابة النبيِّ محمَّد، وأمه أخت زوجته. وفضلًا عن تأكيد القرابة من النبيِّ محمَّد، ليكن معلومًا أنَّ عبد الله «نشأ خارج الحماسة لبيت الله»، متَّخذًا من مكَّة سكنًا له، وسك بعض نقوده وعليها شعار «محمَّد رسول الله». لاقت دعوته مساندةً واسعةً وواضحةً على الرغم من أنَّ الكتابات المتأخِّرة لم تعطِه مكانةً رسميَّةً. يذكر أحد المؤرِّخين من مطلع القرن الثامن الميلاديِّ «أنَّه حاكم منتخب برضا الجميع»، وسُمِّي «بأمير المؤمنين» منذ سنة 64هجرية/ 684م حينما كتب على النقد في الولايات الشرقيَّة الرئيسة في بلاد فارس وكرمان. ومع ذلك، على الرغم من أنَّ عبد الله قد عزَّز شرعيَّته من استقراره بمكَّة مسقط رأس النبيِّ محمَّد، فإنَّ قدرته على السيطرة على

الأحداث لم تكن كافيةً. وعلى النقيض منه كان مروان بن الحكم الذي على الرغم من أنَّه أضعف من عبد الله بن الزبير من الناحية المعنويَّة، كان يقيم في دمشق ويستند إلى القاعدة القويَّة والضخمة التي بناها معاوية في بلاد الشام خلال العقود الماضية. وكما يذكر المؤرِّخ الذي سبق ذكره: «وبرضا العدد الكثير من الجيش، تولَّى مروان السلطةَ بغضِّ الطرف عن الله»[1].

أسرع مروان للتوصُّل لاتفاق سلام مع الإمبراطور قسطنطين الرابع؛ من أجل تعزيز مكانته وتجنُّب الهجمات من الشمال والحصول على الولاء لابنه الأكبر عبد الملك وضمان مسألة حريَّة وراثته في حالة وفاته. أثبتت هذه الخطوة صحَّتها، حيث تُوفِّي مروان بعد تسعة أشهرٍ من تولِّيه الحكم، ولكن على الرغم من تولِّي عبد الملك السلطة بهدوء في بلاد الشام، فإنَّه واجه تخبُّطًا في قبوله في كلِّ مكان. فبعضهم قاتلَ من أجل أن يضعَ ابنَ عليٍّ (الحسن) في السلطة، معتقدًا أنَّ زواجه من ابنته فاطمة جعله وأبناءه ورثةً لشخصيَّة الرسول الجذَّابة. وآخرون - الذين وُصفوا بالخوارج «المتمردون» - كانوا يعارضون أيَّة حكومة عائليَّة، ويرون أنَّ القائد يجب أن يكون ببساطة الأكثر قدرة على العمل بتعاليم الله كما جاء في القرآن والسُّنَّة النبويَّة. كانت صيحتهم المدوية «لا حكم إلَّا لله»، ومن المحتمل جدًّا أنَّها استجابة لحركة عبد الملك بوصف نفسه «خليفة الله»، وهذا يتضمَّن أنَّه يحكم بالنيابة عن الله. (صورة رقم 5.1). كان الكثير من هؤلاء المتمرِّدين يعيشون قطَّاع طرقٍ في الأرياف، ويقومون بهجومات محدودة على أهداف حكوميَّة، لكنَّ بعضهم حصَلَ على غنائم كثيرة. واقتطع أحدهم لنفسه أرضًا في وسط الجزيرة العربية وشرقها في تسعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، والآخر سيطر على أجزاء من غرب بلاد فارس ووسطها

1- Hoyland, Seeing Islam , 550-552 (الحماسة لبيت الله) Mingana, Sources syriaques, 155 and 183. (النقد)؛ Chronica; of 741, § 31.

للمدَّة 689-696م، وسَكَّ النقد وادَّعى أنَّه «أمير المؤمنين». أمَّا عبد الملك؛ فقد سمح وبدهاء لهذه المجموعات المتنافسة بإنهاك إحداها للأخرى باستخدامه قوَّات بلاد الشام الموالية له والوصول إلى الانتصار النهائيِّ، وقتل عبد الله بن الزبير في عام 692م ووضع نهايةً لعقدٍ من السنين اتَّسم بالاضطرابات[1].



صورة رقم 5.1
النقود الفضيَّة لقطري بن الفجاءة. بيشابور بتاريخ 75 هجرية/ 694-695م
تحمل صورة تمثال نصفي للإمبراطور الفارسيِّ والشعار العربي «لا حكم إلَّا لله».

1- كان الخارجي نجدة بن عامر هو الذي استولى على وسط وشرق الجزيرة العربية، والشخص الذي سك النقد في بلاد فارس هو قطري بن فُجاءة. ولمزيد من الاطلاع على هذه الشخصيات، وعبد الله بن الزبير، والكثير من الفاعلين في الحرب الأهلية العربية الثانية، انظر: عبد الأمير دكسن، الخلافة الأموية 65-86 هجرية/ 684-705م (لندن،1971) وكذلك؛
G.Rotter, Die Umayyaden und der zweite Burgerkrieg (Wiesbaden, 1982).

كانت هذه الحرب الأهليَّة الثانية مثيرةً للخلافات والانشقاقات إلى حدٍّ كبيرٍ، وأدرك عبد الملك أنَّه يحتاج إلى محاولةٍ لتحقيق نوعٍ من الوحدة لمجتمعه المتشرذم، والتوضيح لرعاياه في الولايات المفتوحة وأولئك الذين خارج نفوذه أنَّ النظام العربيَّ لا يزال قوَّة يُحسب لها الحساب. فقد قام بتغييرين إداريِّين بعيدي المدى؛ بهدف جعل الأنظمة الإداريَّة في دولته أكثر انسجامًا: سكُّ نقودٍ موحَّدة ومنتظمة، وإصدار تشريعٍ يجعل اللغة العربيَّة اللغة الرسميَّة في البيروقراطيَّة الإداريَّة. ورفع من مكانة الإسلام ليلعب دورًا أكبر في الحياة العامَّة، واحترام العدد الكبير من المسيحيِّين بين السكَّان التابعين له وكذلك بين صفوف المقاتلين العرب، وهذه خطوة لم تُتَّخذ من قبل. ولاحظ عبد الملك أيضًا حجم المساندة الشعبيَّة لمنافسه عبد الله بن الزبير التي حصل عليها من جعل نفسه بطلًا حينما نادى بأولويَّة



صورة رقم 5.2
نقود ذهبيَّة لعبد الملك بن مروان لسنة 77 هجرية/ (696–697م)
تحمل صورة الخليفة والشعار العربي «لا إله إلَّا الله، محمَّد رسول الله».

القدسيَّة لمكَّة والنبيِّ محمَّد ، ولذلك كان مصممًا على أن يأخذ هذا الدور لنفسه. ولذلك، ابتدع عقيدةً إسلاميَّة جديدة - «لا إله إلَّا الله ومحمَّد رسول الله»، ووضعها على كلِّ الوثائق الرسميَّة، وسكَّ بها نقوده الجديدة. (صورة رقم 5.2). واستأنف سياسة معاوية بتعيين نائبٍ له في الشرق الذي أُطلقت يده لتعزيز الإخلاص للحكم الأمويِّ، والقضاء على المنشقِّين في الأراضي الفارسيَّة السابقة، وتعيين الحجَّاج بن يوسف (693-714م) المعروف بقسوته وصرامته. وأخيرًا، أعطى الفاتحين دوافع جديدة، والبداية كانت مع أفريقيا وجنوب شرق بلاد فارس.

واصل ابنه الوليد بن عبد الملك هذه السياسة، وخلال عقدين من السنين فقط تمكَّن قادته من إخضاع إسبانيا وشمال أفريقيا في الغرب وبلاد السند وما وراء النهر في الشرق.

وفي السنة التي وصلَ فيها عبد الملك إلى السلطة اعتلى فيها إمبراطورٌ بيزنطيٌّ جديدٌ العرشَ، وهو الشاب جستينيان الثاني (685-95م/ 705-711م). كان لديه الطموح باستعادة هيبة الإمبراطوريَّة، وربَّما يرغب بتقليد الإمبراطور الذي يحمل مثل اسمه، الإمبراطور جستينيان الكبير (527-565م). فقد زار أرمينيا التي عادت إلى حضن الإمبراطوريَّة كجزء من صفقة السلام مع عبد الملك، وهو يتوق للتظاهر أنَّه عاد لتولِّي مسؤوليَّة هذا الجزء من العالم. ثمَّ وجَّه عنايته إلى البلقان للوقوف بوجه البلغار الذين يحاولون توسيع نطاق سلطتهم في هذا الإقليم، حيث تقدَّموا حتَّى وصلوا إلى سالونيكا، مصطحبًا معه أعدادًا كبيرةً من السلاف لإعادة إسكانهم في أجزاء من الأناضول والخدمة في الجيش. اختار ثلاثين ألفًا منهم ومن الذين سبق وأن سلَّحهم وأسماهم «القوَّات الخاصَّة»؛ بهدف استخدامهم كقوَّات نخبة لقتال العرب. وهذا ما قام به في الحال حينما سنحت له الفرصة، بعد أن أُلغيت اتفاقيَّة السلام التي أُبرمت في عام 692م بين والده ومعاوية، وجُدِّدت في عهد مروان وعبد الملك وسط اتهامات

متبادلة بين الطرفين. لذلك سار الطرفانِ لملاقاة أحدهما الآخر في سبستوبولس، في إقليم البنتوس Puntos في الأناضول. ويبدو أنَّ العرب قد خسروا المعركة في البداية، لكن القائدَ العربيَّ محمدًا بن مروان، أخا عبد الملك، أقنع السلاف للانشقاق عن الإمبراطور، مِمَّا أجبر البيزنطيِّين على الفرار. ونتيجة لهذا الفشل، فقد جُدع أنف جستينيان وطُرد إلى القرم. لكنَّه استطاع بعد عقد من السنين الهروبَ بمساعدة البلغار واستعادة عرشه. كان حقده على أعدائه قد أفسدَ محاولاته لإصلاح سياساته الدفاعيَّة في الإمبراطوريَّة، وتمكَّن العرب من تحقيق عددٍ من الانتصارات في عمق الأراضي بالأناضول[1].

أفريقيا

كانت أحد إنجازات عهد جستينيان الثاني - استنادًا إلى كاتب سيرة البابا جون الخامس (685-686م) - «استعادة ولاية أفريقيا وإخضاعها للحكم الرومانيِّ». لا يشرح لنا هذا الكاتب ولا المصادر المسيحيَّة الأخرى أحداث ذلك، ولكن هناك إشارة ضمنيَّة محتملة في نجاح القائد البربريِّ المدعو كُسيلة، الذي لا نعرف عنه من خلال المصادر الإسلامية سوى صورة مشوَّشة عن سيرته، وتعقَّدت صورته المتأخِّرة أكثر؛ لكونه بطلًا مدافعًا عن بلاده وشعبه الأصليِّين. فالكاتب في أعلاه ذكر ببساطة أنَّه كان مسيحيًّا، وأنَّه في عام 683م حارب وقتل اثنين من أبطال الفتوح العرب في أفريقيا،

1- عن السُلاف وسيباتوبولس: Nikephoros, §38, and Theophanes, 366 (وكلاهما استخدم الحولية ذات الرقم 720)؛ كانت العبارة الإغريقية periousios laos تستخدم في الترجمة الإغريقية لسفر الخروج 19:5. عن هذين الحاكمين ووقتهما، انظر:

C.Robinson , 'Abed al-Malik (Oxford, 2005), and C.Head, Justinian II of Byzantium (Milwaukee, 1972).

وهم: عقبة بن نافع وأبو المهاجر. أمَّا المصدر الآخر؛ يضيف تفصيلات قليلة لكنَّها مهمَّة: كان جيش كُسيلة يتكوَّن من «البيزنطيِّين والبربر»، وحقَّقوا نصرًا في تهودة Tahuda، ثبوديوس القديمة Thabudeos في نوميديا (شرق الجزائر)، ثمَّ واصلوا السير للاستيلاء على القيروان. وتميل المصادر الإسلاميَّة إلى القول إنَّ كُسيلة قد هُزم حالًا بعد ذلك، لكنَّ الملاحظة التي ذكرها كاتب سيرة البابا جون الخامس تتضمَّن أنَّ كُسيلة قد حقَّقَ شيئًا أكثر ديمومة. ومع ذلك، فمن غير المحتمل أنَّ والي مصر العربيّ كان يملك فائضًا من القوَّات في أثناء سنوات الحرب الأهليَّة. لكنَّ أحد المؤرِّخين المتأخِّرين ذكر ملاحظاتٍ معقولةً تشير إلى أنَّ كُسيلة كان حاكمًا لأفريقيا ويسكن في القيروان حتَّى تعزَّز حكم عبد الملك، وبعد ذلك في عام 689م، أرسل القائد المسؤول عن الحدود مع برقة لاستعادة السيطرة على أفريقيا. وحينما تقدَّم هذا القائد العربيُّ نحو القيروان انسحب كُسيلة من المدينة لأنها لا تملكُ أسوارًا للدفاع عنها، واتَّخذ مواقع بالقرب من ماميس Mammis التي تسمح له بالهروب نحو جبال دورسال Dorsal، وهو المكان الذي اختاره القائدُ البربريُّ كوسينا Cusina لمواجهة البيزنطيِّين في عام 534م، ولسوء الحظِّ عانى كُسيلة المصير نفسه الذي عاناه كوسينا: الهزيمة من عدوِّه بعد معركةٍ طويلةٍ وصعبة القتال.

كانت المهمَّة الكبيرة التي تواجه العرب هي الاستيلاء على قرطاج، آخر المعاقل البيزنطيَّة الأساسيَّة في أفريقيا. لقد ترك القادة العرب المتعاقبون هذه المدينة لوحدها، مفضِّلين الحاجة لتهدئة القبائل البربريَّة في الداخل أوَّلًا، وكانوا يدركون أيضًا أنَّ أسوارها الحصينة وحقيقة إمكانيَّة تجهيزها باستمرار من البحر سيجعل محاصرتها عملية استنزاف لا غير. ومع ذلك، فإنَّ خسارتها ستصيب من غير شكٍّ بيزنطة بهزيمةٍ مدويةٍ؛ لأنَّها ستحرمها من المحاصيل الغنيَّة وجباية الضرائب من ولاية أفريقيا. كلَّف عبد الملك لهذه المهمَّة حسن بن النعمان، من إحدى القبائل الغسانيَّة التي كانت

حليفةً للبيزنطيِّين في السابق، وجهَّزه بأعدادٍ كبيرةٍ من الجند، ذكر بعضهم أنَّها أربعين ألفًا لضمان نجاحه. وحينما رأى سكَّان قرطاج حجم تلك القوَّات تتجحفل أمامهم قرَّروا مغادرة المدينة والتوجُّه نحو صقلية وإسبانيا، ولذلك دخلها حسن بن النعمان بسهولة ويسر. كان الإمبراطور ليونتيوس - الذي طرد لتوِّه الإمبراطور جستينيان الثاني من العرش - غاضبًا جدًّا من موقف السكَّان الجبان، وأرسل في الحال قوَّة بحريَّة مسلَّحة جيدًا أبحرت نحو الميناء وشقَّت طريقها من السلسلة التي تحميها، أنزلت قوَّاتها بهدوء وهزمت بشكلٍ حاسمٍ العربَ المرابطين في المدينة، وحرَّرت مجموعةً من المدن المجاورة. وهذا بدوره أغضبَ عبد الملك الذي أرسلَ أسطولًا بحريًّا أكبر، أجبرَ السفنَ البيزنطيَّة الراسية في الميناء على المغادرة وطردها، وهذا يعني أنَّ حسن بن النعمان عاد لتولِّي مسؤوليَّة قرطاج وأراضيها المحيطة بها في عام 698م[1].

بقيت مهمَّة واحدة على الحسن بن النعمان إنجازها في ولاية أفريقيا، وبالتحديد إزالة آخر تحدٍّ بربريٍّ للعرب، المتمثِّل بامرأةٍ يُشار إليها غالبًا وببساطة «بالكاهنة»، ويشار في بعض الأحيان إلى كُسيلة «بابن الكاهنة»، الذي قد يعني أنَّ هذا لغز هذه المرأة البربريَّة التي تبنَّت أفكاره نفسها، كانت في الواقع بمنزلة أمِّه. فمن الصعب جدًّا الوصول إلى أيِّ مفهومٍ يوضِّح ماذا تمثِّل وتناضل من أجله، ولا سيَّما أنَّ المصادر المبكِّرة شحيحة جدًّا في معلوماتها عنها، والمصادر المتأخِّرة مشبعة بالأساطير والغموض. فالمصادر الإسلاميَّة المبكِّرة تذكر فقط في عام 692م أنَّ حسن بن النعمان

1- The Book of Pontiffs, trans. R. Davis (Liverpool,1989) ,78;
(ويذكر أيضا توقيع جستينيان معاهدة سلام لمدة عشر سنوات مع العرب في عام 685م)؛ خليفة، 251 (كُسيلة 63 هجرية)؛ ابن عبد الحكم، 198-200 (كُسيلة)؛ ابن الأثير، الكامل نشر: التدمري (بيروت،1997)، 207-209.3 (62 هجرية)؛ Theophanes 370 , and Nikephoros, §41 (قرطاج بالاعتماد على الحولية 720).

أغار على جبال الأوراس في عام 694م «وقتَلَ الكاهنة»، بينما يورد مؤرِّخ مسيحيٌّ من القرن العاشر الميلاديِّ تحت سنة 697م ما يلي: «اشتبك حسن بن النعمان في معركة مع ملكة البربر، وهزمته ورجاله جميعًا». ربَّما قاتل حسن هذه الملكة مرَّتين، ففي المرَّة الأولى هزمته، وانتصر عليها في المرَّة الثانية وقتلها. ومع كلِّ هذا الغموض كلُّ ما يعمله المرء هو تحديد تاريخ فضفاض لتمرّدها في أواسط تسعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ. كانت جبال الأوراس في شرق الجزائر مكانًا لقائدٍ بربريٍّ يُدعى ايادس Iaudas، الذي يسيطر على المنطقة في ثلاثينيَّات وأربعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، ومن المحتمل وجود دويلة بربريَّة مستقلَّة استمرَّت بالبقاء في المنطقة منذ مطلع القرن السادس حتَّى أواخر القرن السابع الميلاديِّين. وإلى جانب هذا الفتات الضئيل من المعلومات، هناك حكايات مطوَّلة عن موهبة البصيرة لدى الكاهنة التي سمحت لها بالتنبؤ عن هزيمتها على أيدي حسن بن النعمان بمظهرها المأساويِّ وهي تمتطي بطولة حصانها وشعرها الطويل يتدلَّى خلفها مؤمنة بقدرها المشؤوم بالقتال أن تقاتل حتَّى آخر لحظة تدرك فيها مصيرها. ومع ذلك، فهي لم تكن رمزًا للقديم، ولكن للجديد أيضًا، فقد أودعت أولادها الاثنين لدى أحد العرب الذين أسرتهم لرعايتهم، الذي عمل كما تنبَّأت على حصولهم ضمانًا بالحماية من حسن بن النعمان وتجنيدهم في جيوش الفاتحين الجديدة. ولذلك، لم تنجُ عائلتها المباشرة فقط، إنَّما أيضًا السكَّان هناك الذين استمرُّوا بالازدهار والتمتُّع بمستقبلٍ يسير جنبًا إلى جنبٍ مع العرب الفاتحين[1].

وبعد أن أنجز حسن بن النعمان كلا الهدفين عاد إلى القيروان وشرع بمهمَّة تأسيس حكومة فاعلة في هذه الولاية الكبيرة وذات الطبيعة المتنوِّعة. فبنى المسجد

1- Khalifa, 268,270 (Ah 72,74); Elias of Nisibis, Opus Cbronlogicum, ed. E.W.Brooks (Paris.1910) 154 (AH 78); Baladhuri,229; Ibn Abd al Hakam, 200-201.

الجامع، وأنشأ منصب قاضي القضاة، وحدَّد الضريبة التي يجب أن يدفعها «الأفارقة والبربر وأمثالهم من معتنقي المسيحيَّة». أشارت المصادر الإسلاميَّة في هذه النقطة إلى تعليق مفاده أنَّ «أغلب هؤلاء المسيحيِّين من البربر كانوا من البرنس، وقلَّة من البتر». ولسوء الحظِّ، لا يوجد تفسير لمعنى ذلك، ولا سيَّما أنَّ الرومان/ البيزنطيِّين قبلهم لم يذكروا هذا التمييز بين البربر، إنَّما تحدَّثوا ببساطة عن العرب، وأحيانًا عن البرابرة (يفترض المرء حيث جاءت كلمة البربر بالعربيَّة)، أو عن قبيلةٍ منفردةٍ بشكلٍ آخر. والمعنى الحرفي للبرنس هو غطاء الرأس hoods أو «قلنسوة» cowls وهذا يقترح وجود نوع من الاختلاف في المظهر، وهذا قليل الوضوح بالنسبة إلى البتر التي تعني «المقطوع/ المنزوع»، وإن أشارت بعض المصادر الإسلاميَّة إلى أنَّ البربر البتر أُطلقت عليهم هذه التسمية نسبةً إلى قصِّ شعورهم، بوصفها علامةً على التزامهم بالديانة الإسلاميَّة. ولا نستطيع التأكُّد كيف أنَّ هذا التمييز يتعلَّق بالناس أنفسهم، ولكن من المحتمل أنَّه يرتبط بمجيء البربر البتر من سيرنيكا وطرابلس في الشرق (ليبيا الحاليَّة) حيث تسود الصحراء، والرومنة ضعيفة، والمسيحية تراوح مكانها، بينما البربر البرنس كانوا في الغرب بصورة رئيسة يملكون ثرواتٍ زراعيَّة أكثر، وأكثر تأثُّرا بالحضارة الرومانيَّة والمسيحيَّة. وخلال ثورة البربر الكبرى في أربعينيَّات القرن السادس الميلاديِّ كافح البيزنطيُّون؛ من أجل تهدئتهم، ونجحوا في المناطق الداخليَّة الغربيَّة، ولكن أولئك في المشرق ولا سيَّما قبيلة لواته المعروفة بشراستها وبربريَّتها المثيرة للرعب «يجب أن يُطردوا خارج حدودنا». وفي وقت الفتوحات العربيَّة حيث كان الشرق الذي أذعن بهدوء ولا سيَّما قبيلة لواته، كان الغرب في تمرُّدٍ كبيرٍ لكُسيلة والكاهنة، وبمشاركة قوَّات بيزنطيَّة وبربريَّة. إذن، كان الشرقيُّون في الشمال الأفريقيِّ الأقل تأثُّرًا بالحضارة الرومانيَّة والديانة المسيحيَّة، والأكثر رغبة في التعاون مع العرب من جيرانهم الغربيِّين، وربَّما لاحظ العرب ذلك

التمايز بين بعض البربر الذين يحلقون رؤوسهم، كوسيلة جاهزة وخشنة للتمييز بين الآخرين[1].

كانت الملاحظة الأخيرة التي تذكرها المصادر المسيحيَّة عن فتح العرب لأفريقيا تتعلَّق بإخضاع موريتانيا القديمة التي تقابل اليوم مناطق غرب الجزائر والمغرب الحاليَّتين، وهذا ما تمَّ على يد موسى، وأبيه نصير الذي أُلقي القبض عليه في المراحل الأولى من الفتوحات في جنوب العراق وانخرط في العمل بالإدارة الجديدة. وبعد أن أثبت قدرة إداريَّة وعتق بعد اعتناقه الإسلام، أحرز تقدُّما وبسرعة في مجال عمله، وتبعه ابنه في هذه السيرة، وخدم في دمشق والبصرة والفسطاط موظفًا بيروقراطيًّا كبيرًا يعمل بالنيابة عن العائلة الأمويَّة. وفي الفسطاط لفت انتباه والي مصر عبد العزيز الذي اختاره واليًا لأفريقيا بدلًا من حسن بن النعمان. ذهب موسى إلى هناك في عام 698م وقضى بضع سنوات يعسكر في الغرب الأقصى من القارَّة لينال شكر وإعجاب الخليفة عبد الملك وخليفته الوليد. لقد توَّجَ موسى إنجازاته بالإغارة على طنجة، أهم مدينة في الغرب الأقصى. وحالما استولى على المدينة أقام معسكره هناك في عام 708م بقيادة البربري طارق بن زياد الذي عُتق، ثمَّ عاد إلى القيروان ليرتاح فيها[2].

1- ابن عبد الحكم، 201 (بنى حسن جامعا... الخ.، بتر/ بارنس)؛ Corippus, 6.49 ("اختفاء" لواته) وذكرت من قِبل Moderan, Les Maures, 644، الذي ناقش قضية البتر/ البرانس في الصفحات 761-810. كان العرب في غرب الجزيرة العربيَّة يستخدمون أصلًا مصطلح بربر في فترة ما قبل الإسلام، ويطلقونه على سكَّان السواحل الشرقية لأفريقيا (يتبعون ما يقوم به الإغريق والرومان آنذاك)، ثمَّ أطلقوه بسهولة على كلِّ الشعوب الأخرى التي لاقوها في أفريقيا خلال الفتوحات (عدا المصريين/ الأقباط الذين كانوا يعرفونهم أيضا قبل الإسلام)؛ انظر: R. Rouighi , " The Berbers of the Arabs, " Studia Islamica , I, (2011).

2- ابن عبد الحكم، 201، 203-204 (موسى)، Chronical 754, §51؛ البلاذري، 230؛ خليفة، 277-279 (هجرية 78-79).

إسبانيا (خارطة رقم 4.3)

تُوفِّي ويتزا ملك مملكة القوط بإسبانيا في عام 710م، وعلى الرغم من وجود أبناء بالغين لديه، فإنَّ أحد النبلاء المدعو روذريك استولى على السلطة بحجَّة تحريضٍ من مجلس السنتو الرومانيِّ له. وتكشف الأدلَّة المستمدَّة من النقود أنَّ أسبانيا كانت مقسَّمة على عدَّة أقاليم: وجدنا نقود روذريك في الأقاليم الجنوبيَّة الغربيَّة والوسطى، بينما وجدنا ما يقابلها من نقود لأخيلا Achila في الشمال الشرقيِّ. لذلك انتهز طارق بن زياد الفرصة من هذا الانقسام وعبرَ المضيق من طنجة إلى إسبانيا في مطلع صيف عام 711م مع قوَّةٍ كبيرةٍ من العرب والبربر. ويذكر أحد مصادرنا الإسبانيَّة المسيحيَّة المبكِّرة من منتصف القرن الثامن الميلاديِّ أنَّ تلك القوَّة أرسلها موسى، لكنَّ المصادر الإسلاميَّة تذكر أنَّ طارقًا عمل من تلقاء نفسه، وأنَّ موسى لحقه في السنة التالية، وتصوره أنَّه سخط على طارقٍ في البداية لفشله في استشارته قبل أن يفعل ذلك، لكنَّه سرعان ما استهوته تلك المغامرة حينما علم بفائدتها. كانت المواجهة الأولى بين الطرفين في عام 711م في قادس، وفي غضون المعركة - كما يروي أحد المؤرِّخين المسيحيِّين مع بعض المغالاة - «هرب جيش القوط الذي جاء مع روذريك بالكامل؛ نتيجة الغدر والمنافسة المجرَّدة من أيِّ حماس للملكيَّة، ثمَّ قُتِلَ روذريك».

وتصف المصادر الإسلاميَّة المتأخِّرة اشتباكات متعدِّدة في مناطق متعدِّدة بين القوَّات العربيَّة - البربريَّة والسكَّان المحليِّين، لكنَّ المؤرِّخين الأوائل كانوا أكثر تحفُّظًا حول تلك الاشتباكات. فعلى سبيل المثال، ذكر البلاذري (ت:892م) عمليَّة الاستيلاء على قرطبة وطليطلة بصورةٍ مختصرة جدًّا. أمَّا المؤرِّخ المسيحيُّ المذكور

في أعلاه؛ فقد ذكر عمليَّة فتح طليطلة فقط، على الرغم من أنَّه أوضح أنَّ موسى فرض على المناطق المجاورة «سلامًا خادعًا وشرِّيرًا»، وأنزل الخراب ليس بجنوب وغرب إسبانيا Hispania Ulterior وإنَّما على شمال شرق إسبانيا أيضًا Hispania Citerior وصولًا إلى مدينة سرقسطة المزدهرة وما بعدها. ومن المحتمل أنَّ تفصيلات الفتوح كانت بغيضةً له، وأنَّه اقتصر على ذكر الرثاء العامِّ بسبب تلك الفتوح: «لقد دمَّر موسى المدن الجميلة، وحرقها بالنيران، وأدان الأسياد والرجال الأقوياء بتعليقهم على الصليب، وذبحَ الشبابَ والفتيان بالسيف»، وأنهى روايته المبالغ فيها بالقول: «حتَّى إذا تحوَّلت كلُّ أعضاء البشريَّة لتنطق بالكلام، ربَّما تتجاوز قدرتها على التعبير عن الدمار الذي حلَّ بإسبانيا وما تبعه من شرور متعددة».

إنَّ الإشارة إلى «سلامٍ خادع» يعطينا تفسيرًا لسبب سقوط البلاد (أو ثلثي غربها على الأقل، ما دام الشمال الشرقيُّ بقي مستقلًا) بسهولة بيد الغزاة، وبالتحديد حينما توصَّل الوجهاء المحليُّون إلى اتفاقاتٍ مع القادة العرب - البربر. ومن المؤكَّد، هذا هو الانطباع الذي تذكره المصادر الإسلاميَّة، والمثال الأكثر شهرة كانت المعاهدة التي أُبرمت بين ابن موسى وثيودمير الذي كان يسيطر على الجزء الجنوبيِّ الشرقيِّ من إسبانيا الواقع حول مدينة مرسية الحاليَّة. وتتطابق هذه الاتفاقيَّة مع الاتفاقيَّات التي أُبرمت في ولايات المشرق الإسلاميِّ، التي - مثلما ذكرنا سابقا - تتماشى مع التقاليد القديمة للسياقات الحربيَّة، حيث تعهَّد ابن موسى بحماية الأرواح والممتلكات والديانة المسيحيَّة مقابل الخضوع والجزية والوعد بعدم إيواء الهاربين ومساعدة العدوِّ. وبهذه الطريقة تمكَّن جزءٌ من الأرستقراطيَّة القوطيَّة الغربيَّة من استعادة بعض أراضيهم وتقاليدهم. ولذلك، يبدو أنَّ أسلافهم استمرُّوا بالأخذ بحسبانهم بعض الأمور لفترة ما بعد الفتح، ووسَّع بعض المؤرِّخين من حلقات اتصالهم مع النظام القديم، كالمؤرِّخ ابن القوطية (ت:977م) الذي يفتخر أنَّه ينحدر من سارة، حفيدة آخر ملك قوطيٍّ شرعيٍّ.

لقد دُوِّنت أخبار الفتوحات العربيَّة البربريَّة لإسبانيا بصورة هزيلة جدًّا، وهذا ما قاد بعضهم إلى التساؤل عن كيفيَّة حدوثها في الروايات التقليديَّة. ربَّما يرى بعضهم أنَّها حدثت ببطءٍ ولكن بهجرات وتفاعل اجتماعيٌّ ثابتٍ كما هي الحالة بنهوض إنكلترا السكسونيَّة، أكثر منها بغزو واسع جدًّا ومفاجئ[1]. والأكثر احتمالاً أنَّ الفتوحات تمَّت تدريجيًّا وليس كما تريدنا المصادر الاعتقاد به. ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ تحوُّل تلك الأقاليم إلى الإسلام تمَّ بصورةٍ رئيسة بالوسائل الاجتماعيَّة وليس العسكريَّة. فعلى سبيل المثال، يلوم البابا هادريان (772-795م) أن أصبح شائعًا في إسبانيا أن يُزوِّجَ الكاثوليك بناتهم إلى الوثنيِّين (يعني بهم المسلمين). ومع ذلك، فقد سُكَّت النقود باسم السلطات العربيَّة باللغتين العربيَّة واللاتينيَّة منذ سنة 716م ولاحقًا، ولتوضِّح الصورة التي لا تقبل الشكَّ، وهي أنَّ العرب يقودون النظام الجديد في البلاد حتَّى إذا كانت الغالبيَّة العظمى من القوَّات من البربر (صورة رقم 5.3). وفي النهاية، إنَّ عدم اهتمام المؤرِّخين المسلمين في المناطق الإسلاميَّة المركزيَّة بالشؤون الإسبانيَّة يعكس ببساطة اعتقادهم أن إسبانيا بالنسبة إليهم بلدٌ بعيدٌ لا يؤثِّر كثيرًا في حياتهم. ونتيجة لذلك، فهم إمَّا تحدَّثوا عنها باختصار جدًّا، أو ركَّزوا على الأحداث الغربيَّة

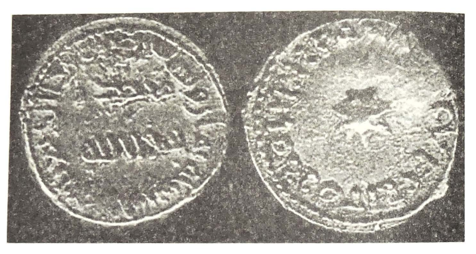
1- لقد بدأت الفكرة عام 1966 مع I. Olague's , La revlucion islamica en Occidente، بالإسبانية: "الثورة الإسلامية في الغرب" (وقد تُرجمت إلى الفرنسية بعنوان "Les arabes n'ont pas envahi L'Espagne"، وجذبت انتباه أكبر من)

K. De Villa, "Myth or Reality: The "Invasion" and Spread of Islam in Spain," The Fountain Magazine, 85, 2012.

كان أحد النقاشات يرى أنَّ قوَّة العرب - البربر كانت صغيرةً جدًّا، وربَّما كان من السهولة على سكَّان إسبانيا هزيمتها إذا ما نهضوا جميعهم، مثلما طردوا نابليون في عام 1807م. وعلى أيَّة حال، قبل عصر الدول القوميَّة كان الناس مقسمون على مجموعات عرقيَّة، إقليميَّة، طائفيَّة، اجتماعيَّة، ومن غير الممكن عمومًا حدوث مقاومة "وطنيَّة" على نطاق واسع. ومن الأبحاث المهمَّة حول إعادة تقييم كيف أصبحت إنكلترا سكسونية، انظر:

A. Woolf, "Apartheid and Economics in Anglo-Saxon England," in N. Higham ed., Britons in Anglo- Saxon England (Woodbridge, 2007).

والمخترعة - كالبيت المغلق الذي لا يمكن فتحه إلَّا من فاتحي إسبانيا، والمدن النحاسيَّة ذوات القبب المكسوَّة بالرصاص - وفي مناسبات قليلة جدًّا حينما تمسُّ إسبانيا الشرق مسًّا وثيقًا.مثل وقوف موسى وطارق أمام الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق وأخذوا يتجادلون من هو الذي اكتشف في إسبانيا طاولة سولومون ملك إسرائيل[1].



صورة رقم 5.3
نقود ذهبيَّة من إسبانيا بتاريخ 98 هجريَّة (716-717م) بالشعارات العربيَّة واللاتينيَّة.

1- اعتمد هذا القسم حول إسبانيا على Chronical of 754, §52, 54-57, 87؛ ابن عبد الحكم، 204-210؛ البلاذري، 230-231؛ خليفة، 304-305 (هجرية 92-93)؛ E. M. Moreno, "The Iberian Peninsula and North Africa," in C. Robinson , ed., New Cambridge History of Islam I,385-389 (ثيودمير وهادريان)؛ James, Early Islamic Spain, 50-51 (ابن القوطية). وعن القضايا التاريخية، انظر: Clark, Muslim Conquest of Iberia.

شمال شرق بلاد فارس وما وراء النهر

وكما في غرب الإمبراطوريَّة العربيَّة، شهد شرقها توسُّعًا جديدًا في مطلع القرن الثامن الميلاديّ أدَّى إلى تغيُّرات سياسيَّة كبيرة في الإقليم. حينما كان الراهب الصينيُّ أكسوان زانج يتجوَّل في شرق خراسان، طخرستان (شمال أفغانستان الحاليَّة)، وفي بلاد ما وراء النهر (أوزبكستان وطاجيكستان الحاليَّتين) في الفترة 629-644م لم يلاقِ أيَّ عربيٍّ هناك على الإطلاق، وفي وقت كان الزعماء الأتراك والوجهاء المحلِّيُّون يتحمَّلون مسؤوليَّة السلطات في الإقليم. لكنَّ الصورة كانت مختلفة حينما اجتاز الراهب الكوريُّ هوي كاو Huichao الإقليم خلال عشرينيَّات القرن الثامن الميلاديّ[1]. لقد وجد «القوَّات العربيَّة تحرس وتضطهد» مدينة بلخ، وكانت سوجديا مقسَّمة على كانتونات، ولا سيَّما المدن والأراضي المحيطة بهما بالدرجة الأولى، وكذلك كانت كلٌّ من كوتال Kuttal في جنوب طاجيكستان وفرغانة في جنوب شرق أوزبكستان تحت سيطرة العرب، وكان الملك واخان Wakhan على الحدود الأفغانيَّة - الصينيَّة يدفع لهم ثلاثة آلاف لفَّةٍ من الحرير الطبيعيِّ سنويًّا. ولكن ذلك لم يؤثِّر في الأحوال الدينيَّة هناك، فعلى سبيل المثال، بقيت سجوديا تعبد «ديانة النار»، أي الزرادشتيَّة، وفي طخارستان كان الملك والزعماء وعامَّة الناس يحترمون «الجواهر الثلاثة»، أي البوذيَّة، «ولم يعتنقوا أيَّة ديانات أخرى». فضلًا عن أنَّ الراهب الكوريَّ هيوكاو لم يرَ

1- H-S. Yang et al., The Hye-Ch'o Diary (Berkeley, CA, 1984), 48-56.
إنَّ كلمة العرب باللغة الصينيَّة ta-shih وهي نسخة من اللغة الفارسيَّة tazik/ tajik التي في النهاية جاءت عبر اللغة الآراميَّة tayayya من اللغة العربيَّة 'Tayyi'، وهو اسم لقبيلة طي قبل الإسلام التي كانت تسكن على الحدود الغربية من الإمبراطوريَّة الساسانيَّة الفارسيَّة

أيَّ حكّام عرب في مناطق الحدود الجنوبيَّة الشرقيَّة، وهذا ما أكدته النقود هناك، التي كانت تحمل أسماء الحكّام المحليِّين فقط. إنَّ موقع المناطق الشماليَّة الشرقيَّة على طرق التجارة البريَّة الكبيرة من الصين إلى بلاد فارس وبيزنطة، والثروات المتراكمة فيها؛ يعني أنَّ العرب كانوا يميلون للاستيلاء على هذه المناطق أكثر من ميلهم نحو المناطق الجنوبيَّة الشرقيَّة، ويوجِّهون طاقات بشريَّة أكبر لإنجاز هذا الغرض. علاوة على ذلك، كانت الولاية الفارسيَّة المجاورة للحدود الشماليَّة الشرقيَّة وبالذات خراسان غنيَّة جدًّا بمواردها، ومحطَّ أنظار العرب؛ للاستقرار فيها بكثافة أكثر من الولاية الفارسيَّة المجاورة للحدود الجنوبيَّة الشرقية، أي سيستان، وهذا يعني أنَّ القوّات كانت متوفرة ليست بمسافةٍ بعيدةٍ جدًّا عنها.

ومع ذلك، كانت الفتوحات في منطقة الحدود الشماليَّة الشرقيَّة بطيئة بالنسبة إلى العرب. وعلى الرغم من إحرازهم بعض الانتصارات في العقود المبكرة، فإنَّها لم تؤدِّ إلى فتحٍ دائمٍ قبل اندلاع الحرب الأهليَّة الثانية في عام 683م. إنَّ الفوضى التي أحدثها هذا النزاع الذي استمرَّ لعقدٍ من السنين (683–692م) لم تؤدِّ إلى استرداد بعض المناطق المفتوحة، ولم تتوفَّر الموارد ولا القائد المناسب لقيادة مثل هذه المغامرة في المستقبل القريب. وعلاوة على ذلك، لم يكن العرب وحدهم القوَّة المهتمَّة بهذا الإقليم الغني، إنَّما شهد تدخل عددٍ من القوى الطامعة الأخرى أو من العاملين الجُدد في النصف الأوَّل من القرن الثامن الميلاديّ. كانت أسرة تانج الصينيَّة في ذروتها تحت حكم أكسوان زونج الطويل (712–756م) وقاعدتها أشهر مدينة مكتظَّة بالسكّان في العالم آنذاك وهي شانج–آن Chang-An. وفي سبعينيَّات القرن السابع الميلاديّ تحرَّك قسم من سكّان التبت نحو إقليم بامير Pamir الذي يقع عبر الطرق المارَّة بين حوض تريم Tarim إلى الشرق من سجدويا وطخارستان في الغرب، وهذا أشَّرَ بداية للانهماك في المنطقة الذي استمرَّ طوال القرن الثامن الميلادي. وأخيرًا، كافحت

مجموعات تركيَّة لتأكيد نفوذها أيضًا، ولا سيَّما الأتراك الشرقيِّين الذين أعادوا تأسيس حكمهم الذاتي في ثمانينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، بعد انفصالهم عن أسيادهم الصينيِّين، ووقوع أراضي الأتراك الغربيَّة تحت سيطرة اتحادٍ جديدٍ يُعرفُ باسم تورغش Turgesh. كانت المحالفات والمواجهات بين هذه القوى - الصين، التبت، الأتراك والعرب - وكذلك مع الزعماء المحليِّين تتبدَّل مرارًا؛ بسبب استغلال الأوضاع السياسيَّة المعقَّدة في العقود الأولى من القرن الثامن الميلاديِّ. لعلَّنا محظوظون بتوافر المصادر عن القوى الفاعلة الرئيسة، وإن كانت متباينة (تواريخ عربيَّة ومن التبت، ونقوش تركيَّة، حوليَّات صينيَّة، وثائق بكتريانيَّة وسجوديانيَّة،...الخ)، ومعقَّدة ومتناثرة، مِمَّا يتطلَّب من الباحثين جهدًا لاستخلاص روايات واضحة ومفصَّلة عن هذه الأحداث.

أمَّا الخليفة الوليد (705-715م) الذي خلف أبيه عبد الملك؛ كان يُفضِّلُ سياسةً توسُّعيَّة، وأمر نائبه في المشرق الحجَّاج بن يوسف بإيجاد رجل لتأسيس سلطته في بلاد ما وراء النهر. اختار الحجَّاج شخصيَّة صارمة وقديرة وهو قتيبة بن مسلم، وإن لم يكن من قبيلة متنفِّذة، لكن لكونه يعتمد اعتمادًا كليًّا على مساندة الحجَّاج لموقعه بوصفه واليًا لخراسان، ولذلك من غير المحتمل أنَّه سيتمرَّد عليه. لم يكن الإقليم الذي سيعمل فيه كبيرًا جدًّا - سوجديا، مثلا، يبلغ طولها مئتي ميلٍ تقريبا، وتنتشر مدنها على طول شريطٍ أرضيٍّ ضيِّق يمتدُّ بمحاذاة نهر زرافشان Zarafshan، وكما ذكر الراهب الكوريُّ هوي كاو، فكلُّ إقليم له ملكه الخاصُّ به، ولذلك لم يكن هناك هدف واحد لهم، كما كان الحال مع بلاد فارس الساسانيَّة (أي مع الإمبراطور). وهذا ما جعل عمليَّة الفتح تُنجزُ بشكلٍ تدريجيٍّ، والتعامل مع كلِّ حاكمٍ على انفراد. فضلًا عن أنَّ التمزُّق يمكن أن يوفِّر فائدةً للغزاة باستغلال النزاعات بين الزعماء المحليِّين. وهكذا دعا حاكم شاجانيان Chaganiyan - الذي كان يبحث عن حليفٍ في صراعه

مع المناطق المجاورة له في آخارون Akharun وشومان Shuman - قتيبة إلى بلاده. ووعد حاكمُ خوارزم - وهي واحة بالقرب من بحر الآرال - بدفع الجزية لقتيبة شرط أن يساعده في التخلُّص من أخيه الشابِّ المتمرِّد.

وفضلًا عن اتِّباع قتيبة سياسة فرِّقْ تسد، انتزع المدن الرئيسة في سوجديا بدءًا من غربها نحو شرقها: بيكند في عام 706م، بخارى في عام 709م، وسمرقند في عام 712م. وفي كلِّ حالة، كان الفتح يُنجز بعد كفاحٍ صعبٍ وإخفاقات متعدِّدة. فعلى سبيل المثال - وبهدف استعادة الاستيلاء على بيكند، والتحذير من الارتدادات هذه المرَّة - دمَّر قتيبة أسوار المدينة الطينيَّة الضخمة من طريق الحفر من تحتها، وقتل جميع القوَّات المقاتلة، ونهب ثرواتها الغزيرة. ولم يتمكن من التغلب على بخارى إلَّا في الفصل الرابع من السنة (الصيف) فقط، وبعد استحضارات شاقَّة. وكانت هناك ثورات متعدِّدة، مثل تلك التي قادها نيزاك Nizak، الأمير البوذي من إقليم هرات، الذي ناضل في الفترة (709-710م)؛ من أجل تشجيع مختلف القادة في طخارستان للوقوف بوجه السيطرة العربيَّة. وعلى الرغم من أنَّهم استجابوا بصورة إيجابيَّة لندائه، فإنَّهم سرعان ما أعادوا تأكيد ولائهم للعرب عند سماعهم بتوجُّه قوَّة عربيَّة ضخمة نحوهم، وإجبار نيزاك على الهروب للنجاة بحياته بعد أن تمزَّقت خططه. كان عدم قدرة الإقليم على توحيد جهوده في جبهة موحَّدة سببًا في سقوطه في نهاية الأمر، ولا سيَّما أنَّ العرب كانوا يعتمدون دائمًا على رغبة بعض الجماعات للقتال معهم ضدَّ الآخرين. وكما قال غوراك Ghurak سيِّد سمرقند وملك سوجديا (710-737م) لقتيبة: «أنت تقاتلني بإخوتي وبشعبي»[1].

1- بالنسبة إلى حملات قتيبة، انظر: Gibb, The Arab Conquests in Central Asia,29-58؛ (الطبري)، 2. 1218-27؛ (نيزاك)، 2، 1244؛ (غوراك).

جنوب شرق بلاد فارس وإقليم كابل

وعلى النقيض من الحدود الشماليَّة الشرقيَّة، حيث تمَّ الحصول على مكاسب جوهريَّة بعد توقُّف الحرب الأهليَّة في عام 692م، فقد تقدَّم العرب قليلًا في الجنوب الشرقيِّ، بل عانوا من سلسلة من الإخفاقات[1]. فقد قُتل حاكم زابولستان (وسط أفغانستان الحاليَّة) الذي يحمل لقب راتبل خلال غارةٍ للعرب في عام 690م، وعرض خليفته بسرعة خضوعه مع جزية مقدارها مليون درهم. لكنَّ حاكم سيستان رفض ذلك، لاعتقاده أنَّه يمكنه ابتزاز مبلغ أكبر وإذلال السكَّان في هذا الإقليم المُهلك، وتوجَّه إلى أعالي نهر هلمند يقود رجاله إلى أعماق الأراضي الجبليَّة وما وراءها. سمح له الرتبل الجديد بالتقدُّم، ثمَّ هاجمه بصورةٍ مفاجئة في أحد الطرق المتعرِّجة، وأَسَرَ الكثير من رجاله وأجبره على التراجع. واضطرَّ إلى القبول بالمبلغ التافه، ثلاثمئة ألف درهم جزيةً، إلَّا أنَّ الضرر الذي سبَّبه لهيبة العرب وسمعتهم كان السبب في طرده من منصبه بهدوء.

كان عُبيد الله بن أبي بكرا - وهو ابن أحد العبيد الذين أعتقهم النبيُّ محمَّد - الشخصيَّة القادمة التي وقع عليها إخضاع هذه الحدود الصعبة المراس، الذي خدم لمرَّة واحدة من كواليا لسيستان في الفترة 671-673م. فقد أرسله الحجَّاج بن يوسف في ربيع عام 697م مع تعليمات: «للخروج ضدَّ الرتبل بقوَّتك من المسلمين، وألَّا تعود حتَّى تجعل من أرضه يبابًا، وأن تدمِّر حصونه، وتقتل جنوده، وتستعبد شعبه».

1- إنَّ الروايات والاقتباسات المذكورة يمكن إيجادها في:
C. E. Bosworth, Sistan under the Arabs (Rome, 1968);
55-52 (عبيد الله)؛ 55-63 (ابن الأشعث).

توجَّه عُبيد الله بقوَّته المؤلَّفة من البصريِّين والكوفيِّين نحو زابولستان ليصادر المواشي ويدمِّر الحصون في طريقه، على أمل أن يحصل على الغنائم والشهرة، دخل بعيدًا في أراضي العدوِّ ليجد نفسه دون تجهيزاتٍ كافية لجيشه، حتَّى لخيولهم. ولذلك، كرَّر خطأ من سبقه، وأُجبر مثله على البحث عن السلام بشروط غير ملائمة. رفض نائبه قبول مذلَّة الاستجداء من الكفَّار، واستمرَّ في القتال حتَّى خسر حياته وحياة الكثير من رجاله في العمليَّات.. وحالما اتُّفق على السلام وترك الأسرى خلفهم، سُمح لعُبيد الله بالمغادرة مع رجاله، لكنَّ الكثير مِمَّن تُوفِّي منهم كان نتيجة الجوع والبرد حتَّى وصفه معاصروه وصفًا قبيحًا «بجيش الفناء». تُوفِّي عُبيد الله فور عودته إلى قاعدته مكدرا في عام 698م لفشله في مهمَّته.

لذلك، قرَّر الحجَّاج ضرورة الحاجة لإظهار القوَّة واستعادة هيبة العرب وتحذير الرتبل العنيد؛ لأنَّ مثل هذه الوقاحة لا يمكن تحمُّلها. اختار لهذه الحملة شخصيَّة من أكبر العوائل العربيَّة النبيلة، وسليل ملوك كندة، عبد الرحمن بن الأشعث الذي أَسندَ إليه جيشًا يبلغ تعداده عشرين ألف مقاتل من البصرة والكوفة، والكثير منهم من العشائر المتنفِّذة، وجُهِّزوا بأحسن الخيول والأسلحة، ودُفعت لهم المرتَّبات مقدَّمًا حتَّى لقبهم المعلِّقون «بجيش الطواويس». وصل ابن الأشعث وجيشه إلى سيستان في مطلع عام 699م، ودعا في أوَّل صلاة جمعة هناك إلى المؤازرة من المقاتلين العرب المحلِّيِّين ضدَّ «أولئك أعداؤكم الذين يخرِّبون أراضيكم ويغيرون على ممتلكاتكم الثمينة». انضمَّ إليه الكثير من السكَّان هناك، عندئذٍ أدرك الرتبل في هذه اللحظة الخطرَ من هذه القوَّة الضخمة وعرض دفع الجزية على وفق المقادير القديمة، وإعادة الرهائن الذين تركهم عنده عبيد الله بن أبي بكرا، ولكن كانت الأوامر لابن الأشعث بإنزال العقاب وليس التفاهم، ولذلك رفض العرض، وبدأ بالمسير شرقًا. ومن أجل تجنُّب مخاطر الوقوع في مناطق مهجورة ومعزولة في بلد العدو كما حصل لسلفه، أنشأ قاعدةً له في

مدينة بوست، حيث يلتقي فيها نهرا هلمند وآرغندب Arghandab، وبنى أبراج مراقبة ومرابطة القوّات في نقاط استراتيجيّة، وعيَّن وكلاء لجباية الضرائب وتسلُّم الرسائل. وأرسل أخاه إلى المناطق الواقعة في أعالي نهر آرغندب، إلى آروخاج Arrukhaj، لكنه وجد الرتبل قد انسحب من المكان ولم يترك أحدًا وراء القضبان سوى بعض الشيوخ وقلّة من جثامين العرب.

اطمأنَّ ابن الأشعث لما حصل عليه من تقدُّم في تلك السنة، وأخبر الحجّاج أنّه ينوي تعليق تقدُّمه لبعض الوقت، مِمَّا أثار غضبه وتصور أنَّ ذلك جُبن وتردُّد في المواقف، وأرسل إليه ثلاث رسائل ناريّة يأمر فيها ابن الأشعث بمواصلة حملته ضدَّ الرتبل، أو معاقبته بإنزاله إلى مرتبة جنديٍّ بسيط. قادَ ابنُ الأشعث – بعد أن تعرَّض إلى هذه الوخزة – قوّاته للثورة وإثارة شكاوى الجند القديمة: أرسلوا للقتال في الحدود البعيدة لفترات طويلة. وأعلن أنّه: «إذا أطعتم أوامر الحجّاج فإنّه سيحكم عليكم بالبقاء في هذا البلد وإلى الأبد، وسيبقيكم هنا كما احتفظ فرعون بجيوشه في الحاميات البعيدة، ولن تروا أحبّاءكم مرّة أخرى قطُّ قبل أن تُقتَلوا.» ولذلك، توصَّل إلى سلامٍ مع الرتبل شرط أن يمنحه اللجوء في حالة فشل ثورته، ثمَّ التوجُّه غربًا مع أغلبيَّة قوّاته وعدد من رجال سيستان لمواجهة الحجّاج في العراق. انضمَّ إليه الكثير عند اجتيازه كرمان وفارس، وضرب النقود باسمه في سنة 701م، وهذا يوضِّح أنَّ الهدف ليس تأديب الحجّاج لموقف العنيد، ولكن لقلب الحكم الأمويِّ. قاتل في سلسلةٍ من المعارك في العراق قبل أن يعود ويقبل بوعد الرتبل بمنحه اللجوء. أرسل الحجّاج جيشًا قويًّا لمتابعته حتّى قتلَ ابنُ الأشعث نفسَه في النهاية عام 704م، مُفضِّلًا ذلك على الاستسلام لعدوِّه الرئيس. أعاد العرب تأسيس سلطتهم في زارانج وبوست، لكنَّ تلك المناطق أصبحت أقصى حدود توسُّعهم في الشرق.

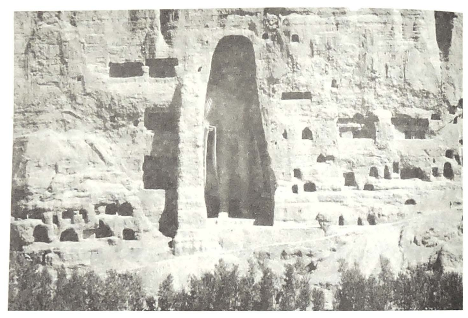
ترك العرب في الغالب هذا الإقليم وحده بعد ثورة ابن الأشعث، وتمتَّع مختلف الحكّام المحلّيّين بدرجةٍ كبيرةٍ من الحكم الذاتيّ. وتذكر المصادر الإسلاميّة أنّ الرتبل رفض دفع الجزية لأيِّ وكيلٍ من الأمويّين، وتشير الحوليّات الصينيّة إلى أنّه أرسل مبعوثًا إلى البلاط الصينيّ في عامي 710م و714م، وأنّه تسلّمَ تأكيدًا لحكم مملكته من الإمبراطور نفسه مع هديّة من الحرير الطبيعيّ أيضًا. ومن المحتمل أنّ الرتبل نفسه كان مسؤولًا عن بناء مصطبة بوذيّة في عام 714م، حيث ذُكر تخليدٌ لذلك في نقشٍ اكتُشِفَ مؤخّرًا يشير إلى «سيِّد غزنة» عاصمة زابولستان الواقعة إلى الجنوب الغربيّ من كابل. وسَكَّ حاكم كابيسا Kapisa – الواقعة إلى الشمال الشرقيّ من كابل – النقود باسمه في الفترة 700–738م ونقش عليها لقب «ملك خراسان»، بل الأكثر جرأة «ملك الشرق». وذهب ابنه إلى أبعد من ذلك حينما لقَّب نفسه بـ«قيصر، السيِّد النبيل الذي ضرب العرب بقوّة»، ومستخدمًا اللغة البكتريانيّة المحلّيّة علامةً لإخلاصه لتراثه الثقافيّ. أكّد الراهب الكوريُّ هوي كاو هذه الروح المشاكسة، معلّقًا أنّ كابيسا وزابولستان وباميان تأوي الكثير من الرهبان والأديرة البوذيّة، وكان ملوكها أقوياء ومستقلّين. أمّا ملك باميان المشهور ببوذا الواقف، ذو التوأمين، الذي دمّرته طالبان مؤخّرا؛ فقد ذهب بعيدًا ليقول: «إنّ خيالته قويّة جدًّا وكثيرة حتّى البلدان الأخرى لا تتورّط بغزو هذه الأرض» (صورة رقم 5.4). بقيت الأمور على حالها حتى مجيء الأسر الفارسيّة، مثل الصفارين (801–1003م)، والأسر التركيّة كالغزنويّين (975–1187م) اللتين نشرتا الإسلام في المشرق بشكلٍ أوسع[1].

1- البلاذري، 401 (رتبل)؛ Chavannes, 161, 205-206 (سفارات إلى الصين)؛ **K. van Bladel, " The Bactrian Background of the Barmakids," in A. Akasoy et al., ed., Islam and Tibet (Farnham, 2011), 54 (stupa); N. Sims-Williams, " The Arab -Sasanian and Arab-Hepthalite Coinage," Cahiers de studia Iranica 39 (2008), 123-125** (نقود).

بلاد القوقاز

واجه العرب العناد نفسه في الأراضي الشماليَّة من مملكتهم. ففي عام 699م قرَّر محمد بن مروان - وهو أخو عبد الملك، ومسؤول عن تلك الأراضي - تغيير نظام الحكم السائد غير المباشر الذي يقوم على تولِّي أميرٍ أرمنيٍّ محلِّيٍّ السلطةَ إلى حكمٍ مباشرٍ من وكيلٍ يقوم محمد بن مروان بتعيينه. كان هؤلاء السكَّان الجبليُّون الفخورون بأنفسهم ينظرون بعداء لأيَّة حركة تقلِّص استقلالهم وامتيازاتهم التقليديَّة، وتتَّهم المصادرُ الأرمنيَّة أيَّ حاكم يُعيَّن بأنَّه يتآمر لتدمير نبل الأرض الأرمنيَّة وفرسانها. حرَّض سمبات بقردوني - زعيم الأمراء الأرمن الجديد الذي اختِيرَ في عام 693م - النبلاءَ ضدَّ العرب، وحشد جيشًا سار في شهر كانون الثاني عام 703م بمحاذاة جنوب نهر آراكس بالقرب من ناخكاوان، حيث ترابط الحامية العربيَّة بقوَّتها البالغة خمسة آلاف جنديٍّ. عبر الأرمن النهر وعسكروا في فردانكرت Verdanakert وأحاطوا بالحامية العربيَّة. كان الوقت ليلًا وقطع الأرمن الشوارع في المدينة وطرقاتها، وعيَّنوا الحرَّاس لمراقبتها حتَّى بزوغ الفجر. وعند شروق الشمس أقاموا قدَّاسًا واحتفالًا بالعشاء الربانيِّ، وبعد ذلك، نظَّموا أنفسهم في وحدات واستعدُّوا للهجوم. وعلى الرغم من أنَّ عدد الأرمن ألفا مقاتلٍ فقط، فإنَّهم استفادوا من عنصر المفاجأة، وشُنَّ الهجوم على العرب بمجرَّد يقظتهم من النوم، ثمَّ هربوا وسقطوا في نهر آراكس، وغرقوا أو تجمدوا في الحال؛ بسبب برد الشتاء القارس. وتمكَّن بعضهم من الفرار «عراة حفاة وجرحى»، وبحثوا عن اللجوء عند إحدى الأميرات المحلِّيَّات «التي ضمَّدت جراحهم، حتَّى شفائهم وإعطائهم الملابس لارتدائها»، وأرسلتهم إلى

بلادهم، لتحصل على شكر الخليفة نفسه. أمَّا سمبات؛ فقد أرسل تقريرًا بانتصاره إلى الإمبراطور البيزنطيِّ مع بعض الغنائم المختارة، وبذلك نال مديحه ومنحه المكافآت والرتب العليا[1].



صورة رقم 5.4
بوذا العظيم، نقش في الواجهة الحجريَّة في باميان، أفغانستان.

وأيضا، شُنَّ هجومٌ آخر على وحدة عسكريَّة صغيرة كانت ترابط في إقليم فاسبوركان Vaspurakan الواقع في الجنوب الشرقيِّ من بحيرة فان. وحينما أدرك الأرمن عدد العرب القليل انقضُّوا عليهم وقتلوهم دون رحمة، ولم يستطع الهرب سوى 280 عربيًّا وجدوا لهم ملاذًا في إحدى الكنائس. لم يرغب الأرمن إيذاء

1- اعتمد هذا القسم بشكل أولي على Lewond, 59-61, 64-67؛ Theophilus, 195؛ البلاذري، 205-206.

الكنيسة، ولذلك فرضوا الحصار على العرب في داخلها. حاول أحد العرب طلب الشفقة من القائد الأرمنيِّ، لكنَّه أجابه: «لقد علَّمنا الربُّ أنَّ التعامل بالرحمة لمن يرحم، إنَّك لا تستحقُّ الرحمة لأنَّك من أمَّةٍ عديمة الرحمة.» عندئذٍ، عاد ذلك العربيُّ إلى جماعته وشجَّعهم على الخروج للقتال بصفتهم جنودًا حقيقيِّين. قام الأرمن بذبحهم جميعًا بالسيف ما عدا ذلك الرجل الذي تحدَّث مع قائدهم، وتوصَّل إلى صفقةٍ مع الأرمن بعدم قتله إذا تمكَّن من إخراج جماعته من الكنيسة، وبدلًا من ذلك رموه في البحر. لقد أسف الأرمن على فعلتهم تلك، لشخصيَّة مشابهة زارهم فيما بعد.

أرسل عبد الملك بعد سماعه بهزيمة القوَّات العربيَّة المزدوجة أخاه محمَّدًا؛ لاستعادة سلطته على الأرمن الذين تخوَّفوا الثأر منهم، لذلك أرسلوا رئيس كنيستهم البطريرك ساهاك Sahak للتفاوض مع محمَّد. كانت الخطَّة أن يلتقي الاثنان في حرَّان في شمال بلاد الشام التي تقع الآن عبر الحدود في جنوب تركيا الحاليَّة. ولسوء الحظِّ، وقع ساهاك مريضًا وتُوفِّي قبل أيَّام من وصول محمَّد في أواخر عام 703م، لكنَّه ترك رسالةً يطلب من محمَّد الرأفة بالأرمن. احترم محمَّد رغبة البطريرك المُتوفَّى، وأقسم أنَّه سيترك أرمينيا بسلامٍ لمدَّة ثلاث سنوات. وعند اقتراب نهاية هذه الفترة، كتب أمير أرمينيا سمبات بقردوني إلى الإمبراطور البيزنطيِّ يطلب منه إرسال قوَّاته؛ لأنَّه يخاف الخليفة العربيَّ الجديد الوليد بن عبد الملك أن يهجمَ هجومًا انتقاميًّا. تحرَّك محمَّد بقوَّاته ودروعه لملاقاة القوَّة البيزنطيَّة التي عُزِّزت بقوَّة أرمنيَّة بقيادة سمبات، حيث التقى الطرفان في كارس Kars في شرق تركيا الحاليَّة. استطاع محمَّد الانتصار بسهولة إلى حدٍّ ما لخبرته ومهاراته الحربيَّة، ثمَّ عاد مع جيشه إلى قاعدته العربيَّة في مدينة دفن، العاصمة الأرمنيَّة. لقد قرَّر الوليد وبشكلٍ واضحٍ أنَّ الوقت قد حان لتلقين الأرمن الدرس، وأصدرَ أوامره للقائد

العربيِّ في ناخكاوان لدعوة عدد من النبلاء الأرمن بحجَّة إدراجهم في السجل الرسميِّ لتوزيع الإعانات، الذي فُسِّرَ «كإعانات رسميَّة تُمنح للنبلاء وفرسانهم»، إشارةً إلى استمرار العرب بالعمل بالنظام الساسانيِّ بمنح الإعانات للنبلاء. وحالما تجمَّع النبلاء «جمعهم في كنيسة كبيرة وأشعل النار فيها ليصبحوا رمادًا، وسمح بأخذ نسائهم غنائم».

انتشرت أخبار هذه المذبحة انتشارًا واسعًا؛ لأنَّها دُوِّنت في المصادر الأرمنيَّة والبيزنطيَّة والعربيَّة، وحفَّزت الكثير من النبلاء الأرمن على الهروب من هذا البلد، وغادر سمبات مع عشيرته إلى فاسيس Phasis على ساحل البحر الأسود، حيث سمح له البيزنطيُّون بإقامة ملاذٍ آمنٍ له. وحينما أدرك الوليد أنَّ غرضه قد تحقَّق استدعى محمَّدًا وأرسل عبد العزيز بن حاتم حاكمًا لأرمينيا (706-709م)، الذي يثير الدهشة أنَّه حصل على تقريظ في المصادر الأرمنيَّة التي وصفته «بقليل السمع، لكنَّه رجل حكيم، ومليء بالحكمة الدنيويَّة، وراوية للأخبار والأمثال... عمل على تهدئة البلاد بحمايتها من الهجمات غير المبررة». وأصدر قسمًا مكتوبًا بضمان حياة وممتلكات النبلاء، وبذلك أقنعهم بالعودة إلى مقرِّ أسلافهم. فضلًا عن ذلك، حصَّنَ مدينة دفن ومنح حماية كبرى للحامية العربيَّة المرابطة هناك، وبنى بوَّاباتٍ جديدةً للمدينة، وأحاط أسوارها بخندقٍ مائيٍّ. ومن المحتمل أنَّ السبب في هذا الموقف الأكثر تسامحًا مع أرمينيا - الذي شمل أيضًا الكيانات القوقازيَّة الأخرى مثل جورجيا وألبانيا - هو أنَّ العرب كانوا يواجهون آنذاك تهديدًا متناميًا من الشمال، وتحديدًا من الخزر، ولذلك من الحكمة بقاء رعاياهم في الجنوب مخلصين لهم.

اختلاط العرب بغيرهم

كانت هناك حدود فاصلة إلى حدٍّ ما بين الفاتحين والشعوب المفتوحة خلال الخمسين سنة الأولى أو أكثر بقليلٍ بعد وفاة النبيِّ محمَّد. كان الفاتحون في الأعمِّ الأغلب من العرب والمسلمين وإن كان ذلك لا يتَّسق مع ما ذهب إليه المؤرِّخون المتأخِّرون، الذين غالبيتهم من غير العرب والقليل منهم من تحوَّل إلى الإسلام[1]. كان الفاتحون جنودًا يتقاضون رواتب ويعيشون في الحاميات، بينما الشعوب المفتوحة من المدنيِّين، الذين يدفعون الضرائب ويعيشون في القرى والمدن. وعلى ضوء ذلك، نجَحَ الفاتحون إلى حدٍّ كبيرٍ وتمتَّعوا بالكثير من امتيازات السلطة والوصول إليها، في حين كانت بعض العناصر المفتوحة حتمًا ترغب بمشاركتهم تلك الامتيازات. وهذا لم يكن بالأمر السهل في البداية، لكنَّ الوضع تبدَّل تدريجيًّا نتيجةً لسياسة الخليفة عبد الملك وقراراته وسياسات من خلفه مباشرة، ولاختلاط الشعوب وتقاليدها الذي بدأ بالحركة من الشمال الأفريقيِّ إلى أواسط آسيا وأنتج في النهاية بزوغ حضارة جديدة، أسميناها بالحضارة الإسلاميَّة. كانت نتيجة عمليَّة معقَّدة تضمَّنت اعتناق الشعوب المفتوحة ديانة (الإسـلام)، وهُويَّة (العرب)

1- إنَّ الربط الوثيق بين أن تكون عربيًّا وأن تكون مسلمًا واضح في الفترة المبكِّرة من عدد من الحالات حينما استُخدمت كلمة العرب للإشارة إلى مسلم؛ مثلا، ورقة البردي "لندن 4" (H. I. Bell, ed., London ,1910) 1375 (تاريخ 711 هجرية) تتحدَّث عن العرب (araboi) والمسيحيين "في حاشية الحاكم بالفسطاط، ومن الواضح تعني "المسلمين والمسيحيين"؛ كتب المسؤول المالي في خراسان في عشرينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ إلى الوالي حول الاعتناق الجماعي للإسلام، قائلا: "من سيأخذ الضريبة من الآن، لأنَّ كلَّ السكَّان أصبحوا عربًا" (الطبري، 2.1508)؛ ذكر Chronical of Zuqnin, 155 أنَّ يزيد الثاني (720-724م) أصدر أمرًا "أنَّ شهادة السريان [أي المسيحيُّون المتحدِّثون باللغة السريانيَّة] ضدَّ العرب غير مقبولة".

الفاتحين. وهذا حدث بطريقة مؤثِّرة، حيث أعيد صياغة وتشكيل عنصري الإسلام والعروبة من أولئك الذين اعتنقوهما.

ولعلَّه من المفيد تأكيد المسألة أعلاه، ما دام المؤرِّخون المسلمون في العصور الوسطى من جانب والمؤرِّخون الغربيُّون المحدثون من جانب آخر قد أعطوا الانطباع في الغالب أنَّ العرب غزوا وفرضوا قيمهم وهُويَّتهم على الشعوب الأصليَّة التي أذعنت لهم، بينما في الواقع أنَّ تلك الشعوب استوعبت العرب بمرور الوقت وأعادت تشكيل قيمهم. ومن أجل فهم ذلك، فمن المفيد أن نفكر بذلك بالأرقام. فمن الصعوبة جدًّا تخمين عدد الناس قُبيل العصر الحديث، ولكن من أجل تقدير حجم العرب الفاتحين الذين استقرُّوا في المناطق المفتوحة، فلا يزيد عددهم على 250-300 ألف نسمة بين 25-30 مليونًا من السكَّان الأصليِّين في البلدان المفتوحة، أي عربي واحد لمئة من غير العرب تقريبًا. ومنذ أن سكن العرب في الغالب منعزلين في الحاميات خلال نصف قرن من بداية استقرارهم وليس الاستقرار بين الشعوب المفتوحة، فلم يُستوعَبوا مباشرة. ومع ذلك، جلبوا إلى حامياتهم أعدادًا كبيرةً من أسرى الحرب ومن كلِّ البلدان التي فتحوها لتحييد الرجال القادرين على القتال في البلدان المتمردة القوية من جهة[1]، واستخدامهم خدمًا خاصِّين وفي البيوت، كمعلِّمين وكتَّاب، كزوجات ومحظيات من جهة أخرى. ومن المحتم أنَّ هذا الاختلاط قد أزال العوائق بين الفاتحين والشعوب المفتوحة، وممَّا سهَّل ذلك أنَّ الأجيال الأولى من المهاجرين العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربيَّة وسهوب بلاد الشام للمشاركة بالجهاد

1- وفي بعض الأحيان كان يُشترط في حالة دفع الضريبة بالعبيد، فيجب أن يكون العبد " خاليا من كل عيب وأن لا يكونوا من الأطفال ولا من كبار السن " (الطبري، 2.1245)، وهذا يعني ان قيمتهم كانت كبيرة، ويمكنهم العمل أكثر، وان لا يكونوا جاهزين للقتال في سبيل أوطانهم. خدم البعض منهم في الأعمال العسكرية ؛ مثلا، كان لدى عامر بن وبارة " عبيدا إعتاد إيجارهم للقتال بثلاثين درهما لليوم الواحد، لكنه دفع لكل واحد منهم عشرة دراهم فقط "، الطبري، 779-800 .2.

قد تُوفُّوا الآن، وأنَّ نسبة كبيرة من أحفادهم تربُّوا بعيدًا عن بلدان آبائهم الأصليَّة في الحاميات والمناطق الحضريَّة بمصر وبلاد الشام والعراق وبلاد فارس. وباختصار، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى امتزجت الدماء، واختفت الحدود، وتحوَّلت المجتمعات والأديان بسرعة.

إعتناق غير العرب الإسلام

كانت النقطة الحسَّاسة في هذا التحوُّل اهتداء الشعوب المفتوحة إلى الإسلام الذي أصبح وسطًا يشترك فيه العنصر غير العربيِّ مع النخبة الفاتحة، وبذلك يستطيع لعب دور في تشكيل الثقافة والفكر الإسلاميِّين. يبدو أنَّ الفاتحين العرب لم يتوقَّعوا أو خططوا لحدوث ذلك. فالله قضى أن تكون الشعوب المفتوحة غنائم للعرب وحدهم وليس مساوين لهم. وأكَّد المؤرِّخون المسلمون المتأخِّرون أنَّ الفاتحين عرضوا على خصومهم فرصة الهداية للإسلام قبل قتالهم، لكنَّ المصادر المبكِّرة لم تذكر ذلك قطُّ. ذكر جون فينيك: «كانوا يسألون كلَّ شخصٍ الجزية فقط، وسمحوا له البقاء على أيَّة عقيدة يرغب»[1]. وبما أنَّ القرآن والنبيَّ محمَّدًا لم يضعا أيَّ عائقٍ لاعتناق الإسلام، فليس من المستغرب أنَّهم عرضوا المشاركة بامتيازات الفاتحين التي كان الكثير يطمع بها[2]. كان العائق الوحيد – في الفترة المبكِّرة على الأقلِّ – لتحوُّل أيِّ شخص للإسلام تعيين شخصيَّة عربيَّة تحميه، ولا سيَّما أنَّ العرب في

1- الطبري، 1.2289 (تُعد الشعوب المفتوحة غنائمَ حرب للعرب)؛
Mingana, Sources syriaques, 147 and 175 (John of Fenek)

2- في الآية 127 من سورة البقرة من القرآن الكريم طلب النبي إبراهيم وابنه إسماعيل من الله أن يجعل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسلِمَةً لَكَ﴾، وهناك تلميح إلى من هو مؤهل في نسبه ليكون مسلما، ولكن كان من المستبعد وغير الواضح أيضًا أن يصبح ذلك متطلبًا إجباريًا لاعتناق الإسلام.

البداية كانوا يفكّرون بحسب التقاليد القبليّة التي تتطّلب من أولئك الذين ينضمُّون إلى صفوف المسلمين أن يرتبطوا مع قبيلةٍ ما، وإن لم يكن ذلك بالإجراء العمليّ؛ لأنّه يعني أن تكون عضوا في قبيلة فإنّ أعضاءها سيتولون مسؤوليّة الوقوف إلى جانبك إذا ما واجهتك أوقات عصيبة أو كنت ضحيّة أو مرتكبًا لجريمةٍ ما. ولكن يعني أيضًا - ولو ظاهريًا على الأقلّ - أنّ العناصر غير العربيّة تبنّت بعض مظاهر عالم الفاتحين (التعرُّب)، كاستخدام الأسماء العربيّة، وتبنّي شجرة أنساب القبائل العربيةّ. كان الكثير من العناصر غير العربيّة التي لها مكانة في مجتمعاتها قد أصابها الإحباط بضرورة إخضاعها لأحد من العرب ضامنًا لها. ومع ذلك، فإنّ هذه المسألة لم تظهر مع أولئك الذين أُخذوا أسرى؛ لأنّهم عُوملوا غنائم لدى العرب، هؤلاء انتُزعوا من عوائلهم وأصدقائهم ومواطنهم وأُخذوا إلى حاميات المدن لتأدية أعمال مختلفة. في هذا الوسط حيث يسود الإسلام هناك دوافع قويّة للهداية للإسلام، لكن تلك الهداية لا توفّر ضمانًا للانعتاق، لكنّ الكثير ربّما بنوا علاقاتٍ جيِّدة مع أسيادهم الذين وافقوا في الغالب على عتقهم لتعميق الالتزامات فيما بينهم، أو مقابل خدمة لفترة معيَّنة، أو دفعة ماليّة شهريّة، وهذا قد يحوّلهم من أسرى إلى أحرار[1].

انتهى الكثير من هؤلاء الأسرى بالخدمة في البيوتات العربيّة، بتوفير مختلف الأنواع من الخدمات. فعلى سبيل المثال، تحفظ إحدى البرديّات سجلًا بالخدمات

1- المصطلح العربي "مولى" والجمع "موالي"، لكن هذا المصطلح قد تغيّر في معناه نوعًا ما: كان يعني في البداية تابعا، وإنّ التمييز البارز بينهم أن يكون ذا أصول حرّة أو غير حرّة، وليس دينه أو عِرقه (كان هناك موالٍ من المسيحيِّين العرب، لكن من المحتمل أنّ الأغلبيّة كانوا من المسلمين من غير العرب). أمّا في الفترة المتأخرة؛ أصبح يُستخدم بالتحديد لتوصيف المسلمين من غير العرب، وكان من المسلَّم به أنّ العلاقة بين السيد والمولى ليست كالعلاقة بين السيد والخادم (يُفترض الاستقلالية)، إنّما بين الأقارب (يفترض التبادلية). انظر:

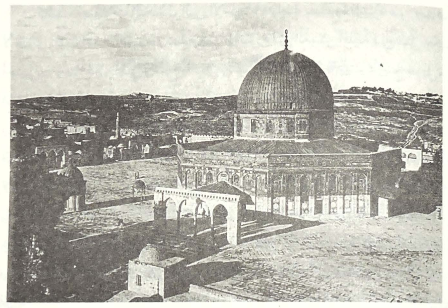
P. Cron , Roman Provincial and Islamic Law (Cambridge, 1987), ch.3.

ويمكن للمسلمين من غير العرب أن يكونوا أسيادًا، وإن كان أغلب الأسياد منذ البداية من العرب المسلمين.

في بيت عبد العزيز بن مروان، أخي عبد الملك ووالي مصر (685-704م)، حيث نجد الكثير من العتقاء يعملون حجَّابًا وأطبَّاء، وكتَّاب رسائل، وخيَّاطين، وبحَّارة، وسرَّاجين، وعمَّالًا. وذكر السجل أيضًا بعض المسيحيِّين المصريِّين الأحرار، من بينهم أثناسيوس بار جومايه Athanasius bar Gumaye، وهو نبيلٌ من شمال بلاد ما بين النهرين الذي وُصف أنَّه «المسؤول عن الشؤون العامَّة في مختلف الولايات» ويرأس فريقًا من أربعة وأربعين سكرتيرًا، وأنَّه انضمَّ إلى الحكومة العربيَّة بناءً على إرادته الخاصَّة، وكرجل حرٍّ (ولم يُستعبَد قطُّ)، ولكن الأكثر عموما، كان الأسرى السابقون يعملون في وظائف الدولة العليا. ومن الأمثلة الجيِّدة على ذلك، رجاء بن هيوا، وهو في الأصل من منطقة ميشان بجنوب العراق، حيث ألقى أحد المحاربين من قبيلة كندة القبض عليه وأخذه أسيرًا، واستقرَّ معه في إقليم الأردن - فلسطين. لكنَّ قابليَّاته جذبت انتباه الخليفة عبد الملك، فخدمه في عددٍ من المهام: معلم لابنه سليمان، ومدير ماليّ لبناء قبَّة الصخرة على جبل المعبد في القدس، ومبعوث في وفود دبلوماسيَّة مهمَّة[1]. (صورة رقم 5.5).

تشير الأدلَّة المعاصرة إلى أنَّ عمليَّات التحوُّل إلى الإسلام بين العناصر غير العربيَّة في العقود الأولى من الفتح كانت نادرةً جدًّا. فقد ذكر المؤرِّخ المصريُّ جون نيكيو أنَّه حينما بدأ غزو العرب لمصر بالنجاح، قام بعض جماعته من سكَّان الأرياف «بالارتداد عن الديانة المسيحيَّة واعتناق عقيدة البهائم»، ولكن لم تصبح عمليَّات اعتناق الإسلام شائعةً إلَّا في عهد عبد الملك كما تشير المصادر المعاصرة. ومن الواضح أنَّ هذه الظاهرة أقلقت السلطات المسيحيَّة التي استهجنت أيَّ شخص يترك جماعته وعقيدته، ولا سيَّما أولئك الذين تحوَّلوا فعلًا «الذين لم يتعرَّضوا للخضوع

1- Papyrus London IV (ed., H. I. Bell, British Museum 1910), 1447; C. E. Bosworth, 'Raja' ibn Haywa al-Kindy and the Umayyad Caliphs", Islamic Quarterly 16 (1972).



صورة رقم 5.5
قبّة الصخرة التي أكملها عبد الملك في القدس عام 92 هجريّة تقريبًا.

لأيِّ قسرٍ أو إكراه، جلدٍ أو كارثة»[1]. بينما كان الآخرون أكثر براغماتيّة، مثل يعقوب أسقف الرها (ت:708م)، الذي أصدر نصيحة لجمهوره حول هذه القضيّة، فقد أفتى أنَّ المرتدَّ التائب والقريب من الموت قد يحصل على القربان المقدَّس، وأنَّ المسيحيِّين الذين تحوَّلوا إلى الإسلام ثمَّ عادوا إلى المسيحيَّة لا يحتاجون إلى تعميدٍ جديدٍ، لكن يجب عليه أن يمضي فترة من الكفَّارة، وعلى زوجات المسلمين من المسيحيَّات اللواتي هُدِّدنَ بالتحوُّل إلى الإسلام يجب أن يحصلن على القربان المقدَّس إن لم يكن حصلن عليه سابقًا، ولكن بنوع من العقوبة المناسبة.

1- John of Nikiu, 114.1, 121.10 ; Hoyland , Seeing of Islam , 265; (من غير إكراه)، . 163-161، (يعقوب).

كانت معدَّلات التحوُّل إلى الإسلام متباينة بصورة كبيرة من جماعة لأخرى. لقد اعتاد اليهود ومنذ زمن طويل على العيش أقليَّةً في ظلِّ حكمٍ أجنبيٍّ، وربَّما كانوا في وضع أفضل. لكنَّ المسيحيِّين لديهم تأريخ طويل من المقاومة ضدَّ الوثنيِّين الرومان، ويمكنهم الاستناد إليها في قوَّتهم وطموحاتهم، ومن بينهم الطائفة المناهضة للخلقدونيِّين الذين أقاموا أصلًا تسلسلهم الهرمي المستقل الخاص بهم منذ فترة ما قبل الإسلام، وهذا يعني أنَّهم في وضع جيِّد لانتهاز الفرصة للتمتُّع بحكمٍ ذاتيٍّ من الناحية العمليَّة كما كان العرب يتوقعونه. واحتفظت الجماعات الزرادشتيَّة بوضعها في المناطق الجبليَّة والبعيدة بشكلٍ جيِّدٍ إلى حدٍّ ما، ولكن في المدن حيث فقدوا في كلِّ الأحوال مكانتهم للمسيحيَّة في القرن السادس الميلاديِّ، يبدو أنَّهم وبعد خسارتهم مناصرة الدولة لهم، أصبحوا أكثر استعدادًا للتخلِّي عن ديانتهم. وإنَّ سرعة التحوُّل إلى الإسلام ترتبط بقوَّة التفاعل والتزاوج مع المسلمين، ولا سيَّما أنَّ الدولة أخذت تعدُّ كلَّ الأطفال المولودين من الزواج المختلط مسلمينَ. ففي مصرَ حيث كان الوجود الإسلامي خفيفًا خلال القرنين الأوَّلين من الحكم العربيِّ، كانت عمليَّات التحوُّل إلى الإسلام بطيئةً جدًّا، ولم يصبح الإسلام دين الأكثريَّة إلَّا في القرن الرابع عشر تقريبًا. أمَّا في العراقِ وخراسان اللذين تحمَّلا القفزة العظمى من استقرار طلائع المسلمين، وكثرة فرص التفاعل الاجتماعي، وعمليَّات التحوُّل إلى الإسلام الأكثر تكرارا؛ أصبح المسلمون الغالبيَّة عند منتصف القرن العاشر الميلاديِّ، إن لم يكن من قبل.

العنصر غير العربيّ وتطوّر الإسلام:

إنَّ الكثير من هؤلاء المتحوِّلين - والأكثر منهم أحفادهم الذين وُلدوا في ظلِّ الإسلام - أرادوا حتمًا اكتشاف ديانتهم الجديدة وتفسيرها، وأن يُوفِّقوا بينها وبين ديانتهم وثقافتهم السابقتين. فضلًا عن أنَّ البحث كان بعيدًا عن القادمين الجدد والعناصر الدنيا للحصول على الاحترام والمكانة الاجتماعيَّة، «ولولا [خبراؤنا] في الحديث النبوي»، كما ذكر أحد الفقهاء العرب، «سنكون على قدم المساواة مع بائع الخضر»[1]. ومنذ أن كان الإسلام خاليًا من طبقة رجال دين، ولم تكن لديه مدارس في مراحله المبكِّرة تحدد الإجازات العلميَّة، كان البحث مفتوحًا أمام كلٍّ من لديه الوقت والاهتمام والقدرة على متابعته. فالكثير من المتحوِّلين إلى الإسلام انتفعوا من هذه الفرصة وكرَّسوا اهتمامهم لتطوير رؤى عالميَّة جديدة. ومن الصعب تدوين أسماء الكثير منهم في قائمة معيَّنة، لكنَّ قلَّة منهم من أصبح مشهورًا، مثل: مقاتل بن سليمان (ت:767م) وهو من أسرى بلخ، ومؤلِّف تفسير للقرآن الباقي حتَّى اليوم؛ ويزيد بن أبي حبيب (ت:746م) وهو حفيد أحد الأسرى من بلاد النوبة، كان في جيله أعلى سلطة شرعيَّة في مصر؛ ابن إسحاق (ت:767م) وهو حفيد أحد الأسرى من عين التمر بالعراق والأكثر شهرة في تدوين سيرة النبيِّ محمَّد؛ ابن جُريج (ت:767م) وهو حفيد

1- كتاب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، نشر: M. S. Khatib Ughli، (أنقرة، 1971)، هامش 320 (al-A'mash). أمَّا بالنسبة إلى الطرق التي عمل معتنقو الإسلام من الفرس لجعل الثقافة الإسلاميَّة ثقافتهم بشكل أكبر، انظر: Savant, New Muslims. ومن الملاحظ أنَّ الفرس جعلوا من أبطالهم الأسطوريِّين في التاريخ الإسلاميِّ أقرباء لسام بن نوح (مثلا، الدينوري، 4، يذكرُ أنَّ جدَّ الملك الأسطوري جمشيد هو Arphaxad "أرفاكس" بن سام).

أحد الأسرى من بلاد الأناضول، الذي جمع الكثير من أحاديث الرسول؛ أبو حنيفة (767م) وهو حفيد أحد الأسرى من كابل، ومؤسِّس المذهب الحنفي؛ وحمَّاد الراوية (ت:772م) وهو حفيد أحد الأسرى من بلاد الديلم، خبير في الشعر العربيِّ القديم. وعلى الرغم من أنَّ كلَّ هؤلاء نالوا شهرتهم في الفترة المتأخرة عن تلك التي يتناولها هذا الفصل من الكتاب، فإنَّهم كلَّهم وُلدوا خلال فترة حكم عبد الملك والوليد، وهم في الواقع نتاج سياسات الأسلمة لهؤلاء الخليفتين.

لقد أدرك الفاتحون أنفسهم أنَّ المتحوِّلين إلى الإسلام من العناصر غير العربيَّة بدؤوا يتسلَّقون السلَّمَ الاجتماعيَّ في مجتمعهم، كما يتوضَّح في عددٍ من القصص والحكايات المعاصرة. يذكر أحدهم كيف أنَّ المحدِّث ابن شهاب الزهريَّ ذهب لرؤية الخليفة عبد الملك، الذي سأله من هو أعلى سلطة دينيَّة في الولايات والمدن المهمَّة في الإمبراطوريَّة - الجزيرة العربيَّة، مصر، بلاد الشام، الجزيرة، خراسان، البصرة، والكوفة - وهل هم من المسلمين العرب، أو من المسلمين غير العرب. وفي كلِّ الأحوال، كلُّهم من المسلمين غير العرب، عدا الكوفة. وهذا ما أثار دهشة الخليفة، أنَّ غير العرب «سيتفوَّقون على العرب إلى الحدِّ الذي سيعظونهم من على المنابر، والعرب يجلسون دونهم للإصغاء لهم». ولكنَّ أمير المؤمنين، يردُّ ابن شهاب «أنَّها مسألة دين كلية، فمن استوعبها سيكون هو المسؤول، ومن أهملها سيكون هو الخاسر»[1]. من الممكن أن تكون هذه القصَّة منسوبةً لابن شهاب، لكنَّها

1- ذكرها

G. H. A. Juynboll, "The Role of Non-Arabs , Mawali, in the Early Development of Hadith", Le Museon 118 (2005), 358,

وأورد معلومات أكثر عن العلماء المسلمين من غير العرب الذين ذكرتهم أعلاه. وللأمثلة أكثر، راجع:

H. Motzki, The Role of None-Arab Converts in the Development of Early Islamic Law, Islamic Law and Society 6 (1999),

وهو يجادل ضدَّ ذلك، ولكنَّه لا يدرك أنَّ تعريف معنى العرب قد تغيَّر، وأنَّه لا يزال يتحدَّث عن "العرب الأصلاء".

توضِّح بصورةٍ لطيفة تغيُّر معنى أن تكون عربيًّا. كان عبد الملك متمسِّكًا بالتعريف التقليديِّ الذي يمكن أن نسمِّيه «الجنس العربي»: وهو الشخص الذي (كان آباؤه وأجداده عربا) يكون عضوًا أصيلا في قبيلة عربيَّة، وليس الذي أصبح (أو آباؤه وأجداده) عضوًا ملحقًا بتلك القبيلة (أي مولى)[1]. وعلى الرغم من أنَّ المؤهلات العرقيَّة لكي تكون عربيًّا، حيث تسود عناصر الأنساب والجغرافيا، أصبحت لا علاقة لها بتلك المؤهلات؛ بدأ التعريف الثقافيُّ يترسَّخ أكثر وأكثر: فالعربيُّ أيُّ شخصٍ يتحدَّث اللغة العربيَّة، واسمُه عربيٌّ، وينسجم مع تطوُّر القواعد الثقافيَّة والأخلاقيَّة لمجتمع الفاتحين.

أصبح من الصعب أن تتحدَّث عن المثقَّفين العرب بعيدًا عن الجنس العربيِّ. وحينما فُرضت هذه المسألة، مثلًا، حول إبراهيم النخعيِّ (ت:713م) الذي ذهب ليكون قاضيًا ضليعًا سواء كان عربيًّا «أصيلًا» (من الجنس العربيِّ)، أم غير ذلك، لم يكن أيُّ أحد متأكدًا، ولذلك كان عليهم الرجوع إلى السجل العسكريِّ للتدقيق في سجل قبيلة نخع، ووجدوا مدوَّنًا أنَّه ليس من أتباع هذه القبيلة. وفي حالة أخرى، حينما واجه أحد الجنود من قبيلة تميم العجل رجلًا على الحدود الشماليَّة لبلاد فارس يعرف عائلته وأكد أنَّه منحدر مباشرة من قبيلة العجل، وقال له: «لم يحاول أبوك تتبُّع نسبه بين العرب، وإنَّما بين الفرس، فكيف تدَّعي أنَّ أسلافك من قبيلة العجل؟». أجاب الرجل: «إنَّ أمِّي أخبرتني بذلك». فمن الطبيعي كان الضرر والغيبة حول من هو العربي «الأصيل» يستمرَّان في بعض الأوساط، ولا سيَّما بين العرب ذوي النسب البارز الذي لديه مصلحة راسخة بالمحافظة على التعريف القديم للهُويَّة العربيَّة، الذين يتخوَّفون من طوفان القادمين الجُدد. ترسَّخ مفهوم العروبة تدريجيًّا كما هو واضح من الأحاديث

1- وربَّما بعض القبائل مثل تغلب وتنوخ كانوا من سكَّان المناطق الواقعة بين بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، لكنَّ المؤرِّخين المسلمين يذكرون أنَّ أصلهم من الجزيرة العربيَّة وهاجروا شمالًا بعد انهيار سدِّ مأرب في الماضي البعيد.

التي نُسبت إلى النبيِّ محمَّد، التي تضمَّنت تعريفًا للعربيِّ الأكثر تحرُّرًا، الذي يبدأ ببساطة «بكلِّ من يتحدَّث العربيَّة فهو عربيٌّ»[1].

نستطيع القول إنَّ الإمبراطوريَّة العربيَّة أصبحت تتكوَّن من مجتمعٍ مهاجرٍ، لكنَّ السكَّان لم يهاجروا من بلدٍ لآخر، (وإن هاجر بعضهم أيضًا)، ولكن كان من بين الصفوف هجرة الشعوب المفتوحة إلى مجتمعات الفاتحين. وبذلك انتقلنا بسرعةٍ إلى حدٍّ ما من مجتمع الفاتحين الذي تكوَّنَ بصورة رئيسة من الجنس العربيِّ إلى مجتمعٍ مهاجرٍ عالميٍّ، المسلم فيه من كلِّ أنحاء الإمبراطوريَّة، ولا سيَّما بعد أن أصبح أحفادهم يُوصفون بالعرب، وإنْ كانوا قلَّة. وهكذا أصبحت تسمية العربي تشبه تسمية «الأمريكي» اليوم، تنطبق على مجتمعٍ مختلف الجذور لكنَّه يشترك في قيم ثقافيَّة ولغةٍ عامَّة واحدة. فعند نهاية العصر الأمويِّ نجد المسلمين من أصول غير عربية في كلِّ مجالات الحياة وبين كلِّ صفوف المجتمع، ربَّما عدا ما يحيط بالخليفة نفسه. في البداية كان السخط جوابًا لمن يريد الزواج من المسلمين العرب، ربَّما عدا أولئك الذين يتمتَّعون بمكانةٍ رفيعةٍ أو علاقات جيِّدة يستطيعون تحقيق ذلك. فعلى سبيل المثال، تزوَّجت خالة الخليفة يزيد الأوَّل من أحد الموالي، لم يجرؤ أحد على الاستهزاء علانية بذلك سوى أخيه وحده، بأنَّها أُعطيت إلى أحد العبيد؛ وكذلك استطاع كهظم (قعظم) بن سليمان - وهو حفيد أحد الأسرى من أصفهان - الزواج من امرأةٍ عربيَّةٍ من بني الجارود؛ بسبب منصبه وهو جابي الجباة في الإدارة الأمويَّة، وللمكانة الرفيعة للعائلة العربيَّة التي ارتبط بها. وعلى أيَّة حال، بدأت هذه العوائق بالتلاشي بمرور الوقت، وبشكل خاصٍّ حينما قُضِيَ على حكم العائلة الأمويَّة في

1- البلاذريُّ، أنساب الأشراف، (Wiesbaden, 1978)، 3.95 (النخعي)؛ البلاذري، 324 (العجل)؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، نشر: شبيري (بيروت، 1995-1998) 225-225. 4 (عرب). وعن خوف العرب من تفوُّق الأجانب عليهم بالعدد، انظر:

P. Cron , " Imperial Trauma," Common Knowledge, 12 (2006).

عام 750م على أيدي رجالٍ قدِموا من شرق بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر، وأغلبيتهم من غير العرب[1].

العناصر غير العربيّة والجيش

لم يكن الحقل الدينيُّ وحده من شغلته العناصر غير العربيَّة، ولكن في مجال الجيش أيضًا، على الرغم من الصعوبة التي واجهوها في البداية لاختراق ذلك. كانت الجيوش الفاتحة في البداية تتألّف من القبائل العربيَّة، عدا بعض الجماعات المعيَّنة المعترف بمؤهلاتها الحربيَّة، مثل البربر من لواتة، والديالمة، والنخب من وحدات الفرسان الساسانيَّة، وهكذا، ومع ذلك، كان هؤلاء يخدمون في الوحدات الثانويَّة الملحَقة بالجيش بوصفهم حرفيِّين وعمَّالًا ومرشدين وتقديم المساعدات الشخصيَّة وغيرها. فالطبيعة القبليَّة للجيش جعلت من الصعب انخراط العناصر غير العربيَّة فيه، وكان العمل بذلك في بعض الحالات الخاصَّة فقط، فالفرسان الساسانيُّون – على سبيل المثال – أُلحقوا كوحدة قتاليَّة بقبيلة تميم العربيَّة الشرقيَّة. فمن غير العمليِّ أن يتم حشد القبائل وتبقى في الميدان، ولا سيما أنَّها أصبحت تتدخَّل في القضايا السياسيَّة كما يتوضَّح من الحرب الأهليَّة الثانية. لذلك قرَّر الحجَّاج بن يوسف – اليد اليمنى لعبد الملك – أن يكون الجيش محترفًا، وجيء بالقادة العسكريِّين والأفواج تدريجيًّا بدلًا من القبائل والزعماء. وانتهز الفرصة أيضًا لإصلاح نظام المكافآت الباهض الثمن وجعل بدلا منه الرواتب مكافأةً عن الخدمة السابقة في عمليَّات الفتوح،

1- البلاذري، أنساب الاشراف، (القدس، 1936–1971)، 247 a4 (عمة يزيد)؛
W. al-Qadi "The Names of Estates in the State Registers," in A. Borrutand P. Cobb, eds., Umayyad Legacies(Leiden, 2010), 263
الذي أمدنا بتفصيلات كثيرة عن حياة قصصهم.

وكرواتب منتظمة مقابل الخدمة العسكريَّة المستمرَّة. وفي الواقع، إنَّه أنشأ جيشًا محترفًا، وأخرج العرب الذين لا يرغبون في أن يكونوا جنودًا دائمين فيه وأصبحوا من المدنيِّين.

أصبح الآن الطريق مفتوحًا للعناصر غير العربيَّة بالانخراط في الجيش، وهناك عاملان يؤثِّران في انخراطهم، فمن ناحية الطلب شجَّعت المواجهات الكثيفة والقاسية بين مختلف المجموعات العربيَّة التي بدأت مع الحرب الأهليَّة الثانية مختلف المتنافسين لمحاولة كسب عددٍ من الفوائد باستخدام العناصر غير العربيَّة. فعلى سبيل المثال، حينما بدأ العبيد لدى المسلمين بالهرب أكثر فأكثر للانضمام إلى المتمرِّدين الذين تقودهم بيزنطة في جبال لبنان، أعلن عبد الملك أنَّ أيَّ عبدٍ يعود سيُحرَّر ويُسجَّل اسمه في سجلَّات الجيش، لاغيًا جميع القواعد السابقة بالخصوص. نفَّذَ هذا الوعد ووضعهم في وحدة خاصَّة بهم. لقد اشتكى منذر بن الزبير - أخو عبد الله الذي كان يتنافس مع عبد الملك على الخلافة - أنَّه خلال المعارك كان يجب على خصومه مواجهة «الفلَّاحين الأرمن»، وهذا الانتقاد لقوَّات بلاد الشام أصبح يتكرَّر مرارًا، وبالتحديد، كان خليط من العناصر غير العربيَّة يقاتل إلى جانب تلك القوَّات. وكما قال المتمرِّد يزيد بن المهلَّب لأتباعه قبل مسيرهم لملاقاة الجيش القادم من بلاد الشام في عام 720م: «لقد توجَّه إليكم البربر، والسلاف، والجرامقة، والقبارصة، وفلَّاحين أرمن وتشكيلة مختلفة الألوان من البشر». كانت مثل هذه التصريحات تُعدُّ إهانةً بالطبع، ولكن فيها الكثير من الحقيقة لجعلها ذات مصداقيَّة، وأنَّها في الخطِّ نفسه لما يتوقَّع المرء من جيش إمبراطوريٍّ ناجح. بلغ هذا التطوُّر ذروته في وقت العباسيِّين الأوائل، كما يذكر أحد المؤرِّخين الذي كان يراقب جيوشهم وهي تقاتل في الجزيرة في ستينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ، حيث كانت تتكوَّن من «خليط من كلِّ الأمم، وكانوا يدعون «بزبانية الخليفة»،

ويضمون عناصر من السند، واللان، والخزر، والفرس، والميديين، والكوفيين، العرب، الخراسانيِّين، والأتراك»[1].

أمَّا من ناحية الانخراط في الجيش؛ فقد وجد العرب عدم وجود عجز في المتطوِّعين من غير العرب. كان من المعروف آنذاك «فما عليك إلَّا الإعلان أنَّه سيُعفى من اعتنق الإسلام من الضريبة، سيأتي إليك خمسون ألف مسلم» مستعدُّون للخدمة نيابةً عنك. وليس عدم دفع الضرائب في الجيش فقط، ولكن تسلُّم الرواتب والأجور أيضًا، وهكذا أصبح الكثير من الشعوب المفتوحة ترغب بالخدمة في الجيش. إنَّ توفير هذه الخدمة المقترنة بثورات العرب المتكرِّرة أصبحت تعني أنَّ الخلفاء والولاة وحتَّى الأفراد الأقوياء أو الأغنياء بدؤوا بالحصول على حاشيات من الموالي، وفي بعض الأحيان من العبيد. ولم يقتصر ذلك على الحكَّام العرب: ففي الحرب الأهليَّة الثانية كان النبلاء الفرس يقاتلون إلى جانب القادة العرب من طريق مواليهم وعبيدهم. والكثير من هذه الحاشيات من أصول مختلطة، لكن بعضها ينحدر من مناطق معيَّنة - مثل الكيكانيَّة (جنوب غربي باكستان الحاليَّة)، والبخارية (من بخارى) - أو تم تجنيدها من أشخاص معيَّنين، الذين يديرون الحاشية نيابةً عن سيِّدهم. على سبيل المثال، كانت الوداهية (الوضاحيَّة) يقودها مولى بربري للأمويِّين يُدعى وداه (وضَّاح) Waddah وتولَّى أبناؤه وأحفاده وظيفته. وهنا يتبادر إلى ذهن المرء الجيش الروماني المسمَّى bucellarii، وهو جيش أو جيوش خاصَّة يجهزها وينفق عليها زعماء مختلفون، وتقوم بمهام الحماية الشخصيَّة أو وحدات نخبة. والنموذج الأكثر تشابهًا هو منظمة الجاكرز Chakars المعروفة في

1- البلاذري، أنساب الأشراف (القدس 1936-1971)، 5.300، b 4.50 (منذر بن الزبير؛ أمبات الشامي؛ قارن: الطبري، 2. 1092: جرامقة من أهل الشام): جاهز (ت :869م)، البيان والتبيان، الناشر: السندوبي (القاهرة، 1926-1927) و1.196 (يزيد بن المهلب)؛ Chronical of Zuqnin, 206 (الجيوش العباسية في الجزيرة).

فترة ما قبل الإسلام في أواسط آسيا، وهم جنود محترفون يُجنَّدون من عامَّة الناس من النبلاء الأتراك والسوجنديِّين، حيث يخلصون لهم ويلتزمون معهم، في بعض المناسبات على الأقلِّ بموجب مفهومٍ خياليٍّ. «هؤلاء رجال ذو حماسة متقدة»، كتب الحاج أكسوان زنج في القرن السابع الميلادي: «الذين ينظرون للموت كعائد لأسرهم، ولا يمكن لعدوٍّ الوقوف أمامهم»[1].

وُجدت العناصر غير العربيَّة في البداية بين صفوف العسكر فقط، ولكن تمكَّنت تدريجيًّا من شقِّ طريقها إلى المناصب العليا في الجيش، وسيرة حيَّان النبطي (ت:720م) نموذجًا لذلك. لقد التقطه القائد مصقلة بن هبيرة إمَّا حينما كان واليًا لبلاد فارس أو في إحدى الحملات على طبرستان، أو في مكانٍ ما من أسواق العبيد في البصرة أو الكوفة. ولا نعرف كثيرًا عن سيرة حيَّان المبكِّرة، ولكن وجدناه في مطلع القرن الثامن الميلاديِّ قائدًا للقوَّات غير العربيَّة في خراسان. كان من المفاوضين المحترمين بشكلٍ خاصٍّ في المفاوضات والمعاهدات مع حكَّام بلاد فارس، ربَّما هو نفسه كان يعود لنبلاء بلاد فارس ويتحدَّث الفارسيَّة. وأصبح ابنه مقاتل بن حيان من أشهر العلماء بمدينة بلخ، ونتيجة للاحترام الذي حصل عليه، استخدمه حكَّام شرقيُّون مختلفون رسولًا لهم أو وسيطًا ينوب عنهم، وقاد القوَّات الموالية للأمويِّين في بلخ في عام 747م، مبينًا كيف أصبحت تلك القوَّات غير العربيَّة جزءًا مكمِّلًا للجيش العربيِّ.

1- الطبري، 2.1024؛ نبلاء الفرس مع الموالي/ العبيد: البلاذري، أنساب الأشراف، الناشر: سهيل زكار والزركلي (بيروت،1996) 7.413 (فيروز حسين)، والبلاذري، 366 (عبد الله الأصفهاني)؛ P. Cron, Slaves and Horses (Cambridge, 1980), 37-38.. حول تشاكرز chakars، انظر: E.de la Vaissiere, "Chakars d'Asia Centrale," Studia Iranica 34 (2005)، وهو الذي ذكر الرسالة أعلاه من أكسوان زانج.

العنصر غير العربيّ في ثورة (هيجان)

إنَّ المسلمين غير العرب الذين غالبًا ما نسمع عنهم في مصادرنا هم أولئك الذين انضمُّوا إلى المؤسَّسات الإسلاميَّة، ولكن بعضهم من عارضها، واصطفَّ مع مختلف الجماعات المتمرِّدة، سواء كانوا عربًا أم غير عرب، مسلمين أم غير مسلمين. هناك الكثير من هذه الحركات، ومن المفيد أن نُلقي نظرةً على مثلينِ يوضِّحان ذلك. الأوَّل: يتعلَّق بالتمرُّد الذي حدث خلال الحرب الأهليَّة الثانية في نصيبين، وهي مدينة ذات موقع استراتيجيٍّ على الحدود التركيَّة - السوريَّة في الوقت الحاضر، حيث تقاتل الفرس والبيزنطيُّون عليها في الماضي، والآن استنادًا إلى الراهب جون فينيك الذي كان يسكن بالقرب منها، كلٌّ من العائلة الأمويَّة الحاكمة والمتمرِّدون المناهضون للحكومة يدَّعون بعائديتها[1]. كانت الجماعات المتمرِّدة بقيادة المختار بن أبي عبيد الذي يدَّعي أنَّه يعمل بالنيابة عن (الحسين) ابن الخليفة علي. كان غاضبًا من عرب الكوفة الذين خسروا المعركة مع الأمويِّين، وأصدر أوامره بتحرير جميع عبيدهم والذهاب للمعركة إلى جانب أسيادهم. التفَّ هؤلاء العبيد بالآلاف حول المختار، وكان «كلٌّ ما يحملونه بأيديهم إمَّا السيوف أو الرماح أو العصي». يذكر جون أنَّهم «عبيد لأشخاص كانوا في الأسر أصلا» و«انضمَّ إليهم كلٌّ من كان تحت السماء». شاركوا في شهر آب عام 686م في معركة عند نهر الخازر بالقرب من الموصل إلى جانب المختار ضدَّ الحاكم الأمويِّ عبيد الله بن زياد وهزموه، ثمَّ دخل أولئك العبيد إلى نصيبين واستولوا عليها، وطردوا كلَّ أولئك الذين حاولوا أخذها منهم. وقتلوا القائد الذي عيَّنه نائب المختار عليهم ويده

1- Mingana, Sources Syriaques, 158 and 185-186، (جون فينيك والأحداث في نصيبين).

اليمني، مع جميع أصحابه «لأنَّهم يفضِّلون قائدًا من بين صفوفهم»، وليس قائدًا «يعود للعرب». وتجمَّع آخرون ينحدرون من أفراد كانوا في الأسر أصلًا، وانضمُّوا إلى من كان في مدينة نصيبين. وكلَّما مرَّ يوم، انضمَّ إليهم الكثير من كلِّ الأركان، حتَّى استولوا على عددٍ من الحصون، «وأنزلوا الخوف بالعرب كلِّهم.»

أكَّدت المصادر الإسلاميَّة حدوث هذا النوع من ثورات العبيد، وإن كانت تتعلَّق بردِّ فعل العرب عليها، حتَّى اشتكى أحد وجهاء الكوفة من «أنَّ عبيدنا يتمرَّدون علينا، فضلًا عن أنَّهم من غنائمنا التي أنعم الله علينا معًا مع هذه الأراضي». أوضح الراهب جون، نحن الآن نرى تمرُّدًا لرجالٍ اُقتلعُوا من أوطانهم، وأُجبروا على حياة العبوديَّة في بيئة غريبة في مدن الحاميات العربيَّة، وانتهزوا الفرصة الآن التي عرضها عليهم المختار للتمرُّد ضدَّ أسيادهم. لم تكن كلُّ قوَّات المختار من العبيد، مقابل الموالي الذين ما زالوا يخدمون أسيادهم (تشير المصادر الإسلاميَّة في العادة إلى «العبيد والموالي»)، ولكن من الواضح كان كلُّ أولئك في نصيبين أسرى حرب، ومستائين من العرب الذين ألقوا القبض عليهم، ويبحثون عن حريَّتهم.

إنَّ القوَّات الشعبيَّة التي أطلقها الإمبراطور البيزنطيُّ قسطنطين الرابع في جبال لبنان في سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ كانت من الواضح تصبُّ في بؤرة الامتعاض والاستياء نفسه الذي تضخمت صفوفه أيضًا من الأسرى الهاربين. لقد أدَّت الفتوحات العربيَّة إلى الاستيلاء على أعدادٍ هائلةٍ من الناس وإخلائهم من أوطانهم، والآن يبدو أنَّ الإمبراطوريَّة العربيَّة في طريقها للانحلال، انتهز الكثير من أسرى الحرب الفرصة للهروب من عبوديَّتهم. فمن المثير للاهتمام أن نرى كيف كان الكثير منهم حسَّاسًا لذلك: خلال خمسين عامًا من الفتوحات انخرطوا في ميدان القوى السياسيَّة العربيَّة نذيرًا بالأحداث القادمة. ومع ذلك، وبسبب أنَّهم لم يكونوا مجهَّزين جيدًا، ولا مدرَّبين جيدًا، فإنَّهم لا يتساوون في النهاية مع القوَّات العربيَّة، خصوصًا حينما تُسوي خلافاتها وتُنهي حروبها الأهليَّة.

والمثال الثاني يتمثَّل بمأثرة موسى بن عبد الله بن خازم، الذي - بعد اغتيال والده - تجمَّع حوله بعض رجال قبيلته، وعدد من الصعاليك المحلِّيِّين، وعبرَ إلى بلاد ما رواء النهر للبحث عن مغامرة. لقد تأثَّروا تدريجيًّا بالنبلاء المتوجِّسين من نواياهم، لكن سيِّد مدينة ترمذ الواقعة على نهر أوكسوس منحهم الضيافة، وإنْ أسف فيما بعد على ذلك؛ لأنَّ موسى قرَّر أن يأخذ من هذه المدينة موطنًا له وطرد مضيفه بصورة غير مشرِّفة. تولَّى هو وأتباعه إدارة دويلة صغيرة بقوَّة، لكنَّ صفوفه تضخَّمت برجالٍ من مختلف الخلفيَّات الحاقدة على الأمويِّين وولاتهم. كان من أبرز الضيوف الأخوان حريث وثابت قُطبة، من الأرستقراطيَّة المحلِّيَّة التي اعتنقت الإسلام، وألحقوا أنفسهم بقبيلة عربيَّة، لكنَّهم تعرَّضوا للإهانة من يزيد بن المهلب والي خراسان (702–704م، 715–717م)، وعرضوا خدماتهم على موسى. حاولت الجيوش العربيَّة والتركيَّة استرجاع ترمذ لعدَّة مرَّات من موسى، لكنَّها صُدَّت جميعها. ومع ذلك، لاقى موسى مصيره فقط حينما بدأ تحالفه الذي حاكه بين العرب والسكَّان المحلِّيِّين بالتفكُّك، وانتهى الأمر بتدمير الطرفين أحدهما للآخر. لقد نجح موسى لوقتٍ طويلٍ بضبط المجموعات المختلفة معًا؛ لأنَّه نفسه كان نتاجًا لعالمين اثنين إلى حدٍّ ما. كان والده عبد الله بن خازم من قبيلة سُليم من غرب الجزيرة العربيَّة، وتربَّى في بيئةٍ قبليَّةٍ وقاتل في صفوف الجيوش العربيَّة في حملات كثيرة في المشرق العربيِّ، لكنَّ والدته كانت ابنة حاكم آزاداور Azadawar، بالقرب من قمس Qumis في شمال إيران، في حين قضى موسى معظم وقته في الشرق. وفي إحدى الملاحم عن مآثره، أنَّه جاء بالصدفة بصفة شخص يسمو فوق فئات الأشخاص من السود والبيض من العرب وغير العرب، من المسلمين وغير المسلمين، من رفيعي المولد ووضيعي المولد، وتوضِّح كيف أنَّ العلاقات بين هذه المجموعات المختلفة كانت غامضةً ومعقَّدةً ومتغيِّرةً[1].

1- حول موسى، انظر: الطبري، 2. 1145–1164، والبلاذري، 415–419.

الفصل السادس

التخندق والثورة (715 ـ 750م)

شهدت الإمبراطوريَّة العربيَّة في الفترة حتَّى عام 750م توسُّعًا هائلًا يمتدُّ من إسبانيا وشمال أفريقيا في الغرب، وإلى بلاد السند وبلاد ما وراء النهر في الشرق. لكنَّ الخليفة سليمان بن عبد الملك كان يأمل أن يُتَوِّجَ هذه النجاحات بجائزة نهائيَّة تتمَّثل بالاستيلاء على القسطنطينيَّة، لكنَّ حصاره لها الذي استمرَّ لسنتين (717-718م) انتهى بالفشل وخسارة أغلبية القوَّة الغازية. وهو أيضا لم ينهِ حلمه بإضافة بيزنطة إلى قائمة الأعداء المهزومين فقط، ولكن شجَّع الشعوب الأخرى أيضًا على تحدِّي سلطان العرب، وأسهمَ في إيقاف قوَّة الفتوح الهائلة. فالهزائم الكبيرة على أيدي الفرنجة والخزر والأتراك والهنود في ثلاثينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ وضعت حدًّا لتمدُّد الحكم العربيِّ. حينئذٍ، اندلعت ثورات البربر في الشمال الأفريقيِّ في أربعينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ، التي أدَّت إلى انفصال أجزاء من ذلك الإقليم من السيطرة العربيَّة، وبزوغ حكم العوائل المحليَّة، وهذه الظاهرة ستنتشر في عموم الإمبراطوريَّة العربيَّة في القرن التاسع الميلاديِّ.

لقد أصبح موقف بيزنطة محفوفًا بالمخاطر قليلًا بعد خسارتها لقرطاج في عام 698م وسلسلة من الهزائم في بلاد الأناضول في العشر سنوات اللاحقة. ومع ذلك، فقد استطاع الإمبراطور القدير ليو (717-741م) المحافظة على عزيمة بيزنطة الثابتة بوجه حصار العرب لعاصمته، وبعد أن أصبح مزهوًا بنجاحه، استطاع إكمال العمليَّة التي بدأها الإمبراطوران كونستانس وقسطنطين الرابع بالتأكُّد من أنَّ بيزنطة تملك القوَّة والموارد، مِمَّا يمكنها البقاء والازدهار إلى حدٍّ ما لقرون قليلة لاحقة. وتوَّجَ إنجازاته بالانتصار في عام 740م بوجه جيشٍ عربيٍّ كبيرٍ يتكوَّن من عشرين ألف فارس، الذي تقدَّم في فريجيا في وسط غرب بلاد الأناضول بقيادة المحارب المشهور عبد الله البطل. فأحاطَ بالعرب وذبحهم حتَّى آخر رجل، كما ذكر أحد المؤرِّخين المسيحيِّين: «حيث لم يشهد العرب مثل هذه الكارثة من قبل»[1]. استعادت بيزنطة الآن ثقتها بنفسها بعد قرن من الزمن تميَّز بموقفها الدفاعيِّ، وأصبحت مرَّة أخرى راغبةً في الاشتباك مع الجيوش العربيَّة في الميدان، وليس الاختباء في حصونهم. ولذلك، أجبر العرب على الاعتراف - ولو ضمنيًّا وتدريجيًّا - أنَّهم لا يمكنهم إخضاع البيزنطيِّين والخزر والفرنجة والهنود، في هذا الوقت على الأقل.

ومع ذلك، لم يكن الوقت وقت شؤم وكآبة للحكَّام العرب، بل بدؤوا الشعور بالراحة الآن مع ثرواتهم غير الاعتياديَّة، ولا سيَّما بعد أن شرعوا بإنفاقها على الجوانب الماديَّة، تعبيرًا عن سخائهم وقوَّتهم. فقد افتتح الوليد بن عبد الملك (705-715م) مثل هذا النشاط بالبناء الأنيق والجميل للمسجد الأمويِّ بدمشق، (صورة رقم 6.1)؛ لكي يشعر المسلمون بالفخر أنَّ لديهم مكانًا للصلاة يضاهي الكنائس المسيحيَّة الفخمة[2].

1- Theophanes, 411 ; Chronical of Zuqnin, 162.

2- أو على الأقل كان هو الدافع وراء بنائه كما يذكر المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" (ترجمة: B. A. Collins, Readings, 1994,146)؛ F. B. Flood, The Great Mosque of Damascus (Leiden, 2001) وتمدُّنا بدراسة داخليَّة جميلة عن هذه المبنى الكبير.

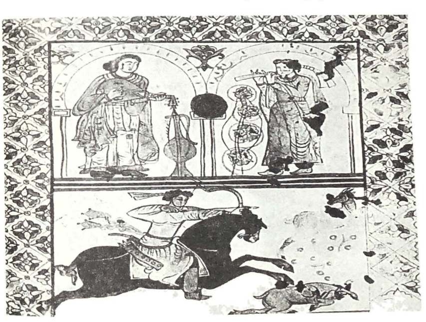
واقتفى خلفاؤه الأثر بهمّة عالية مستخدمين أعدادًا رائعة من البنّائين، فبنى الخليفة سليمان بن عبد الملك «القصور، والحدائق، والطواحين» عند ينابيع جرش، «واندهش أحد المسيحيّين المعاصرين للكثير من «الفيلّات، والحوانيت، والنُزل والحدائق» التي بناها الخليفة هشام بن عبد الملك (724-743م)[1]. ولا يزال الكثير من هذه



(صورة رقم 6.1)
فناء مدخل قاعة الصلاة في الجامع الأمويّ بدمشق، بناؤه في عام 706م

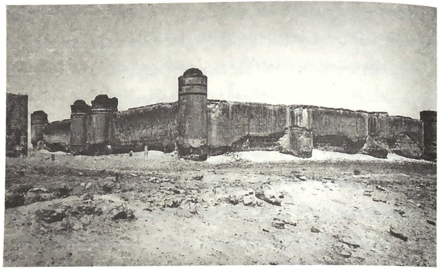
1- ثيوفيلوس، 224،272. وحول المباني الأموية، انظر:
D. Genequand, " Formation et devenir du paysage architectural Omeyyade," in Borrut, ed., Umayyad Legacies (Leiden, 2010), and A. Walmsley and K. Damgaard, "The Umayyad Cingregational Mosque in Jarash", Antiquity 79 (2005).

المباني شاخصة للعيان، أو رُمِّمت من الناحية الآثاريَّة، لتشهد على خطَّة الأمويِّين وشركائهم في بناء هذه المباني الشامخة، ولتكون مظهرًا دراماتيكيًّا بالحجر عن قوَّتهم على الأرض. (صورة رقم 6.2 و 6.3). ربَّما يقول المنتقدون إنَّ هذه القوَّة الكبيرة والثروة كانت بأيدي عائلة واحدة: الوليد، سليمان، وهشام أولاد عبد الملك، كما كان يزيد الثاني (720-724م)، وعمر الثاني (717-720م) ومروان (743-750م) وهؤلاء جميعا من أحفاده. إنَّ تركيز هذه القوَّة الكبيرة ضمنت خلافة العرش لبعض الوقت، لكنَّها أيضًا راكمت الاستياء المتزايد الذي تتوج في سلسلة كاملة من الثورات في أربعينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ، ثم سقوط العائلة الأمويَّة في عام 750م معًا برفقة شبكة المساندين لهم في بلاد الشام.



صورة رقم 6.2

صور على حائط قصر الحير الغربيِّ الأمويِّ، شمال شرق دمشق، تظهر عازفي الموسيقى في البلاط، وأحد رماة السهام على وفق النموذج الفارسيِّ.



صورة رقم 6.3
منظر خارجيٌّ لقصر الحير الشرقيِّ في صحراء بلاد الشام، إلى الشرق من دمشق.

بلاد الأناضول والقسطنطينية

حينما اعتلى سليمان العرش في عام 715م، كانت المئويَّة الأولى من حكم العرب تقترب بسرعة لتعلن بصوتٍ مدوٍّ أنَّها السنة التي انتصر فيها الحكم الإسلامي عبر العالم المعروف آنذاك. وعلى أمل أن يُنجز تنبؤه، تعهَّد سليمان: «لن أتوقف عن الكفاح مع القسطنطينيَّة حتَّى أفتحها أو أدمِّر كلَّ سلطان العرب في محاولتي»[1]. كان أخو الخليفة مسلمة العقلَ المدبِّر للحملة، فحشد جيشًا كبيرًا، وبنى خمسة آلاف

1- هناك مصادر عدَّة تتحدَّث عن هذا الحصار، وبعضها يستمدُّ أخباره من مصادر بيزنطيَّة وعربيَّة معاصرة له. والمعلومات التي اعتمدنا عليها من ثيوفيلوس، 209-215 وأكملناها من

Chronical of Zuqnin, 150-152; Chronical of 720 (in Theophanos, 396-399, and Nikephoros, §54-56); Lewond, 109-113.

سفينة ملأها بالجند والتجهيزات. وجمع اثنا عشر ألف عامل، وستَّة آلاف جمل حمَّلها بالسلاح والمجانيق، وستة آلاف بغل لنقل الإمدادات، وعلى رأس هؤلاء ثلاثة آلاف من المتطوّعة لدعم قوَّات الجند النظاميِّين، وهؤلاء يعودون - بحسب مصدر شاميٍّ - إلى «طبقة العرب الذين لا يملكون شيئًا»، وأنَّهم ذهبوا مع الحملة على أمل نيل رضا الله والحصول على الغنائم الدنيويَّة. وجهَّز أصحاب الأموال المبالغ للإنفاق على الحملة بحسب قواعد البيع والشراء السائدة؛ لأنَّهم يتوقَّعون أن يُعَوَّضوا من الغنائم التي سيستخرجونها من المدينة الإمبراطوريَّة. وكما هو الحال مع المحاولات السابقة على القسطنطينيَّة، يكون الهجوم من محورين: يتقدَّم سليمان بن معيض من البر، وعمر بن هبيرة من البحر.

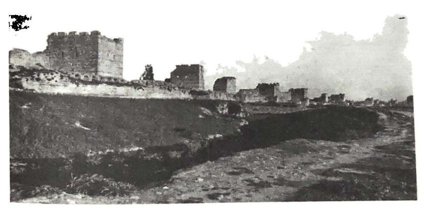
وبعد مسيرةٍ طويلةٍ نحو مدينة آموريوم Amorium في وسط غرب بلاد الأناضول، وجد سليمان هناك القائد البيزنطيَّ المدعو ليو، الذي توصَّل إلى تفاهمٍ مع العرب، وأدَّى إلى اعتقادهم أنَّه سوف يساعدهم للاستيلاء على القسطنطينيَّة مقابلَ أن يُصدرَ مسلمة أوامره بعدم إحداث أيِّ ضررٍ بالمناطق التابعة إلى ليو، حتَّى «لا يأخذوا رغيف خبز». ومن جانبه أمر ليو الأسواق المتجوِّلة أن تعرض بضاعتها على العرب، وأن يقوم البيزنطيُّون بالبيع والشراء بإخلاص ومن دون خوفٍ. كان الهدف الرئيس لليو الاستحواذ على العرش الإمبراطوريِّ لنفسه، لاعتقاده أنَّه الأفضل تأهيلًا لحماية بيزنطة من العرب، ولكن ذلك أدَّى إلى استياءٍ واسعٍ بين المواطنين البيزنطيِّين من نيَّاته، وهم يرونه مصطحبًا القوَّات المعادية. ففي آموريوم توجَّه مباشرة إلى أسوار المدينة وتحدَّث مع القادة والوجهاء البارزين فيها، موضِّحًا لهم نيَّاته التي لم تكن خيانة بيزنطة على الإطلاق، إنَّما علاقاته مع مسلمة كانت مجرَّد ذريعة لحماية البلد من التدمير. وبناءً على ذلك، كان ليو الشخصيَّة الأفضل لشغل منصب الإمبراطور، ولذلك تبادل معهم القسم بالإخلاص والولاء لبعضهم الآخر. وبعد ذلك، أرسل

الإمبراطور ثيودوسيوس قوَّاته التي وصلت بسرعة والأوامر بقتل ليو، ولكن عند وصولها إلى معسكره والتقاء الجيشين، جيش ليو والذي أرسله ثيودسيوس؛ اتَّفقا على تتويج ليو بالإجماع، ثمَّ التوجُّه معًا نحو العاصمة الإمبراطوريَّة، واستقبال المواطنين لهم بالترحاب وإزاحة ثيودسيوس من العرش في ربيع عام 717م.

وفي الوقت نفسه، بقي القسم الرئيس من القوَّات العربيَّة يقضي شتاء الفترة 716-717م في بلاد الأناضول، بينما أرسل مسلمة سليمان بن معاض مع اثني عشر ألف جنديٍّ لحصار مدينة خلقدونيَّة على الجانب الشرقيِّ من مضيق البسفور المقابل للقسطنطينيَّة؛ لكي يمنع وصول الإمدادات من هناك إلى العاصمة، ويخرِّب وينهب الأراضي البيزنطيَّة هناك بشكلٍ عامٍّ. (خارطة رقم 4.1). حينما سمع مسلمة بارتقاء ليو العرش فرح كثيرًا، وافترض أنَّه سيجد الفرصة في الحال لإنجاز وعده بتسليمه المدينة، كتب ليو إلى مسلمة فورًا يشجِّعه بهذه الآمال الفارغة. وفي الوقت نفسه، بدأ بتحصين المدينة وتكديس التجهيزات فيها وتهيئة السفن للقتال، فضلًا عن توصُّله إلى الترتيبات الماليَّة مع البلغار؛ لكي يساعدوا في الدفاع عن المدينة. وأخيرًا أدرك مسلمة خداع ليو، واستعدَّ هو وجيشه وسفنه وعبَرَ في شهر حزيران عام 717م إلى الجانب الأوروبي من المضيق. أمَّا ليو من جانبه؛ فحينما وصلت إليه الأخبار عن تحرُّكات مسلمة، أرسل رجاله لحرق الأرض في الإقليم الواقع إلى الغرب من المدينة كله، وقطع جميع طرق إمدادات الجيش العربيِّ القادمة من بلاد الشام.

بنى جيشُ مسلمة معسكرًا كبيرًا عند الجهة الغربيَّة من أسوار المدينة، مقابل البوَّابة الجنوبيَّة (الذهبيَّة). (صورة رقم 6.4)، وحفروا خندقًا عريضًا بين المعسكر والمدينة، وخندقًا آخر خلفه، أي بين المعسكر والبلغار، وبنوا المتاريس الحجريَّة العالية في الأمام لحماية الجميع. في الأوَّل من شهر أيلول وصلت قوَّة الإسناد البحريَّة: «عدد كبير من السفن، وسائل النقل الحربيَّة، والسفن الخفيفة، بلغ عددها ألفًا وثمانمئة».

لكنَّ هدوء الرياح أدَّى إلى توقُّف السفن الكبيرة المحمَّلة بالتجهيزات الثقيلة. كان ليو مستعدًّا لمثل هذا الموقف، وأرسل سفنه للانقضاض عليها بالنار الإغريقيَّة. كانت الأرمادا العربيَّة هدفًا سهلًا، «فبعض السفن حُرقت في البحر المجاور للأسوار، وغرق بعضها الآخر مع طواقمها في قاع البحر، وهربَ البقيَّة وهي تحترق باللهب». ولسوء الحظِّ، كان شتاء الفترة 717-718م قاسيًا بصورة خاصَّة: «كان سقوط الثلج الكثيف قد غطَّى الأرض ولم تعد رؤيتها لمدَّة مئة يوم». مِمَّا أدَّى إلى تناقص التجهيزات آنئذٍ وأن تصبح القوَّات العربيَّة في وضع محفوفٍ بالمخاطر، وأصبحت الأمور أكثر سوءًا نتيجة لتكرار هجمات البلغار المفاجئة والمميتة، حتَّى أخذ العرب يخشونهم أكثر من البيزنطيِّين. كان العرب يخافون العودة من دون موافقة الخليفة لهم بذلك، وأصبح البحر هائجًا مِمَّا يمنعهم من المغادرة بأيَّة حال من الأحوال. «أصبح العرب مقيَّدين من كلِّ جانبٍ، وشبح الموت يلوح أمام أعينهم، ففقدوا كلَّ أملٍ بالاستيلاء على المدينة». أمَّا بالنسبة إلى مسلمة كان يخفِّف من معاناة جيشه بالوعد بأنَّ البيزنطيِّين سيُسلِّمون المدينة في الحال، وأنَّ التجهيزات والإمدادات ستصل من بلاد الشام.



صورة رقم 6.4
منظر لأسوار القسطنطينيَّة في عهد ثيودسيوس (كما كانت عام1930 تقريبًا)

ونتيجة للحرمان الذي أنزله البيزنطيُّون بالعرب، جعلهم يبدؤون بأكل لحوم حيواناتهم الميِّتة وفضلاتها، ووصلت أسعار مكيال القمح في المعسكر العربيِّ إلى عشرة نقود ذهبيَّة، وكان رأس الحيوان من المواشي يُباع بسعر اثنتين إلى ثلاثة قطع ذهبيَّة. واعتاد الكثير منهم على النزول إلى السفن لأخذ قطعة من قيرها بغية مضغه طوال اليوم. وبينما في هذا المأزق المميت تُوفِّي الخليفة سليمان، وكذلك تُوفِّي ولده الذي بايعه العرب خليفةً لوالده. وانتقلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، حفيد الخليفة عبد الملك، وهو رجلٌ مشهورٌ بتديُّنه وصدقه. وحالما أصبح خليفة كرَّسَ كلَّ جهوده لإنقاذ أولئك العرب الواقعين في شرك الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. أوَّلًا: جهَّزَ أسطولًا لهم لينقل التجهيزات، وأرسل أربعمئة من وسائط النقل محمَّلة بالقمح من مصر للتوجُّه نحو القسطنطينيَّة، وثلاثمئة وستين سفينةً محمَّلة بالسلاح والتجهيزات من أفريقيا. ولكن عند وصول بعض الطواقم المسيحيَّة المصريَّة تسلَّلوا ليلًا بمراكب صغيرة وطلبوا اللجوء في المدينة (القسطنطينيَّة)، وأخبروا سكَّانها بوجود أسطولين عربيَّين مختفيين في خليج المدينة. أرسل ليو في الحال مراكبه الخفيفة مع أسلحتها من النار الإغريقيَّة، مِمَّا أدَّى إلى إغراق بعض السفن، وإجبار البقيَّة على الهرب، وعودة البحَّارة البيزنطيِّين منتصرين حاملين معهم ما تمكَّنوا من الحصول عليه من تجهيزات السفن الغارقة.

أدرك الخليفة عمر عند وصول الأخبار إليه ألَّا سبيل له إلا برفع الحصار، وأرسل مبعوثه إلى مسلمة يحمل رسالةً شديدة القسوة، محذِّرًا إيَّاه من تدمير الجيش العربيِّ وأمره بتفكيك معسكره. حاول مسلمة في البداية إخفاء الأمر عن الجند، لكنَّهم علموا بأمر الخليفة وإعلانه في المعسكر بشكلٍ علنيٍّ: «يأمركم الخليفة عمر بالمغادرة والعودة إلى بلدكم». بدؤوا رحلتهم الطويلة بالعودة إلى الوطن في صيف عام 718م. حاول بعضهم العودة على ما تبقَّى من السفن، ولكن حتَّى في هذه الحالة تعرَّضوا

للأذى؛ بسبب هبوب العواصف وغرق معظم السفن. أمَّا مَن تمكَّن من النجاة بالتعلُّق بحطام السفن؛ ساقتهم الأمواج إلى شواطئ تراسيا، بينما انتهى الآخرون على سواحل الجزر المعزولة في حالة مزرية. أرسل الخليفة عمر قوَّاته مع البغال والخيول لمرافقة الذين يعودون إلى البلاد برًّا؛ لأنَّ جميع مواشيهم إمَّا ذُبحت أو أُكلت أو هلكت بسبب الجوع[1]. وكلذلك أرسل الطعام والأموال، وأصدر أمرًا للإمبراطوريَّة كلِّها يدعو فيه كلَّ من لديه أخ أو قريب في الجيش بإمرة مسلمة أن يخرج لاصطحابه إلى أهله. «ذهب الكثير من الناس لملاقاتهم وعملوا كلَّ ما بوسعهم لإنقاذهم».

بلاد الغال (فرنسا) والفرنجة

لقد أحرز العرب نجاحًا كبيرًا في المغرب الأقصى. كانت طبيعة النظام اللامركزيِّ في مملكة القوط الغربيِّين جعلت من السهل لهم ممارسة سياسة فرِّقْ تسد، والحصول على ولاء الكثير من النبلاء المحلِّيِّين وبشروط سخيَّة جدًّا للاستسلام، والسماح لهم بالاحتفاظ بأراضيهم وحكمهم الذاتيِّ. أمَّا في بلاد الفرنجة؛ فالحالة كانت تختلف كثيرًا، حيث واجه العرب والبربر مقاومةً عنيفةً جدًّا[2]. ففي عشرينيَّات القرن الثامن قاد الحكَّام العرب حملات متعدِّدة ضدَّ الفرنجة، حتَّى محاصرة مدينة تولوز، ولكن من دون تحقيق أيِّ نجاح دائم. كان آخر وأكبر هجوم بقيادة عبد الرحمن الغافقي (730–732م)، الذي بدأ كمحاولة لإلقاء القبض على زعيم البربر مونزا Munnuza الذي ذهب إلى الفرنجة وتزوَّج ابنة أودو دوق آكيتين. قام عبد الرحمن

1- وقد وردت هذه بصيغة مشابهة جدًّا في كلٍّ من ثيوفيلوس، 215 (من دينيسوس أوف تلمهر، ت : 845م) وخليفة (ت: 854م)، 320 (99 هجريَّة) الذي يشارك مصدرًا سوريًّا كما يبدو.

2- اعتمدنا الرواية والاقتباسات على Chronical 0f 754, § 69, 74-82, 84.. واقتباسات بيديه Bede أخذناها من كتابه التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica (C. Plummer, Oxford, 1896, ed., 5.23).

بمحاصرته في مخبئه في جبال البرانس، لكنَّ مونزا استطاع الهرب؛ بسبب نقص المياه بعد جُرحه، ولم يستطع التخلُّص من الجند الذين كانوا يتابعونه، فرمى بنفسه من أعلى منحدرٍ صخريٍّ، ليحتمي بالصخور الحادَّة في أسفل المنحدر، في محاولة يائسة لتجنُّب الوقوع في الأسر حيًّا. انتهز عبد الرحمن الفرصة للإغارة في عمق أراضي الفرنجة، وعبَرَ نهري الجارون ودوردون Dordogne لمواجهة أودو الذي تسلَّل هاربًا حينما أدرك أنَّ المعركة لا تسير إلى صالحه. تبعه عبد الرحمن ونهب مدينة تور في طريقه. ثمَّ واجه شارل (المطرقة) قنصل أوستارسيا الواقعة أقصى الشرق من مملكة الفرنجة في شهر تشرين الأوَّل عام 732م في مكانٍ ما بين بواتيه وتور. بقي الطرفان يراقب أحدهما الآخر لمدَّة سبعة أيَّام بقلق، ويختبر أحدهما الآخر بهجمات محدودة لجسِّ النبض، ثمَّ حُدِّدت خطوط المعركة وبدأ القتال. «بقي الشماليُّون صامدين كالحائط، كما قيل، متماسكين كالجليد في الأقاليم الباردة، وأبادوا العربَ بسيوفهم في طرفة عين». وبدا هذا الانتصار منحةً إلهيَّةً للكثير من المسيحيِّين، حتَّى إنَّ الراهب الأنكلو- سكسونيّ بيديه لخَّص ذلك بكلماته، قائلًا: «إنَّ العرب الذين تسبَّبوا بمذابح فظيعة في بلاد الغال ... عُوقِبوا لغدرهم».

لا يوجد لدينا وصف معاصر وبشكلٍ عامٍّ عن هذه المعركة، ومن الصعب الوصول إلى تفاصيل دقيقة عنها، وحتَّى موقعها موضع شكٍّ، ولا سيَّما أنَّها حملت اسم أحد اثنين من المدن الكبيرة: معركة تور، أو معركة بواتيه. ومع ذلك، أخذت أهميَّتها تكبر في المخيلة الأوروبيَّة، أصبح شارل يدعى المنقذ المُعَمَّد بزيت السيِّد المسيح، ثمَّ لُقِّب بالمطرقة (مارتل). ففي العصر الحديث المبكِّر حصلت المعركة على سمعة شعبيَّة هائلة: واحدة من أكثر المعارك أهميَّة «في تاريخ العالم»، حينما «كان مصير العالم يتأرجح بين الفرنجة والعرب»، وحينما أُنقِذت أوروبا من الخضوع «للآسيويِّين والأفارقة». لقد تخيَّل أدورد جيبون في نصٍّ نثريٍّ مميَّزٍ أنَّه لو لم ينتصر

شارل لكان القرآن «يُدرَّس في مدارس أكسفورد، ويشرح وعّاظها للمتطهِّرين روحيًّا صدق الإلهام المحمديِّ وحقيقته»[1]. ومع ذلك، على الرغم من أنَّ هذه الهزيمة كانت ذات أهميَّة كبيرة، فإنَّها لم تكن السبب وراء عدم تحقيق العرب إنجازاتٍ أخرى في شمال جبال البرانس. فالخليفة الذي تولَّى الحكم بعد عبد الرحمن مباشرة، قام بحملة ضدَّ الفرنجة، ولكن حتَّى قبل وصوله إلى مدينة سرقسطة، وصلت إليه رسالة تبلغه بحدوث ثورة كبرى بين البربر الأفارقة (ثورة الربض)، مِمَّا استدعى عودته بسرعة إلى قرطبة. لم تكن هذه المرحلة سوى جعجعة منشقِّين، ولكن اندلع تمرُّد عامٌّ في عام 740م في جبهات متعدِّدة ومختلفة، واستمرَّ لعددٍ من السنين ما دام البربر «قد انتفضت رقابهم علانية من نير العرب». ولم يكن الحكم العربيُّ قد استعاد وضعه الكامل في ولاية افريقيا أبدًا، حيث شهد بدلًا من ذلك ظهور عوائل حاكمة مختلفة، بعضها من أصولٍ محليَّة، وبعضها الآخر من الخارج. وهذا يعني أنَّ إسبانيا العربيَّة - المعروفة بالأندلس - أصبحت مقطوعةً عن الحكومة المركزيَّة في دمشق، وأصبح هذا الوضع واقع حالٍ حينما نصَّبَ أحد أبناء العائلة الأمويَّة - المهزومة من جيوش الثورة العباسيَّة التي قضت على الأمويِّين في عام 750م - نفسه حاكمًا جديدًا للولاية. إنَّ خسارة مساندة خلفاء بغداد الآن تعني أنَّ الحكَّام العرب في الأندلس لم يعد بإمكانهم حشد القوى البشريَّة للشروع بحملات في بلدانٍ أخرى، وعليهم أن يكونوا حذرين حتَّى في صميم مناطقهم من إقامة علاقاتٍ مع العشائر البربريَّة والأرستقراطيَّة الأسبانو - رومانيَّة، إلَّا إذا اتَّحدوا لإسقاطهم.

1- عن هذه الاقتباسات والنقاشات الأخرى، انظر:

D. L. Lewis, God's Crucible, Islam and the Making of Europe(London, 2008)170-173.

البربر وشمال أفريقيا

حدث التمرُّد البربريّ في أربعينيَّات القرن الثامن الميلاديّ في عدَّة مناطق وبوقتٍ واحدٍ حيثما توجد انتفاضات ضدَّ البيزنطيِّين قبل قرنين، ولكن الآن لم يكن المتمرِّدون البربر الرئيسون من المسيحيِّين فقط، إنَّما من المسلمين الخوارج الذين يدعون إلى شكلٍ من الإسلام الذي يعارض احتكار السلطة في عشيرة واحدة، ويدعون إلى أن يكون منصب الخلافة مباحًا للجميع، وأن يكون الخليفة مسؤولًا أمام أتباعه. وهذه الدعوة تتلاءم جيِّدًا مع أولئك الذين يشعرون بتعاطفٍ قليلٍ مع خلفاء دمشق البعيدين وولاتهم، الذين اعتادوا على التعاون مع رؤوساء من أصولٍ متواضعةٍ إلى حدٍّ ما. ربَّما كان دافعهم الرئيس لا يزال الاعتزاز بالإقليم والكره لأيَّة هيمنة خارجيَّة كما كان سائدا في زمن البيزنطيِّين، فضلًا عن السيطرة على تجارة الذهب والعبيد المربحة مع مناطق جنوب الصحراء الأفريقيَّة. كانت الفتوحات العربيَّة لا تزال حديثة العهد بالمنطقة، والوجود العربيُّ انحصر بصورةٍ رئيسةٍ في الحاميات العسكريَّة، والكثير جدًّا من السكَّان المستقرين ينظرون بانتقاصٍ إلى العرب بوصفها قوَّةً غريبةً محتلَّةً تتطفَّل على شؤونهم المحلِّيَّة. وعلى الرغم من المعلومات المختصرة التي توردها المصادر المسيحيَّة، فإنَّها - كما يبدو - تتطابق مع هذا الإحساس بالاختلاف والتباعد: «فقد قتل الرومان الأفارقة (المواطنون الأصليُّون من غير العرب) الكثير من السارسين (أي العرب)، و«تمرَّد الأفارقة وقتلوا كلَّ مسلمٍ (أي العرب) هناك وولاتهم».

أمَّا روايات المصادر الإسلاميَّة المبكِّرة عن الانتفاضة؛ تذكر أنَّ الشخصين اللذين بدآ الانتفاضة أحدهم بربريٌّ والآخر بيزنطيٌّ أفريقيٌّ، وكلاهما من المتحوِّلين

للإسلام، وقادا ثورات منسَّقة في شهر آب سنة 740م في إقليم طنجة، وإن كان ذلك في وقتٍ غير متَّفق عليه. وفي المواجهات الأولى بين الطرفين في شهر تشرين الثاني من تلك السنة، قضى الثوَّار على قسم كبيرٍ من القوَّة العربيَّة، وقتلوا عددًا كبيرًا من قادة العرب المحلِّيِّين هناك، مِمَّا أدَّى إلى تسمية هذا الاشتباك بمعركة النبلاء. أرسلت دمشق على وجه السرعة واليًا جديدًا إلى أفريقيا، وقاد في السنة التالية هجمةً مفاجئةً ضدَّ البربر الذين كانوا آنذاك بقيادة زعيم قبيلة زناته، الذي كان «عاريًا لا يرتدي أيَّة ملابس عدا ملابسه الداخلية»[1]. ومع ذلك، هُزم العرب مرَّة أخرى وقُتل الوالي الجديد. ودَحَرَ عبد الواحد بن يزيد - من قبيلة هواره الذي ادَّعى الخلافة هناك - قوَّةً عربيَّةً أخرى خلال خريف عام 741م. لقد اعتقد الخليفة هشام أنَّ الوضع خطير، ولذلك أرسل أحد أكثر قادته خبرة، وهو حنظلة بن صفوان من قبيلة كلب الشاميَّة المتنفِّذة، للعمل واليًا على أفريقيا، وبمهمَّة واحدة فقط هي سحق التمرُّد. وصل حنظلة إلى القيروان بصحبة جيشٍ كبيرٍ في شهر آذار سنة 742م، وبدأ مباشرة بتسليح كلِّ شباب المدينة لتعزيز قوَّته الحربيَّة بشكلٍ أكبر. وبعد شهرين اقترب عبد الواحد من القيروان، وعلى الرغم من أنَّه قاتل هو ورجاله قتالًا شرسًا، وقتلوا الكثير من العدو، فإنَّ قوَّة العرب كانت أكبر، ودفع حنظلة بكلِّ قوَّاته دون رحمة حتَّى تمكَّن من قتل خصومه أو هروبهم.

وعلى الرغم من أنَّ حلم إقامة خلافة بربريَّة موحَّدة في أفريقيا قد تحطَّم في عام 742م، فإنَّ الإقليم استمرَّ بالابتعاد عن السيطرة المركزيَّة من الآن فصاعدًا. فالكثير من العوائل المحلِّيَّة برزت في الإقليم، بعضها من استمرَّ طويلًا، وبعضهم برز

1- وجدنا هذا التعبير في كلٍّ من:

Chronical754, §84 (nudi prependiculis precincti);

وفي ابن عبد الحكم، 219 (عراة متجردين ليس عليهم السراويل)، مِمَّا يشير إلى مصدرٍ عامٍّ. ومعلوماتي عن نهضة البربر أخذتها من Chronical 754, §84؛ ثيوفيلوس،235 ؛ خليفة، 352-356 (122-124 هجرية)؛ ابن عبد الحكم، 217-223.

من العناصر المندمجة بالثقافة البربريَّة. فعلى سبيل المثال، دامت دويلة برغواطة المغربيَّة على سواحل المحيط الأطلسيِّ مدَّة أكثر من أربعة قرون (744–1058م)، ويدَّعون أنَّ عائلتهم البربريَّة المقدَّسة بدأت مع النبيِّ صالح، ويستندون في ذلك إلى نسخة البربر من القرآن، ويتمسَّكون بعددٍ من ممارسات البربر في الغذاء والسحر[1]. لقد تتوَّج تطوُّر تلك الممالك بظهور مملكتين بربريَّتين الأكثر قوَّة بينهما وهما مملكتا: المرابطون (1062–1147م)، والموحدون (1147–1248م) اللتان كانتا الأقرب إلى فكرة الإمبراطوريَّة البربريَّة التي ضمَّت في فترة ما كلَّ الساحل الأفريقيِّ الممتد من بنغازي حتَّى سواحل المحيط الأطلسيِّ وجنوب أسبانيا.

بلاد ما وراء النهر والأتراك

أمَّا في الشرق الأقصى من الإمبراطوريَّة العربيَّة؛ فتح قتيبة بن مسلم الجزء الأكبر من أواسط آسيا خلال خلافة الوليد بن عبد الملك (705–715م)، ويبدو أنَّ قتيبة قد تخوَّف عند وفاة الوليد أن يطرده الخليفة الجديد، ولذلك طلب من رجاله التمرُّد معه، لكنَّهم رفضوا ذلك علانية، وحينما وبَّخهم انقضُّوا عليه وقتلوه، وهي نهاية محزنة لقائدٍ كبيرٍ. شهدت عمليَّات الفتح فترةً من الهدوء في تلك المنطقة خلال الخمس سنوات اللاحقة، ولا سيَّما أنَّ سليمان ركَّز كلَّ جهوده وموارده لفتح القسطنطينيَّة، ونتيجةً لفشل هذه المشروع جعل خليفته عمر الثاني حذرًا في التوسُّع أكثر. وحينما شعر الكثير من النبلاء في أواسط آسيا بأنَّ فرصة بقاء الحكم العربيِّ لمدَّة قرن من الزمن فقط قد اقتربت، وشجَّعهم على ذلك الإشاعات؛ كتبوا إلى الإمبراطور الصينيِّ يطلبون منه المساعدة

1- J. Iskandar, " Devout Hretices : The Barghwata in Maghribi Historiography," Journal of North African Studies 12(2007).

العسكريَّة. لكنَّ ما يثير الدهشة أنَّ ذلك الطلب كان من غوراك Ghurak، سيد سمرقند وملك سوجديا (710–737م)، الذي أعطانا أخبارًا عن استيلاء العرب على المدينة أيضًا:

«كنَّا نقاتل العرب على الدوام لمدَّة خمس وثلاثين سنة، ونرسل في كلِّ عامٍ في حملة من الجيوش الضخمة من الجند والفرسان، ولم نحظَ بالحصول على مساعدة من جلالة الإمبراطوراً ومنذ ستِّ سنوات، وصل القائد العربيُّ الأمير قتيبة إلى هنا بجيشٍ ضخمٍ لقتالنا، مِمَّا جعلنا نعاني من الهزيمة على أيدي أعدائنا، وقُتل أو جُرح الكثير من رجالنا. وبما أنَّ عدد المشاة والفرسان العرب كبيرٌ جدًّا، لا يمكن لقوَّاتنا مقاومتهم، انسحبتُ إلى الحصن لحماية نفسي. بعد ذلك، حاصر العرب المدينة، ونصبوا ثلاثمئة منجنيق لهدم الأسوار، ثمَّ خرقها في ثلاثة أماكن. إنَّهم يريدون تدمير مدينتنا ومملكتنا. إنِّي أطلب بتواضع، وحينما يعلم جلالة الإمبراطور بذلك، أن يُرسل إلى هنا قوَّة من الجند الصينيِّين لمساعدتي في هذه الأوقات الصعبة».

وأرسل ملك وادي سرخاب Surkhab – الواقع إلى الجنوب الغربيِّ من كابل – مبعوثًا أيضًا إلى البلاط الصينيِّ يشكو من «استيلاء العرب على كلِّ ما في خزائني ومخازني، وعلى مجوهراتي وحاجاتي الثمينة، وكذلك على ثروات السكَّان من أتباعنا، وحملوها لأنفسهم». وكان سيِّد بخارى يشكو: «كنَّا نعاني في كلِّ عام من غاراتٍ وتدمير قطَّاع الطرق العرب، ولم يتمتَّع بلدنا بأيَّة فترة من الراحة»، وطلب إصدار مرسوم إمبراطوريٍّ يأمر الأتراك بالمجيء للمساعدة[1].

وسواء استجاب الإمبراطور الصينيُّ أم لا فإنَّ الأتراك الغربيِّين أصبحوا منهمكين بقوَّة في المقاومة ضدَّ العرب في أواسط آسيا. وتجدَّدت حظوظهم مع قائدهم الكفء سلوق Suluk (715–738م)، الذي كان زعيمًا لأحد العشائر الفرعيَّة من الأتراك المعروفة باسم تورغش. تشير إليه المصادر الصينيَّة وتصفه سولو Sulu «المجتهد والمعتدل»، الذي يُحبُّ

1- Chavannes, 203-205.

شعبه ويحكمه جيدًا. كان يجب عليه القتال في جبهتين: اتحاد القبائل الشرقيَّة في الشرق، والعرب في الغرب. وبزواجه من بنات أحد القادة الأتراك الشرقيِّين، وكذلك من ابنة ملك التبت، استطاع تهدئة الجبهة الشرقيَّة. وجَّه سلوق اهتمامه نحو الغرب في الفترة 720-721م، وأرسل جيشًا للمرابطة مع بعض النبلاء السوجنديِّين، الذين اشتبكوا مع قوَّة عربيَّة إلى الشمال الشرقيِّ من سمرقند، وعلى الرغم من عدم إنجاز أيِّ تقدُّم حاسم، فإنَّه أصبح من الواضح أنَّ العرب اندفعوا إلى موقفٍ دفاعيٍّ. وتجرَّأ الأتراك التورغش بدخول المتمرِّدين السوجنديِّين إلى جانبهم في النزاع ضدَّ العرب بقيادة ديوشتش Dewashtich حاكم بانجكنت Panjkent (صورة رقم 6.5)، الذي نعرفه من طريق ما تبقَّى من مراسلاته، الذي يشير فيها إلى نفسه «كسيِّد سمرقند وملك سوجنديا»، متحدِّيًا حامل اللقب آنذاك غوراك الذي كان قلقًا من الذهاب لمواجهة العرب علانيةً. ونرى أيضًا ديوشتش يكتب إلى عددٍ من السلطات ولا سيَّما إلى الأتراك ووجهاء فرغانة وشاش Shash يلتمسهم مساندته في صراعه.



صورة رقم (6.5)
لوحة جداريَّة من قصر بانجكنت، منتصف القرن الثامن الميلادي، تصوِّر أحد النبلاء المحليِّين بالملابس النموذجيَّة الفاخرة.

ولسوء حظٍّ ديوشتش، كان حاكم خراسان الجديد هو سعيد الهراشي (722-724م)، المعروف بعناده وحقده، الذي وصلته الأخبار بحساسيَّة الحكم العربيِّ في المنطقة، فعَبَرَ نهر أكسوس فور تسلُّمه منصبه في أواخر عام 722م. كان النبلاء السوجنديون منقسمين حول طبيعة ذلك الموقف: مجموعة تريد الوقوف إلى جانب ديوشتش، بينما اختار أغلب النبلاء طلب اللجوء لدى ملك فرغانة. لكنَّ الملكة الأم لفرغانة لم تكن مستعدَّة جيدًا لإيواء هؤلاء اللاجئين، فأخبرت سعيد أنَّ السوجنديِّين قد تركوا أراضيهم، وأقاموا في خوجند Khojand الواقعة إلى على بعد مئةٍ وخمسين ميلًا إلى الشمال الشرقيِّ من سمرقند كخطٍّ مستقيم، والبوَّابة نحو وادي فرغانة الخصب. تقدَّم سعيد خلال ذلك الوادي بسرعة خاطفة، وبعد حصار لفترة قصيرة استسلم سكَّان المدينة. أرسل ساعي البريد هناك رسالة مختصرة إلى ديوشتش حول ما آلت إليه الأمور: «تشير الأخبار: انتهت خوجند، وتركها سكَّانها بضمان من الأمير، وأُخلِي نحو أربعة عشر ألفًا من النبلاء والتجَّار والمزارعين». فإذا كانت هذه إشارة إلى السوجنديين فقط دون غيرهم من السكَّان المحليِّين، فمن الواضح أنَّهم قاموا بالخروج الواسع والهروب من ثأر القوَّة العربيَّة. ربَّما كانت مخاوفهم مبررة؛ لأنَّ سعيد على الرغم من أنَّه وعدَهم بالخروج الآمن، فإنَّه في الواقع قتلهم، ومن بينهم النبلاء على الأقلِّ. وبعد شهر - أي في صيف عام 722م - أرسل سعيد قوَّةً لإلقاء القبض على ديوشتش في معقله الجبلي إلى الشرق من بانجكنت، ولوضع نهاية لثورة ملك سوجنديا في المستقبل[1].

كان هذا آخر نجاح عربيٍّ لبعض الوقت، ولا سيَّما أنَّ سلوق قد صعَّد من هجماته، إذ أحاطت قوَّاته في عام 724م بجيشٍ عربيٍّ كان يغزو فرغانة وقضى عليه عدا

1- F. Grener and E. de la Vaissiere, "The Last Days of Panjikent," Silk Road Art and Archeology 8 (2002).

القليل، في معركةٍ عُرفت في المصادر الإسلاميَّة «بيوم العطش». وهذا حفَّزَ على اندلاع انتفاضة كبرى ضدَّ العرب في عموم أواسط آسيا، ولم يبق بأيدي العرب في عام 730م سوى سمرقند وبعض الحصون الأخرى. حاصر سلوق سمرقند لوحدها في عام 731م. وأرسل قائد الحامية العربيَّة في المدينة طلبًا مثيرًا للمشاعر من والي خراسان جنيد المُري، الذي كان يتواجد في بلخ في ذلك الوقت، الذي توجَّهَ نحو كيش Kish، ولكنَّه توقَّف للنظر في الطريق الذي سيسلكه، هل الطريق الطويل نحو سمرقند المار بالسهول الغربيَّة أو سلوك الطريق الأكثر مباشرة الذي يتضمَّن عبور سلسلة جبال وتلال شديدة الانحدار عبر ممرِّ طاش تاكاراكا Tashtakaracha. اختار الطريق الأخير، ولكنَّه التقى صدفةً بوحدة من الأتراك التورغش بالقرب من الممرِّ. تمكَّن جند الجنيد من الصمود لبعض الوقت، لكن كان من الواضح أنَّهم لا يستطيعون الهروب أحياء إلَّا بوصول تعزيزات. كان الخيار الوحيد طلب المساعدة من أولئك الذين من المفترض أن تقدَّم لهم المساعدة، أي الطلب من قائد القوَّة العربيَّة في سمرقند للتوجُّه لمساعدتهم، الذي توجَّه - ولو على مضض - مع اثني عشر ألف جنديٍّ، واستطاع إنقاذ الجنيد، وإنْ خسر في العمليَّة نحو ألف جنديٍّ من قوَّاته. دخل الجنيد ومن بقي معه من جيشه إلى سمرقند وتمكَّنوا من المكوث فيها طويلًا، ولا سيَّما أنَّ الأتراك كانوا متعبين وغادروا المكان. أصبحت هذه المعركة تُعرف باسم «معركة الشِعْبْ أو الممر» Battle of Defile، لكنَّها تُعدُّ كبوة بسيطة في حكم العرب في أواسط آسيا؛ لأنَّهم لو لم يستطيعوا الاحتفاظ بسمرقند، ربَّما خسروا سيطرتهم على الإقليم كاملًا للأتراك.

فبعد أن أحبط الأتراك التورغش في خططهم التوسُّعية في الغرب، تحوَّلوا نحو الشرق، ولكنَّ ذلك لم يكن يشكِّل نجاحًا كبيرًا لهم، وعلى الرغم من هزيمة سلوق على أيدي الصينيِّين في حوض نهر تاريم عام 736م ، فإنَّه قرَّر وللمرَّة الأخيرة طرد

العرب، وعبرَ في عام 737م نهر أوكسوس مصطحبًا معه حلفاءه من السوجنديِّين والطراخستانيِّين، وهدفهم مدينة بلخ، التي كان والي خراسان الحالي أسد بن عبد الله يستخدمها مقرًّا له. قسَّم سلوق جنوده وأرسلهم للإغارة في اتجاهات مختلفة. يبدو أنَّ ذلك القرار كان قرارًا سيِّئًا، حيث خرج أسد بقوَّة كبيرة جدًّا، واشتبك مع الخاقان بقوَّة صغيرة نسبيًّا، مِمَّا أجبر سلوق على الفرار، وبهذه الهزيمة الثانية أصبحت سمعته في الحضيض. وفي السنة التالية استطاعت جماعة منافسة من التورغش اصطياده والقضاء عليه. وبإزالة هذا التهديد، تمكَّن والي خراسان الجديد نصر بن سيار (738-748م) من تثبيت السيطرة العربية على الإقليم.

كان الولاة السابقون بصورة عامَّة يأتون من الغرب وهم قليلو المعرفة أو من دونها لحكم هذه المناطق المعقَّدة أوضاعها، لكنَّ نصرًا بن سيار قضى معظم شبابه هنا بين صفوف موظَّفي الولاة السابقين، وواليًا لبلخ أيضًا. كان يُثمِّن ويقدِّر الثقافة والسياسات المحلِّيَّة، وحسَّاسًا لمسألة استمراريَّة الحملات العسكريَّة هنا لمدَّة تزيد على الثلاثة عقود من الزمن، مِمَّا أدَّى إلى خسارة حياة الآلاف من الناس ومن كلا الطرفين. لذلك، قرَّر تبني سياسة توفيقيَّة عند تولِّيه منصب الولاية، وكتب إلى الأمراء السوجنديِّين يدعوهم للعودة إلى وطنهم، ووعدهم بتلبية طلباتهم السابقة، وبالتحديد: «عدم معاقبة أولئك الذين كانوا مسلمين وارتدُّوا عن الإسلام، ولا تُفرض مطالبات مجحفة لدفع الديون على أيِّ أحدٍ من السكَّان، ولا يطلب منهم دفع الضرائب المتأخِّرة لبيت المال، ولا يجب عليهم إعادة الأسرى المسلمين عدا أولئك الذين أصدر القضاة حكمًا بهم وبشهادة شهود عدول»[1]. عَدَّ بعضهم نصر بن سيار ضعيفًا لإسقاطه مثل تلك المطالب، لكنَّ سياسته التوفيقيَّة قد خففت بالتأكيد من التوتُّرات في مناطق الحدود الملتهبة، وأمدَّت في عمر الحكم الأمويِّ هناك لمدَّة عقدٍ من الزمن أو أكثر.

1- الطبري، 2. 1717-1718.

وفي النهاية، وعلى الرغم من أنَّ هذه السياسة المعتدلة جاءت متأخِّرة جدًّا لإنقاذ الأمويِّين الذين كانوا يواجهون تحدِّيات متعدِّدة في الشرق، لكنَّ أكثرها أهمِّيَّة كان التمرُّد الموجَّه من شخصيَّة مبهمة تدعى أبو مسلم، من مواطني شرق بلاد فارس/ أواسط آسيا الذي حشد جيشًا ضخمًا من موطنه يضمُّ عربًا وغير عرب، وأرسله نحو الغرب للإطاحة بالأمويِّين. ولكن ما لم تذكره المصادر، إلَّا قليلًا، محاولات الصينيِّين في هذا الوقت لإعادة تأكيد سلطتهم على هذه المناطق في أعقاب الضعف الذي انتاب الأتراك التورغش في عام 738م، وسقوط الاتحاد التركيّ الشرقيّ في عام 744م. كانت هذه الخطوة التمهيديَّة بقيادة القائد المعروف من عائلة تانج الصينيَّة المدعو جاو أكسيانهي (ويُكتبُ أيضًا كاو هسين- شيه) من أصلٍ كوريٍّ، الذي سجَّل الكثير من الانتصارات في إقليم بامير- هملايا الجبليِّ، ولا سيَّما ضدَّ إمبراطوريَّة التبت التي انتزع منها السيطرة على مملكة جلجت Gilgit البوذيَّة، الواقعة في شمال باكستان الحاليَّة في عام 747م. وبعد سنتين تقريبًا، اشتبك ملوك فرغانة والشاش فيما بينهما، ولجؤوا إلى طلب المساندة من أسيادهم الإمبراطوريِّين، أي المسلمين والصينيين على التوالي. تحرَّك جاو بحماسة وأخضع عاصمة الشاش بعد حصارها لفترة قصيرة، وأخذ الكثير من أسرى الحرب ومن ضمنهم الملك نفسه. وبذلك أصبحت المواجهة بين الإمبراطوريَّتين حتميَّة. أصبحت الحامية الإسلاميَّة في سمرقند مستعدَّة للقتال لوصول الأخبار إليها من طريق لاجىء الشاش، وتوجَّه قائدها زياد بن صالح نحو الشرق حينما وصلته التعزيزات من طخارستان ليلقِّن الصينيِّين درسًا لن ينسوه. اشتبك زياد مع كاو أكسيانهي الذي كان ساندته قوَّة من فرغانة والأتراك كارلوك على بعد ثلاثمئة ميل إلى الشمال الشرقيِّ من سمرقند عند تالاس على حدود كازاك - قرغيز الحاليَّة. استمرَّ القتال لمدَّة خمسة أيَّام في شهر تمُّوز سنة 751م من دون تحقيق أيِّ انتصارٍ

لأيٍّ من الطرفين، ولكن حينما تغيَّر موقف الأتراك كارلوك إلى جانب زياد، سرعان ما انهارت قوَّات تانج[1].

حصلت معركة تالاس على مكانة أسطوريَّة كما هو الحال مع معركة بواتيه/ تور، ولكن في هذه الحالة إلى جانب العرب. فقد صنَّفها المختصُّ بالدراسات الصينيَّة كارنجتون جودريتش «واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ»، وعَدَّ المستشرقُ الروسيُّ المعروف فاسيلي بارتولد هزيمة تانج عاملًا حاسمًا لتقرير «أيٍّ من الحضارتين، الصينيَّة أو الإسلاميَّة، يجب أن تسود»، في آسيا الوسطى. وفي الواقع، وكما حدث مع معركة بواتيه/ تور فقد أُعطيت حادثة منفردة مكانة كبيرة، فمن المؤكَّد أنَّها ربَّما أبطأت من التقدُّم الصينيِّ، لكنَّها لن توقفه، وفي الواقع، بعد سنتين فقط نجح الصينيُّون في إزاحة التبتيِّين من إقليم بامير. إنَّ توقُّف طموحات أسرة تانج في الغرب كانت نتيجة لتمرُّد آن لوشان An Lushan، قائد الجيوش الصينيَّة في الشمال الشرقيِّ، الذي استغرق سبع سنوات لسحقه (755–763م) وأدَّى إلى أضرار للإمبراطوريَّة الصينيَّة لا يمكن إصلاحها. فحكَّام الولايات انسحبوا، وفقدت الأراضي البعيدة، واستولى حكَّام التبت والايغور الأتراك على معظم النصف الغربيِّ من الصين الحاليَّة وقسَّموها بينهم. إنَّ كتاب تاريخ آن لوشان الذي كُتب بعد نحو خمسين سنةً من الانتفاضة يؤكِّد على ارتباطها أصلا بشخصية تُدعى هيو Hu (شرق بلاد فارس/ أواسط آسيا): كان هيو والده (آن لوشان) ، وهو يرتدي ملابسه، وأتباعه القريبون هم

1- توجد الصورة الصينيَّة عن المعركة في السيرة الذاتيَّة للقائد جاو Gao المحفوظة في حولية تانج (Chavannes, 142-144 والهوامش اللاحقة)، لكنَّ من الغرابة أنَّ التصوُّر العربيَّ لم يورده أيُّ مؤرِّخ قبل ابن الأثير (ت:1233م)، والذهبي (ت:1348م). ويميل الباحثون الغربيُّون إلى ربط المعركة بإدخال الورق لأوَّل مرَّة إلى الشرق الأوسط، وإن كان الورق متوافرًا في سوجديا منذ القرن الأوَّل الميلاديِّ، ولذلك كانت حركته غربًا ربَّما مجرَّد نتيجةٍ لفتح الحدود التي رافقت عمليَّات الفتوح العربيَّة، حيث نرى الكثير من المنتوجات تتحرَّك من الشرق نحو الغرب وبالعكس. نُوقشت بصورة ممتعة، وإن بالغ فيها كثيرا
A. M. Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World, (Cambridge,1983).

اتباع هيو. وصوَّره في شكل تمثال معبود «يجلس على سريرين، والبخور يُحرق أمامه، والسلع الفاخرة من حوله مرتَّبة ... وجمهور هيو حوله منبطحون عند أقدامه يطلبون رحمة السماء، والحيوانات مهيَّأة باصطفاف للتضحية، والسحرة يضربون الطبول، ويرقصون ويغنون»[1]. هناك الكثير من التشابه بين آن لوشان وأبو مسلم: كلاهما يرجع إلى مناطق شرق بلاد فارس/ أواسط آسيا الغنيَّة التجاريَّة والمتنوِّعة الأجناس، وكلاهما برهن على أنَّهم أذكياء في التخطيط الاستراتيجي في تمرداتهم، وانهم ألهموا الاخلاص الراسخ عند أنصارهم حتى اصبحوا آيقونات للعبادة بعد موتهم. ولكن بينما فشل آن لوشان في هدفه بالترويج لصعود هيو في الإمبراطوريَّة الصينيَّة، نجح أبو مسلم في تحقيق دورٍ أكبر لسكَّان شرق بلاد فارس/ أواسط آسيا في التوجُّهات المستقبليَّة للإمبراطوريَّة الإسلاميَّة.

بلاد القوقاز والخزر

كانت الخزر المجموعة الأخرى التي سبَّبت صداعًا للعرب في هذا الوقت، الذين بدؤوا يصوغون وجودهم ويؤسِّسون لكيانهم الخاصِّ ببطءٍ في أعقاب انسحاب اتحاد الأتراك في الغرب من بلاد القوقاز عام 630م. اختارَ الكثير من السكَّان المحليِّين تحت قيادتهم مثل اللان والسابارين، ومن عاصمتهم الواقعة على نهر الفولغا سيطروا على بعض مناطق سهول الخزر التي تشكِّل جنوب غربي روسيا في الوقت الحاضر. شنُّوا الغارات عبر بلاد القوقاز في عام 685م التي وضعتهم في نزاعٍ مع العرب، منتهزين فرصة الحرب الأهليَّة العربيَّة الثانية، مِمَّا أدَّى إلى اندلاع مواجهات متعدِّدة شُنَّت

1- L. Carrington Goodrich, A Short History of the Chinese People (Newton, Abbot, 1969)123 ; W. Bartold, Turkestan Down to the Mongol Invasion (London, 1968), 196 ; De la Vaissiere, Sogdian Traders(Leidan, 2005), 218 (History of an Lushan).

بقساوةٍ مضطردة بين قوَّتين فتيَّتين وصاعدتين خلال النصف الأوَّل من القرن الثامن الميلاديِّ. قاد مسلمة – ابن عبد الملك الذي تولَّى ولاية أرمينيا وأذربيجان بعد خاله في عام 710م – الكثير من الحملات في الأراضي الخزريَّة فيما وراء دربند، ولكن من دون تحقيق أيِّ نجاحٍ يذكر، وإن تمكَّن من دفع خصومه إلى موقفٍ دفاعيٍّ. بدأ الخزر بالهجوم والإغارة على الأراضي العربيَّة منذ عام 718م؛ لأنَّهم تشجَّعوا بفشل الحصار العربيِّ على القسطنطينيَّة. واستمرُّوا في ذلك لسنوات قليلة لاحقة، واشتبكوا في شتاء عام 722م القاسي البرودة مع فوجٍ عربيٍّ لم يكن مستعدًّا تمامًا للقتال وقضوا عليه، وافتتحوا بذلك فترة من ظهور الخزر على المسرح[1].

أرسل خاقان الخزر في عام 726م ابنه ماتريك جنوبًا حتَّى أذربيجان، وفرض الحصار على مدينة ورثان Warthan الواقعة الى الشمال الشرقيِّ من تبريز الحاليَّة، واستطاع هزيمة وقتل والي أرمينيا العربيِّ الذي وصل لرفع الحصار. وبعد سنتين استهدف مسلمة الخاقان نفسه، ولكن بعد أيَّام قلائل من المناوشات كاد أن يقع بأيدي أعدائه لولا هروبه تركًا وراءه كلَّ تجهيزات معسكره وخدمه ومحظياته وعذراواته. ولم تذكر المصادر الإسلاميَّة سوى «أنَّه عاد بأمان»، ولكن عدم ذكر أيِّ ادعاءٍ عادةً بالانتصار من أيِّ طرفٍ سوى أنَّ الله هزم المشركين على يده، وهكذا؛ يعطي مصداقيَّة للرواية المسيحيَّة بهروب مسلمة المخزي. عاد ماتريك مرَّةً أخرى إلى الصراع في عام 730م وحاصر أردبيل عاصمة أذربيجان. حاول جرَّاح بن عبد الله الذي أُعيد تعيينه واليًا لأرمينيا إنقاذَ المدينة، لكنَّه فشل في وجه التفوُّق العددي لقوَّات الأعداء. أرسل رسالةً مستعجلةً للخليفة هشام يطلب تعزيزاتٍ، ولكن حتَّى مسلمة الذي توجَّه لمساعدته بما يتوافر لديه من قوَّات حشدها بسرعةٍ لم تنقذه،

1- اعتمد هذا القسم بصورة رئيسة على خليفة، 328، 338، 340–344، 349، 351–352 (هجرية: 103، 108، 110–113، 119، 121)؛ Lewond, 69-70, 107-108؛ and Chronical of Zuqnin, 159-160.

وقُتِلَ جرَّاح ورجاله في النهاية. أخذ الفرسان الخزريُّون يطوفون وينهبون عبر الإقليم كلِّه دون معارضةٍ تذكر، بعيدًا إلى الجنوب والغرب وصولًا إلى الموصل. ولذلك لم يرَ سكَّان أردبيل أيَّة مؤشِّرات على وصول المساعدة وقرَّروا الاستسلام، وكانت النتيجة القضاء على الحامية العربيَّة هناك، وأخذ النساء والأطفال أسرى، ثمَّ تولَّى «الخزر السيطرة على أذربيجان». لكن سعيد الحراشي - والي خراسان السابق - استطاع تجميع قوَّة على وجه السرعة لإنقاذ الأسرى وإرجاع الخزر، بل الاستيلاء على أيقونة برونزيَّة كانوا يحملونها على راياتهم. ومع ذلك، فمن الواضح أنَّ الخزر وجَّهوا ضربةً كبيرةً للعرب هناك.

وعلى الرغم من ظروف المناخ القاسية، أرسل مسلمة في ربيع عام 731م مع تعليمات بإعادة سلطة العرب، ومع أنَّه أنزل خسارةً كبيرةً بالعدو - «أراق دماءهم كالمياه على وجه الأرض، وأشبعت لحومُهم الطيورَ في السماء، والحيوانات في السهول» - فإنَّ الخزر أوقفوا تقدُّمهم فيما وراء بوَّابات بحر الخزر، في دربند (بالعربية: باب الأبواب)، ولم يقم مسلمة بأكثر من تمهيد الطريق لحملاتٍ أخرى كبيرة في المستقبل. جنَّدَ أعدادًا كبيرةً من الحرفيِّين والعمَّال، وبدأ حملةً لإعادة بناء دربند وتحصينها، التي كانت بمنزلة الحامية العربيَّة الكبيرة في القطاع الشرقيِّ من القوقاز (صورة رقم 4.2)، وأرسل الكثير من الوحدات العسكريَّة تطلب خضوع المعاقل القريبة والمختلفة. انتقلت قيادة أذربيجان وأرمينيا وشمال بلاد ما بين النهرين آنذاك - أي في عام 732م - إلى القائد القدير مروان بن محمَّد، حفيد عبد الملك بن مروان، الذي بدأ بصنع السلام مع حاكم الخزر؛ لكي يكسب الوقت لإعادة تجميع جيشه. استطاع مروان في عام 737م وبمساعدة القوَّات الأرمنيَّة عبورَ ممرَّات اللان Alan (ممر داريال) على الحدود الجورجيَّة - الروسيَّة الحاليَّة شمال تبليسي، واجتياز أراضيهم ودخول أراضي الخزر، حيث فاجأ الخاقان وأجبره على الفرار والنجاة

بحياته. زار مروان في السنة التالية النبلاء المحلِّيِّين الواحد بعد الآخر في المناطق الجبليَّة الممتدَّة بين أبواب الخزر وممرَّات اللان ليتسلَّم خضوعهم أو تأكيده. ومن الناحية الفعليَّة، قام مروان بما قام به خسرو/ كسرى الأوَّل قبل قرنين من الزمن بإقامة منطقةٍ عازلةٍ بين مملكته وشعوب الاستبس في الشمال.

وعلى الرغم من أنَّ الطرفين ما زالا حذرين الواحد من الآخر، أصبح العرب والخزر يدركون أن ليس بإمكان أيٍّ منهم هزيمة الآخر، وتحوَّلوا من الصراع إلى التعايش فيما بينهم، وتعزيز ما هو واقع بأيديهم، وتحديد حدود أراضيهم. كان الحدُّ الشماليُّ لبلاد القوقاز العربيَّة يتبع الخطَّ نفسه الذي كان موجودًا بين بيزنطة وبلاد فارس، وكما هو موجود اليوم بين الجمهوريَّات القوقازيَّة وروسيا. ولعلَّ هذا الخط يمثِّل مظهرًا رئيسًا لطوبوغرافيَّة الإقليم، ولا سيَّما أنَّ سلسلة الجبال القوقازيَّة الشماليَّة تشكِّل حاجزًا طبيعيًّا أمام الحركات من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، وحاجزًا بين بوَّابات الخزر في الشرق، وممرَّات اللان في الوسط. وإنَّ الإمارات الثلاثة - أرمينيا، جورجيا، ألبانيا - استمرَّت بالبقاء بجوار الأراضي العربيَّة، واستطاعت التمتُّع بدرجةٍ عاليةٍ من الحكم الذاتيِّ. كان ذلك الأكثر سهولةً بالنسبة إلى جورجيا التي كانت بعيدةً جدًّا، وبالنسبة إلى أرمينيا كان من السهل أن تلعب على الحبلين بين بيزنطة والعرب وتضرب أحدهما بالآخر. أمَّا ألبانيا (بالعربية: آران Arran) وعاصمتها بارتو Partaw (باردا الحاليَّة)؛ فقد عانت كثيرًا من خسارتها لاستقلالها، حيث من السهولة الدخول إليها والتجوُّل فيها لوجود سهلها الساحليِّ العريض الممتدِّ حول باكو ونهر كورا Kura الذي يجري خلالها. فضلًا عن أنَّ هذا السهل يمثِّل أحد أكثر الطرق سهولةً للغزاة الشماليِّين، ولذلك احتفظ العرب بعددٍ من الحاميات في الإقليم، ولا سيَّما في دربند، التي نقلوا إليها أربعة وعشرين ألفًا من العرب الشاميِّين، ومرَّةً أخرى اتَّبعوا سياسات الفرس الساسانيِّين من قبلهم. أمَّا الخزر؛ فقد أصبحوا أكثر قوَّة وأغنياء؛ لأنَّهم مارسوا

دور الوسيط في التجارة البرِّيَّة بين أسكندنافيا والعالم الإسلامي. وعلى الرغم من ميولهم نحو الجانب البيزنطيِّ، فإنَّهم شقُّوا طريقهم الخاصَّ بهم، وتحوَّلوا إلى اليهوديَّة، وكوَّنوا ثقافةً متميِّزةً متعدِّدة الأجناس.

السند

كان من الأخبار الجيِّدة للعرب في هذا الوقت فتح وادي نهر الاندوس المعروف باسم السند. كان الخليفة عثمان قد أظهر اهتمامًا بهذا الإقليم، وأمر واليه على البصرة بإرسال مبعوث إلى هناك لاستكشافه وهل يستحقُّ الفتح أو لا. وصل المبعوث إلى الأراضي الضحلة في مكران التي تؤدِّي إلى السند، وأرسل رسالة مفادها «أنَّ ماءها وشل، وتمرها دغل، ولصها بطل، إن قلَّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثر جاعوا». ونتيجةً لهذه المعلومات، لم يرسل عثمان أيَّ جيشٍ إلى هناك. وقد غامر بعض القادة العرب الشجعان في الذهاب إلى هناك، لكنَّهم واجهوا مقاومةً عنيفةً من قبائل كيكان Qiqan الواقعة في غرب باكستان الحاليَّة، وخسر اثنان منهم حياتهم هناك في ستينيَّات القرن السابع الميلاديِّ. وحاول آخرون السير مع الساحل، لكنَّهم وجدوا المسير هناك صعبًا، وكذلك وجد الإسكندر الكبير قبل ألف عامٍ قلَّة هطول الأمطار هناك وكثرة السفوح الصخريَّة الشديدة الانحدار المحاذية للبحر لجبال مكران. ولذلك، كانت الكثافة السكانيَّة خفيفة على الرغم من أنَّ تلك الوديان الصخريَّة وبعض الموانئ المعزولة كانت تأوي عددًا من الجماعات البوذيَّة استنادًا إلى ما ذكره الراهب أكسوان زنج في القرن السابع الميلاديِّ. ومع ذلك أُنشِأَتْ حاميةٌ عسكريةٌ صغيرة هناك في سبعينيَّات ذلك القرن، لكنَّها أصبحت غير مرغوب فيها كثيرًا؛ لأنَّ الأرض كان «سكَّانها جوعى، والبقيَّة فاسقون»[1].

1- البلاذري، 432، 434، 435-436 (جزيرة روبي)، 436-440 (محمد بن قاسم)؛ خليفة، 304 (هجرية :92-93).

وحينما نُصِّبَ الحجَّاج بن يوسف نائبًا عن الخليفة في المشرق عام 694م، قرَّرَ السيطرة على هذه الحدود الصعبة المراس. ويُزعَمُ أنَّ ما جعله يأخذ هذا القرار هو حادثة أكثر من غريبة كثيرًا ما أخذت بخيال الباحثين المحدثين وتصوُّراتهم. إنَّ مالك «جزيرة الياقوت» أرسل إلى الحجَّاج - على أمل أن يكسب ودَّه - بعض الفتيات المسلمات اللواتي كان آباؤهن من التجَّار المتجوِّلين الذين ماتوا مؤخَّرًا. أمَّا المصدر؛ فهو غامض، ولكنَّ الميديين في دايبول Daybul - وهي مدينة في دلتا نهر الاندوس تقع إلى الشرق من كراجي الحاليَّة - كانوا يجدفون على سطح أحد المراكب وقد استولوا على سفينة وحمولتها من الفتيات. ووصلت صرخة يائسة من إحدى الفتيات المسلمات إلى أسماع الحجَّاج الذي أرسل قائدينِ الواحد بعد الآخر استجابةً لتلك الصرخة، لكنَّهما اختفيا دون تحقيق المهمَّة. أرسل الحجَّاج طلبًا شخصيًّا إلى الحاكم المحلِّيِّ داهر Dahir الذي أجاب جوابًا ملتبسًا يذكر فيه: «إلقاء القبض عليهن جاء من القراصنة، إذ لا يمكن السيطرة عليهم». كان هذا الجواب القاسي ومأزق الفتيات المسلمات في العادة سببينِ للغزو العربي للسند، على الرغم من أنَّ عددًا من السنوات كانت تفصل بين الحدثين كما يبدو.

وأخيرًا، استقرَّ الحجَّاج على اختيار أحد أقربائه لتنفيذ هذه المهمَّة الصعبة ببسط السلطة العربيَّة على مكران والسند، وهو محمَّد بن قاسم. وتأكَّد أنَّ قريبه قد تجهَّز بالكامل إلى الحدِّ الذي جهَّزه بالقطن المشبع بالخلِّ؛ لأنَّه سمع أنَّ الخلَّ نادرٌ هناك، وأرسله في النهاية عام 710م، وأقنعه «بأنَّك ستكون الحاكم على أيَّة أراضٍ تفتحها». سار محمَّد عبر مكران، ليُخضع فنازبور Fannazbur أوَّلًا، الواقعة في جنوب غربي باكستان الحاليَّة، وحافظ على المسير شرقًا حتَّى وصل إلى دايبول. واستطاع خرق أسوار حصنها باستخدام المنجنيق وتدمير برج المعبد البوذي هناك، وهروب حاكمها المحلِّيِّ، وقتلِ حرَّاس المعبد والسكَّان هناك. وضغطَ فيما بعد باتجاه وادي نهر

الاندوس للبحث عن حاكمها المحلِّيِّ داهر المذكور أعلاه. وحينما التقاه، جرت معركةٌ شرسةٌ بين الطرفين انتهت بقتل داهر «وسيطرة محمَّد على بلاد السند بالكامل». أرسل محمَّد جزءًا كبيرًا من الغنائم إلى الحجَّاج قُدِّرت بمئةٍ وعشرينَ مليونًا من الدراهم، وهو ما أفرحه كثيرًا، ولا سيَّما أنَّه أنفق نحو ستين مليون درهمٍ على تجهيز جيش محمَّد بن قاسم ونقله.

هذه هي الخطوط العامَّة للأحداث كما أوردتها المصادر الإسلاميَّة المبكِّرة، التي تعطينا صورةً مشوَّشة تمامًا عن مسيرة العرب حول تلك البلاد، وهي تطلب الخضوع وتمنح الضمان للحياة والممتلكات لأولئك الذين يوافقون، وتغزو من يرفض وتصادر كميَّاتٍ كبيرةً من الذهب خلال تلك العمليَّات. لكنَّ المعلومات المفصَّلة والوثيقة لدينا تذكر إنشاء المنصورة في ثلاثينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ لتُصبح عاصمة بلاد السند الإسلاميَّة التي تحتلُّ أطلالها اليوم مساحة أربعة أميال مربَّعة تقريبًا، وتقع على بعد أربعين ميلًا إلى الشمال الشرقيِّ من حيدر آباد. أمَّا المصادر المتأخِّرة، ولا سيَّما ملحمة «الشاهنامة» من القرن الثالث عشر؛ تعطينا معلومات أكثر دراماتيكيَّة، من بينها أحداث تسبق الفتح العربيَّ. إنَّها تروي لنا مطوَّلًا عن عائلة الريس البوذيَّة الحاكمة التي سقطت بعد الانقلاب عليها من أحد الوزراء البوذيِّين، الذي تزوَّج من آخر ملكة من تلك العائلة، وكلاهما أنجب داهر الذي خسر المملكة للعرب[1]. وعلى الرغم من أنَّ هذه المعلومات أصبحت ثابتة في كتب التاريخ المعتمدة، فإنَّها لم تُؤَكَّد من المصادر المعاصرة. ومع ذلك، فإنَّ البيانات المملَّة عن الانتصار العربيِّ الواردة في المصادر الإسلاميَّة يمكن مقارنتها مع إعلانين بالنجاح في معركةٍ ضدَّ العرب من جيرانهم من حكَّام كوجرات. فمن المفترض أنَّ بعض القوَّات

1- كان البلاذري المصدر الإسلاميَّ المبكِّر الذي استخدمته هنا (انظر: الهامش السابق). حول Chachnama، انظر: M. Ahmed, The Many Histories of Muhammed b. Qasim (Ph.D, Chicago, 2008)، وهو الذي ترجم نقش Chalukya الذي ذكرته في المرجع أعلاه 82.

العربيَّة قد سارت نحو الجنوب من السند؛ للبحث عن فتوح وغنائمَ أخرى، أو ربَّما أبحرت بمركبٍ للبحث والحصول على حصَّة من تجارة المحيط الهندي النشطة، ووُصفت اثنان من مناوشاتهم مع السكَّان المحلِّيِّين في نصوصٍ كُتبت باللغة السنسكريتيَّة على ألواح من النحاس التي بقيت بحالةٍ جيِّدةٍ في مناخ الهند الرطب، وكانت تُستخدم بصورةٍ عامَّة لتسجيل المعاملات المهمَّة، ولا سيَّما سندات الأرض، ولكن فضلًا عن هذه الأعمال الرسميَّة، كان المانحون غالبًا ما ينتهزون الفرص للتصريح بمآثرهم البطوليَّة وأعمالهم الفاضلة.

إنَّ أقدم هذين النصَّين يعود إلى عام 736م، وهو لملك كورجارا Gurjara جايال بهاتا الرابع Jayalbhata، وبعد أن أكمل الجزء الرسميَّ من النصِّ - أي التفصيلات المتعلِّقة بسند الأرض - انتقل للنفخ بانتصاره ضدَّ العرب، حيث أكَّد: «أنَّه جايال بهاتا نفسه الذي قهرَ العربَ (تاجيكاس: tajikas) بحدِّ سيفه بقوَّة في مدينة الأمير فالابهي Valabhi، وواجه كلَّ الناس بقوَّة (وفعل هذا)، وكالغيوم التي أطفأت بمياهها النار التي سبَّبت المشاكل للناس». كانت فالابهي مركزًا بوذيًّا مشهورًا للتعليم والثقافة، يوجد فيها مئة معبد، وستة آلاف قسِّيس، كما يذكر أكسوان زنج، ويوجد فيها ميناء صاخب النشاط على الجانب الغربيِّ من خليج كامبي الذي ربَّما جذب اهتمام المغيرين العرب. وبعد وقتٍ قصيرٍ احتاج جايال بهاتا الرابع المساعدة ضدَّ العرب، وطلبها من مملكة كالوكايا Chalukya الجنوبيَّة والقويَّة جدًّا. حصل على مساعدة أحد أمراء كالوكايا المحلِّيِّين الذي أرسل إليه قوَّة عسكريَّة. وكما هو الحال مع جايال بهاتا الرابع وبعد وقت قصير، استخدم هذا الأمير وثيقة سند الأرض للإعلان عن نجاحه ضدَّ العرب، وأخذ يتبجَّح بالتشريف الذي حصل عليه من ملك كالوكايا، وبدأ يسرد أخبار المعركة التي هزم فيها الجيشَ العربيَّ. وما دمنا لا نملك روايات من مصادر الخصوم العرب في هذا الجزء من العالم، فمن المفيد أن نورد النصَّ كاملًا: «لقد دمَّر العرب

بسيوفهم الحادَّة واللامعة الكثير من الملوك، وبرشقات سهامهم ورماحهم وهرواتهم كان العرب يتوقون لدخول الجنوب وفتحه. ومنذ البداية جاؤوا لإخضاع مملكة نافاساري Navasari. كانت حوافر خيولهم الصاخبة تضرب الأرضَ وتنشر الغبارَ في الاتجاهات كلِّها. إنَّ أجسامهم البشعة وأسلحتهم التي احمرَّت وتلطَّخت بسيول من دماء الأحشاء الداخلية التي تفور من بطون المحاربين الكبار الذين اندفعوا تجاههم بحماس حتَّى قُطِّعوا برماحهم. إنَّ أفضل جيوش الملوك لم تستطع هزيمتهم من قبل. كانت الكثير من أجساد الأبطال قد تدرَّعت بالشعر الذي ينتصب من ضراوة روحهم القتاليَّة. هؤلاء هم الرجال الذين هاجموا العرب تمامًا، يهبون رؤوسهم مقابل النعم والفخر الذي يحصلون عليه من أمرائهم، ويعضُّون على شفاههم بأنيابهم، وعمائمهم وسيوفهم المشحوذة الملطَّخة بغطاءٍ سميكٍ من الدماء التي تنهمر من جروح أبدان وخدود فيلة العدو التي لا يُحصى عددها في الأماكن المنعزلة من ميدان المعركة الذي كان بمنزلة إسطبلٍ لها. وعلى الرغم من أنَّ العرب محاربون أشدَّاء قطعوا أعناق العدو مثل سيقان نبات اللوتس، وأطلقوا وابلًا سريعًا من السهام مكسوَّة بشفرات هلاليَّة حادَّة لتدمير العدو، فإنَّهم لم يحرزوا أيَّ نجاح. وعلى الرغم من أنَّ أجسامهم مغطَّاة بالشعر الخشن بسبب روحهم القتالية وهيجانهم، فإنَّهم هُزموا في ميدان المعركة، حينما بدأت الأجساد دون رؤوس يدار بها مع الأصوات العالية من ضرب الطبول المتواصل تعبيرًا عن الفرح، حتَّى ساد الاعتقاد «أنَّنا اليوم وعلى الأقلِّ، ورؤوسنا منحنية ندفع لأمرائنا ما في أعناقنا من دينٍ في هذه الحياة الدنيا».

تقع كلٌّ من نافاساري وفلابهي على جانبي خليج كامبي، حيث تمرُّ السفن خلاله نحو ميناء باريغازا القديم Barygaza، وكان من المحتمل جدًّا أنَّ العرب قد حاولوا بسط سيطرتهم على طرق التجارة العالميَّة في المحيط الهنديِّ. إنَّ كلا النصَّين المذكورين يشير إلى أنَّ العرب قد أحبطوا في مسعاهم هذا. وهناك لوح نحاسيٌّ آخر

يعود تاريخه إلى عام 753م ومطبوع عليه صورة للإله شيفا Shiva، يَذكرُ أنَّ ملك راشترا كوتا Rashtrakuta هزم كالوكايا في عام 753م وصادر أراضيهم. كانت إمبراطوريَّة راشترا كوتا متسامحة دينيًّا، ونابضة بالثقافة، وتسيطر على جزءٍ كبيرٍ من شبه القارَّة الهنديَّة، واستمرَّت حتَّى القرن العاشر الميلاديِّ، واستطاعت وقف أيِّ توسُّعٍ عسكريٍّ آخر للعرب من السند باتجاه الجنوب. ولكن ذلك لا يعني أنَّها أوقفت التجارة السلميَّة، ونجد بعض الإشارات في المصادر الهنديَّة لبعض نشاطات التجَّار العرب هناك، أو على الأقلِّ الإشارة إلى أولئك الذين وصفتهم بالطاجيك (tajikas)، وسواء كان ذلك يعني الجنس العربي أم المسلمين (عربا أو غير عرب)، أم سكَّان الإمبراطوريَّة العباسيَّة، بغضِّ النظر عن انتمائهم الدينيِّ.

ومن القرن العاشر الميلاديِّ لدينا مجموعة من الألواح النحاسيَّة من كولام، Kollam الواقعة إلى الجنوب الغربيِّ من الهند، وكُتبت بلغة التاميل سندًا لأرضٍ لصالحِ جماعتينِ تجاريَّتين. فالنصُّ وضعَ شروطًا يمكن لتلك المجموعتين الاتِّجار بموجبها، ووُقِّعَ السندُ من الطرفين ومن أربعة عشر شاهدًا يكتبون بالفارسيَّة (باللهجتين الفهلويَّة والعبريَّة) - ويتكوَّنون من الزرادشتيِّين، اليهود، والمسيحيِّين - وإحدى عشرة شخصيَّة أخرى تكتبُ بالعربيَّة من المسلمين والمسيحيِّين. فمن الواضح إذن كانت التجارة شأنًا عالميًّا إلى حدٍّ كبيرٍ، وهنا مسح المسلمون على أكتاف الأجناس والديانات الأخرى من أجلها[1].

1- ناقش هذه النقوش B. Chattopadhyaya , Representing th Other : Sanskrit Sources and the Muslims (Manohar, 1998) 28-35، وألواح كولام من قبل

C.G. Cereti, " The Pahlavi Signatures on the Qilon Copper Plates," in Festchrift for Nicholas Sims-Williams (Wiesbaden , 2009).

مجتمع من المسلمين وغيرهم

لا يوجد لدينا مؤشِّر قبل عهد عبد الملك على أن تتولّى الدولة نشر الإسلام بشكلٍ عامٍّ. وربَّما كان الخلفاء الذين سبقوه يفكِّرون أنَّ الإسلام كان للفاتحين فقط وليس للشعوب المفتوحة، أو كما هو الحال بالنسبة إلى الجماعة الإسلاميَّة في زمن النبيِّ محمَّد أنَّ الناس يمكنهم البقاء على ديانتهم، ولا توجد ديانة رسميَّة واحدة، أو كانوا لا يريدون أن يثيروا عداء العناصر غير الإسلاميَّة في الوقت الذي كان حكمهم لا يزال جديدًا وهشًّا. ولا نعرف في الواقع ماذا حدث، ولكن على أيَّة حال، تغيَّر هذا الوضع دراماتيكيًّا منذ عهد عبد الملك، حينما أصبحت النقود والوثائق بل حتَّى المعالم المادِّيَّة كالصور والزجاجيَّات تُزيَّنُ بالآيات القرآنيَّة التي تؤكِّد وحدانيَّة الله ورسالة النبيِّ محمَّد. أمَّا المؤمنون كأفراد أيضًا ولا سيما أولئك الذين يذهبون للحجِّ إلى مكَّة؛ أخذوا ينقشون على الحجر والحصى إيمانهم بالله وأنبيائه، ويظهرون رغبتهم في الالتحاق بهم في الجنَّة والبقاء بعيدًا عن نار الجحيم. (صورة 6.6). وبدأت مداخل المباني الضخمة - كالجوامع والقصور- تعرض نصوصًا عربيَّة تذكر الإجلال والولاء لإرادة الله ومنزلة النبيِّ الرفيعة. كان هذا التغيير يمثِّل استجابةً لتوحيد مجتمع الفاتحين بعد الحرب الأهليَّة القاسية (683–692م): وتأكيد ديانتهم العامَّة التي تؤمن بها الأغلبيَّة، وتوجيه اهتمامهم إلى عدوِّهم الدائم، الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة المسيحيَّة. والكثير من الآيات الدينيَّة الرسميَّة كانت يتمُّ اختيارها لتتحدَّى المسيحيَّة، ولا سيَّما: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ»، (الإخلاص: 112)؛ والآية: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ». (التوبة: 33).

وقبّة الصخرة الفخمة (صورة 5.5) التي بُنيت في القدس، حيث تنبّأ السيِّد المسيح: «سوف لا يترك حجر على حجر»،(مارك: 13:2) وغُلِّفت بالآجر الجميل ونُقشت عليها آيات من القرآن: «... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ... ولَا تَقُولُوا ثَلَاثَة...إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَه أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ...»، (النساء :171). كانت هذه العمليَّة بجعل الإسلام دين الدولة تؤدِّي حتمًا إلى عَدِّ الديانات الأخرى ثانويَّة، وقد صاغ الفقهاء المسلمون بعد عهد عبد الملك بعقودٍ من الزمن تدريجيًا إطارًا تشريعيًا لدمج كلِّ العقائد في مجتمعٍ إسلاميٍّ تكون فيه الديانات غير الإسلاميَّة ثانويَّة، ولكنَّها تكون محميَّة ولها مكانتها في الإمبراطوريَّة الجديدة. كانت النتيجة ظهور مجتمعٍ رُتِّب بازدياد على وفق الأصول الدينيَّة.



صورة رقم 6.6

نقشٌ عربيٌّ من العام 109 هجريَّة (727-728م) من جبل رم في جنوب الأردن يُسجِّلُ صلاةَ عبد العلا بن سعد بعد أن قبل الله صيامه لشهر رمضان وضمن له السلام والرحمة والمغفرة.

منزلة (مكانة) تفاضلية

من الطبيعيِّ أن تقوم كلُّ الدول بالتمييز بين فئات السكَّان القاطنين ضمن حدودها وتضفي عليهم حقوقًا مختلفةً. وبعضها تُميِّز بين مواطنيها وبين المقيمين الأجانب الذين يواجهون عددًا من القيود. كان مثل هؤلاء الأشخاص في العالم اليونانيِّ - الرومانيِّ (يُدعَونَ باليونانيَّة metoikos، وباللاتينيَّة perregrinus) لا يُسمح لهم بتولِّي المناصب العامَّة أو تملُّك الأرض أو الزواج من المواطنين (حتَّى عهد الإمبراطور أغسطوس في الحالة الرومانيَّة). كان الاعتراف بالمسيحيَّة بوصفها ديانةً رسميَّةً للدولة قد غيَّر ذلك الوضع تدريجيًّا، وأصبح التمييز يزداد بين المسيحيِّين وغير المسيحيِّين الذين بدورهم قُسِّموا على: المتمسِّكين بديانةٍ مسموحٍ بها (اليهود) وهم محميُّون، ولو نظريًّا على الأقلِّ؛ وديانةٍ غير مسموح بها (الوثنيَّة) التي كانت تواجه قيودًا قاسيةً. وهذا النموذج نفسه ترسَّخ في الإمبراطوريَّة العربيَّة، حيث صُنِّف غير المسلمين إمَّا «أهل الكتاب» الذي بإمكانهم دفع الجزية مقابل حمايتهم والاستمرار بعباداتهم، أو «المشركون» الذين يواجهون الاختيار الصارم بين التحوُّل إلى الإسلام أو القتل. وعلى العكس من ذلك، كانت الإمبراطوريَّة الساسانيَّة تميل إلى اعتماد وزنٍ أكبرَ للامتيازات الاجتماعيَّة (تُطبِّق أشبه بنظام الطوائف الجامدة) من التمييز الدينيِّ. وأكَّد البطريرق الجورجي لزميله الأرمنيِّ أنَّ خسرو/ كسرى الثاني «سمح لكلِّ شخصٍ أن يحتفظ بديانته»، وعلى عكس البيزنطيِّين، ولذلك فمن المؤكَّد أنَّ عددًا من الجماعات الذين يُعدُّون وثنيِّين بشكلٍ قاطعٍ للمسيحيِّين البيزنطيِّين كالمندائيِّين واليزيديِّين في العراق تمتَّعوا بالحماية آنذاك. ولحسن الحظِّ، أبقت الحكومات

الإسلاميَّة في العراق على تلك الحماية مصنِّفةً إيَّاهم أهلَ كتابٍ. ونتيجةً لذلك تمكَّنت مثل هذه المجموعات من البقاء حتَّى الوقت الحالي، على الرغم من تضاؤل أعدادهم إلى حدٍّ كبيرٍ[1].

أمَّا مؤرِّخو العصور الوسطى والحديثة؛ فإنَّهم يميلون إلى الافتراض بأنَّ العرب فرضوا التمييز بين المسلمين وغيرهم حالما بدؤوا فتوحاتهم. وكما رأينا في الصفحات السابقة كان هناك الكثير من غير المسلمين بين صفوفهم منذ البداية، ولكنَّ ما وحَّد موقف المسلمين آنذاك تركيزهم على الجهاد، ولذلك كان التمييز في العقود الأولى بشكلٍ رئيسٍ بين الفاتحين والشعوب المفتوحة. وحينما تحوَّلت أغلبية العناصر غير الإسلاميَّة في الجيوش الإمبراطوريَّة إلى الإسلام فقط تحوَّلَ التقسيمُ من فاتحين وغير فاتحين إلى مسلمين وغير مسلمين. وعلى أيَّة حال، بدأنا نرى في عهد عمر الثاني (بن عبد العزيز) شواهدَ معاصرة على السياسات التمييزيَّة[2]. ويبدو أنَّ الباعث وراء ذلك كان الفشل القاسي لحصار العرب للقسطنطينيَّة في سنة 717-718م، وخسارة هائلة في الأرواح العربيَّة، مِمَّا أدَّى إلى تكثيف العداء نحو البيزنطيِّين، وبدوره نحو المسيحيِّين، وكذلك المسارعة نحو احترافيَّة الجيش. فالكثير من المسلمين قد تخلَّوا عن دورهم العسكري وأصبحوا مدنيِّين، ولكنَّهم لم يرغبوا بمسح الأكتاف والمساواة مع غير المسلمين من الشعوب المفتوحة. وتبعًا لذلك، فُرضت القيود على هؤلاء لبقائهم ضمن

1- تميل الجماعات التي تؤمن بالثنائية إلى الخوف إلى حدٍّ بعيدٍ؛ لأنَّ الثنائيَّة تصطدم بتأكيد الإسلام على التوحيد، وكذلك وصمها بسبب علاقاتها بالنظام الفارسيِّ السابق، ووصف أتباعها "بالزنادقة"، ومجموعة كهذه واجهت من فترة لأخرى العقوبات، ولا سيَّما المانويين، على الرغم من أنَّ ذلك الوصف يمكن لصقه بأيِّ شخصٍ تريد الحكومة التخلُّص منه. انظر: Arjomand، "ابن المقفع" في
Iranian Studies 27 (1994), 20-24.

2- ثيوفيلوس، 215-217، وكذلك: Chronical of Zuqnin, 155 (عدم قبول شهادة المسيحي ضدَّ المسلم؛ ودية الدم للمسيحي أقلُّ منها على المسلم). وللاطلاع أكثر على هذا الموضوع، انظر:
M. Levy-Robin, Non-Muslims in the Early Islamic Empire (Cambridge, 2011),ch 3.

حالة من الخضوع. وإنَّ أصل تلك القيود جاءت في الأعمِّ الأغلب من الكوابح البيزنطيَّة على اليهود (عدم بناء المعابد الخاصَّة بهم، عدم الاعتراف بشهادتهم ضدَّ البيزنطيِّين، عدم تشويه سمعة المسيحيِّين، ...الخ)، ومن أنظمة التمييز الساسانيَّة الفارسيَّة بين النبلاء والعامَّة من الناس (عدم لبس الخوذة والمعاطف والأحزمة والأحذية، وعدم حلاقة الرأس كما لدى الفئات العليا، ...الخ). وهذا تطوَّر تدريجيًّا في صيغ مكثَّفة من القواعد الشرعيَّة التي تحكم غير المسلمين فيما يجب عليهم عمله أو عدم عمله، وكيف يجب أن يسلكوا تجاه المسلمين. ولذلك أصبح اليهود والمسيحيُّون والآخرون من غير المسلمين فئاتٍ ثانويَّةً، وإنْ اندمجت ضمن النظام الشرعي الإسلاميِّ ومُنحت الحماية.

التفاضل في الضرائب

كانت الضرائب المظهر الأكثر استمراريَّة لسياسة التمييز بين المسلمين وغيرهم. ففي البداية كما يتوقَّع المرء لم يدفع العرب بوصفهم فاتحين جنودًا وحكَّامًا أيَّةَ ضريبة. ومن ناحية أخرى، كان على الرجال البالغين من الشعوب المفتوحة دفع الجزية، بغضِّ النظر عن ديانتهم وأعراقهم، إلَّا إذا حصلوا على إعفاء مقابل التعهُّد بالخدمة العسكريَّة أو التجسُّس وغير ذلك. لقد ذكرت إحدى البرديَّات المصريَّة المعاصرة بوضوح عددًا من الضرائب المختلفة، لكنَّ الضرائب الرئيسة كانت الجزية والخراج[1]. وأصبحت الجزية تعبيرًا عن الضريبة الدينيَّة يدفعها غير المسلمين، ولكن في بداية الفتوح كانت

1- إنَّ المصطلحات في الشريعة الإسلاميَّة التقليديَّة هما الجزية والخراج على التوالي، ولكن ذلك كان بدعةً عبَّاسيَّة مبكِّرة، ولكن قبل ذلك كان الخراج يُعمل به في الممالك الفارسيَّة فقط (بالآرامية: خارجه)، ولم يظهر في أوراق البردي المصريَّة خلال الفترة الأموية التي كانت تستخدم مصطلح الجزية وهو مصطلح من جنس الضريبة (ضريبة الرأس، أو جزية الأرض، وتستخدم حينما يُراد التوضيح لذلك). والإخفاق في التمييز بينهما يعود إلى أنَّ المصطلح يمكن أن يعني أشياء مختلفة في أوقات مختلفة، وأنَّ الرغبة لتصوير أنَّ النظام التقليدي يعود إلى العقود المبكرة من الحكم العربي قد أعاق فهمنا عن كيف تطور النظام الضريبي الإسلامي.

ببساطة الضريبة التي تدفعها الشعوب المفتوحة للفاتحين، على الرغم من أنّها أصبحت تفهم أنّه من المناسب أن يدفع أولئك الذين هجرهم الله بوضوح ثمنَ خدمة أولئك الذين اختارهم الله بعناية. وربَّما رغب العرب الفاتحون أن تستقرَّ الأمور كما هي: أن يعيشوا برفاهٍ على حساب تلك الشعوب المفتوحة. ولكن كان لا بدَّ في النهاية أن تشارك الشعوب المفتوحة بالامتيازات الهائلة التي تمتَّع بها الفاتحون ولا سيَّما التحرُّر من الضرائب. فقد اشتكى جباة الضرائب للحجَّاج مرَّةً تلو الأخرى عن «انخفاض واردات الضرائب وذلك لتحوُّل الشعوب المفتوحة للإسلام، ومغادرتهم لحاميات المدن». وسمعنا الكثير مِمَّا أوردته إحدى البرديَّات من أواخر القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلاديَّين عن مجموعة من الفلَّاحين الذين تخلَّفوا عن دفع ضرائبهم وتركوا أراضيهم على أمل التخلُّص من التزامهم والتحوُّل للإسلام. ففي العهود السابقة كانوا يلجؤون إلى الأديرة، بينما يذهبون الآن لخدمة أحد الوجهاء أو القادة المسلمين، أو ينخرطون في الجيش. وتركَ هذا الوضعُ بصماته في المصادر الأدبيَّة الإسلاميَّة التي تروي الكثير من الأخبار عن المجموعات من العوامِّ المتحوِّلين إلى الإسلام، الذين يخدمون مع الجند النظاميِّين في الجيش، لكنَّهم لا يتسلَّمون أيَّة معاشات أو تجهيزات. ولم ترغب السلطات بهذا النوع من المجنَّدين غير المدرَّبين في الخدمة العسكريَّة، وكانت قلقةً حول تردِّي قوَّة العمل الزراعيَّة. ولذلك، كانوا في العادة يُجمعونَ ويُعادُونَ إلى قراهم؛ لكي يستطيعوا دفع الضريبة مرَّةً أخرى[1].

كان يُنظرُ إلى الخليفة عمر الثاني (بن عبد العزيز) بوقار؛ لأنَّه الأكثر تديُّنًا وتعبُّدًا من بين كلِّ خلفاء بني أميَّة، ويرغب بالاستمرار في سياسة الخليفة عبد الملك بتعزيز مكانة الإسلام بوصفه أساسًا للإمبراطوريَّة العربيَّة. ولذلك، غضبَ من معاملة

1- الطبري، 2.1122 (حجاج)؛

P. Cron, "The Pay of Client Soldiers" Der Islam 80 (2009).

المتحوِّلين إلى الإسلام، وكتب إلى ولاته يأمرهم بالتوقُّف عن جباية الضرائب من المسلمين بغضِّ النظر عن أصولهم. وعزَّز هذه النقطة في مرسوم للضرائب: «كلُّ من قبلَ الإسلامَ دينًا، سواء كان مسيحيًّا أم يهوديًّا أم زرادشتيًّا، وهو الذي يخضع الآن للضريبة، وانضمَّ إلى الجماعة الإسلاميَّة في موطنه، وهجر منطقته التي يسكنها من قبل؛ له مثل حقوقكم وواجباتكم، ويجب مصادقته ومعاملته بوصفه واحدًا من أنفسكم»[1]. ومع ذلك، عرقل خلفاؤه هذه السياسة، وبعض الولاة من التفَّ عليها بالموافقة على إعفاء المتحوِّلين إلى الإسلام الجُدد من الضريبة فقط، وبشرط أن يُظهر مصداقيَّته بالإسلام بقراءة بعض سور القرآن وممارسة الختان، مِمَّا أثار ذلك تراجعًا واسعًا بين المعتنقين للإسلام. ومن المفيد أن نقارن تلك المشكلة بموقف بعض البلدان الغنيَّة في الوقت الحاضر تجاه مشكلة المهاجرين. فمواطنو تلك البلدان الأصليُّون الذين عادةً ما يتمتَّعون بمزايا متعدِّدة أخذوا يتخوَّفون من أنَّ الأبواب إذا فتحت بشكل واسع للمهاجرين الجُدد الذين أصبحوا مواطنين أيضًا؛ فإنَّ تلك الامتيازات ربَّما تتقلَّص أو تزول. ولذلك، فإنَّ السلطات تُفضِّل قبول المهاجرين المثقَّفين والمهرة فقط، وإن كان من الصعب تبرير عمليَّة الاختيار على أسسٍ قانونيةٍ، واستمرار إعادة المهاجرين الفاشلين على الدوام. كان الفاتحون في موقفٍ مشابهٍ تمامًا، فالامتيازات التي تمتَّعوا بها كانت سخيَّةً جدًّا، ولذلك، كان لا يوجد طريقٌ آخرُ سوى أنَّها تشمل كلَّ أولئك الذين انضمُّوا إليهم، ولكن دون إنهاكٍ للاقتصاد. كان الاختيار أمامهم إمَّا استخدام قوَّة أكبر لإيقاف تيَّار القادمين الجُدد إلى مجتمعهم، أو تخفيض حزمة امتيازاتهم.

وقد لا نستغرب إذا ما أخذنا القاعدة العدديَّة الواسعة للفئات العامَّة، فالعرب اختاروا هذه الفئات منذ عهد عبد الملك فصاعدًا، وأدخلوا الكثيرَ من التغيُّرات؛ بهدف جعل الأسس الماليَّة للإمبراطوريَّة العربيةً أكثر ديمومةً. أوَّلًا، وكما قلنا سابقًا، كان

1- H. R. Gibb, " The Fiscal Rescript of Umar II, " Arabica 2(1955),3.

الباعث للانخراط في الجيش قد قُلِّصَ واستُبدلت دفعات المكافآت الماليَّة للجند عن المشاركات السابقة لتتحوَّل إلى رواتب تُدفع بانتظام للاستمرار بالخدمة. وبذلك، لم يعد المرء يستند إلى الأمجاد السابقة، بل يجب أن يبقى عنصرًا نشطًا وجنديًّا مستمرًّا بخدمته. وهذا لم يجعل من سينخرط مستقبلًا في الجيش يتوقَّف للتفكير فقط والموافقة على الانخراط، ولكن شجَّعَ أيضًا عددًا من الأعضاء الموجودين في الخدمة على التخلِّي والانضمام إلى صفوف المدنيِّين. وثانيًا، من أجل وقف الانخفاض في واردات ضريبة الخراج بسبب تحوُّل المزارعين غير المسلمين إلى الإسلام، وشراء المسلمين للأراضي من غير المسلمين؛ فهناك تغيُّر من الدفع بالاستناد إلى فئة الشخص (مسلم أو غير مسلم) إلى الدفع استنادًا إلى صنف الأرض. وبصورة عامَّة، أصبحت هناك ضريبة موحَّدة على جميع الأراضي غير التابعة للعرش، وتُفرضُ على المسلم وغير المسلم على حدٍّ سواء. والإصلاح الثالث كان يختصُّ بضريبة الجزية، التي يُنظَرُ إليها بالتحديد على أنَّها الضريبة المفروضة على غير المسلمين، كان الحلُّ أن يكون دفع الصدقات إجباريًّا على المسلمين، وتُجبى كالضريبة. وربَّما أدخلت هذه السياسة ليس بالوقت الطويل قبل عام 730م، حينما نرى نجد بن مسلم، حاكم منطقة الفيوم الواقعة اليوم جنوب القاهرة، يبرِّر ويشرح النظام الجديد، كما يأتي: «الله أرسل النبيَّ محمَّدًا، صلوات الله عليه، بالهدى ودين الحقِّ، وكل شيء تصديق من الله لعباده. فبالنسبة إلى ممتلكات الناس من المسلمين (أهل الكتاب)، الدين القويم، فرض الله الصدقة على ممتلكاتهم لكي يطهِّرهم ... وأن يُسلِّم إيصالٌ بكلِّ ما يعُطى من الشخص ... باسمه واسم والده، وقبيلته وقريته...»[1].

1- Sigpestejin, Shaping a Muslim State ", 314-315

لقد حاولت بإجهاد تبسيط وضع معقَّد جدا؛ حول الإيضاحات الأخيرة عن هذا التعقيد، انظر:

Sijpestejin's book and M.Campopiano, "Land Tax 'ala l-misha and muqasma: Legal Theory and the Balance of social Forces in early Medieval Iraq," Journal of the Economic and Social History of the Orient 54(2011).

لم تعد تلك الامتيازات التي تمتَّع بها مجتمع الفاتحين موجودةً بحلول النصف الثاني من القرن الثامن الميلاديّ. فمن المرجَّح كثيرًا، كان المسلم العاديُّ يدفع ضريبةً أقلَّ من غير المسلم العاديّ، ولكنَّها تتباين استنادًا إلى مكانته ومهنته، ومن الطبيعي القول إنَّ واقع جباية الضرائب كان معقَّدًا إلى حدٍّ كبيرٍ، وأكبر من آراء الفقهاء ونظريَّاتهم البسيطة والأنيقة.

ثورات المسلمين وسقوط الأمويين

وعلى الرغم من أنَّ هذه الإصلاحات لنظام الضريبة ربَّما كانت ضروريَّة، فإنَّها أذكت روح الاستياء ضدَّ الأمويِّين، ومع الهزائم التي عانت منها الجيوش الإمبراطوريَّة في ثلاثينيَّات القرن الثامن الميلاديّ؛ أضافت إلى ذلك الشعور بالاستياء من الأمويِّين بوصفهم حكَّامًا غير عادلين وغير أتقياء. كان المشاركون العراقيُّون في ثورة ابن الأشعث في عام 701م من الأوائل الذين أظهروا عداءهم بإحراقهم سجلَّات الضرائب، وهذا خير مؤشِّر على غضبهم الشديد. والكثير من المجموعات المختلفة شعرت أنَّها قد خسرت الكثير من الفرص، ولا سيَّما النخب المحلِّيَّة والمتحوِّلون الجدد إلى الإسلام. فالنخب المحلِّيَّة عملت جباةً للضرائب لحساب العرب: كانت الضرائب في المدن والمناطق تُخَمَّنُ كمبلغٍ إجماليٍّ سنويٍّ، وعُهد إلى أولئك الوجهاء المحلِّيِّين مهمَّة جمعها بطريقةٍ تناسب السكَّان المحلِّيِّين، وهو عمل يعطيهم نوعًا من الاستقلال الذاتيّ والمكانة الاجتماعيَّة، بوصفها وسيلةً لتطبيق النظام بالطريقة التي تناسبهم. وكجزءٍ من الإصلاح، كان هناك تبدُّلٌ تدريجيٌّ من التخمين الجماعيِّ إلى التخمين الفرديّ، وبجباية واقعيَّة تُنَفَّذُ أكثر وأكثر من جباة يُعيَّنونَ مباشرَة من الدولة، ممَّا أدَّى إلى تدمير دور النبلاء المحلِّيِّين في هذا المجال[1].

1- Duri, Early Islamic Institutions , 25 114. (حرق السجلات)، كانت المصادر الإسلامية تطلق على هؤلاء الوجهاء في بلاد فارس تسمية "دهقان".

أمَّا المتحوِّلون مؤخَّرًا للإسلام، ولا سيَّما من عناصر الفئات العامَّة؛ غالبًا ما يواجهون موقفًا عدائيًّا من السلطات، ولا يُعفَونَ من الجزية كما وعدوا مرارًا عند تحوُّلهم. وازداد الحال سوءًا كلَّما تزايد عدد المتحوِّلين إلى الإسلام، كالذي حدث في أعقاب فشل الحصار على القسطنطينيَّة، وحينما كانت الحملات العسكريَّة تُستكمَلُ من الأنشطة التبشيريَّة للاعتقاد أنَّ هؤلاء المتحوِّلين سيكونون أكثر ولاءً للدولة. فعلى سبيل المثال، أرسل الخليفة عمر الثاني (بن عبد العزيز) مجموعةً من العلماء المسلمين إلى أفريقيا وموريتانيا لنشر الإسلام هناك في عام 718م. وفي المشرق، أعلن أشرس بن عبد الله حاكم خراسان (727–730م) «لرجلٍ من أهل الفضيلة والتقوى الذي أريد إرساله إلى مناطق أكسوس لدعوة الناس للإسلام»؛ وأخذ الرجل الذي أرسلوه يعظُ هناك، في محيط سمرقند، أنَّ من يُصبح مسلمًا يُعفى من الجزية»، «وكذلك الآخرون الذين سيتبعونه». ولذلك، بُنيت الجوامع وأخذ المبلِّغون يعلِّمون المعتنقينَ الجُدد للإسلام كيفيَّة الصلاة وقراءة سور القرآن معهم باللغة الفارسيَّة. ومع ذلك، حينما أدرك أشرس نتائج سياسته بالانخفاض الحادِّ في جباية الجزية أمر «أن تُؤخذَ الجزية من أيِّ شخصٍ اعتادوا على أخذها منه»، وبذلك أعادوا فرض الجزية على أولئك الذين أصبحوا مسلمين، مِمَّا شجع على ارتداد الكثير منهم[1].

1- أبو العرب القيرواني، طبقات علماء أفريقيا وتونس، نشر، الشابي واليافي (تونس، 1968)، 84–87 (عمر الثاني)؛ الطبري، 1507–1509 .2 (أشرس)؛ نرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة R. Frye، (Cambridge, MA,1954), 48-49 (المعتنقون الجدد). إنَّها مسألة تثير الاهتمام وهي إلى أيِّ مدىً أو في أيِّ نقطةٍ يشعر النظام العربي الإسلامي فيها أنَّ لديه رسالة حضاريَّة، أي بعبارة أخرى: منح التنوير للآخرين وليس مجرَّد الشعور بالاستعلاء عليهم ولا يحقُّ للآخرين ذلك. P. Cron, " Imperial Trauma" Common Knowledge 12(2006), 109 أطلقت على العرب تسمية "الموحِّدون الرسوليون"، ولكن من الصعوبة إدراك سياسة متماسكة، وتبدو في الغالب أنَّها موجَّهة في مناطق يكون الأمن فيها موضع قلق.

هذه الشكاوى وغيرها دفعت الكثير إلى أحضان الحركات المعارضة المختلفة التي تمثّلت في اثنتين من المجموعات الكبيرة الشاملة، وفي بيئاتٍ محليَّة متعدِّدة، لكنَّها تُمثِّل موقفين مختلفين جدًّا نحو الحكومة. كان الخوارج في نهاية من الطيف المعارض الذين ينادون بأنْ يكون منصب الخليفة لأيِّ شخصٍ أكثر تأهيلًا وكفاءةً بغضِّ النظر عن عائلته وجنسه، وأن يكون الخليفة مساويًا لأقرانه وليس الحاكم المطلق. ويشعرون أنَّ السلطة والأهليَّة هما بيد جماعةٍ تتَّصل بالله مباشرة بشكلٍ عامٍّ، ولا تحتاج إلى وسيطٍ بالسلطة يعمل بالنيابة عنها. وعلى النهاية الأخرى من الطيف المعارض الشيعة، الذين يؤيِّدون فكرة القدوة المختارة التي تخدمها الجماعة وليس العكس، أي الجماعة المختارة التي يخدمها القدوة، وأنَّ عليًّا بن أبي طالب، وبفضيلةِ زواجه من ابنة النبيِّ محمَّد ورث شخصيَّة النبيِّ الدينيَّة، وأنَّها يجب أن تستمرَّ في أبنائه وأحفاده الذين يكافح الشيعة في وضعهم على رأس العالم الإسلاميِّ وصدارته. وكلتا الرؤيتين تتناقض مع وضع الأمويِّين الذين يؤكدون أنَّ حقَّ تقرير الشؤون الدينيَّة والسياسيَّة انتقلت من الأنبياء إلى الخلفاء، وأنَّهم العائلة الأكثر مناسبةً لتولِّي ذلك المنصب.

كان أبطال هاتين المجموعتين المناهضتين للحكومة قد أخذوا يستعرضون عضلاتهم خلال الحرب الأهليَّة الثانية، ولكنَّهم أصبحوا أكثر عددًا في ثلاثينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ، وذلك لكسب الكثير من الأنصار من غير العرب إلى قضاياهم وطموحاتهم. وهذا ما ظهر واضحًا من النقود التي سُكَّتْ بأسمائهم، ومن المستغرب أنَّها في مناطق واسعة. ففي شمال شرق أفريقيا - كما رأينا - كان هناك اندفاع الخوارج نحو الانتفاضات التي أدَّت إلى تنصيب حكَّام محلِّيِّين في أماكن مثل طرابلس الغرب وتلمسان (في غرب الجزائر الحاليَّة). وفي اليمن أعلن أحد المتمرِّدين نفسه خليفةً في عام 746م متَّخذًا اللقب الملكي «طالب الحق»، وذهب إلى أبعد من ذلك بالتوجُّه

لحصار مكّة والمدينة والسيطرة عليهما، مِمَّا تطلَّب استجابةً هادئةً من السلطات الأمويَّة التي اغتالته في عام 748م. أصبحت ثورات الخوارج متوطِّنة في ريف الجزيرة (الفراتيَّة)، ولكنَّ الفوضى السائدة في أربعينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ سمحت لهم بالتوسُّع في عمليَّاتهم، وسكّ النقد بأسماء قادة الخوارج المحلِّيِّين في الموصل والكوفة، وأوضح الباحثون كيف أنَّهم استطاعوا مدَّ سلطتهم نحو المدن[1].

لقد عمل المتمرِّدون الشيعة جيدًا في الأراضي الفارسيَّة السابقة بشكلٍ خاصٍّ، ولو جزئيًّا على الأقلِّ، لأنَّ فكرة القائد الذي ينتمي إلى سلالةٍ مقدَّسةٍ والمؤيَّد بقدوة مقدَّسة تتماشى مع أفكار النسب الفارسيَّة القديمة. فضلًا عن اعتقاد الشيعة بالاجتهاد والإلهام الدينيِّ وأنَّهما مفتوحان، مِمَّا جعلهم أكثر تقبُّلًا من الطوائف الإسلاميَّة الأخرى لمبادئ التقليد الدينيِّ الفارسيِّ كالمسيحانيَّة (المخلص المنتظر)، والثنائيَّة، ودوران الزمن (المداولة)، والقوَّة المحرِّكة للروح المقدَّسة. ومن الأمثلة الجيِّدة التي توضح ذلك، حركة المغيرة بن سعيد الذي ساند إمامة محمَّد الباقر (ت:743م)، حفيد الإمام عليّ بن أبي طالب، وصوَّره على أنَّه المهديُّ المنتظر. كان المغيرة يعظ بأنَّ الله شخص من نور، وعلى رأسه تاج من نور، وأنَّ أطرافه تعبِّر عن حروف الأبجديَّة العربيَّة، وأنَّه علمَ أسطورة الخلق المُحكمة التي تقوم على التناقض القوي بين النور والظلام: «كتب الله في كفه أعمال الطاعة والعصيان، فأغضبه العصيان فتصبَّب عرقًا، فتشكَّل من ذلك العرق بحران، أحدهما مالح ومظلم، والآخر مشرق حلو المذاق. فحَدقَ في البحر فرأى ظله، وذهب للإمساك به لكنَّه اختفى بعيدًا. ثمَّ اقتلعَ عين الظلِّ وخلق منها الشمس، وأباد الظل وقال: لا إله آخر غيري»، ثمَّ خلق كلَّ الخلق من

1- C. Wurtzel, " The Coinage of the Revolutionaries in the Late Umayyad Period," American Numismatic Society Musem Notes 23(1978).

أنظر ايضا :

M. Mochiri, Arab-Sasanian Civil War Coinage (Leiden, 1987).

البحرين. نادى الكافرين من البحر المالح المظلم، والمؤمنين من البحر حلو المذاق المنير، وابتعد عن ظلِّ الناس. كانت الظلال الأولى التي خلقها هما محمد وعلي»[1].

وبعد وفاة محمَّد الباقر بوقتٍ قصيرٍ تمرَّد عبد الله بن معاوية في الكوفة في شهر تشرين الأوَّل عام 744م، وهو حفيد جعفر بن أبي طالب. لقد رحل من العراق إلى بلاد فارس وتجوَّل في ولاياته؛ للبحث عن التأييد والمساندة لادِّعاته بالخلافة استنادًا إلى قرابته من النبيِّ محمَّد وعلي بن أبي طالب، وهي دعوة عزَّزها بسكِّ النقد باسمه وكتابة الآية القرآنيَّة: «لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»، حيث يعتقد الشيعة



صورة رقم 6.7
نقود عبد الله بن معاوية

1- اقتبست من: W. F. Tucker, Mahdis and Millenarians (Cambridge,2011),62 والذي ناقش أيضا الجناحية التي سأذكرها لاحقا، مع ملاحظة العلاقات بأساطير الخليقة الغنوسطية.

أنَّها نصيحة وعظة من النبيِّ محمَّد تكريمًا لابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب وأبنائه وأحفاده من بعده. (صورة رقم 6.7). كان من أكثر الأتباع المتحمِّسين لعبد الله جماعة غامضة النسب تُدعى الجناحيَّة، التي تدَّعي أنَّ «الروح الإلهيَّة» قد حلَّت في آدم، ثمَّ انتقلت إلى الأنبياء والأئمَّة ومن بينهم علي بن أبي طالب، وابنه محمَّد، ثمَّ ابنه عبد الله أبو هاشم، ومنه إلى عبد الله بن معاوية، ومن الطبيعيِّ أنَّه والعناصر المنضمَّة إليه من الشخصيَّات المشكوك فيها، إنْ لم تكن مرفوضةً علانيةً من الجناح الشيعيِّ الأكثر رصانةً ورزانةً بشكلٍ عامٍّ، الذي ينظر إلى بعضهم من «الغلاة»، ولكن مع ذلك، لم يتبنَّ الشيعة عددًا من هذه العقائد الفارسيَّة التأثير، ولا سيَّما فكرة أنَّ أئمَّتهم يتمتَّعون بالإلهام الإلهيِّ المقدَّس.

وعلى الرغم من أنَّ هاتين الحركتين السياسيَّتين – الدينيَّتين كانتا تتمتَّعان بشعبيَّةٍ كبيرةٍ، فإنَّهما تميَّزا بالمعارضة التامَّة للأمويِّين، وكانت بعض انتفاضاتهما تصطبغ بالصبغة المحلِّيَّة. ففي المناطق المحيطة ببلخ – شمال أفغانستان الحاليَّة – تمرَّد حارث بن سُريج واستطاع تحدِّي السلطات لمدَّة اثنتي عشرة سنة (734–746م) وكسب إلى جانبه صفًّا كبيرًا من المناصرين، ومن بينهم خاقان الأتراك التورغش. وتذكر المصادر الإسلاميَّة أنَّه «يدعو إلى عقيدةِ المرجئة»، الذين يقولون إنَّ الإيمان وحده يكفي لكي تكون مسلمًا ومن دون ضرورة للسلوك القويم. وكان هذا موجَّهًا ضدَّ الخوارج الذين يرون أنَّ الأعمال الصالحة تُعدُّ جزءًا مكمِّلًا للشخصيَّة المسلمة، ويمكن للأعمال غير الصالحة أن تُخرج الشخص من الجماعة الإسلاميَّة، إلَّا أنَّها جذبت المساندة من المتحوِّلين الجُدد إلى الإسلام، الذين أخبروا أنَّ تحوُّلهم لم يكن صحيحًا إلَّا بحفظهم القرآن وممارسة الختان.

جنَّدت هذه المناطق في شرق بلاد فارس/ وأواسط آسيا أغلبيَّة القوَّات التي ستطيح بالعائلة الأمويَّة في عام 750م، وقد لعب الكثير من العلماء دورًا في تشكيل

حضارةٍ إسلاميَّةٍ جديدةٍ، وفصلها أكثر عن بؤرة اليهوديَّة - المسيحيَّة الضيِّقة التي كانت تسود في دمشق، ومزجها مع عناصر ثقافيَّة من هذا العالم المتعارض في المعتقدات. وهناك عدد من الأسباب تجعل هذا الإقليم حيويًّا جدًّا في هذا المجال، أوَّلًا: كانت أرضه وعرة على الفاتحين، وفي الوقت الذي وصل العرب إلى هذه المناطق من الشرق الأقصى، فإنَّهم وصلوا أقصى إلى تمدُّد لهم، بينما في غرب بلاد فارس سحق العربُ النخب المحلِّيَّة، وهنا عملوا معهم، وهذا يعني أنَّ ثقافة الإقليم قد احتُفِظَ بها إلى حدٍّ ما. وثانيا: إنَّ الكثير من الأديان المعروفة هناك - المسيحيَّة، البوذيَّة، والمانويَّة - وضعت قيمةً كبيرةً على معرفة القراءة والكتابة، وهذا يتعزَّز أكثر باعتماد الإقليم بقوَّة على الروح التجاريَّة التي تجعل منه نقطة التقاء لطرق التجارة بين الصين والهند وعالم البحر الأبيض المتوسط. وثالثا: إنَّ العرب سكنوا في المدن بين السكَّان - مرو، بلخ (بعد عام 726م)، بخارى، وسمرقند على سبيل المثال، وليس في حاميات عسكريَّة منفصلة، كما حدث في العراق ومصر. فضلًا عن جهود الإرساليَّات الدينيَّة التي بدأها بعض الحكَّام المحلِّيِّين، وهذا يعني أنَّ هناك الكثير من التفاعل والانصهار الاجتماعيِّ بين الفاتحين والشعوب المفتوحة، ولا سيَّما أنَّ العرب كانوا نسبيًّا أقلِّيَّة وبعيدين عن أوطانهم، فإنَّهم أو أبناءهم أو أحفادهم على الأقلِّ نتيجة الزواج من الفارسيَّات؛ أخذوا يتحدَّثون اللغة الفارسيَّة، ويحضرون الأعياد الفارسيَّة مثل النوروز. وأصبحت الولاءات الثقافيَّة والإثنيَّة متداخلة، حتَّى أصبح «الإسلام الفارسي» أسلوبًا عامًّا للنخب الجديدة. فحينما قرَّر الوالي نصر بن سيار والمتمرِّد حارث بن سُريج أن يتفاوضا؛ اختاروا من يمثِّلهم «رجال ضليعون بكتاب الله»، وهم مقاتل بن حيَّان، وهو فقيه يسكن في بلخ، وجهم بن صفوان، وهو أحد علماء مدينة ترمذ، وكلاهما أبناء لأسرى فرسٍ اعتنقوا الإسلام. وأيضًا كان مهندس الثورة العباسيَّة أبو مسلم - وهو من مواطني هذا الإقليم أيضًا - فحينما سُئِلَ من هو، أجاب: «أنا رجل من المسلمين، ولم

أتابع أسلافي إلى أيّة مجموعة تنتمي من دون الآخرين ... وإنَّ سلفي الوحيد هو الإسلام»[1].

إنَّ أشخاصًا من أمثال مقاتل بن حيَّان وجهم بن صفوان وأبو مسلم، من الأمثلة الجيِّدة على كيفيَّة اندماج الكثير من الشعوب المفتوحة وانهماكهم في الحياة الثقافيَّة والدينيَّة والسياسيَّة لعالم الفاتحين. وكما أوضحتُ في مقدِّمة هذا الكتاب أنَّ الكثير من الباحثين الغربيِّين ركَّزوا على السرعة التي تمَّت بها الفتوحات العربيَّة، ولكنَّ الأكثر بروزًا معدَّل السرعة التي انبثقت بها الإمبراطوريَّة الجديدة من رماد الإمبراطوريَّة القديمة. وإذا حاول المرء البحث في تواريخ عوائل بعض أولئك اللاعبين الرئيسين في العهد الجديد سواء كانوا من العرب أم من غير العرب، يمكننا أن نرى خلال ثلاثة أجيال كيف تغيَّر الوضع الاجتماعيُّ والتوجُّه الثقافيُّ بوتائر لا يمكن إدراكها. وإلى حدٍّ ما، فهذا شيء موجود في كلِّ الإمبراطوريَّات، وفي كلِّ عاصمة إمبراطوريَّة يمكن للمرء أن يرى أشخاصًا تافهين أصبحوا أثرياء وبرزوا من الغموض إلى الشهرة ومن العبودية إلى أعلى المناصب في فترةٍ ما من حياتهم. ولكن يبدو أنَّ ذلك حدث بصورة خاصَّة بوتائر أكبر ومعدَّلات أسرع في حالة الإمبراطوريَّة العربيَّة. وهذه المسألة – أي سرعة حضانة الحضارة الإسلاميَّة – سنتحوَّل إليها في الفصل المقبل.

1- الطبري، 1566-1586 .2 (حارث بن سُريج)، 2.1575 (مُرجئة)، 1918-1919.2 (مقاتل وجهم)؛ الدوري والمطلبي، أخبار الدولة العباسية (بيروت،1971)، 283 (أبو مسلم).

الفصل السابع

تشكيل الحضارة الإسلاميّة

لقد أنجزت الجيوش العربيّة بعد قرنٍ من الزمن أو أكثر بقليلٍ من القتال وشنّ الحملات انتصاراتٍ امتدّت من المحيط الأطلسيّ حتّى بحر الأورال، ومن جبال الأطلس حتّى هندو كوش، وإنْ واجهوا خليطًا من العوائق الطبيعيّة ودولًا منظّمةً تنظيمًا جيّدًا، مِمَّا أعاق أيَّ تقدُّمٍ أكبر لهم. ولكن بقي الإسلام ينتشر أكثر، ليس من طريق الجيوش العربيّة، إنَّما من طريق العوائل المسلمة المحلّيّة، ورحلات العلماء والتجّار الذين سيقودون من الآن فصاعدًا الحركة المنظّمة لذلك الانتشار. وهذا يعني أنَّ سهولة الحصول على التجهيزات من الغنائم قد انتهت، مما شجع الكثير من المقاتلين لتغيير عدَّتهم العسكريَّة إلى الزيِّ المدنيِّ، وأنَّ التركيز على الجهاد والحصول على الأراضي أخلى الطريق لبناء إمبراطوريَّة إسلاميَّة وتشكيل الحضارة الإسلاميَّة. فقد وفَّرت الفتوحات مجالًا لازدهار الإسلام، ولكن لم تسمح له في الوقت نفسه بالتطوُّر. وكانت حقول القانون الإسلاميِّ والعلوم والفلسفة والفقه والأدب والفنِّ كلها لا تزال حقولًا فتيَّةً أو لم تُولد أصلًا. إنَّ الأعداد الكبيرة من الثقافات التي أصبحت

الآن تحت الحكم العربيِّ أخذت تعني أنَّها موادٌّ خام وفيرة ومتوافرة لإنجاز مهمَّة تشكيل الحضارة الإسلامية، وأنَّ أعداد المعتنقين الجدد للإسلام المتزايدة وفَّرت الأيادي الراغبة لعمل ذلك. لقد أزاحت الثورة العباسيَّة في عام 750م النخبة السوريَّة - العربيَّة المحبوكة جيِّدًا وهواجسها المشبعة بالسياسات القبليَّة، وفتحت الأبواب لعالمٍ متنوِّع الأعراق والثقافات في العراق، وشرق بلاد فارس/ وآسيا الوسطى، حيث كانت الظروف مهيَّأة تمامًا لإعادة صياغة المشهد الثقافيِّ هناك. وربَّما من المنطقي أن يتساءل المرء: هل كان من الأمور الحتمية أنَّ الإسلام سيُشكِّل ذلك النظام العالميَّ الجديد؟ ومنذ أن كان نحو ثلثي الثوَّار في الجيوش العباسيَّة مواطنين في المناطق التي كانت في السابق جزءًا من الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، لم يكن بوسعهم تجاهل الدين الذي جاء به العرب، حتَّى وإنْ اختاروا ذلك! ومع ذلك، تمرَّدوا باسمِ الإسلام، وإنَّ السقوط السريع للعائلة الساسانيَّة أقنع الكثير من الفرس أنَّ الله يقف إلى جانب العرب ويؤيِّد دينهم، وإنَّ نجاحهم في ذلك يُشكِّلُ جدليَّة قويَّة. ولذلك، إنَّ ما أراده المتمرِّدون ليس التخلُّص من الإسلام ولكن جعله يستجيب أكثر لحاجاتهم، ويتناغم أكثر مع ثقافتهم، وتحريره من هيمنة النخب الدخيلة الحاكمة في بلاد الشام. وكان بعض الثوَّار الأصليِّين قد أسلموا بصورةٍ سطحيَّةٍ كما يبدو من الأعمال المتطرِّفة من أتباع الطائفة الراونديَّة، الذين يدَّعون أنَّ الخليفة المنصور بوصفه منقذًا قفز - عاريا أو كان يرتدي ملابس من الحرير الطبيعي - من على أسوار المدينة وهو يتوقَّع نهايةً للزمان، ولكن لا يوجد سبب للشكِّ في إخلاصهم الأصيل، وأملهم أنَّ من طريق الإسلام يمكنهم تحقيق حياة أفضل. كان معقل الزرادشتيَّة القوي في جنوب غربي بلاد فارس قد أُصيبَ بضربةٍ قويَّةٍ من الفاتحين العرب وقتلهم العوائل النبيلة أو تشتيتها. بينما أصبحت مناطق شرق بلاد فارس وأواسط آسيا موطنًا للكثير من الأديان. فالإسلام أصبح أكثر جاذبيَّة؛ لارتباطه بالسلطة والنخب الحاكمة، ويوفِّر لغةً دينيَّةً عامَّةً لكلِّ المجموعات المختلفة

في هذه المناطق المتعدِّدة الأديان. وعلاوة على ذلك، فالإسلام لا يملك هيكلًا دينيًّا مؤسَّساتيًّا، على خلاف الزرادشتيَّة والمسيحيَّة، وهذا يعني أنَّه كان مفتوحًا بشكلٍ خاصٍّ للقادمين الجُدد، على الرغم من تحامُلٍ بعض الفئات على السكَّان العرب. كان هناك عدد من تمرُّدات المجموعات الزرادشتيَّة، ولا سيَّما في المناطق الجبليَّة من بلاد فارس، لكنَّها كانت مجرَّد أحداث معزولة، وفشلُها يقودنا إلى التأكيد بأنَّ الإسلام قد أُسِّس بشكلٍ جيِّدٍ في نهاية القرن الثامن الميلاديِّ، ومن الصعب اقتلاعه[1].

إمبراطوريَّة أم كومنولث؟

هناك ظاهرة أخرى قد يتوقَّع الباحثون المختصُّون استمراريَّتها، ولو لقرونٍ قليلةٍ على الأقلِّ، وهي قيام حكومة إمبراطوريَّة واحدة وموحَّدة في كلِّ الأراضي التي فتحها العرب، ولكنَّها برهنت في النهاية أنَّها ظاهرة لم تصمد طويلًا. لقد أدَّت الأسرة الأمويَّة (661–750م) مهمَّتها بصورةٍ جيِّدة إلى حدٍّ ما، وعلى الرغم من اندلاع ثلاث حروب أهليَّة، فإنَّهم كانوا منشغلين أيضًا بالحصول على الأراضي من أجل أن يحكموها. أمَّا العائلة العباسيَّة التي خلفتهم في الحكم؛ كانوا يراقبون أجزاء من الإمبراطوريَّة وهي تنفصل عنها منذ اليوم الأوَّل من حكمهم. كانت إسبانيا الضحيَّة المباشرة للثورة العباسيَّة، وذلك لقيام بعض أعضاء العائلة الأمويَّة بالهروب إلى إسبانيا (الأندلس) وجعلها موطنهم الجديد؛ لأنَّ عداء العائلة العباسيَّة العنيد تجاههم لم يترك لهم خيارًا سوى الانسحاب. وعلى الرغم من سحق ثورة البربر في شمال غرب أفريقيا في البداية، فإنَّها قد رسَّخت حركةً للخروج عن السلطة لا يمكن إيقافها، فإذا ما حلَّت

1- Theophanes, 430؛ (الراوندية: "الفرس الذين يرتدون الملابس السوداء ويدينون بالمجوسيَّة")؛ Crone, The Nativist Prophets, 88 وتمدُّنا هذه الدراسة برؤية داخلية وغنيَّة عن انتفاضات الزرادشتيِّين في بلاد فارس.

سنة 800م كان هناك خمس عوائل على الأقلّ تتمتّع بالحكم الذاتيّ في تلك المناطق. وإنّ الحرب الأهليّة الدمويّة (809-813م) بين أبناء الخليفة هارون الرشيد قد أضعفت الحكم العباسيّ في بلاد فارس ومكّنت عددًا من العوائل من أصولٍ محلّيّة من الظهور هناك. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ امتدّ التشرذمُ السياسيُّ للإمبراطوريّة العربيّة إلى المناطق المركزيّة حتّى تمكّن الديالمة في شمال بلاد فارس أوّلًا من الاستيلاء على العراق نفسه في عام 945م، الذين استعادوا استخدام اللقب الفارسي «شاهنشاه». ثمّ في عام 1055م أسَّسَ الأتراكُ من أواسط آسيا حكمهم في العراق لفترة طويلة تميّزت بالسيطرة التركيّة على الشرق الأوسط. ولم تعد الوحدة السياسيّة مرّة أخرى للعالم الإسلامي أبدًا، الذي بقي متعدّد الأقطاب سياسيًّا. ومع ذلك، فإنّ هذه المجتمعات التي حكمتها تلك الأسر الفتيّة تمتّعت فعلًا بثقافة متشابهة. ولهذا يمكننا التحدُّث عن كومنولث إسلاميّ أو عالمٍ إسلاميّ في العصور الوسطى في الشرق الأوسط، كما نتحدّث عن كومنولثٍ مسيحيّ أو عالمٍ مسيحيّ في أوروبا في العصر الوسيط، أي مزيج مهلهل لكيانات سياسيّة، حيث يكون الإسلام هو الديانة المسيطِرة (وليس بالضرورة يشكّل الغالبيّة).

وقد تميّزت الحياة العامّة بعددٍ مهمٍّ من السمات العامّة المشتركة، فالجغرافيُّون المسلمون الذين تجوّلوا بشجاعةٍ في تلك المناطق من القرن العاشر حتّى القرن الخامس عشر يقدِّمون لنا صورةً تؤكّد أنّ الاختلافات المحلّيّة المتعدّدة الموجودة آنذاك تواكبها في الوقت نفسه ظواهر عامّة معترف بها: جنود أتراك، تجّار يهود، أطبّاء مسيحيُّون، والثلاثي المتكافل: المسجد والكنيسة والمعبد اليهودي، وأسواق نشطة، والشوق إلى الشِّعر، والنصوص العربيّة الدينيّة، والملاحم التاريخيّة الفارسيّة، وهكذا.

إذن، لماذا استمرّت الإمبراطوريّة العربيّة المتكاملة لفترة قصيرة مقارنةً بما سبقها من مثيلاتها، أي لماذا لم تتمتّع بالفضاء الزمني نفسه الذي تمتّعت به الإمبراطوريّة

الرومانيَّة/ البيزنطيَّة (830 سنة تقريباً حتَّى عصر الفتوحات العربيَّة)، أو مقارنةً بالإمبراطوريَّة الفارسيَّة (استمرَّت نحو 1100 سنة)؟[1]. يوجد جوابان رئيسان لهذا السؤال، الأوَّل: طوبوغرافيٌّ/ بيئيٌّ، والثاني: أيديولوجيٌّ. والجواب الأوَّل أكثر أهمِّيَّة، ويمكن وضعه بسهولة جدًّا: لقد تمدَّدت الإمبراطوريَّة العربيَّة عبر آلاف الأميال من الصحارى والجبال التي جعلت من المواصلات والاتصالات بطيئةً، وجعلت الثورات في المناطق الهامشيَّة صعبة الاحتواء. وهذه المشكلة المماثلة قد أصابت إمبراطوريَّات متعدِّدة تشكَّلت بطريقةٍ سريعةٍ وغير مخطَّط لها نسبيًّا، كإمبراطوريَّة الأتراك (552–630م)، وإمبراطوريَّة المغول (1206–1294م). وعلى النقيض من ذلك، كانت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة قد تشكَّلت وانتظمت بصورةٍ بطيئةٍ جدًّا حول البحر الأبيض المتوسِّط، مِمَّا سمح بانتقال البضائع والقوَّات بصورةٍ أسرع وأرخص نسبيًّا، والإمبراطوريَّة الفارسيَّة على الرغم من أنَّها أقلُّ تماسكًا، فقد كانت لا تزال بالإمكان إدارتها، وتستندُ في سيطرتها إلى نظام القنوات المائيَّة الغنيَّة لنهري دجلة والفرات في العراق بواسطة سكَّان الجبال في بلاد فارس. كان نظاما المياه هذان (نظام البحر الأبيض المتوسِّط، وبلاد وادي الرافدين) تفصلهما تلك القفار الصخريَّة من الصحراء السوريَّة التي تعيق جهود أيَّة قوَّة لوحدها للسيطرة عليهما

1- مازالت مسألة ديمومة واستمراريَّة أيَّة إمبراطوريَّة مسألةً مثيرةً للجدل، فبعضهم يؤكد طول عمرها واستمراريتها كفترة واحدة، بينما يميل المؤرِّخون المحدثون إلى تحقيبها إلى فترات متتالية. مثلا: كان انتقال عاصمة الإمبراطوريَّة الرومانيَّة من روما إلى القسطنطينيَّة في بيزنطة عام 312م جعلنا نعيد تسمية تلك الإمبراطوريَّة بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، على الرغم من أنَّ مواطنيها استمرُّوا بتسمية أنفسهم بالرومان حتَّى عام 1453م. ونحن نسمِّي دول كالأخمينيين (550–330 ق.م) والساسانيين (224–652م) بالإمبراطوريَّة الفارسيَّة الأولى والثانية على التوالي؛ بسبب أصل العائلة (فارس/ بارسيين) ونُميِّزهم عن دول السلاجقة والبارثيين على الرغم من الجدل حول التشابه بين البارثيين والساسانيين أكثر منه بين الاخمينيين والساسانيين، علمًا أنَّ ابن خلدون قد لاحظ منذ القرن الرابع عشر الميلاديِّ العمر القصير للعوائل الحاكمة الإسلاميَّة وفسَّر ذلك بغلبة البدو الرعاة في المناطق التي يحكمها المسلمون، انظر:

E. Gellner, Muslim Society, Cambridge,1981, ch.1.

(ربَّما عدا الاخمينيِّين الفرس والعرب قد تمكَّنا من ذلك). فضلًا عن أنَّ أجزاء شاسعة من الأراضي التي فتحها العرب كانت أراضي جافَّة، وهذا أدَّى إلى اثنين من النتائج الكامنة والخطيرة، وهما: إنَّ الإمبراطوريَّة أصبحت حسَّاسة تجاه التغيُّرات المناخيَّة والاستنزاف الكبير للموارد بشكلٍ خاصٍّ، وعرضةً لتحرُّكات الأعداد الكبيرة من البدو الذين يسكنون تلك الأراضي، ولا سيَّما القبائل التركيَّة والمنغوليَّة في السهل الأوراسيِّ الكبير. فعلى سبيل المثال، كانت ما تُعرف «بالفترة الدافئة» من العصور الوسطى التي امتدَّت من القرن العاشر حتَّى القرن الرابع عشر الميلاديَّين قد أدَّت إلى تغيُّراتٍ مناخيَّةٍ هائلةٍ جدًّا في مناطق آسيا الوسطى تمثَّلت بالجفاف المستمرِّ والشتاء البارد، مِمَّا شجَّع بعض قبائل تلك السهوب بالهجرة إلى الأجزاء الشرقيَّة من الإمبراطوريَّة العربيَّة والاغتصاب التدريجيِّ للسلطة السياسيَّة هناك[1].

وشكَّلت الأراضي الوعرة عائقًا بوجه عمليَّات الفتح الداخليَّة، فعلى طول فترة الحكم الأمويِّ كلِّها احتفظ سكَّان المناطق الجبليَّة التي كانت السلطة تدَّعي بخضوعها لها بدرجة عالية من الحكم الذاتيِّ. وبعضهم أعلن ذلك رسميًّا، واعترف أنَّه من رعايا العرب، وتوصَّل إلى اتفاقٍ بذلك، وكان من بين هؤلاء الأرمن والجورجيُّون والألبان وأقوامٌ متعدِّدة من سكَّان مناطق بحر الخزر. وبعضهم مارس ذلك الحكم الذاتي بصورةٍ غير رسميَّة، مثل البربر في جبال الأطلس وجبال الأوراس، والكرد وشعوب أخرى سكنت مناطق جبال شرق طوروس/ شمال زاجروس في جنوب شرق تركيا الحاليَّة وشمال غرب إيران. وبدأنا نسمع عن هذه الجماعات غير الرسميَّة فقط حينما يتورَّطون بالنزاع مع العرب. مثلًا: ثار عرب ميفيرقاط Mayferqat (ميافارقين) في شمال بلاد ما بين النهرين ضدَّ العباسيِّين في عام 751م وسبَّبوا مشاكل متعدِّدة للسكَّان

1- حول سيطرة الترك والمغول على الشرق الأوسط في هذه الفترة، انظر:

R. Bulliet, Cotton, Climate, and Camels in Early Islamic Iran (New York, 2011)

في المناطق المجاورة. فقد شكَّل سكَّان الجبال هناك قوَّة شعبيَّة خاصَّة بهم بقيادة قائدٍ مسيحيٍّ محلِّيٍّ يُدعى جون بن دادي John son of Daddi. «ومن هذه النقطة ازدادت الشرور بين سكَّان الجبال والعرب، حيث ارتكب أحدهما عمليَّات القتل ضدَّ الآخر كلَّ يوم ودون نهاية لذلك. واستولى سكَّان الجبال على كلِّ الممرَّات، ولم نعد نرى أيَّ عربيٍّ في إقليم الجبال». انتشر الخبر بسرعة، وبدأنا نسمع قيام الأرمن والأورارتيين Urartians (سكَّان المناطق المحيطة ببحيرة وان) بإثارة المشاكل في تلك المناطق[1]. لقد استمرَّت المناطق الجبليَّة بإيواء الجماعات المتميِّزة بالروابط المحكمة والمتمسِّكة بقوَّة بهُويَّتها وأوطانها الأصليَّة، ولم يسيطر العرب إلَّا على مدن المناطق السهليَّة الخصبة بشكلٍ رئيسٍ. ولكن من الطبيعيِّ أن نرى ازدهار التيَّارات الرئيسة للثقافة في تلك المدن، حتَّى حينما نجح سكَّان الصحراء والجبال ليس فقط بالاحتفاظ بمناطقهم، ولكن بغزوهم للمناطق المنخفضة، لم يتمكَّنوا من فرض الكثير من ثقافتهم على الحضارة الإسلاميَّة.

أمَّا الجواب الثاني حول دور الأيديولوجيَّة في فشل العرب بالاحتفاظ بوحدة سياسيَّة إمبراطوريَّة دائمة؛ فإنَّ الإسلام، في الواقع، أصبح نفسه معاديًا لأيِّ نموذجٍ لحكومة إمبراطوريَّة، وهذا يثيرُ سؤالًا محدَّدًا هو: لماذا تطوَّرت الإمبراطوريَّة بهذا الاتجاه؟ لقد قال السيِّد المسيح: إنَّ مملكته لم تكن في هذا العالم، لكنَّها لم توقف سعادَةَ يوزبيوس - أسقف قيصريَّة - من تأييد قسطنطين الكبير كإمبراطورٍ مسيحيٍّ عند تحوُّله إلى المسيحيَّة عام 312م ووضع برنامج عمل نظري لإمبرياليَّة مسيحيَّة. وعلى الرغم من أنَّ القرآن لا يعرض تعليمات مفصَّلة عن كيفيَّة الحكم، فإنَّه يصرُّ على طاعة «من هم في السلطة» (أولي الأمر)، وإنَّ هذه الأوامر وما يشابهها يمكن أن تُستخدم

1- **Chronical of Zuqnin, 181-183, 190-191(John son of Daddi, Kushan the Arminian, and Grregory of Urartian).**

بسهولة لمساندة إمبرياليَّة إسلاميَّة. فيبدو من المؤكَّد أنَّ العوائل الأمويَّة كانت راغبةً في تقليد الأباطرة القدماء، كما يمكننا رؤية ذلك من لوحة جبسيَّة من قصر الخليفة وليد الثاني في قُصَير عَمرة، وهي تصوِّره يستقبل زعماء العالم القديم والحاليِّين لتقديم الولاء، وكذلك من قصيدة يزيد الثالث التي يتباهى فيها بروابط القرابة مع العوائل المالكة للفرس وبيزنطة والأتراك[1]. ولم تكن كذلك لولا سببان رئيسان، الأوَّل: إنَّ الإسلام - ليس كالمسيحيَّة - لا يملك هيكليَّةً لرجال الدين (ولا سيَّما قبل إدخال نظام المدارس في القرن الحادي عشر الميلاديِّ)، فلا يوجد سُلَّمٌ لموظَّفين دينيِّين يوفِّرون مساندةً أيديولوجيَّة لحكم إمبرياليٍّ إسلاميٍّ مقابل دعمٍ سياسيٍّ وماليٍّ[2]. فالرجال الذين بدؤوا بوضع أسس القانون الإسلاميِّ في القرن الثامن الميلاديِّ كانوا من الهواة غير المحترفين، إمَّا بصورة مستقلَّة، أو بمتابعة دراساتهم إلى جانب مهنتهم الرئيسة. فقد كانوا في الغالب من خارج المؤسَّسة السياسيَّة، وبذلك يميلون إلى الإقحام في كتاباتهم النموذج المثالي لما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة. وهذا ما يمكن رؤيته في وصفهم للخليفة عمر بن الخطاب (الأوَّل) بوصفه نموذجًا لرجل الدولة الذي قُدِّمَ بوصفه معارضًا بقوَّة لتراكم الثروة والنفوذ بيد الدولة. كان الأشخاص الوحيدون الذين يؤيِّدون نموذجًا إمبرياليًّا أفضل للحكم هم من الإداريِّين الكبار، لكن لم تكن لديهم السلطة المعنويَّة لجعلها جزءًا من الإسلام. كان من بينهم

1- Grabar, Formation,ch.3; Fowden , Qusayr ‘Amra, ch.8;

يقال إنَّ والدة يزيد الثالث هي ابنة بيروز الثالث. وهذان المثالان ينسجمان مع التقرير حول سكِّ يزيد الأوَّل النقد مؤرِّخًا بذلك بسنوات حكمه (انظر: الفصل الرابع، هامش رقم 19 من هذا الكتاب).

2- لقد أبدل المدراسيون Madrasas المشهد الدينيَّ الإسلاميَّ بشكلٍ أساسيٍّ؛ لأنَّهم ساندوا مناهج إسلاميَّة ومدرسين برواتب لتدريسها. وقبل ذلك كان الحكَّام يستخدمون القضاة وجوامع المدن الكبيرة للدعوة والإرشاد، ولكن بخلاف ذلك، لم يكن رجال الدين المتخصِّصين (الأئمة، الملائين، العلماء،...) موظَّفين رسميِّين ولا يتسلَّمون رواتب؛ ويحرزون مكانتهم بفضل أنَّهم أصبحوا يتميَّزون بتعليمهم الديني وتقواهم، وبفضل ذلك يمكنهم كسب قوَّتهم بطريقة غير رسمية وبإعطائهم الإرشادات القانونيَّة والشرعيَّة وقضايا أخرى.

ابن المقفّع (ت: 757م) الذي أوصى فعلًا بمخطّطٍ لشكلٍ إمبرياليٍّ لحكومة إسلاميّة، وقد قيل إنّ الخليفة العباسي المنصور قد أعدمه، في تناقضٍ صارخٍ مع حالة يوزيبيوس الذي كرّمه الإمبراطور قسطنطين شخصيًّا[1].

وثانيا: إنّ الكثير من المشاركين في الفتوحات العربية المبكّرة كانوا من البدو الذين كان لهم موقفٌ من غنائم الفتوحات، وبالتحديد، يجب أن يُعادَ توزيعها على الجميع مباشرةً، وألّا تُراكَم بيد الدولة لتوزيعها في وقتٍ لاحقٍ[2]، «إنّك استوليت على غنائمنا (الفيء)»، كان هذا السبب الشائع للمتمرّدين على الحكومة خلال فترة الحكم الأموي، وكان الالتزام العام من الثائرين تجاه أتباعهم هو «توزيع الغنائم بالتساوي». كان الجنود يتسلّمون معاشاتهم من واردات الضرائب التي تجبيها الدولة، وهذا يعني أنّهم يعتمدون على الدولة، وهذا يضيف إلى شعورهم بالتذمّر ويجعلهم يصرّون أكثر على تحجيم سلطة الحكومة المركزيّة لكي لا تتمكّن من سرقة ما يعتقدون أنّه من حقّ المراتب الدنيا. وكان الجدل حول من يحقُّ له ما كان يحقُّ لفيلقٍ من الجند،

1- عن وجيز ابن المقفع، انظر: S. Goitein, Studies in Islamic History and Institutions (Leiden, 1966),ch 8 (نقطة تحوُّل)، وكذلك: S. Arjomand, "Ibn al-Muqaffa'" Iranian Studies 27, (1994), 31-33 . للاطلاع على أفكار أكثر عن نفور الإسلام من فكرة الإمبراطوريّة، انظر: P. Crone, Slaves and Horses, 61-91؛ وعن انحلال الإمبراطوريّة العربية، انظر:

H. Kennedy, " The Decline and Fall of the First Muslim Empire," Der Islam 81(2004).

2- J.Paul, " The State and the Military- a Nomadic Perspective," Orietwissenschftlich Hefte 12(2003), esp.35;

"كان إعادة التوزيع السمة الأساسيّة للسلوك الملكي (من زاوية البدو) وهذا يتناقض مع التراكم الذي يُظنُّ أنّه المبدأ الذي قامت عليه الإدارة المستقرّة". ومع هذا المبدأ ساد شعور بالمساواة الاجتماعيّة والانتقال الاجتماعي، انظر:

L. Marlow, Hirarchy and Egalitarinism in Islamic Thougt (Cambridge ,2002) and M. Hodgson, Rethinking World History, (Cambridge,1993),114

الذي يرى أنّه من غير الممكن الاحتفاظ بإمبراطوريّة "في ظروف الانتقال الاجتماعيِّ السريع الذي جلبته الفتوحات العربيّة"، الذي "يساند العناصر التجارية" على حساب "طبقة بيروقراطيّة زراعيّة نشطة".

ولا سيّما أنَّ أيّة تغييرات في النظام كانت صعبة التحقيق جدًّا. إنَّ التركيز المفرط للسلطة - بأيدي أسرة واحدة (من الأمويِّين ومن بعدهم العباسيُّون) ومن قبيلة واحدة (قريش) - قد فاقم الوضع أيضًا. وباختصار: إنَّ نسبةً لا بأس بها من العسكر في الجيوش العربيّة في الفترة المبكِّرة كانت ساخطة على احتكار المركز للثروة والسلطة، ولذلك عملوا كلَّ ما في وسعهم لتقييد أيِّ نموذجٍ إمبرياليٍّ للحكومة. وتمثَّل موقفهم بوضوح في تعظيم صورة الخليفة عمر بن الخطاب بوصفه بطلًا بدويًّا: يلبس الملابس الخشنة، ويفضِّل جمله على حصانه، وهذا يتعارض بقوَّة مع الأحوال المصطنعة والتباهي باستعراض الثروة، بل الميل نحو الحياة البسيطة المقشفة وليس حياة التباهي والبهرجة الإمبراطوريّة.

إسلام عربيٌ أم إسلام لغير العرب؟

ومهما كان السبب المحدَّد، فإنَّ الحكم العربيَّ على المناطق المفتوحة استغرق قرنًا من الزمان فقط (أربعينيَّات القرن السابع - أربعينيَّات القرن الثامن الميلاديَّين). حيث استطاع العرب في هذا الوقتِ القصير تحريك مجالين من المعالجات التي عوَّضتهم عن تشرذمهم السياسيِّ: التعريب والأسلمة، إذ بلغت هذه المجالات حدودهما القصوى، وكانت تتبلور بصورة بطيئةٍ جدًّا وليس كما يُعتقد عادة، ولكن لا يوجد شكٌّ أنَّهما قد نجَحَا بشكلٍ كبيرٍ حتَّى وإن كان هناك نوع من التفاهم على طول الخطِّ. كان الاتجاه العامُّ يَعدُّ تلك المعالجة ذات اتجاه واحد - أي كان الفاتحون يفرضون هُويَّتهم وديانتهم على الشعوب المفتوحة - ولكن في الواقع انهمكت تلك الشعوب تمامًا في الحياة الجديدة، ولا سيَّما أولئك الذين أسلموا وكانت إسهاماتهم حاسمة وأساسيَّة فيها.

هناك وجهان للتعريب كلاهما مترابط: اللغة والهُويَّة. فالكثير من الفاتحين يتحدَّثون اللغة العربيَّة كلسانهم الأصلي الذي كان يُستخدم من قبل بعض القبائل المتحالفة مع بيزنطة وبلاد فارس في أغراضهم الإداريَّة الداخليَّة على الأقلِّ، ولفترة قرن من الزمن قبل الفتوحات العربيَّة. إذن، ليس من المستغرب أنَّ العرب استخدموا العربيَّة لأغراضٍ بيروقراطيَّة محدَّدةٍ منذ بداية عصر فتوحاتهم. ففي العقود القليلة الأولى استمرَّ العرب باستخدام اللهجة المحليَّة إلى جانب اللغة العربيَّة، ولكن في تسعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ ونتيجةً لرغبة الخليفة عبد الملك في تحقيق تكاملٍ أفضل بين المناطق البيزنطيَّة والفارسيَّة السابقة؛ أمر باستخدام اللغة العربيَّة فقط في دوائر الحكومة. لكنَّ تلك السياسة أخذت بعض الوقت لتؤتي ثمارها، وأصبحت نافذة تمامًا في منتصف القرن الثامن الميلاديِّ. ولذلك، فإنَّ أيَّ شخصٍ يرغب بممارسة أيِّ عمل إداريٍّ جيِّدٍ كان من الضروري له معرفة اللغة العربيَّة جيداً. لقد تفاجأ مؤرِّخو العصور الوسطى الأوروبيَّة بهذا النجاح في الغالب؛ لأنَّ الغزاة الجرمان الذين غزو الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة تعلَّموا جميعًا اللغة اللاتينيَّة ولم يفرضوا لغتهم القوطيَّة. وكان سبب الاختلاف - ولو جزئيًّا - أنَّ العرب كانوا أكثر تجانسًا لغويًّا من القبائل الجرمانيَّة، ويملكون نقوشًا مقدَّسةً مكتوبةً بالعربيَّة، فضلًا عن توافر نقطةٍ عمليَّةٍ وهي أنَّ العرب لم يفتحوا إمبراطوريَّة واحدة فقط، إنَّما واحدة بأكملها (الفارسيَّة)، وأجزاء أخرى من (بيزنطة). وهذا يعني كان عليهم التعامل ليس مع لغة إمبراطوريَّة واحدة، بل مع لغتين على الأقلِّ (الفارسيَّة والإغريقيَّة)، فضلًا عن استيعاب الكثير من اللهجات المحليَّة المختلفة بصورةٍ عامَّة، وهذا الوضع كان يستلزم وجود لغة مشتركة.

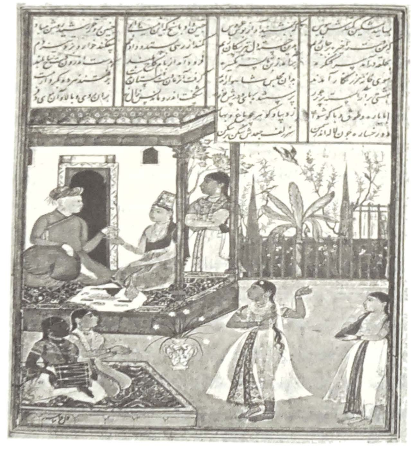
إنَّ الكثير من لغات الشرق الأوسط في فترة ما قبل الفتوحات كانت لها مصائر مختلفة. إنَّ المناطق الواقعة على أطراف الإمبراطوريَّة التي تجنَّبت الفتح المباشر من

العرب احتفظت بلغاتها، وفي عدَّة حالات ما زالت تُحكى اليوم، حتَّى من أناسٍ قليلين فعليًّا: كالأرمن، الجورجيِّين، القوقازيِّين، الألبانيِّين (تتحدَّث بها جماعات أودي Udi في أذربيجان الحاليَّة)، النوبيِّين (تتحدَّث بها بعض القبائل في السودان الحاليَّة)، ولغات مختلفة من إقليم هندو كوش (باشتو). ففي الإمبراطوريَّة العربيَّة يتقرَّر بقاء اللغة نتيجة عدد من العوامل، وكان أكثرها أهمِّيَّة هي الجغرافية/ البيئة للمنطقة التي تتحدَّث تلك اللغة. ففي مناطق السلاسل الجبليَّة والصحراويَّة يمكنها الاستمرار بسهولة أكبر كما هو الحال مع لغات الكورد والبربر، بينما في وادي نهر النيل بمصر وعلى طول السهل الساحليِّ لشمال أفريقيا حيث لا يوجد أي مكان للاختباء؛ سادت لغتان: القبطيَّة (مصر) واللاتينيَّة (شمال أفريقيا)، وكلتاهما خسرت مكانتها بشكلٍ كبيرٍ لصالح اللغة العربيَّة في القرن الحادي عشر الميلاديِّ، ثمَّ تضاءلتا بسرعة[1].

كان العامل الثاني الرئيس هو الدرجة التي يحافظ بها المجتمع اللغويُّ على تقاليده ولم تمسها النخب خلال سير الفتوحات ولا خلال التغيُّرات السياسيَّة اللاحقة. ففي الأراضي الوعرة من شرق بلاد فارس وأواسط آسيا استطاع الأمراء المحلِّيُّون التفاوضَ مع الغزاة للاحتفاظ باستقلالهم الذاتيِّ. وبما أنَّ لديهم تراثًا سياسيًّا من جانب وآخر تاريخيًّا - ثقافيًّا، فإنَّهم تمكَّنوا أيضًا من انتهاز فرصة الضعف في مركز الإمبراطوريَّة العربيَّة في القرن التاسع الميلاديِّ من إقامة استقلالهم الأسريِّ الخاصِّ بهم، الذي سمح لهم باستخدام اللغة الفارسيَّة ليس في الحديث فقط، إنَّما في الكتابة وبشكلٍ حاسم. فبينما كان التراث الدينيُّ الإسلاميُّ غير مناسب لحكومة إمبراطوريَّة، جعل الأدب الفارسي يحتفظ بتراثه، متذكِّرًا الأيَّام العظيمة للأباطرة الفرس، ولهذا السبب تبنَّى ذلك التراث مختلف الحكَّام في شرق الإمبراطوريَّة وبحماس مثل المغول

1- إنَّ آخر مصدر عن أفريقيا اللاتينيَّة وصلنا من الرحَّالة محمَّد الإدريسيِّ (ت:1165م) الذي ذكر أنَّها كانت تُحكى من أغلبيَّة السكَّان في مدينة قفصة بتونس الحاليَّة. ونادرًا ما كانت تستخدم القبطيَّة في الوثائق والأدب بعد القرن الحادي عشر الميلادي، وبقيت بوصفها لغة طقوس فقط.

في بلاد فارس (1258-1335م)، والتيموريين في أواسط آسيا (1370-1501م)، ومغول الهند (1526-1757) الذين استخدموا اللغة الفارسيَّة أيضًا في إداراتهم. (صورة 7.1). وتبنَّى الصفويون أيضًا (1501-1736م) اللغة الفارسيَّة، وجعلوها اللغة الرسميَّة لبلاد فارس كلِّها، فضلًا عن جعل التشيُّع المذهب الإسلاميَّ الرسميَّ في مملكتهم.



صورة 7.1

منظر من الشاهنامة للفردوسيّ: تُصوِّرُ زال Zal الملك الإسطوريَّ لبلاد فارس في مقصورة رودابا، أميرة كابل، وقد رُسمت على وفق النموذج الهنديِّ للأباطرة المغول.

ولذلك، فإنَّ المرء قد يتوقَّع حدوث ذلك أيضًا في شمال أفريقيا، حيث ظهرت الأسر البربريَّة هناك، على الرغم من أنَّهم لا يملكون تراثًا إمبراطوريًّا خاصًّا بهم للاستناد إليه، ولذلك استندوا في شرعيَّة حكمهم إلى التمسُّك الصارم بالإسلام السُّنِّيِّ؛ فضلًا عن اعتمادهم على اقتصاداتهم المعتمِدة على التجارة الدوليَّة التي ربطتهم مع المناطق المركزيَّة للإسلام وفضَّلت سيادة اللغة العربيَّة في ممالكهم. لقد استمرَّ البربر في مناطق من الصعب الوصول إليها (في جبال الأطلس والقبائل وفي الصحراء الأفريقيَّة)، وهي مناطق غير جاذبة للغرباء، حيث انغلق المتحدِّثون بتلك اللغة في مجتمعات مغلقة، وبعضهم اعتنقَ شكلًا إسلاميًّا مختلفًا، كالخوارج.

كان العامل الثالث يتمثَّل بمستوى وحالة المهاجرين من المتحدِّثين الأصليِّين من المناطق، حيث تسود اللغة السياسيَّة فيها. لقد رابط العدد الكبير من القوَّات العربيَّة في حاميات البصرة والكوفة في العراق والفسطاط بمصر، والكثير من استقرَّ في مدن دمشق وحمص وحلب أو حولها، حيث وجود القبائل الناطقة بالأصوات العربيَّة التي كانت مشهورةً أصلًا في فترة ما قبل الإسلام. ولذلك بُنيت مدنٌ جديدةٌ، إمَّا لإيواء الجند كالموصل وواسط، أو للمدنيِّين مثل العقبة والرملة. وحتَّى أولئك الذين قدموا للعيش في هذه المراكز ولم يعرفوا اللغة العربيَّة، فإنَّهم سرعان ما تعلَّموها عند وصولهم إليها؛ لأنَّها لغة السلطة والاتصالات اليوميَّة. وعلى النقيض من ذلك، استقرَّ القليل من العرب في بلاد فارس وأواسط آسيا، وتفرَّقوا بين السكَّان هناك، وسكنوا في المدن القائمة أصلًا أكثر من السكن في المعسكرات المبنيَّة حديثًا. وهذا يعني أنَّ العرب أصبحوا بمرور الوقت يتحدَّثون اللغة الفارسيَّة بشكلٍ اعتياديٍّ، وليس أن يتحدَّث الفرسُ اللغة العربيَّة. ولكن بقي من المهمِّ معرفة اللغة العربيَّة للأغراض الدينيَّة، وإن كانت اللغة الفارسيَّة مفضَّلة في الحياة اليوميَّة وفي حقولٍ مثل الأدب والتاريخ. وكما لاحظ أحد الباحثين الذي ترجم تاريخ

بخارى من العربيَّة إلى الفارسيَّة عام 1128م، أنَّ «أغلب السكَّان في أواسط آسيا أظهروا عدم الرغبة لقراءة الكتاب العربي»[1].

إنَّ تركُّز الأعداد الكبيرة من المتحدِّثين باللغة العربيَّة في العراق وبلاد الشام سيكون له تأثيرٌ لاحق في اللغتين الرئيستين في المنطقة: وهما الإغريقيَّة والآراميَّة. كانت الإغريقيَّة الأسوأ تأثُّرًا؛ لأنَّها كانت اللغة التي يُتَحدَّثُ بها في المدن والسهول بصورة رئيسة، ولم تكن تملك البيئة الملائمة التي تحيط بها ولا سيَّما بعد هروب نسبةٍ لا بأس فيها من النخب التي تتحدَّث بها إلى بيزنطة خلال فترة عمليَّات الفتوحات العربيَّة. وجاءت التهمة للغة الإغريقيَّة كونها اللغة المشتركة في إمبراطوريَّة قويَّة، لكنَّ اللغة العربيةً تمكَّنت من القيام بهاتين المهمَّتين بصورةٍ أفضل من اللغة الإغريقيَّة في القرن الثامن الميلاديِّ، بل توقَّف الحديث بالإغريقية بوصفها لغةً عامَّة عام 800م تقريبًا في بلاد الشام ومصر. أمَّا حالة اللغة الآرامية؛ فقد كانت أفضل بكثير من الإغريقيَّة؛ لأنَّها لغة عدد من المجتمعات المحافظة دينيًّا واجتماعيًّا، وتعلَّمت كيف تنظِّم نفسها للمحافظة على بقائها في فترة ما قبل عصر الفتوحات العربيَّة كالمندائيِّين في جنوب العراق، والجماعات المسيحيَّة اللاخلقدونيَّة المختلفة في بلاد الشام والعراق والجزيرة. ولدى هذه الجماعات فائدة مضافة وهي العيش في المناطق الجبليَّة، حيث توفَّر لهم علاقات متماسكة وحماية طبيعيَّة (لبنان الحاليَّة، جنوب تركيا، وشمال العراق). ولكن ما دام المتحدِّثون باللغة الآراميَّة لا يملكون الخبرة في ممارسة الحكم الذاتيِّ في فترة ما قبل الفتوحات العربيَّة، وكانوا تحت حكم الإمبراطوريَّتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة لعدَّة قرون؛ لم يكن بإمكانهم قطُّ تنظيم نوعٍ من استقلال حكم أسرهم الخاصِّ بهم كالفرس والبربر، وهذا يعني أنَّ أعضاء تلك الأُسر كانوا في طريقهم إلى التضاؤل على المدى الطويل، ويوفر ذلك تأثيرات ضارَّة لمكانة اجتماعيَّة ثانويَّة ودائمة لهم.

1- Narshakhi,History of Bukhara, trans:R. Frey, (Cambridge, MA, 1954), 3.

وحالما ارتقت اللغة العربيَّة إلى مكانة اللغة المشتركة لجميع ولايات الإمبراطوريَّة العربيَّة، لم تُستخدم للأغراض الإداريَّة والعسكريَّة فقط، إنَّما استُخدمت في القانون والفقه والأدب والعلوم. وهذا ما ساعد على الازدهار الثقافيِّ في القرن التاسع الميلاديِّ، وترجمة الكثير من النصوص الإغريقيَّة والفارسيَّة والسريانيَّة والسنسكريتيَّة إلى اللغة العربيَّة ودراستها، حتَّى أصبحت جزءًا من الرؤية العالميَّة للحضارة الإسلاميَّة. وعلى الرغم من هذا الإنتاج العالميِّ، فإنَّ الإسلام احتفظ ببصمةٍ عربيَّةٍ قويَّةٍ، التي توصلنا إلى الصفحة الثانية من التعريب، وبالتحديد فرض الهُويَّة العربيَّة: اتخاذ اسم عربي، وقبول التاريخ العربي بوصفه مصدرًا للأصول الإسلاميَّة، وسمو الأنساب العربيَّة على أيٍّ من مثيلاتها[1]. لقد كرهت بعض النخب غير العربيَّة ولا سيَّما من مناطق الإمبراطوريَّة الفارسيَّة السابقة هذه البصمة العربيَّة الثقيلة، ودعت إلى إسلامٍ أكثر انفتاحًا وعالميّ الصبغة. لم يكن ذلك صدامًا بين مجموعات عرقيَّة، وإنْ صُوِّرتْ في مصادرنا بصورة العرب مقابل الفرس؛ لأنَّ هذين النموذجين الثقافيّين كانا هما السائدين والمعروضين بشكل رئيس. والقليل من تلك النخب من ساندت الجانب العربيَّ وكتبت كتبًا حول الثقافة والتاريخ العربيّين، وكان هؤلاء أصلًا من العرب، فعلى سبيل المثال، ربَّما كان من أكبر الخبراء في التاريخ العربيِّ أبو عبيدة (ت:825م) هو حفيد ليهوديٍّ فارسيٍّ، وكان ابن قتيبة (ت :889م) من أحفاد عائلة فارسيَّة من خراسان، لكنَّه من أكثر الخصوم المفوَّهين ضدَّ إسلامٍ غير عربيٍّ. كانت المسألة أكثر من أنَّ بعضَهم يساندُ مفهومًا عربيًّا ضيِّقًا للإسلام (الحزب «العربي»)،

1- وبذلك، إنَّ السيرة النبويَّة لمحمَّد لابن إسحاق (ت: 767م) التي وصلتنا بوساطة ابن هشام (ت:833)، يركز القسم منها عن ما قبل الإسلام على الجزيرة العربيَّة بصورةٍ شاملةٍ، ويَعدُّ كلّ سكَّانها من العرب (حتَّى العرب الجنوبيون الذين تُميِّز نقوشُهم فيما بينهم والعرب) من نسل إسماعيل الذي تزوَّج امرأةً من قبيلة عربيَّة ووصف كلَّ ذريَّته بالعرب، وتحدّد أصول القبائل الناطقة بالعربيَّة في الجزيرة العربيَّة (حتَّى تلك القبائل مثل تنوخ وتغلب التي كانت من المحتمل جدًّا من أصول شاميَّة ومن بلاد ما بين النهرين).

أو مفهومًا أكثر عالميَّة للإسلام، حيث يكون منفتحًا على الحكمة والقيم الأجنبيَّة (الحزب «الإسلامي غير العربي»). وبالمصطلحات الحديثة: إنَّه نقاش حول التوجُّه الثقافي: كيف يجب أن يكون إسلامًا متعدِّد الثقافات؟ فأولئك الذين يؤيِّدون إسلامًا عالميًّا متعدِّد الثقافات (عرفوا بـ «الشعوبيين»، مشتقَّة كصفة من الشعوب) يشيرون إلى أنَّ كلَّ معجزات التاريخ - الاختراعات العلميَّة والأبنية التذكاريَّة والأعمال الأدبيَّة العظيمة وغيرها - قد أُنجزت من عناصر غير عربيَّة، وكل الشخصيَّات المشهورة في التاريخ كانت غير عربيَّة، ولذلك، يجب على الإسلام أن يستوعب هذه السمات والإنجازات، وألَّا يبقى مقيَّدًا بماضي العرب في فترة ما قبل الإسلام[1].

وبهذا المعنى ربح الطرفان، أو على الأقلّ حَصَلَا على بعض الشيء مِمَّا يريدان. وفي الواقع إنَّ القرآن قد نزل باللغة العربيَّة، وإنَّ النبيَّ محمَّدًا قد بشَّر بالإسلام ووعظ بالعربية وفي الجزيرة العربيَّة، وهذه جدليَّة قويَّة إلى جانب التمسُّك «بالمفهوم العربيِّ» للإسلام. فضلًا عن أنَّ نظام التشريع الإسلامي «الشريعة» يقوم بالأساس على معرفةٍ بلغة «القرآن» العربيَّة، والحديث النبويِّ بالعربيَّة، وأنَّ أولئك العلماء والفقهاء الذين استثمروا الكثير من الجهد في الحصول على هذه المعرفة، وحصلوا بموجبها على مكانةٍ اجتماعيَّةٍ ومدخولات منها، لم يرغبوا القبول بصلاحيَّة أيِّ نظامٍ تشريعيٍّ يكتب بلغة غير العربيَّة. ومع ذلك، أصبح مقبولًا ترتيل القرآن وكتابة أعمال الباحثين المسلمين بلغات غير العربيَّة، وتبنِّي النماذج الأجنبيَّة لتصوير الجمال وقصاصي الأخبار، ورواية الأمجاد الماضية في الحضارات غير العربيَّة، وهكذا. لقد تسارع هذا الوضع بعد صعود الأسر غير العربيَّة إلى السلطة. فالكثير من هؤلاء - ولكي يُبرز اختلافاته واستقلاله عن النظام العربيِّ - أظهروا ثقافاتهم

1- وعن المناقشات الأخيرة، انظر:

P.Crone, " Post-Colonialism in Tenth-Century Islam," Der Islam 83(2006).

الخاصَّة بهم، واحتفلوا بها بلغاتهم الخاصَّة بهم. فحكَّام تلك الدويلات التي المنفصلة عن المركز في بلاد فارس وأواسط آسيا - على سبيل المثال - كانوا ينحدرون من سلالات الأباطرة والزعماء الفرس، التي كانت وسيلةً لتعزيز شرعيَّتهم الخاصَّة، والاحتفاظ ببعض تميُّزهم من جيرانهم من المسلمين العرب في الغرب، والتذكير بتراثٍ إمبراطوريٍّ لا يزال موقَّرًا ومعترفًا به بشكل واسع. لقد استعرضوا المآثر والإنجازات الثقافيَّة لما يدعون أنَّهم أسلافهم النبلاء، وناصروا الشعر الفارسيَّ، والكتابات التاريخيَّة، والتمثيل الرمزيَّ.

ولذلك، كانت بصمة العرب على الإسلام قد ضعفت تدريجيًّا بمرور الوقت، ولا سيَّما بعد أن تولَّت المجموعات التركيَّة المسؤوليَّة في كلِّ الأجزاء الشرقيَّة من الإمبراطوريَّة العربيَّة تقريبًا، وبعد أن انتشر الإسلام في مناطق بعيدة جدًّا.. وحتَّى الآن فإنَّ المسلمين الذين يريدون الذهاب للحج إلى شبه الجزيرة العربيَّة عليهم تعلُّم شيء من اللغة العربيةً، ويسمون أبناءهم بأسماء عربيَّة. وبذلك انتهى الإسلام إلى ديانةٍ هجينةٍ نوعًا ما، فهو لم يفقد التصاقه تمامًا بالهُويَّة العرقيَّة للآباء المؤسِّسين - كما هو الحال في المسيحيَّة والبوذيَّة - ولكن لم يتمكَّن من الارتقاء بهُويَّة ولغة أولئك الآباء المؤسِّسين إلى حالةٍ حصريَّةٍ ومحدَّدةٍ بصورة متماثلة، كما فعلت اليهوديَّة (اليهود/ العبريَّة)، والهندوسية (هندوس/ سنسكريتيَّة)، الزرادشتيَّة (الإيرانيُّون/ الفرس). والحقيقة، أنَّ ديمومة المفهوم العربي بصورةٍ جيِّدة يؤشِّر إلى وجوب أن يكون سمةً من سمات هُويَّة الفاعلين والمحرِّكين الذين قادوا الفتوحات الأوَّليَّة.

مقوِّمات الحضارة الإسلاميَّة

كانت الأسلمةُ المعالجةَ الثانيةَ التي بدأها العرب، ومرَّة أخرى هذه تتضمَّن جزأين: نشر الديانة الإسلاميَّة، ونشر وتقديم طريق مميَّز لعمل الأشياء، ليس في مجال الدين فحسب، بل في الفنّ والأدب والسياسة، وهكذا. لقد حاول الباحثون الغربيُّون التركيز بقوَّة على البعد الدينيِّ فقط، ولا سيَّما في الأوقات الأخيرة، مِمَّا جعلنا نستخدم كثيرًا مصطلح الإسلام للدين والحضارة معًا، كما لو أنَّهما الشيء نفسه. فمن المؤكَّد أنَّ الدين الإسلاميَّ يُشكِّل جزءًا كبيرًا من الحضارة الإسلاميَّة، ولكن لا يمكن أن ننسب جميع الإنجازات إلى الدين وحده أبدًا. وعلى الرغم من أنَّ غير المسلمين لم يستطيعوا المساهمة في الديانة الإسلاميَّة (ربَّما عدا الأمثلة على نوع السلوك والتفكير الذي عليهم تجنُّبه)، فإنَّهم مارسوا دورًا أساسيًّا في تطوُّر الحضارة الإسلاميَّة. كانوا يشكِّلون غالبيَّة شعوب الشرق الأوسط خلال الثلاثة قرون الأولى على الأقلِّ بعد وفاة النبيِّ محمَّد، وكانت منزلتهم في الإمبراطوريَّة العربيَّة بوصفهم شعوبًا محميَّة تُشكِّل جزءًا من الحضارة الإسلاميَّة، وهذا ما تميَّزوا به عمَّا كان سائدًا في المسيحيَّة في العصور الوسطى، التي لا توفِّر مثل تلك الحماية الشرعيَّة والقانونيَّة، مِمَّا مكَّن المسيحيِّين واليهود من تقديم مساهمات كبيرة للحياة الثقافيَّة في العالم الإسلامي، ويمكننا رؤية ذلك من أسماء الباحثين النشطين في العصور الوسطى في المدن العالميَّة مثل بغداد وحلب والقاهرة وقرطبة[1].

1- لكنَّ ذلك لا يعني عدم وجود عمليات اضطهاد من السلطات الإسلاميَّة لغير المسلمين، ولكن كانت دائمًا غير شرعية وتكون على نطاق محدود ولفترة قصيرة. إنَّ الكتابات حول موضوع إسهامات غير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت تتمُّ بأسلوبٍ تبريري (إذا ما أخذنا بالحسبان العنوان الفرعي للكتاب المعروف M. R. Menocal, Ornament of the World, New York, 2002: "كيف أنَّ المسلمين واليهود والمسيحيِّين شكَّلوا حضارة التسامح في إسبانيا في العصر الوسيط".). وفي الواقع، لا يوجد أيُّ مكان في أوروبا في العصور الوسطى كان منفتحًا على الباحثين من الديانات الثلاثة كما هو في إسبانيا. عن بغداد، انظر:
S. H. Griffith, In the Shadow of the Mosque (Princeton,2007), ch.5.

استمدَّت الحضارة الإسلاميَّة عناصرها بشكلٍ عامٍّ من الفاتحين المنحدرين من الجزيرة العربيَّة ومن الشعوب المفتوحة أيضًا. ويرى بعض الباحثين المحدثين أنَّ الجزيرة العربيَّة لمَّا كانت معزولةً عن العالم الخارجيِّ في فترة ما قبل الإسلام، كانت تبحث بشكلٍ خاصٍّ عن هذه العناصر في الثقافات القديمة المستقرَّة في الشرق الأوسط: الفلسفة الإسلاميَّة في الأفلاطونيَّة الجديدة، القانون الإسلامي في اليهوديَّة الربَّانيَّة، والأخلاق الإسلاميَّة وإدارة الدولة في بلاد فارس الساسانيَّة، واللاهوت الإسلامي في المسيحيَّة البيزنطيَّة، وهكذا[1]. ويعتقد آخرون وبالتحديد أنَّ الجزيرة العربيَّة بسبب عزلتها عن الحضارات السائدة آنذاك، فإنَّها احتفظت بالتقاليد القديمة للشرق الأوسط، أو أنَّهم قبلوا رؤية المصادر الإسلاميَّة في العصر الوسيط بأنَّ أغلب عناصر الحضارة الإسلاميَّة ترجع إلى النبيِّ محمَّد وخلفاء المدينة، وذهبوا للبحث عنها في تقاليد شبه الجزيرة العربية ومعتقداتها في فترة ما قبل الإسلام. وربَّما تكمن الحقيقة في مكانٍ ما بين هذين الرأيين، فلم تكن الجزيرة العربيَّة واحدة من الناحية الثقافيَّة في فترة ما قبل الإسلام، ولم تكن معزولةً كما يُفترض في العادة: فجنوبها كان يحتفظ بعلاقات بحريَّة مع عوالم الهند والبحر الأبيض المتوسِّط، وأجزاؤها الشماليَّة الغربيَّة والشرقيَّة كانت على اتصالاتٍ دائمةٍ ومنذ وقت طويل مع المناطق الحدوديَّة ومجتمعاتها المعقَّدة في بلاد الشام والعراق. ونشأت في تلك المناطق ثقافاتٌ هجينةٌ

1- لا يوجد لدينا مسح عن الدراسات المتعلِّقة بهذا العنوان، ويجب القراءة حول كلِّ حقل الموضوع بكلِّ تفرعاته تباعا، ولا سيَّما أنَّ هذا الموضوع في هذه الأيام يُعدُّ مثيرًا للنزاع إلى حدٍّ ما، وأغلب الظن أنَّ هناك من يفكر بالحطِّ من مكانة الإسلام بطريقة أو بأخرى، والتلميح إلى أنَّه يتضمَّن عناصر أجنبية (على الرغم من أنَّ كلَّ الديانات والحضارات من الطبيعيِّ أن تضمَّ ذلك). يحاول بعض الباحثين إبراز قوَّة الحضارة الإسلاميَّة على الإبداع (والإشارة هنا هي أنَّ العرب/ المسلمين هم من أعطى العلم إلى أوروبا كأبرز مثال على ذلك)، بينما يؤكِّد الآخرون طبيعتَها في الاشتقاق والاستنتاج (انظر: S. Gouguenheim, Aristote au Mont Saint-Michel, Paris, 2008، الذي يرى أنَّ الأوربيين احتفظوا بالعلم لأنفسهم، وأنَّ المسيحيين من حافظ عليه في الشرق الأوسط وليس المسلمين).

دمجت بين التقاليد الإمبراطوريَّة والمحلِّيَّة كما نرى من القرآن الذي يتحدَّث عن قصص الإنجيل والكفَّار والأنبياء المعروفة بنسقٍ محلِّيٍّ.

فما هي الآليَّات التي اتَّبعتها تلك العناصر للدخول في تلك الحضارة الصاعدة؟ كان دور معتنقي الإسلام مفيدًا إلى حدٍّ ما؛ لأنَّهم عملوا بصفة قنوات اتصال بين عالمين، ولا سيَّما أنَّهم كانوا من أسرى الحرب بكثرة في الفترات المبكِّرة من الفتوح الذين نشؤوا في الغالب في بيئات مختلفة عن تلك التي انتهوا إليها. والبيئة المشتركة مهمَّة أيضًا، ولا سيَّما في القرون الأولى، خصوصًا في المدن الكبيرة، حيث كان الناس من مختلف الانتماءات الجغرافيَّة والثقافيَّة والدينيَّة يعيشون متقاربين. ولم تظهر الأحياء المعزولة لجماعات دينيَّة معيَّنة إلَّا في فترةٍ متأخِّرة جدًّا، والعرب أنفسهم لم يميِّزوا بين غير المسلمين، كما لاحظ باستهجان راهب القرن السابع الميلاديِّ جون فينيك: «ليس هناك تمييز بين الوثنيِّ والمسيحيِّ، ولم يكن المؤمن معروفًا من اليهوديِّ». كان هذا الاندماج والتفاعل بين الناس من مختلف العقائد شائعًا في مدن الحاميات الصاخبة للحكَّام الجُدد، حيث إنَّ المرء عرضة للاتصال بأشخاصٍ من أصول وعقائد ومكانة متنوِّعة[1]. فضلاً عن انتشار ظاهرة الزواج المختلط والحضور المتبادل في الاحتفالات، وكذلك العلاقات التجاريَّة والمناقشات، التي تؤدِّي كلها إلى تبادل الأفكار والمعلومات.

وفيما يتعلق بالذي أسهم في تلك الحضارة، وبماذا؛ فإنَّ الإجابة العامَّة هي أنَّ المساهمات جاءت من مصادر متعدِّدة من المجتمع الإسلاميِّ في الفترة المبكرة، الذي سرعان ما أصبح مجتمعًا متعدِّد الأعراق، ويذكرُ جون فينيك مرَّة أخرى أنَّ الجيوش العربيَّة «كانت تذهب سنويًّا إلى مناطق وجزر بعيدة، وتجلب الأسرى من كلِّ

1- مثلا: ابن سامورا حاكم سيستان حينما ذهب إلى معاوية أخذ معه إلى البصرة أسرى من كابل، وبنوا له جامعًا في ضيعته الريفية "على وفق نموذج مدينة كابل"، (البلاذري، 397).

الشعوب تحت هيمنتها»[1]. ومع ذلك، فمن الملاحظ كثيرًا حينما ننظر إلى أصول معتنقي الإسلام سواء من المراجع الدينيَّة أم من الإداريِّين فإنَّ نسبةً كبيرةً منهم كانوا من الأراضي السابقة للإمبراطوريَّة الفارسيَّة ومن أواسط آسيا. كان ذلك، إلى حدٍّ ما، بسبب أنَّ سكَّان ولايات الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة السابقة تحوَّلوا إلى الإسلام بوتائر أبطأ كثيرًا مِمَّا حدث في النصف الشرقيِّ من الخلافة، حيث لم يترك الانهيار الكامل للإمبراطوريَّة الفارسيَّة أملًا باستعادة النظام القديم. يعكس ذلك إلى حدٍّ ما بقاء نخبة مثقَّفة جدًّا في مناطق شرق بلاد فارس وأواسط آسيا لديها القدرة والدافعية لكي تصبح من البيروقراط الكبار والعلماء. ومن الأمثلة البارزة على تلك النخبة: البرامكة، وهم من القادة البوذيِّين السابقين من مدينة بلخ، والسهليون، وهم أصلًا من النبلاء الزرادشتيين من سرخس، الذين سيطرت عوائلهم على المناصب العليا في الإدارة العبَّاسيَّة في أواخر القرن الثامن الميلاديِّ ومطلع القرن الذي يليه[2]. فحالما انتقل مقرُّ الحكومة إلى بغداد، فإنَّ مثل أولئك الأشخاص ألقوا حجرًا على العاصمة السابقة للإمبراطوريَّة الفارسيَّة وليراقبوا «تفريس» الثقافة الإسلاميَّة على نطاق واسع، ولا سيَّما في مجالات الأدب والتاريخ والفنِّ. فضلًا عن ذلك، كان بالتأكيد محاكاة لأباطرة الفرس الساسانيِّين، أو حتَّى التشبه بهم؛ لأنَّ حكمهم قد انتهى، على النقيض من الأباطرة البيزنطيِّين الذين يمثِّلون قوَّةً معاديةً، وبذلك لا يمكن اتخاذهم نماذجَ. فعلى سبيل المثال، قلَّد الخليفة المنصور خسرو الأوَّل حينما بدأ مشروعه لترجمة العلوم الأجنبيَّة، على الرغم من أنَّ المنصور تجاوزه في حجم الأعمال المترجمة وسعتها، إذ

1- Mingana, Sources Syriaque, 151 and 179 . 174 و 175 (دون تمييز أسرى)

2- K. van Bladel, " The Bactrian Background of the Barmakids" in A. Akasoy et al., eds., Islam and Tibet (Farnham, 2011); D. Sourdel, Le vizirat 'abbaside (Damascus, 1959-1960), 134-181; (يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد وأولاده)، 195–217 (الفضل بن سهل وزير ووالي المشرق للخليفة المأمون وأخيه حسن).

كانت هناك رغبة كبيرة من الإداريِّين للاطلاع على الأعمال الفارسيَّة حول قيادة الدولة ومراسم البلاط، ولا سيَّما بين فئة كبار الموظَّفين الذين غالبًا ما وُجِّه النقد إليهم بأنَّهم يفضِّلون مثل تلك الفنون على مثيلاتها الإسلاميَّة. فعلى سبيل المثال، صوَّر أحد الهجَّائين من القرن التاسع الميلاديِّ كاتبًا مبتدئًا قائلًا: إنَّه يتعلَّم بحماس سلوكيَّات بزوغرمهر (رئيس وزراء خسرو)، ووصيَّة الإمبراطور آردشير (حول الحكومة الجيِّدة)، وعن الرسائل الأنيقة لعبد الحميد (عن كيف يجب أن تكون حاجبًا جيِّدًا)، وعن أدب الحكمة لابن المقفَّع (لاثنين من بيروقراطيِّي منتصف القرن الثامن الميلاديِّ). ولكن إذا ذَكَرَ أيُّ شخصٍ بحضوره القرآن أو النبيَّ محمَّدًا «يُكشِّرُ ويقاطع الحديث، ويتكلَّم على أروع الطرق لإدارة البلد خلال حكم الفرس»[1].

وهناك فكرٌ فارسيٌّ واحدٌ كان من الصعب إدخاله في الإسلام، وهو الفكر الدينيُّ؛ لأنَّه كان غريبًا على تقاليد الموحدين في الشرق الأدنى وتراثهم. ومع ذلك، فإنَّ معرفة غنى ذلك التراث وتميّزه وقدمه، كان من المحتم على أتباعه أن يبذلوا كلَّ جهودهم للحفاظ على بعض مكوِّناته ضمن الإسلام على الأقلِّ. وهذا ما حدث بشكلٍ خاصٍّ عند الشيعة والصوفية (التصوُّف الإسلاميُّ). وعلى خلاف الإسلام السُّنِّيِّ الذي يُعطي الأفضليَّة للمعرفة بالنصوص الواردة في الكتب مع حقوق التفسير المحدودة التي سُمح بها للعلماء فقط، فقد ضمن التشيُّع والتصوُّف دورًا كبيرًا لهم في

1- C. Pellat, Life and Works of al-Jahiz (London, 1969),274-275؛ جاهز، ذم الكُتاب، ذكره وعن حقل الترجمة الإغريقية، انظر: D.Gutas, Greek Thought and Arabic Culture (London, 1998)؛ وعن الثقافة والأدب الفارسيين الساسانيين في الإسلام وحقل التأثر بالتراث الفارسي (كما يسمِّيه بعض الباحثين حقل التأثر بالثقافة والأدب الإيرانيين)، انظر:
M. Zakeri, Persian Wisdom in Arabic Garb (Leiden, 2007); H. Kennedy, "Survival of Iranianness," in V.Curtis and S. Stewart, eds., The Rise of Islam (London, 2009); A. Peacock, "Early Persian Historians and the Heritage of Pre-Islamic Iran", in E. Herzig and S.Stewart, eds.,Early Islamic Iran(London,2011).

توجيه الإسلام نحو الأدلَّة الفعَّالة للاتصال المباشر بالله . كانت تلك الأدلَّة عند الشيعة هم الأئمَّة ونوَّابهم[1]، وفي الصوفية قد يُوزَّعُ هذا الدور بين الكثير من المرشدين والمعلِّمين. وهذه المرونة تعني أنَّ مثل أولئك الأشخاص يمكنهم التكيُّف على وفق الظروف المحليَّة وطرق التفكير لديهم، وهذا ما سهَّل تطوُّر شكلٍ مميَّز من الصوفيَّة الفارسيَّة. وأحد مميزاتها الرئيسة عقيدة «التجلِّي الكلِّيُّ»: فالله في كلِّ مكان، في الحجر والشجر، وكذلك في الإنسان والحيوان، ويتحدَّث شعراء الصوفيَّة عن إلههم المحبوب كوجود منتشر»، «يظهر بالأسود والأبيض، في المسيحيِّين واليهود، وفي الكلاب والقطط». والرأي الآخر قولهم بتناسخ الأرواح ويتضمَّن جانبين، الأوَّل: عودة الأرواح بأشكالٍ مختلفةٍ استنادًا إلى كيفيَّة تقوى تلك الأرواح في الحياة الدنيا، والثاني: الاعتقاد بأنَّ الروح يمكن أن تنتقل من شخصٍ لآخر. هذه مرَّة أخرى يمكن وضعها في صورة شعريَّة، كما في شعر الروميِّ، حيث يظهر أحباؤه بملابس مختلفة، في بعض الأحيان كشيوخ، وفي أحيان أخرى كشباب، كنوح، وإبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى، بهيئة النبيِّ محمَّد، وكسيف الإمام عليٍّ. والصوفيَّة تعظ أنَّ الحقيقة لا تكمن في القواعد الخارجيَّة والأعراف المحدَّدة وإنَّما في المعاني المستترة والأشكال المتحوِّلة، وأنَّ هذه المرونة والضبابيَّة المقترنة ببناءٍ تنظيميٍّ مفكَّك جعل منها وعاءً جاذبًا للتراث الدينيِّ الفارسيِّ، الذي على الرغم من انتشاره مع عقائد من نواميس وتقاليد أخرى تبحث عن مستقرٍّ لها أيضًا؛ فإنَّ التزوُّد من بلاد فارس ربَّما يُشكِّل الإسهام الثري في ذلك[2].

1- مصطلح "الإمام" الشخص في المقدِّمة لا غير (الشخص الذي يُتبع بوصفه نموذجًا)؛ في الإسلام السني يعني في البداية إمام الصلاة، ولكن لدى الشيعة يعني قادة الجماعة الذين بصورة عامَّة هم من أبناء علي بن أبي طالب صهر النبيِّ محمَّد.

2- بالنسبة إلى الاقتباسات والمناقشات الأخرى، انظر: P. Crone, Nativist Phrophts, ch.19. أنا لم أذكر أنَّ التشيع والصوفية هما ظواهر فارسيَّة بالتحديد، إنَّما كانا منفتحين على الأفكار الدينيَّة الفارسيَّة؛ وكلاهما ازدهر خارج بلاد فارس، والصوفيَّة بشكلٍ خاصٍّ انتشرت وطوَّرت نماذج محليَّة في أماكن متنوِّعة كالسنغال وباكستان، ولا سيَّما قبل ظهور الإسلام الأصوليِّ الحديث.

وعلى الرغم من أنَّ بعض الصوفيِّين المتشدِّدين يرفضون القوانين كلها لأنَّهم يعدُّونها مجرَّد قيود دنيويَّة، فإنَّ أغلبيَّتهم لا تريد إقصاء نفسها عن الأغلبيَّة الإسلاميَّة، وقبلت بذلك ضرورةً لديمومة الحياة البشريَّة. وهذا أمر جوهريٌّ؛ لأنَّ الشريعة الإسلاميَّة أصبحت ميزة محدَّدة للحضارة الإسلاميَّة. فالتشابه البنيويُّ مع اليهوديَّة (النظام الدينيُّ - التشريعيُّ الشامل الذي ينظِّمه العلماء استنادًا إلى الكتاب المقدَّس وأقوال النبيِّ) ترك أصوله في الفترة العبَّاسيَّة المبكِّرة بالعراق؛ لأنَّ المشرِّعين المسلمين تمتَّعوا باتصالاتٍ وثيقةٍ ودائمةٍ مع المجتمع اليهوديِّ الأكبر والأكثر ثراءً في الإقليم. إنَّ النظريَّة التشريعيَّة التي تؤكِّد أربعةَ مصادر رئيسة - الكتاب المقدَّس، السنة (في حالة الإسلام)، القياس، والإجماع - قد تكون رومانيَّة أو يهوديَّة أو مشتقَّة بشكلٍ أكثر عمقًا من الأفكار القديمة للشرق الأوسط[1]. ولكن من أين جاءت المواد العامَّة للقوانين الفرديَّة؟ إنَّها تعطينا الانطباع بعودتها جميعًا إلى النبيِّ محمَّد في شبه الجزيرة العربيَّة، ولا سيَّما أنَّها قد تم تتبُّعها من طريق سلسلةٍ من المرسلين إلى النبيِّ محمَّد نفسه. هذا الرأي وُضعَ من العلماء المسلمين، وبالتحديد أولئك الذين جلبهم الفاتحون معهم من غرب الجزيرة العربيَّة والمزوَّدين بمعرفةٍ كاملةٍ عن القوانين التي كانت

1- إنَّ المصادر الأربعة حاضرة في كتب المشنا والتلمود (J.Wegner, Islamic and Talmudic Jurisprudence: The Four Roots of Islamic Law and Their Talmudic Counterparts", American Journal of Legal History 26 , 1982). وعن الجانب الروماني، قارن بيان الإمبراطور جستينيان (Digest,132) كان الأمر أن تكون السيادة لاشتقاق القوانين من القوانين المكتوبة scripti leges (بالعربية كتاب)، mores et consuetudinis (ممارسات معتادة؛ بالعربية سُنة)، proximun et consequens ("قريب من المنطق أو من يتبعه")، أي: "التناظر"؛ بالعربية قياس)، ...indicium populi consensus omnium ("حكم الشعب... ورضا الجميع"؛ بالعربية إجماع). لمزيد من الاطلاع على العلاقة بين القوانين الإسلامية والرومانية، انظر: B. Jokisch, Islamic Imperial Law (Berlin, 2007)، أمّا ما يتعلّق بفكرة أنَّ الحكّام الأمويين استخدموا نظام المراسيم والبيانات الرومانية الذي بموجبه تُحال الدعاوى الكبرى في المرحلة الأولى إلى مكتب الحاكم، انظر:
M. Tillier, "Dispensing Justice in a minority Context," in R. Hoyland, ed., The Late Antique History of Early Islam(Princeton,2014).

تختلف عن القوانين الحاليَّة في بقيَّة مناطق الشرق الأوسط، وجعلها القوانين الجديدة للمسلمين، وقد قبل الكثير من الإسلاميِّين المحدثين هذه الصورة دون تردُّد[1]. ومع ذلك، كانت شبه الجزيرة العربيَّة على اتصالٍ مع بقيَّة مناطق الشرق الأوسط لمدَّة ألف سنة، وكانت أنظمتها التشريعيَّة تقاوم بأيَّة حال من الأحوال وبقوَّة أيَّ تغييرٍ سريعٍ لها. فالقوانين التي كانت سائدةً في الشرق الأوسط في فترة ما قبل الفتوحات بقيت سائدةً في الفترة التي بعدها، وبقيت مجموعات القوانين السائدة أصلًا - وهي مزيج من القانون الرومانيِّ وقوانين الشرق الأوسط القديم -معمولًا بها في الفترة الأمويَّة، مضافًا إليها بعض التنقيحات الخاصَّة من الخلفاء أو وكلائهم.

بدأت مجموعة ناشئة من العلماء المسلمين منذ مطلع القرن الثامن الميلاديِّ العمل من طريق مجموعة هذه القوانين، فقبلت أو رفضت أو عدَّلت من أحكامها، ووافقت على تلك التي لها علاقة بأقوال النبيِّ محمَّد وأفعاله، وأضفت على الممارسات القديمة كما لو أنَّها قوانين إسلاميَّة جديدة أصلها من شبه الجزيرة العربيَّة. فعلى سبيل المثال، هناك وثيقتان برديَّتان من القرن السادس الميلاديِّ من البتراء ونيسانا في ولاية بيزنطة العربيَّة سجَّلَتَا تقسيمًا لميراث بالسحب من طريق القرعة (وهذا يتعارض مع تطبيق مجموعة من الأحكام الصادرة سابقًا). وإذا رجعنا إلى مجاميع أحاديث النبيِّ سنجد قد كُتب فيها أنَّ اثنين من الأشخاص جاءا إلى النبيِّ محمَّد وهما مختلفان حول ميراثهم، فأخبرهم بعمل قرعة وقبول نتائجها مهما كانت.

1- مثلا، H.Motzki, The Origines of Islamic Jurisprudence (Leiden, 2002) الذي يُرجع الأصول إلى مكة. أما بالنسبة إلى عدم رغبة الإسلاميِّين بالتعاطي مع فكرة الأصول غير العربية للشريعة الإسلاميَّة، انظر: P. Crone, Roman , Provincial and Islamic Law, (Cambridge,1987), 1-17، ولكن كما لاحظ I.Goldziher أنَّ الإسلام لديه "القدرة على استيعاب وهضم العناصر الأجنبيَّة بكلِّ ما في الكلمة من معنى حتَّى إنَّ السمات الأجنبيَّة يمكن التقاطها فقط بالتحليل الدقيق للأبحاث الناقدة".

(Introduction to Islamic Theology and Law, Princeton,1981, 4-5).

وسواء واجه النبيُّ محمَّد تلك الحالة أم لا، ذلك ليس مهمًّا، ولكنَّ المسألة أنَّ هذه الممارسات في فترة ما قبل الإسلام (التي ربَّما كانت سائدة بشكل واسع في الجزيرة العربيَّة في فترة ما قبل الإسلام) حصلت على موافقة النبيِّ محمَّد، وأخذت مكانتها الشرعيَّة في البناء الضخم للتشريع الإسلاميِّ [1].

إنَّ المسألة التي نناقشها هنا ليست إثبات أن الإسلام استعار القوانين الرومانيَّة والشرق أوسطيَّة القديمة أو تأثَّر بها، بل هي تتمثَّل في سؤال مفاده: هل مجموعة القوانين هذه بقيت نافذة بعد فترة الفتوحات العربيَّة وتسلَّمها العلماء المسلمون وأعادوا صياغتها؟ وهكذا فإنَّ الكثير من الأحكام التي نظنُّ أنَّها إسلاميَّة محضة مثل قطع اليد بسبب السرقة والقتل بسبب الردَّة عن الدين كانت مطبَّقةً في الإقليم قبل الإسلام بفترة طويلة. وبينما حُفِظت هذه الأحكام وعُمِلَ بها رُفضت أحكام أخرى مثل تبنِّي الأطفال، والمعاملات المتعلِّقة بالرهن، وفي كلتا الحالتين الرفض والقبول قد نُسبت إلى النبيِّ محمَّد نفسه[2]. وهذه المعالجات قد نُفِّذت من عددٍ كبيرٍ من السلطات الدينيَّة في مراكز مختلفة من الإمبراطوريَّة العربيَّة بسرعةٍ هائلةٍ، وجُمعت أحاديث النبيِّ محمَّد وأفعاله في عددٍ من المجموعات منذ منتصف القرن التاسع الميلاديِّ وضمنها الأجزاء المشهورة للبخاريِّ (ت:870م) ومسلم (ت:875م). ويجد المرء هناك كلَّ ما يريده من أحكام تتعلَّق بالحياة اليوميَّة، كالزواج والطلاق، الوضوء والصلاة، والعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، العقود والمشاركات، شنِّ الحروب وعقد الاتفاقيَّات، الحيض والحلاقة، الأعمال الإجراميَّة والأعمال التي

1- P. Crone and A. Silverstein, " The Ancient Near and Islam :The Case of Lot-casting," Journal of Sematic Studies 55(2010).

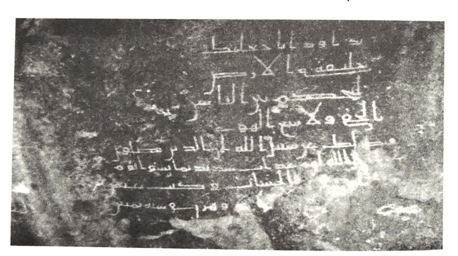
2- A. Marsham, "Public Execution in the Umayyad Period," Journal of Arabic and Islamic Studies II (2011), 116-123; G. Hawting and D. Eisenberg "Earnest Money and the Sources of Islamic Law," in B.Sadehgi et al., ed., Islamic Cultures Islamic Contexts(Leiden, 2014).

تستحقُّ التقدير. ولكن هذا لا يعني أنَّ هذه الأحكام جامدة ومتحجِّرة – فقد أُضيفت الأقوال والأفعال وأحكام القضاء الجديدة المستندة إلى التحليل المنطقيِّ لتكون أحكامًا جديدة من طريق «الفتاوى»، بالقياس على الأحكام المعمول بها أصلًا – ولكن بظهور هذه المجموعات يمكن للمرء الحديث من طريق إسلاميٍّ حقيقيٍّ لعمل الأشياء، وبذلك أسهموا في أسلمة المناطق التي فتحها العرب. وما دام الكثير من فقرات هذه المجموعات قد تشكَّلت من تقاليد الناس وممارساتهم في الشرق الأوسط في فترة ما قبل الإسلام، فيجب ألَّا نرى أنَّ هذا التطوُّر فرضٌ لمجموعات تشريعيَّة غريبة، إنَّما بناءٌ تشريعيٌّ أجمع عليه المجتمع الإسلاميُّ الجديد، الذي غالبيَّته من صفوف الشعوب المفتوحة.

وهناك بعض مميزات الحضارة الإسلاميَّة لم تكن مشتقَّة من تبنِّي الأفكار السائدة آنذاك، إنَّما ظهرت ردَّة فعل لها. لقد أراد معتنقو الإسلام الجدد رسم خطٍّ بينهم وبين المتديِّنين من أقرانهم السابقين، وإذا ما أحرزوا موقعًا في السلطة الدينيَّة، فإنَّهم يقومون بصورة عامَّة بتشجيع أتباعهم من المسلمين لإبعاد أنفسهم عن ممارسات المسيحيِّين واليهود والزرادشتيِّين[1]. ومن الأمثلة المهمَّة على ذلك الصور والتماثيل التي لم يذكر القرآن شيئًا عنها، ومن المحتمل أنَّها لم تكن في الواقع تشكِّل مشكلةً في المجتمعات الفقيرة نسبيًّا في غرب الجزيرة العربيَّة، ولكن كانت تلك الصور موجودة في كلِّ مكان من مدن الإمبراطوريَّات الفارسيَّة والبيزنطيَّة الثريَّة: على الموزائيك والألواح الجبسيَّة، وعلى الوثائق والمباني، وعلى واجهات الحجر، والصحون المعدنيَّة، وعلى المنسوجات، وهكذا. فحينما أراد عبد الملك توحيد نقود دولته اتَّبع في البداية الطرق المعتمدة بوضع صورته بوصفه حاكمًا على النقود الجديدة (صورة 5.2)، ولكنَّه سحب تلك النقود بعد سنتين، وسكَّ نقودًا جديدةً لا تحمل صورته، إنَّما تحمل

1- M.J. Kister, " Do Not Assimilate Yourselves,"Jerusalm Studies in Arabic and Islam 12 (1989).

كلمات فقط عبارة عن اقتباسين من القرآن ومن العقيدة الإسلاميَّة بصورة رئيسة. ولم يُقدِّم أيَّ تفسير لذلك، وإن قيل بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ إنَّ النبيَّ محمَّدًا قد عبَّر عن عدم موافقته على استخدام الصور، وهذا ما تداولوه لاحقًا. وبما أنَّ ذلك أثَّر في عرض الصور في الأماكن العامَّة (بقيت شائعة في المحيط الخاصِّ ولا سيَّما في بيوت النخب)، يبدو من الراجح أنَّها كانت ردَّة فعلٍ لغزارة عدد الصور التي يمكن رؤيتها بوصفها نتاجًا وبناء مصطنعًا من عناصر غير مسلمة، وأعدُّه طريقًا دراماتيكيًّا كبيرًا لتوضيح الاختلاف بين المسلمين وغير المسلمين في حقل الفنون العامَّة. كانت للسياسة الجديدة نتائج غير مقصودة لتحفيز النماذج الهندسيَّة في التمثيل والخطِّ اليدويِّ، وهما من الفنون التي نظنُّ اليوم أنَّها «إسلاميَّة» بامتياز. (صورة 7.2). وهكذا، وكما يبدو أنَّ القرار السلبيَّ انتهى بالترويج لما أصبح يُرى على أنَّه فنٌّ للجمال الإسلاميِّ، وأسلمةٌ للفضاء العامِّ للمناطق المفتوحة.



صورة رقم 7.2
نقشٌ عربيٌّ على وجه حجر بالقرب من مكة، مؤرَّخ سنة 80 للهجرة (699-700م).
يحتوي على الآية رقم 26 من سورة (ص)، مع ملاحظة تناسب الحروف الصاعدة والنازلة.

وفضلًا عن النظام القانونيّ الإسلاميّ المُحكم، استقرّ الباحثون المسلمون على أسلمة التاريخ. وهذا يعني في فترة ما قبل الإسلام ربط التراث المُوحِّد والمقدَّس بالجزيرة العربيَّة، الذي أنجز بسفر النبيّ إسماعيل مع أبيه إبراهيم إلى مكَّة، وبناء الكعبة هناك، ثمَّ أصبح الجد الأعلى للعرب بالزواج من القبيلة العربيَّة جُرهم. فضلًا عن إعادة الاعتبار لبعض الشخصيَّات البارزة مثل أرسطو والإسكندر الكبير والسيِّد المسيح بوصفهم موحّدين ذوي رؤى كما هو الحال للمسلمين. أمَّا بالنسبة إلى الفترة الإسلاميَّة كان ذلك يعني تصوير ولادة مجتمع إسلاميٍّ وفجر عصر جديد يتميَّز بقوَّة بتدشين تقويم جديد وهو التاريخ الهجري (السنة الأولى للهجرة = 622م)، ومن الناحية المعنويَّة التحول من الجهل والبربريَّة (جهل) إلى الاعتراف بالعلم والحقِّ. وهذا التدبير الجديد يرتكز على القرآن أصلًا الذي أوحي إليه من الله عزَّ وجلَّ الذي انتشر في كلِّ مكانٍ من طريق الفتوحات العربيَّة، الذي قُدِّمَ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ من أحكَمَ تأليفه ليؤدِّي إلى إقامة حكم الله. كانت واحدة من المآخذ على هذه الصورة المثاليَّة السلوك غير اللائق لصحابة النبيِّ، الذين تشاجروا وقاتل أحدهم الآخر كما توضَّح بصورة جليَّة في الحرب الأهليَّة الأولى (656-661م). كانت هذه مشكلة في التشريع الإسلاميِّ، فصحابة النبيِّ محمَّد هم من نقل سيرته وقراراته الشرعيَّة إلى الجيل اللاحق وإلى هذا العالم الواسع، ولذلك يحتاج المرء أنْ يعلم أنَّ بالإمكان الاعتماد على الصحابة في نقل هذه السيرة والقرارات بصورةٍ صحيحةٍ ودقيقةٍ. ولذلك، عُهد إليهم تقديس ذلك والاستعانة بتقنيَّات تدوين سير القدِّيسين في العصور القديمة المتأخِّرة، والجميع أصبح نموذجًا للفضيلة، ولا يمكن توجيه اللوم لهم، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي). وأخيرًا، حاول الفقهاء والعلماء حماية مكانتهم الخاصَّة بهم كأمناء للشريعة، وذلك بإغلاق الباب بوجه أيِّ مشرِّعين في المستقبل، ولا سيَّما الحكَّام الذين أنفسهم شرَّعوا في

الماضي أو عيّنوا الآخرين لعمل ذلك لهم. وحقّق أولئك الفقهاء ذلك من طريق تثبيتهم أنّ الخلفاء الراشدين الأربعة كانت لديهم السلطة للتشريع، وجعل الفترة التي حكموا فيها (632-660م) عصرًا ذهبيًّا حيث اكتملَ الإسلام، وتعاليمه مُورست وأُنجزت بصورةٍ صحيحةٍ. إنّه درجة من النجاح لأولئك الفقهاء الذين ما زال حتّى اليوم تُدرَّس رؤيتهم المنقَّحة لأسلمة التاريخ في المدارس والكلّيّات حول العالم وفي البلدان الإسلاميّة وغير الإسلاميّة[1].

1- وعن بعض النقاش على هذا الموضوع، انظر:

F. Donner, Narratives on Islamic Origines," (Princeton, 1998), and S. C. Lucas, Constractive Critics: Hadith Literature and the Articulation of Sunni Islam, (Leiden,2004).

الخلاصة

كان أحد أهداف هذا الكتاب إزالة القشرة عن خطوط الأسلمة وطبقاتها؛ لكي نفهم بشكل أفضل العوامل التي مهَّدت لنجاح الفتوحات العربيَّة وتأثيراتها في تحوُّلات البنى السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة في الشرق الأوسط. ففي المقام الأوَّل - وكما رأينا - أنَّ الصفحة الأكثر شرحًا وتعليقًا من الفتوحات نفسها هي سرعتها بوصفها نتيجةً لقيادة تلك الفتوحات التي تمكَّنت من تجنيد البدو في جيوشها. فالبدو أكثر تحمُّسًا للتحرُّك من السكَّان المستقرِّين، واعتادوا القتال في كلِّ يومٍ من حياتهم، فضلًا عن مهنتهم (رعي الحيوانات) التي تحتاج عملًا أقل جهدًا من العمل في الإنتاج الزراعيِّ، ولذلك فإنَّ الكثير منهم يمكنه الانخراط في القتال أكثر من العمل في العمل الزراعيِّ. ولذلك، كانت الفتوحات العربيَّة تميل إلى أن تكون ذات صفة انفجاريَّة، وهذه يمكن توضحيها بشكلٍ دراماتيكيٍّ في الغزوات المغوليَّة التي أدَّت إلى تأسيس إمبراطوريَّةٍ واسعةٍ في فترة ما قبل العصر الحديث وخلال سبعين سنةً تقريبًا. أمَّا في الحالة العربيَّة، سمحت لنا المصادر غير الإسلاميَّة أنْ ندرك فائدةً إضافيَّةً، وهي

بالتحديد أنَّ العرب كانوا يخدمون في الجيوش البيزنطيَّة والفارسيَّة بوقتٍ طويلٍ قبل الإسلام، وأحرزوا تدريبًا قيمًا على استخدام الأسلحة والأساليب العسكريَّة في الجيوش الإمبراطوريَّة، وأصبحوا إلى درجةٍ ما ملمِّين بأساليبها وطرقها. وفي الواقع، إنَّ هذه المصادر تلمح إلى أنَّنا يجب أن نرى الكثير في تحالف النبيِّ محمَّد في غرب الجزيرة العربيَّة، المستقرون والبدو، ليس بوصفهم خارجيين يبحثون عن سلب الإمبراطوريَّات ونهبها، بل بوصفهم عناصر داخليَّة تحاول الحصول على حصَّة من ثروة أسيادهم الإمبراطوريِّين[1].

وفي المقام الثاني: لقد أكَّدت أنَّ الفاتحين العرب استخدموا الوسائل غير العسكريَّة لتوسيع مكاسبهم وتعميقها. فضلًا عن تعهداتهم الاعتياديَّة باحترام حياة وممتلكات وحرِّيَّة العبادة لأولئك الذين يعلنون خضوعهم دون قتال، ومنحوا أيضًا الإعفاءات الضريبيَّة والحكم الذاتيَّ للذين يعيشون في المناطق الوعرة، والراغبين في توفير الخدمات العسكريَّة أو العمل مرشدين وجواسيس ومُبلِّغين لهم. وسجَّلوا أيضًا مجموعات من تلك التي أعلنت أنَّها مؤهَّلة في شؤون القتال ووافقوا على دفع المعاشات لهم. وبالطبع كانت تلك السياسة صائبة لأيَّة إمبراطوريَّة طموح، وتبنَّتها الكثير من الإمبراطوريَّات في الماضي. كان نحو 80٪ من الجنود في الجيش الإمبراطوريِّ البريطانيِّ في الهند من مواطني شبه القارَّة الهنديَّة، والمواقع العليا كان يشغلها بصورة رئيسة ضبَّاط بريطانيُّون فقط. وكانت الإمبراطوريَّات تحرِّك رعاياها من الشعوب المفتوحة إلى مناطق مختلفة وتنشرهم بعيدًا عن أوطانهم، ولا سيَّما أولئك الذين لا يتمتَّعون بنوعٍ من التعاطف المحلِّيِّ. فعلى سبيل المثال، كانت الحاميات العسكريَّة

1- لا بدَّ أن نتذكَّر خطاب عمرو بن العاص إلى القائد البيزنطيِّ حول كيفيَّة المشاركة في الأراضي التي لم تكن في صالح العرب الذين يريدون الآن استبدال نصف أراضيهم المملوءة بالأشواك والحصى بنصف من الأراضي المزروعة (ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق 1، الناشر: س. المُنجد، دمشق، 1951، 461-462).

الفرنسيَّة في الجزائر تتألَّف - استنادًا إلى أحد المراقبين الأمريكيِّين في عام 1922 - من «قوَّات أفريقيَّة.. بملابس عسكريَّة فرنسيَّة، وتحت الراية الفرنسيَّة، وبقيادة فرنسيَّة»[1]. مارس العرب هذا النوع من الممارسات أيضًا، ولكن تبقى الحقيقة غير الواضحة إلى حدٍّ ما هي لماذا تبنَّى معتنقو الإسلام الجُدد الأسماء العربيَّة وتعلَّموا الحديث باللغة العربيَّة، جاعلين الجيوش العربيَّة تبدو أكثر تجانسًا معهم مِمَّا هي في الواقع. وفي الواقع، كان التجنيد على نطاقٍ واسعٍ للعنصر غير العربيِّ في جيوشهم وحده ساعدَ العربَ على الاحتفاظ بقبضتهم على إمبراطوريَّتهم المترامية الأطراف.

وثالثا: كان للإسلام دورٌ في ذلك، ولا سيَّما أنَّ الدراسات الأخيرة أكَّدت الحماسة التي تمتَّع بها الفاتحون، وإنِّي فضَّلت التركيز على القدرة المتكاملة التي مكَّنت الفاتحين والشعوب المفتوحة من خلق هُويَّةٍ جديدةٍ وحضارةٍ جديدةٍ. فالإسلام كما وَردَ في القرآن سيصبح مألوفًا لسكَّان الشرق الأوسط، ولا سيما أنَّه يستند إلى المكوِّنات الأساسِّية لعقيدة النبيِّ إبراهيم التوحيديَّة: إله واحد على كلِّ شيء قدير، الأنبياء والرسل، القرآن الكريم، الصلاة، الصوم، الصدقات، الحج، الأيَّام المقدَّسة، المساجد والجوامع، وغير ذلك. فالإسلام يختلف كثيرًا عن المسيحيَّة واليهوديَّة في تشكيل تميُّزه، لكنَّه يتشابه معهما تمامًا في أن يكون مقبولًا، ولا سيَّما أنَّ عدم وجود طبقة لرجال الدين أو هيكل محدَّد لهم جعله بشكلٍ خاصٍّ سهل الاعتناق (بلغة العقيدة على الأقل، والمؤمنون جميعًا متساوون أمام الله). وبهذا المعنى فإنَّ العرب يختلفون عن المغول: فكلُّ ما كان يقدِّمه قادة جنكيز خان عبادة إله السماء تنكري Tengri، وهذه

1- W.M. Slone, Greater France in Africa, (New York, 1924), 91-92، ولمزيد من الاطلاع، انظر: G. Jenkins, "For Love of Country? Britain, France, and the Multietnical Imperial Army 18115-1919," http://lda.academia.edu/GrahamJenkins accessed Septemper 30, 2013، اتَّبع العرب سياسةً مشابهةً في توطين الفرس والهنود واليهود في المدن الساحليَّة من حوض البحر الأبيض المتوسط، مُعلِّلين ذلك أنَّهم لن يساعدوا أيَّة محاولات بيزنطيَّة لإعادة الاستيلاء عليها. (انظر: الفصل الرابع، هامش 17 من هذا الكتاب).

العبادة كانت غريبةً أيضًا على رعاياهم الجدد للنظر في اعتناقها، حتَّى إذا سمح لهم المغول عمل ذلك. ونتيجة لذلك، تبنَّى أغلبية القادة المغول أحد أديان الشعوب المفتوحة، وهذا يحدِّد الدرجة التي باستطاعتهم تحفيز أيِّ تغيُّرٍ ثقافيٍّ واسع.

لقد أصبح واضحًا لماذا أرادت بعض الشعوب المفتوحة اعتناق الإسلام، ما دام ذلك يُسهِّل الوصول إلى كلِّ الفوائد التي يتمتَّع بها الفاتحون[1]. ولكن ما هو أقلُّ وضوحًا لماذا سمح لهم العرب بعمل ذلك. فالفاتحون لم يضمنوا بشكلٍ اعتياديٍّ الانضمام إلى صفوفهم بسهولة؛ لأنَّهم أرادوا الاحتفاظ بمميزات الفتوح لأنفسهم فقط. فعلى سبيل المثال، كانت القوى الإمبراطوريَّة الأوروبيَّة مُتزمِّتة جدًّا، وإن كان الرومان أقلَّ كثيرًا في ذلك، حتَّى مرور أربعمئة سنة قبل أن يمنحوا المواطنة لأيِّ شخصٍ في إمبراطوريَّتهم. هناك بعض الإشارات إلى أنَّ العرب كانوا يفضِّلون القيود المتعلِّقة بالنسب (إعاقة الزواج بين العرب وغيرهم مثلا)، لكنَّهم وبصورة غير مقصودة وجدوا أنفسهم في مشهد حصان طروادة. فقد جلبوا معهم أعدادًا كبيرة من الأسرى من فتوحاتهم إلى بلدانهم، حتَّى أصبح من الصعب إبعادهم عن دوائر الحكومة، ولا سيَّما بعد بدايتهم باعتناق الإسلام. وفوق ذلك، كان حقُّ الرجال المسلمين بالزواج من أربع نساء، وتملُّك الكثير من الجواري، فضلًا عن امتلاك المال والسلطة، وهذا يعني أن بإمكانهم إعالة الكثير من الأبناء بشكلٍ عامٍّ، وأكثر من غير المسلمين، وأنَّ هيمنتهم السياسية تضمن أنَّ أولئك الأبناء سيُربَّونَ مسلمين[2]. لقد رفض بعض

1- وهذا لا يعني أنَّ اعتناقهم لم يكن مخلصا، أو لمجرَّد الحصول على امتيازات ماديَّة؛ وربَّما يقارن القارئ ذلك بالمهاجرين الذين يرغبون بأن يكونوا مواطنين أمريكيين اليوم، على أمل أن يجدوا حياة أفضل، ويكونوا في العادة مخلصين في اعتقادهم بفضائل الديمقراطيَّة والحريَّة الأمريكية.

2- لقد قبل المحامون شرعيَّة زواج الرجال المسلمين من نساء غير مسلمات، وعلى أيَّة حال، لا يوجد خيار آخر للرجال في الحملات في الأراضي الأجنبيَّة: "تزوَّجنا من نساء من أهل الكتاب (أي يهوديَّات ومسيحيَّات وفي العادة زرادشتيات أيضًا) لعدم عثورنا على نساء مسلمات بما يكفي" (الطبري 1.2375).

الحكّام العرب اعتناق الإسلام من الفئات الدنيا من المجتمع، ولكن ذلك لا يستند إلى القرآن وسنّة النبيّ وأحاديثه، كان من الصعب الدفاع عن ذلك بوصفه مبدأ من مبادئ الإسلام، وواجه معارضةً قويّةً من أولئك الذين يشعرون أنّ نشر الإسلام من إرادة الله وتعزز من حكم العرب. لقد أيّد أحدُ الآراء الإسلاميّة «قتل تسعة من كلّ عشرة أسرى من غير العرب»، لكنّ هذا الرأي غير الواقعي كان من الصعب القبول به. وباختصار: إنّ سهولة الجمع بين سهولة اعتناق الإسلام مع كثرة أعداد أسرى الحرب الراغبين باعتناقه أدّى إلى سرعة تطوُّر الشعوب الإسلاميّة وتطوُّر الحضارة الإسلاميّة في النهاية[1].

ولكن إذا كان الإسلام مجرَّد نسخة من عقيدة التوحيد للنبيّ إبراهيم - كما هو الحال في اليهوديّة والمسيحيّة - فلماذا تشعّبت وتباينت الحضارة الإسلاميّة كثيرًا جدًّا عن الحضارة الرومانيّة المسيحيّة؟ إنّ الجزء الأكبر من الجواب يكمن في أنّ العرب لم يستولوا فقط على مكتنزات كبيرة من الإمبراطوريّة البيزنطيّة، إنّما على الإمبراطوريّة الفارسيّة جميعها. ولذلك، لم يكن العرب ورثة روما فقط - كما أوضحت عددٌ من الدراسات الأخيرة - إنّما ورثة بلاد فارس أيضًا[2]. ففي ولاية بلاد الشام البيزنطيّة

1- نُعَيم بن حماد، كتاب الفتن، الناشر، الشوري (بيروت، 1997)، هامش655 (تسعة من كل عشرة). يجب أن أؤكد إني ذكرت في الفصل الخامس، وبالتحديد، أنّه خلال القرن الأوّل من الفتوحات العربيّة أو ما بعده بقليل كان المرء يحتاج إلى كفيل مسلم لكي يعتنق الإسلام؛ وفي حالة أسرى الحرب فإنّ الكفالة أصلا متوفرة من آسريهم؛ ولا يجب عليه أن يحرر أسراه عند اعتناقهم الإسلام، ولكن كان شائعًا، وبشكلٍ خاصٍّ أن يُحرِّرُوا مقابل فدية أو خدمة معيَّنة.

2- وآخر ما كُتب، انظر: (C.Wickham, Inheritance of Rome(Penguin,2010. والاستثناء من ذلك، M. Hodgson, World History (Cambridge, 1993), 113-114: " كان تاريخ القرن الأوّل من الإمبراطوريّة الإسلاميّة تاريخ إعادة مأسستها كإمبراطوريّة زراعيّة سامية - فارسية كالإمبراطوريّة الساسانيّة". وعلى النقيض، كان الفرس في العصور الوسطى يدركون جيدًا بِدَين العرب لهم: "أعطاكم أسلافنا مملكتكم، إلّا أنّكم لم تُظهروا شُكركم على كرمهم" (قصيدة لابن ممشاذ الأصفهاني، ذكرها، (M.Stern in C.E. Bosworth, ed., Iran and Islam, Edinburgh, 1971,541-542.

كانت للإسلام صلات روحيَّة قويَّة مع المسيحيَّة: كان المسلمون يناقشون المسائل المسيحيَّة التقليديَّة، كالعلاقة بين الإرادة الحرَّة والقضاء والقدر، والعلاقة بين المعجزات والنبوَّة، الوضع الوجودي لصفات الله. فإذا فتح العرب مصر وبلاد الشام لوحدهما، فربَّما كان من الممكن استيعاب العرب جزئيًّا في الحضارة البيزنطيَّة وبالطريقة نفسها التي حاولت فيها الدويلات القوطيَّة والفرنجيَّة الاحتذاء بالإمبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة، ولا سيَّما أنَّ الكثير من الصفوف العليا من النخب الأمويَّة كانت تنحدر من القبائل العربيَّة المسيحيَّة، الذين كانوا مواطنين أو حلفاء لبيزنطة[1]. ولكنَّ العرب ابتلعوا الإمبراطوريَّة الفارسيَّة بالكامل، ولذلك لا نندهش أن نرى لثقافتها تأثيرًا هائلًا في الدولة العربيَّة الوليدة، وبشكلٍ خاصٍّ حينما نقلَ العربُ عاصمتهم إلى العراق عام 750م، حيث أصبحوا عرضةً للثقل الحضاريِّ التامِّ لبلاد فارس. فمن البصرة إلى بلخ كان أحفاد الأرستقراطيَّة والبيروقراط في الإمبراطوريَّة الساسانيَّة المتأخِّرة ينتظرون بلهفةٍ لمنح ثرائهم الثقافيِّ لأسيادهم الجُدد. ومن طريق توجيههم رُفعت المكانة الدنيا للعاصمة الأمويَّة دمشق إلى العظمة الإمبراطوريَّة لبغداد العبَّاسيَّة. فضلًا عن غرس روح البحث العلميِّ الواردة في النصوص اليونانيَّة القديمة بترجمتها إلى اللغة العربيَّة، وقد حَوَّلَ الإنتاج الفكريُّ للأشخاص الموهبين في كلِّ المناطق المفتوحة، من إشبيلية إلى سمرقند، عبادةَ النبيِّ إبراهيم المحليَّة العربيَّة في غرب الجزيرة العربية؛ إلى ديانةٍ عالميَّةٍ وواسطة إلى حضارة جديدة مزدهرة.

1- قد يبدو ذلك من غير المحتمل لأوَّل وهلة، لكنَّ الإسلام في القرآن قريب إلى حدٍّ ما من جذورها اليهوديَّة-المسيحيَّة وهذا ما حدث منذ الفترة المبكرة للإسلام، ولكلٍّ من المسيحيَّة والإسلام (فضلًا عن تاريخهم الطويل في الخصومات المتبادلة)، مِمَّا قادهم إلى للاختلاف والتباعد. وربَّما حافظ الاسلام على العلاقة نفسها مع المسيحيَّة، كما هو الحال اليوم مع الجماعة المورمونيَّة Mormonism (طائفة دينيَّة أمريكيَّة أنشئت عام 1830 أباحت تعدُّد الزوجات ثمَّ حظرته: المترجم) التي تشبه الإسلام، لها نبيُّها وكتابها الخاصُّ بها وعباداتها المميزة لها.

هامش: إنَّ معنى الجهاد كما ورد في القرآن يعني «الكفاح والكدح» ليس بالمعنى العسكريِّ فحسب، بل الكفاح المعنويُّ والأخلاقيُّ، أي جهاد النفس، كما سُمِّي لاحقًا. فمن المحتم أنَّ فكرة الكفاح العسكريِّ كانت في المقدِّمة حينما كانت الفتوحات في أوجها تمامًا، ولكن حينما بدأت الحماسة تهدأ والنيَّات السلميَّة تُحرز تقدُّمًا؛ أصبح الكفاح يعمل بالاستناد إلى شرع الله وبناء المجتمع العادل.

ملحق

المصادر: تعليقات وملاحظات نقديَّة

بدأ المسلمون يرون في فترة حكم النبيِّ والخلفاء الأربعة الأوائل في المدينة (622-660م) العصر الذهبي للإسلام، وهو الوقت الذي حينما أكمل النبيُّ وصحابته الإسلام لأتباعهم، وعملوا بعدالة بالاتفاق التامِّ مع تعاليم دين الله، وطبعت كتب التاريخ الإسلاميِّ هذه الفكرة في الأذهان وعكستها، وقدَّمت هؤلاء الأشخاص نماذجَ للسلوك القويم ومصدرًا للممارسات الشرعيَّة الصحيحة. فمن المحتم، أنَّ المبدأ يصبح مقبولًا في مطلع القرن التاسع الميلاديِّ، حينما تكون القوانين والسلوك الأخلاقيُّ تستند إلى أحاديث النبيِّ وسنَّته وسنن أصحابه. إذن، إنَّ فترة تأسيس الآباء (السلف) للإسلام أصبحت ميدانًا للنقاشات الشرعيَّة والدينيَّة في وقتٍ متأخِّر[1]. وهذا الوضع خلق مشكلةً للمؤرِّخين المحدثين. كيف يمكن الكتابة في تاريخ هذه

1- لقد أورد أحد مؤلِّفي القرن الثامن المتأخِّرين دراسةً عن الضرائب ومحاولة الحكومة لتعديل نسبة الضريبة على سكَّان الرها، وذلك بالادِّعاء بما كان لديهم بموجب المعاهدة الأصلية في زمن الفتح، فأجاب سكان الرها: "أنت جاهل الآن كما نحن جهلة، كيف كانت الأشياء في البداية، فكيف يمكنك أن تقرر ما هو مناسب لفرضه علينا لا يمكنك إعطاء سابقة ثابتة له" (Robinson, Empire and Elites, 2-4، كما يذكر أبو يوسف في كتابه الخراج). وعن الأمثلة حول المواد الشرعية والزائفة التي أدخلت على روايات الفتوح، انظر بحوث Brunschwig and Noth في Donner, Expansion of the Early Islamic State.

الفترة دون التقليل من وجهات النظر الدينيَّة والخلافات الشرعيَّة للفترة المتأخِّرة؟ إنَّ الطريق الوحيد أن نعطي الدور الرئيس للنقود المعاصرة، للوثائق، وللمصادر غير الإسلاميَّة؛ لتركيب الأحداث حتَّى وفاة الخليفة الرابع عليٍّ في عام 660م، وهذا ما قمت به في هذا الكتاب. ومن الطبيعي أنَّ هذه الموادَّ لا تخلو من مشاكل، لكنَّها تؤرِّخ على الأقلِّ للفترة موضوع البحث (630-660م)، أو باختصار بعد ذلك، بينما الروايات الإسلاميَّة الباقية لدينا تسبقُ القرنَ التاسع الميلاديَّ، وتعتمد على سلسلة طويلة من الرواة، كلُّ واحدٍ منهم ربَّما يعيد صياغة الرواية الأصلية وشكلها (أو حتَّى يخترع رواية وينسبها إلى شاهد مزعوم)[1].

مِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ بعض الموادِّ التاريخيَّة الأصليَّة والمبكِّرة قد وصلتنا. فعلى سبيل المثال، أنَّ ابن عبد الحكم ذكر لنا بنود المعاهدة التي اتُّفِقَ عليها مع النوبيِّين، ويذكر أنَّه أخذها من شخصٍ اطَّلع على الأصل لها. وفي الواقع، أنَّها تتَّفق جيدًا مع رسالة باقية ومؤرَّخة في 758م التي تُلمح إلى شروط المعاهدة الأصليَّة (انظر الفصل الثالث). ومشكلتنا كيف نتحقَّق من صحَّة روايات ذلك الوقت - وهي الأغلبيَّة العظمى - حينما لا تتوافر لدينا شواهد وأخبار مستقلَّة. وفي مثل هذا الوضع يتحمَّل الباحثون إمَّا إثمها حتَّى يتمَّ التثبُّت من مقاربةٍ مقبولةٍ لها، أو عكس ذلك، قد يتَّفقون عليها حتَّى يُبرهن على أنَّها مجروحة، وهذا يعني أنَّنا ننتهي إمَّا إلى رفض أغلبيَّة التراث التاريخيِّ الإسلاميِّ، أو قبول أغلبيَّته. وهذا أثَّر في تمحور المؤرِّخين المسلمين إمَّا مشكِّكون أو تنقيحيُّون أو تقليديُّون[2]. كان المشكِّكون في صعود في عقدي السبعينيَّات والثمانينيَّات من القرن الماضي، ولكنَّ تزايد الانطباع العامّ عن الإسلام منذ ذلك

1- بصورة عامَّة، انظر: P. Crone, Slaves, 3-17. وهذه الدراسة سبق وأن ذكرناها في قسم فهرست المصادر المختارة.

2- J. Koren and Y. D. Nevo, "Methodological Approaches to Islamic Studies," Der Islam 68(1991)، على الرغم من أنَّها ضمن هذه المجموعات الواسعة، لكن هناك آراء متنوِّعة وجيدة. أيضًا انظر: C. Robinson, " The Ideological Uses of Early Islam," Past and Present, 203(2009), 216-217، الذي استخدم مسمَّيات "عدم الثقة بالمعتدلين" و"تصديق المتطرفين".

الوقت جعل الكثير من الأكاديميِّين الذين في العادة يميلون إلى اليسار الليبراليّ يخجلون من نقد الإسلام، وهذا الموقف أدَّى إلى تأييد مقاربات التقليديِّين، بينما دفعَ المشكِّكينَ والمنقِّحينَ ليُصبحوا أكثر تطرُّفًا[1]. حاولتُ في هذا الكتاب ترويجَ مقاربة أخرى ربَّما تساعدنا في إنهاء المشكلة، وبالتحديد وضع التاريخ الإسلاميّ في إطارٍ تاريخيٍّ أوسع، ولا سيَّما أنَّ المؤرِّخين المسلمين يميلون إلى أن يكونوا انطوائيين أكثر، ويركِّزون على مصادرهم الخاصَّة بهم وفي إقليمهم الخاصّ بهم[2]. إنَّ النظر إلى المجتمعات والحضارات المحيطة بالشرق الأوسط ستساعدنا في توسيع رؤانا وجعلها نسبيَّةً. وإنَّ شكواهم بعدم وجود شواهد وأدلَّة من القرنين السابع والثامن الميلاديِّين يمكن إجابتها بالغوص أكثر في الأعداد الكبيرة من الكتابات المسيحيَّة واليهوديَّة التي كُتبت في تلك القرون[3]. فإذا كان التاريخ الإسلاميُّ يعني دراسة

1- من الأمثلة على الفقرة السابقة بحث، Donner, Muhammed and the Believers (see P. Crone's review in Tablet Magazine, August 10,2010): " لقد رُحِّب بكتاب Donner بطريقة تُظهر أنَّ أطروحته تروق بقوَّة للبراليين الأمريكيين: وجدوا فيها الإسلام المهذب والمتسامح والمنفتح الذين يتوقون إليه"). انظر أيضًا:

C. F. Foss, “trendly political correctness” in a review of Walmesley’s Early Islamic Syria for Journal of Archeology 21(2008),739-740.

وللاطلاع على الاتجاه المعارض، انظر المنشورات على الرابط :

http// www.inarah.de/cmc/ and their English volume The Hidden Origins of Islam(ed.,Ohlig and Puin), and Gunter Luling, A Challenge to Islam for Reformation(Delhi, 2003),

وهو كتاب جدي، ولكن كما نراه من العنوان يتميَّز بنغمة هجوميَّة عنيفة.

2- P. Crone, Roman , Provencial and Islamic Law(Cambridge,1987), 6;

فبعد الحرب العالميَّة الثانية "فَضَّلَ الإسلاميُّون على نحو متزايد دراسة الإسلام بوصفه نظام حكم ذاتي تطور داخليا استجابة للحاجات الخاصَّة به، وباستخدام موارده الذاتية".

3- لنأخذ مجرَّد مثل واحد: المراسلات الضخمة لثلاثة شخصيَّات مسيحيَّة سوريَّة (يعقوب الرهاوي، جون الأثارب، وجورج أسقف العرب) من القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلاديِّين، ولم تُنشر حتَّى الآن، وحتَّى إذا تجاوزنا دراستها، فقد أوضح أحد الإسلاميِّين منذ زمن طويل فائدتها لفهم قيام فكر القائلين بالجبر والقضاء والقدر في الإسلام (M. Cook, Early Muslim Dogma, Cambridge,1981, 145-152). ومن الصعوبة تصوُّر الإهمال الكبير لمجموعة مشابهة كانت متوفرة للباحثين الأوربيين في العصر الوسيط

الولايات والشعوب تحت الحكم الإسلاميِّ، وليس دراسة المسلمين وحدهم؛ إذن يجب على الإسلاميِّين الذين يتعاملون مع الفترة المبكِّرة من التاريخ الإسلاميِّ الانفتاح أكثر في مواقفهم من المصادر.

يدخل المرء في الزمن الدنيويِّ حالما يدخل في الفترة الأمويَّة (661-750م). لقد تحوَّل المؤرِّخون المسلمون من الكتابة في تاريخ الخلاص وإنقاذ الروح إلى كتابة حوليَّات الأعمال الدنيويَّة للحكومة والنزاعات المطوَّلة بين العصبيَّات القبليَّة والطائفيَّة. ولذلك، يمكننا أن نثق أكثر بالأدلَّة الأدبيَّة ومعالجتها بالطرائق الاعتياديَّة وفحصها وتنقيتها من التحامل وإعادة تشكيلها ثمَّ نختار الروايات، وهكذا. وبما أنَّ مصادرنا المبكِّرة الباقية وصلتنا من الفترة العبَّاسيَّة يجب أن نكون محترسين أكثر من «لعن السابقين»، أي تشويه العائلة العبَّاسيَّة لسمعة من سبقها من الأمويِّين. لقد وصلنا صدفة مصدرٌ لسنة 741م مترجم إلى اللاتينيَّة في إحدى الحوليَّات الإسبانيَّة، ذكر عن يزيد الأوَّل (680-683م) ما يلي: «من الشخصيَّات الأكثر لطافة، ويُعدُّ مقبولًا إلى حدٍّ كبيرٍ من الناس الخاضعين لحكمه، فهو لم يبحث عن المجد لنفسه، كما هي عادة الرجال بسبب أصوله الملكية، لكنَّه كان يعيش بصفة مواطن مع جميع العامَّة من الناس»، وأضاف: «حقَّق قليلًا من الانتصارات أو لم يحقِّق أصلًا»، وهذا يتناقض بشدَّة مع كتب التاريخ الإسلاميِّ التي تصوِّره بأنَّه «شخصيَّة آثمة فيما يتعلَّق ببطنه وأعضائه الخاصَّة»، «وسكِّير خمَّار ومتعجرف»، «لا يؤمن بالله، ولا بدينه، ومعادٍ لرسوله»[1].

والمسألة الرئيسة الأخرى هي الانتقائيَّة. فمن الأمور الواضحة أن يتوقَّع المرء من المنتصِر أن يعظِّمَ من (انتصاراته) وأن يُحجم (هزائمه)، لكن في حالة المصادر الإسلاميَّة هناك موقف ضبابي أيضًا تجاه العناصر غير الإسلاميَّة، فهي تنظر إليهم

1- Chronical of 741, §28؛ البلاذري، (أ)،9.291، والطبري، 2173-2175. 3.

بشكلٍ عامٍّ شعوبًا مفتوحةً فقط، وخدمًا وعبيدًا. وبكلمات أحد المعلِّقين المخضرمين أنَّ «اليهود والمسيحيِّين والفرس والرومان الشرقيِّين وُزِّعُوا في أدوارٍ ثانويَّةٍ وجزئيَّةٍ»، إن لم يكن أكثر من ذلك بقليل. لقد تجاهل الإرث التاريخيّ العربيّ الهائل والثري، الذي كان يتطلَّع إلى داخل المجتمع الإسلاميّ بشكلٍ حيويٍّ، لتلك العلاقة الحميميَّة بين العرب والثقافات الأخرى في الشرق الأدنى من جانب، وتعقيدات تلك العلاقة من جانب آخر[1]. إنَّ المصادر غير الإسلاميَّة تساعدنا في إيجاد نوعٍ من التوازن لتلك الصورة التي نأمل أن تكون إحدى إنجازات هذا الكتاب.

المؤلِّفون

إنَّ الدراسات عن مؤرِّخي الشرق الأوسط في القرنين السابع حتَّى التاسع الميلاديِّين نادرة نسبيًّا، مِمَّا يجعل من الصعب على الباحث المبتدئ فهم ما كُتب حول الموضوع، ومن كَتَبَ فكم يمكن أن نضع من الثقة في رؤيتهم لتلك الأحداث؟ ولذلك، سأقدِّم هنا بعض المعلومات الأساسيَّة حول جوهر النصوص التي استخدمتُها في هذا الكتاب. فكلُّ المصادر غير الإسلاميَّة التي استخدمتها والكثير غيرها تم فحصتها وناقشتها مطولًا في مقالتي المعنونة: «النظر في الإسلام»، وبحث هوارد - جونستون الموسوم «شهود على أزمة عالميَّة». ولعلَّ أفضل بداية للاطِّلاع على كتابات التاريخ الإسلاميّ هو كتاب تشيس روبنسون Chase Robinson الموسوم «التاريخ الرسميُّ للإسلام»، وللاطلاع على معلومات أكثر تفصيلًا، انظر: ف. روزنثال، «علم التاريخ عند المسلمين (لايدن، 1968). [ترجمه إلى العربيَّة الدكتور صالح أحمد العلي بالعنوان نفسه: المترجم].

1- P. Brown, Thr Rise of Western Christendom (Oxford,2003),301.

مؤلّفو القرن السابع الميلاديّ:

حوليّات خوزستان: هي حوليّات مسيحيّة سريانيّة مختصرة ومجهولة المؤلّف من جنوب غرب بلاد فارس، تنقل «بعض الأحداث من كتاب Ecclesiastica، أي تاريخ الكنيسة، ومن Cosmotica، أي التاريخ الدينيّ الذي يؤرِّخ من وفاة هرمز بن خسرو حتّى نهاية المملكة الفارسيّة» (590–652م تقريبًا).

فريدجار: حوليّة لاتينيّة تحتوي تسعينَ فصلًا، وتمتدُّ من السنة الرابعة والعشرين من حكم جونترام، ملك برغندي (584م)، حتّى وفاة فلاوتشاد Flaochad، أمين القصر الملكيّ في برغندي (642م)، وتشيرُ أيضًا إلى الأحداث المتأخِّرة من وقت لآخر. لقد عُرفت بحوليّة فريدجار منذ القرن السادس عشر، حينما نسبها أحد الباحثين الفرنسيِّين إلى شخص «فريدجار رئيس الشماسة» لأسبابٍ غير مؤكّدة.

تاريخ القوقازيِّين الألبان: تاريخ عالميٌّ لمؤلِّفٍ مجهولٍ، يُركِّز على موطن المؤلِّف، مع أنّه كُتب باللغة الأرمنيّة. جُمعَ في مطلع القرن العاشر الميلاديّ؛ بهدف توثيق سيرة البيت الملكيّ الألبانيّ، وتطوُّر الكنيسة الألبانيّة. والكتاب الثاني منه يركز بشكلٍ واسعٍ على أحداث القرن السابع وما يُجمع عليه الخبراء المعاصرون آنذاك؛ كونه يستند إلى الوثائق المعاصرة أو القريبة منها، التي لم تتعرَّض للتنقيح.

جون أوف فينك: وهو من مواطني فنيك Fenek الواقعة إلى الشمال الغربيّ من بلاد ما بين النهرين، ومقيم في دير جون كامول John Kamul. كتب «حوليّات العالم» باللغة السريانيّة تشريفًا لرئيس ذلك الدير. وعلى الرغم من أنّ هذه الحوليّات تبدأ بالخليقة حتّى «عقاب اليوم القاسي»، فإنّ الكتاب يبحث فقط في معالجة «النقاط البارزة» من تاريخ تلك الفترة، و«بأسلوب مختصر». وكرَّس اهتمامًا كبيرًا في الفصل الخامس عشر والأخير للفترة المبكِّرة من الحكم العربيّ، واختتمه بروايات حيويّة عن اندلاع

الحرب الأهليَّة العربيَّة الثانية والمجاعة والطاعون في عام 67 للهجرة (686-687م)، الذي استمرَّ في الحدوث وهو يُدوِّن أحداثه.

جون أوف نيكيو: وهو أسقف نيكيو، وهي مدينة تقع على بعد أميالٍ قليلةٍ إلى الشمال الغربيِّ من الفسطاط، ومؤلِّف حوليَّةٍ تذكر أحداثًا مختصرةً منذ الخليقة حتَّى نهاية الفتح العربيِّ لمصر (عام 643م تقريبًا)، مع إعطائه اهتمامًا أكبر للفتح العربيِّ. والحوليَّة الأصليَّة كُتبت باللغة القبطية على الأرجح، وتُرجمت إلى اللغة العربيَّة في وقتٍ غير معروف. وكلا النسختين القبطيَّة والعربيَّة مفقودة، ولم يبق منها إلَّا الترجمة الأثيوبيَّة، والمترجمة من العربيَّة في عام 1602م.

الحوليَّة المارونيَّة: وهي حوليَّة سريانيَّة لمؤلِّفٍ مجهولٍ، تعتمد على حوليَّة يوزبيوس التي تغطي أحداثًا من عصر الإسكندر الكبير حتَّى ستينيَّات القرن السابع الميلاديِّ على الأقلِّ. الحوليَّة ناقصة في أغلبها، والجزء الذي يعالج الأحداث منذ أواخر القرن الرابع الميلاديِّ حتَّى منتصف القرن السابع الميلاديِّ مفقودٌ بالكامل. يتوقَّف النصُّ فجأة عند هذه النقطة، في 665م. ومن الراجح أنَّ النسخة الأصليَّة تستمرُّ لفترة أطول، ولكن من الصعب القول إلى أيَّة سنة، إلَّا أنَّها تحتوي بعض الأخبار المؤرَّخة من القرن السابع الميلاديِّ بدقَّة جدًا، وتعود هذه الحوليَّة إلى القرنين الثامن أو التاسع الميلاديِّين.

زيبيوس: مؤلِّف أرمنيٌّ لكتاب تاريخ يبدأ مع ثورة الأرمن في ثمانينيَّات القرن الخامس الميلاديِّ، لكنَّه يذكر الكثير من أحداث القرن السادس الميلاديِّ حتَّى يصل إلى ثورة الأرمن الثانية في سنة 572م، ثمَّ يُورد تفصيلاتٍ عن الأحداث بأرمينيا ودورها في سياسات القوى الكبرى حتَّى منتصف القرن السابع الميلاديِّ، وأضاف بعد ذلك آخر الأخبار عن نهاية الحرب الأهليَّة العربيَّة سنة 661م. وربَّما من الخطأ أن نعزو حضور «لورد زيبيوس أسقف بيت بقراتيونس Bagratunis» مجلسَ دفنٍ في عام 645م،

ولكن ما دام الكتاب الآن يُعرفُ بتاريخ زيبيوس فإنِّي قرَّرت الاستمرار في استخدام الاسم في هذا الكتاب اختزالًا له ولمؤلِّفه.

ثيوفلاكت سيموكاتا: وُلد على الراجح في مصرَ عام 580م تقريبًا، وقضى معظم حياته بين صفوف الطبقة البيروقراطيَّة الإمبراطوريَّة، والمعروف عنه أنَّه آخر المؤرِّخين القدماء الذي تأثَّر بالحركة الكلاسيكيَّة. كتب كتابه باللغة الأتيكيَّة الإغريقيَّة (لهجة أثينا القديمة: المترجم) ومن زاوية مدنيَّة، عالج فيه عهد الإمبراطور موريس (582-602م). وعلى الرغم من توقُّفه في عام 602م، فإنَّه يُلمح إلى حروب الإمبراطور هرقل ضدَّ الفرس وليس مع العرب، ولذلك يُفترض أنَّه كتب كتابه بعد عام 610م، مع أنَّه تُوفِّي قبل عام 634م.

مؤلِّفو القرن الثامن الميلاديِّ:

حوليَّة عام 720م: وهو المصدر الإغريقيُّ العام لعهدي الإمبراطورينِ ثيوفانوس ونقفور (انظر لاحقا) للفترة من 692م حتَّى عام 720م. نُسبت إلى شخصيَّة معروفة تُدعى تراجان، الذي يحمل لقب نبيلٍ رومانيٍّ، وكان معاصرًا للإمبراطور جستينيان الثاني (685-695م، 705-711م)، ويُقال إنَّه كتب من «أروع الحوليَّات المختصرة». ومن المؤكَّد أنَّه أولى اهتمامًا كثيرًا لعهد الإمبراطور جستينيان الثاني، حيث كان ينتقدُه كثيرًا ويلومه في أنَّه كان سببًا في حربٍ غير ضروريَّة ومكلفة مع العرب سنة 693م. وبخلاف ذلك، أورد الكتاب معلوماتٍ غزيرةً عن أصول البلغار وغاراتهم، وعن الحملات العربيَّة ضدَّ بيزنطة، ولا سيَّما حصار القسطنطينيَّة في الفترة 716-718م.

حوليَّة عام 741م:

وهي حوليَّة سريانيَّة لمؤلِّف مجهول تبدأ بالخليقة وتنتهي «بالسنة الحاليَّة» 1086م من حكم الإسكندر، و158 هجريَّة بالتاريخ الإسلاميِّ (775م). لقد سمَّاها

الباحثون حوليَّة زوكنين Zuqnin؛ لأنَّ المؤلِّف ذكر بوضوح أنَّه من سكنة ديرٍ بهذا الاسم في شمال بلاد ما بين النهرين. يُعدُّ الكتاب مستودعًا لمعلوماتٍ غزيرةٍ ومفصَّلة منذ عام 717م ولاحقًا، ويتكوَّن من 240 صفحةً مطبوعةً تتحدَّث عن تاريخ بلاد ما بين النهرين في القرن الثامن الميلاديِّ، والكثير منها لا نجده في حوليَّة أخرى؛ كونه يستند إلى خبرةٍ مباشرةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ.

ليوند: وهو قسِّيسٌ كتب تاريخًا يتعلَّق بأحداث فترة ما بعد وفاة النبيِّ محمَّد في عام 632م حتَّى قيام أحد الحكَّام العرب بنهب الكنيسة الأرمنيَّة في عام 789م. يركِّز الكتاب على السياسة والحروب وبلاد الأرمن، وإنْ كانت عينه على الأحداث المهمَّة في بيزنطة والخلافة الإسلاميَّة. ويُعدُّ ليوند من المعادين للحكم العربيِّ بشكلٍ جليٍّ، لكنَّه لا يزال يمدُّنا بتفاصيل واضحة ومعقولة عن الحكم العربيِّ في بلدان القوقاز. ولكن من غير المؤكَّد الوقت الذي كَتبَ فيه تاريخه، وربَّما الفترة المناسبة له هي أواخر القرن الثامن الميلاديِّ حيث ينتهي الكتاب، ولكن من التواريخ المقترحة له منتصف القرن التاسع الميلاديّ أيضًا.

نقفور: وهو من مواطني القسطنطينيَّة وبطريركها خلال الفترة 806– 815م. لقد كتب بصورةٍ رئيسةٍ أعمالًا فقهيَّة، لكنَّه كتب «تاريخًا مختصرًا» (Historia syntomos) الذي يتحدَّث باختصارٍ عن الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة منذ ارتقاء الإمبراطور فوكاس العرشَ عام 602م حتَّى زواج الإمبراطور ليو الرابع إيرين عام 769م. كان ينوي الاستمرار في الكتابة كما يبدو، ولكنَّ الكتاب كما هو الآن يتوقَّف في وقتٍ وكأنَّ المؤلِّف لم يتجاوز السنة الحادية عشرة من عمره! ويُفترض عادةً أنَّه «عملٌ إبداعيٌّ»، يتَّخذ من أواخر القرن الثامن الميلاديِّ الوقت الأكثر رجحانًا لتأليفه.

ثيوفيلوس الرهاوي: كان من المنجِّمين في بلاط الخلفاء العباسيِّين الأوائل حتَّى وفاته عام 785م. كتب حوليَّةً ما زالت مفقودةً، إلَّا أنَّها استُخدمت بكثافة للفترة

630-750م من ثلاثةٍ من كتَّابِ الحوليَّاتِ، وهم: ثيوفانوس المعترف (ت:818م)، ديونيسوس تلمهر (ت:845م)، أجابيوس أوف منبج (منتصف القرن العاشر). والكاتبان ديونيسوس وأجابيوس يشيران صراحةً إلى ثيوفيلوس بوصفه مصدرًا لهم، وبالمقارنة بين روايات المؤلِّفين الثلاثة يذكرون صراحةً المواد التاريخيَّة الأساسيَّة التي استقوها بشكلٍ عامٍّ من ثيوفيلوس.

مؤلِّفو القرن التاسع:

البلاذريُّ: أحمد بن يحيى المتوفَّى نحو عام 892م. كان يتردَّد على بلاط الخليفة المتوكِّل (847-861م)، وألَّف كتابين كبيرين في التاريخ. كان الأوَّل بعنوان فتوح البلدان الذي يدرسُ كلَّ إقليم على حدة، ويبدأ بحملات النبيِّ محمَّد في شبه الجزيرة العربيَّة، ويسرد كيفيَّة الاستيلاء على كلِّ إقليمٍ وإدارته حتَّى وقت المؤلِّف. أمَّا كتابه الثاني بعنوان أنساب الأشراف؛ فهو كتاب ضخم من عشرين جزءًا في طبعته الرئيسة، ومُرتَّب على وفق الأنساب والأجيال. ويُوردُ سِيرًا ذاتيَّة بأحجامٍ مختلفةٍ للشخصيَّات البارزة، مبتدئًا بالنبيِّ محمَّد ويستمرُّ في ذلك حتَّى ذكر نسبه الخاصِّ به، ثمَّ يتطرَّق إلى شخصيَّات بارزة أخرى. ويحتفظ أيضًا بخصائص التاريخ الصريح والمباشر، ويروي عن الأحداث البارزة، فضلاً عن فهرس للثورات.

الدينوري: أحمد بن داود المُتوفَّى عام 895م تقريبًا. كتب تاريخًا مختصرًا يغطِّي الفترة من آدم حتَّى وفاة الخليفة المعتصِم سنة 842م. يوجز في سِير الرجال ويختصر بهدف الاقتصاد. كان تركيزه على الملوك وحروبهم، وليس على الأنبياء ورسالاتهم (لم يخصِّص حتى للنبيِّ محمَّد سوى صفحة واحدة)، مع تركيزٍ فارسيٍّ واضح. ولذلك احتلَّ تاريخ الأباطرة الساسانيِّين من ارتقاء آردشير العرشَ حتَّى وفاة يزدجرد أكثرَ من ربع الكتاب.

ابن عبد الحكم: عبد الرحمن، المُتوفَّى سنة 871م. ويعود أصله إلى الفسطاط من عائلة مثقَّفة يرجع نسبها إلى أحد موالي الخليفة عثمان. وعلى الرغم من أنَّ تاريخه يحمل عنوان «فتوح مصر»، فإنَّه يتناول أحداث إخضاع العرب لبقيَّة الشمال الأفريقيِّ، وإسبانيا، والتاريخ الدينيّ لمصر قبل الإسلام، والاستيطان العربي، والإدارة، وتاريخ قضاة مصر، وأحاديث النبيِّ محمَّد كما ينقلها الرواة المصريُّون.

خليفة بن خياط: المُتوفَّى سنة 854م. وهو من عائلةٍ مثقَّفة من جدِّه وأبيه المعروفين برواية الحديث النبويِّ. نشأ في البصرة حينما كانت عائلته تمتهن بيع الأصباغ. وهو مؤلِّف واحدة من الحوليَّات العربيَّة المبكِّرة التي تبدأ بعد ملاحظة مختصرة عن ولادة النبيِّ محمَّد، من السنة الهجرية الأولى حتَّى سنة 232 هجريَّة (622—846م)، ويسرد الأحداث بحسب السنين. والكتاب يذكر بصورة رئيسة القتالَ بين المجموعات العربيَّة، الفتوحات الخارجيَّة، والشؤون الإداريَّة. يروي الأحداث في الأعمِّ الأغلب باختصار إلى حدٍّ ما، والكتاب قد يُعدُّ دليلًا مفيدًا للتاريخ الإسلاميِّ، واستكمالًا لقاموسه في السِير الذاتيَّة للعلماء الذي وصلنا أيضًا.

الطبري: محمَّد بن جرير، المُتوفَّى سنة 923م. عاش في القرن العاشر وأكمل تاريخه الضخم «تاريخ الرُّسل والملوك» سنة 915م. وهو من المصادر المهمَّة التي لا يمكن تجاهلها هنا. وُلد الطبريُّ في آمول في إقليم القوقاز في عام 838م، لكنَّه قضى أغلبيَّة حياته في بغداد، وعمل لبعض الوقت مرشدًا خاصًّا، ومنذ أن بدأ يملك دخلًا جيِّدًا من أبيه، لم يكن مجبرًا على العمل وكرَّس معظم وقته للكتابة والدراسة. ففي تاريخه الشامل يجاهد من أجل ذكر مصادر رواياته، مِمَّا يضفي عليها نكهة الدقَّة والمصداقيَّة، ولذلك يعطيه المؤرِّخون المحدثون اعتمادًا أكثر من بقيَّة التواريخ الأخرى الأقل شكوكًا وشرعيَّة (مثل الدينوريّ واليعقوبيّ)، وإنْ كان يعتمد على المصادر نفسها التي يرجع إليها أيُّ شخصٍ آخر.

ثيوفانوس المعترِف (ت:817م): وُلد من أبوين من النبلاء الأثرياء، ودخل في بداية حياته في الخدمة الإمبراطوريَّة، لكنَّه تخلَّى عن كلِّ ممتلكاته وقضى بقيَّة حياته راهبًا في شمال غرب الأناضول. وفي أواخر حياته عهد إليه صديقه جورج سينسلوس - الذي شارف على نهاية حياته - بالمواد الضروريَّة لإكمال كتابة حوليَّة عالميَّة كانت حلم حياته. ويخبرنا ثيوفانوس في مقدِّمة الكتاب بعد إكماله كيف أنَّه «وسَّع من حجم العمل الاستثنائيِّ» في هذه المهمَّة، و«بعد أن بذلت أقصى جهودي وإمكاناتي، والتدقيق في الكثير من الكتب، ودوَّنت معلوماتي بدقَّة وبأفضل ما يمكن، وتمتدُّ هذه الحوليَّة من عصر دقلديانوس حتَّى عهد ميشيل (811-813م) وولده ثيوفلاكت».

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب، المُتوفَّى نحو عام 897م. وهو مؤلِّف تاريخ عالميٍّ (تاريخ اليعقوبي)، ومعجمٍ جغرافيٍّ عن العالم الإسلاميِّ (البلدان). لا نعرف شيئًا عنه سوى - كما نستنتج من كتاباته - أنَّه ينحدر من عائلةٍ تنتمي إلى الوسط البيروقراطيِّ لبغداد. ويخبرنا في كتابه البلدان المدوَّن سنة 889م أنَّه ارتحل كثيرًا في شبابه، «وهذا ما جعلني أبقى طويلًا في مناخات بعيدة». لقد قسَّم كتابه تاريخ اليعقوبي على قسمين: القسم الأوَّل يتناول تاريخ العالم من آدم إلى زمن النبيِّ محمَّد، ويُلقي نظرة على كلِّ الممالك لمجموعاتٍ مختلفةٍ من شعوب العالم. وعلى النقيض من ذلك، يركِّز القسم الثاني الذي يبدأ بعصر النبيِّ محمَّد على الإمبراطوريَّة العربيَّة، وهو مرتَّب بالاستناد إلى الأقاليم والخلفاء حتَّى عهد المعتمد العبَّاسيِّ، ويتوقَّف في عام 873م.

فهرست الأحداث

105	ألحق الرومان مملكة الانباط وتكوين ولاية العربيَّة الرومانيَّة.
224م	ارتقاء العائلة الساسانيَّة العرش.
241م	ألحق الفرس مملكة الحضر وتكوين الولاية العربيَّة الفارسيَّة.
312م	اعتناق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحيَّة.
582م	طرد الغساسنة من الخدمة في بيزنطة.
594م	اعتناق اللخميِّين الديانة المسيحيَّة.
حوالي عام 610	انتصار جيش اللخميِّين على الفرس في ذي قار.
618-624م	احتلال الفرس لبلاد الشام وفلسطين.
622م	تأسيس النبيِّ محمَّد دولتَه في المدينة.
628م	دخول النبيِّ محمَّد مكَّة.
630م	تحالف النبيِّ محمَّد مع مدينة الطائف وقبيلة ثقيف.
630م	استعادة الإمبراطور هرقل جزءًا من الصليب المقدَّس ونقله إلى القدس.
632م	وفاة النبيِّ محمَّد.
634م	أوَّل مواجهة موثَّقة بين الجيوش العربيَّة من غرب الجزيرة العربيَّة وبيزنطة.
636م	معركة اليرموك.

638م	معركة القادسيَّة؛ الاستيلاء على القدس.
640م	الاستيلاء على سلوقيا - طيسفون؛ الإغارة على العاصمة الأرمنيَّة دفن؛ أصبح معاوية واليًا على بلاد الشام.
641م	الاستيلاء على قيصريَّة.
640-642م	فتح العرب لمصر.
642م	اشتباك العرب مع جيش الفرس في معركة نهاوند.
643مم	قيام العرب بحملتهم الفاشلة ضدَّ أرمينيا وبلاد القوقاز.
646م	استيلاء بيزنط على الإسكندرية لبعض الوقت.
649-650م	إغارة العرب على جزيرتي قبرص وأرواد.
نحو 650م	حملة العرب الفاشلة على بلاد النوبة.
650-653م	هدنة بين العرب والبيزنطيِّين.
651-652م	وفاة يزدجرد الثالث.
652-653م	أصبح الأرمن تابعين للعرب.
654م	إلغاء ميديا وباغديس خضوعهم للعرب.
654-655م	الحملة الكبيرة للعرب على القسطنطينيَّة؛ ومعركة ذات الصواري.
656-661م	الحرب الأهليَّة العربيَّة الأولى.
661م	تولِّي معاوية الخلافة.
664م	تعهُّد الأمير الألبانيِّ جنشر بالطاعة لمعاوية.
668-670م	الحملة العربيَّة على القسطنطينيَّة.
670م	تأسيس مدينة القيروان؛ وتشكيل الجيش العربي في مرو.
سبعينيَّات القرن 7م	قيام حركة المردة الشعبيَّة في جبال لبنان.

673م	الغارة البحريَّة العربيَّة على ليبيا؛ الهدنة بين معاوية وقسطنطين الرابع.
674م	عبور المجموعات العربيَّة لنهر أوكسوس والغارة على المناطق المحاذية.
683-692م	الحرب الأهليَّة العربيَّة الثانية؛ غارات بيزنطيَّة على عسقلان وقيصريَّة.
ثمانينيَّات القرن 8م	ثورة كُسيلة في شمال أفريقيا.
685م	غارات الخزر على أرمينيا، وجورجيا، وألبانيا.
692م	نهاية معاهدة السلام بين بيزنطة والعرب؛ معركة سباستوبولس.
نحو 679م	وفاة قائدة البربر المعروفة "بالكاهنة".
679م	حملة العرب الفاشلة على زابولستان.
698م	استيلاء العرب على قرطاج.
703م	هزيمة الجيش الأرمنيِّ لحامية عربيَّة في فردانكرت.
706م	الاستيلاء على بيكند؛ مذبحة النبلاء الأرمن.
708م	استيلاء العرب على طنجة.
709م	استيلاء العرب على بخارى.
710م	الحملة العربيَّة على السند.
711-714م	غزو الأندلس.
712م	الاستيلاء على سمرقند.
717-718م	فشل الحصار العربيِّ للقسطنطينيَّة.
718م	إغارة القوَّات البيزنطيَّة على اللاذقيَّة.
726م	قيام الخزر بقتل الحاكم العربيِّ لأرمينيا.

728-730م	الانتفاضة الكبرى ضدَّ العرب في أواسط آسيا.
730م	استيلاء الخزر على أردبيل.
731م	معركة ديفايل في أواسط آسيا.
732م	معركة بواتيه/ تور.
737م	إنشاء العرب لمناطق عازلة ضدَّ الخزر في شمال القوقاز.
740م	هزيمة بيزنطة لجيشٍ عربيٍّ في الأناضول.
740-742م	التمرُّد البربريُّ في شمال أفريقيا.
744م	قيام عائلة بغواطة البربريَّة على ساحل المحيط الأطلسيِّ.
750م	تولِّي العبَّاسيِّين السلطة والقضاء على الأمويِّين؛ تولِّي فرعٍ من العائلة الأمويَّة السلطة في الأندلس.
751م	معركة تالاس.
757م	إقامة العائلة المدراسيَّة (من بربر مكناسة) لسلطتهم.
776م	إقامة العائلة الرستميَّة (من أصول فارسية وبإسناد من ابن باديس البربريِّ) لسلطتها في الجزائر.
788م	إقامة عائلة الأدارسة العلوية لسلطتها في فاس بمساندة من بربر وربة.
821م	إقامة العائلة الطاهريَّة لسلطتها (من أصل فارسيٍّ) في شرق بلاد فارس.
861م	إقامة العائلة الصفويَّة لسلطتها (من أصل فارسيٍّ) في زرنج.
875م	إقامة العائلة السامانيَّة لسلطتها (من أصل فارسيٍّ) في بخارى.

شخصيات بارزة

عبد الله بن عامر، قريش، فاتح بلاد فارس وحاكم البصرة (640-656م، 661-646م).

عبد الله بن سعد، قريش، فاتح ليبيا، وحاكم مصر (664-656م).

عبد الله بن الزبير، قريش، الخليفة المنافس لعبد الملك (683-692م).

عبد الملك، قريش، خليفة، (685-705م).

عبد الرحمن بن (محمد بن) الأشعث، كندة، قائدٌ عسكريٌّ (ت: 704م).

إبرهة الحبشيُّ، حاكم اليمن، نحو (535-565م).

أبو الأعور، قريش / سُليم، قائدٌ عسكريٌّ وبحريٌّ، نحو (سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ، وتُوفِّي فيها).

أبو بكر، قريش، خليفة (632-634م).

أبو موسى الأشعريُّ، أشعر (اليمن)، قائدٌ عسكريٌّ ومؤسِّس البصرة، (ت: نحو ستينيَّات القرن السابع الميلاديِّ).

أبو عبيدة بن الجرَّاح، قريش، حاكم بلاد الشام (634-639م).

عليُّ بن أبي طالب، قريش، خليفة (656-660م).

عمرو بن العاص، قريش، فاتح فلسطين ومصر، (ت: 662م).

بشر بن أبي أرتات، قريش، قائدٌ عسكريٌّ وبحريٌّ، (ت: 689م).

كونستانس الثاني، إمبراطورٌ بيزنطيٌّ، (642-668م).

قسطنطين الرابع، إمبراطورٌ بيزنطيٌّ، (668-685م).

سايروس، بطريرق الإسكندريَّة الخلقدونيُّ (630-642م).

ديواشتك، لورد بنجكنت، قائد متمرِّد (ت: 772م).

جاو أكسيانزهي، قائد تانج العسكريٌّ من أصلٍ كوريٍّ (ت: 756م).

جاوزو، إمبراطور الصين (618-626م)؛ مؤسِّس سلالة تانج.

جاوزونج، إمبراطور الصين (650-683م).

جوراك، لورد سمرقند وملك سوجديا (710-737م).

جريجوري، حاكم ولاية بيزنطة الأفريقيَّة (ت: نحو 647م).

حبيب بن مسلمة، قريش، فاتح أرمينيا (ت: 662م).

الحجَّاج بن يوسف، ثقيف، والي المشرق (693-714م).

حارث بن جبلة، غسانيٌّ، زعيم وحليف لبيزنطة (ت: 569م).

حسن بن النعمان، غسانيٌّ، فاتح أفريقيا (ت :698م).

هرقل، إمبراطورٌ بيزنطيٌّ (610-641م).

هرمزدان، قائدٌ عسكريٌّ كبيرٌ، مدافعٌ عن شوش وشوشتر (ت: أربعينيَّات القرن السابع الميلاديٍّ).

إيَّاد بن غانم، قريش، فاتح الجزيرة، (ت: أربعينيَّات القرن السابع الميلاديٍّ).

جيالبهاتا الرابع، ملك جورجارا شمال غرب الهند، (ازدهرت في ثلاثينيَّات القرن الثامن الميلاديٍّ).

جونشر، ملك ألبانيا القوقازيَّة، (نحو 635-670م).

جستينيان الثاني، إمبراطورٌ بيزنطيٌّ (685-695م، 705-711م).

كاهنة «ملكة البربر»، قائدة تمرد (ت: أواخر تسعينيَّات القرن السابع الميلاديٍّ).

خالد بن الوليد، قريش، فاتح بلاد الشام والعراق (ت: 642م).

خاتون، زوجة حاكم بخارى والوصية على ولدها (ت: تسعينيَّات القرن السابع الميلاديٍّ).

خورزاد «أمير الميديين»، قائد بشمال غرب بلاد فارس (ت: نحو خمسينيَّات القرن السابع الميلاديٍّ).

خسرو الثاني، إمبراطورٌ فارسيٌّ (591-628م).
كُسيلة، زعيمٌ بربريٌّ، قائد تمرد،(ت: نحو 690م).
ليو الثالث، إمبراطورٌ بيزنطيٌّ (717-741م).
مارتك، ابن خاقان الخزر (عاش في عشرينيَّات القرن الثامن الميلاديِّ).
مسلمة، ابن عبد الملك، قريش، القائد الذي حاصر القسطنطينيَّة (717-718م).
معاوية الأوَّل، حاكم بلاد الشام، (640-660م)، وخليفة (661-680م).
معاوية بن حُديج، كندة، فاتح أفريقيا (ت: سبعينيَّات القرن السابع الميلاديِّ).
محمَّد (النبيُّ)، رسول الله، قريش، (ت: 632م).
محمَّد بن مروان، قريش، قائد وحاكم الجزيرة وارمينيا (ت: 720م).
مختار بن أبي عبيدة، ثقيف، قائد تمرد (ت: 687م).
منذر بن نعمان، لخم، زعيم وحليف للإمبراطوريَّة الفارسيَّة (504-554م).
موسى بن نُصير، ابن مولى، فاتح موريتانيا والأندلس (ت: 716م).
بيروز الثالث، إبن يزدجرد الثالث، كافح من أجل إستعادة الامبراطورية الفارسية (ت: حوالي 680م).
قتيبة بن مسلم، فاتح أواسط آسيا، حاكم خراسان (705-715م).
رستم، أمير ميديا، قائد في شمال غرب بلاد فارس (ت :638م).
رتبل، رتبة يحملها عدد من حكام زابولستان (وسط أفغانستان الحالية).
سعد بن أبي وقاص، قريش، فاتح العراق ومؤسس الكوفة (ت: 675م).
شهرباراز، قائد فارسي وإمبراطور فارسي لوقت قصير (نيسان- حزيران630م).
سمبات بقرتوني، أمير أمراء أرمينيا (693-726م).
صفرينيوس، بطريريق القدس (حوالي 634-638م).
سولوك (سلوق)، شابيش - كور، قائد تورغش وهم الفرع الغزبي من الأتراك (715-738م).

طارق بن زياد، بربريٌّ، فاتح بلاد الأندلس، 711م.

ثيودور، رئيس أركان الجيش المصريِّ البيزنطيٍّ (نحو 639-642م).

ثيودور رشتوني، أمير أمراء أرمينيا (ت: 655م).

عمر الأوَّل (بن الخطَّاب)، خليفة، (634-644م).

عمر الثاني (بن عبد العزيز) خليفة (717-720م).

عثمان (بن عفَّان)، خليفة، (644-656م).

عُقبة بن نافع، فاتح أفريقيا، (ت: 683م).

فاهان، قائد كبير في الجيش البيزنطيِّ، (ت: 636م).

فالنتاين، قائد كبير في الجيش البيزنطيِّ، (ت: 643م).

وو (Wu)، أميرة صينيَّة، الحاكم الفعليُّ لمرض زوجها، (655-705م).

يزدجرد الثالث، آخر إمبراطور فارسيّ (632-652م).

يزيد بن المهلب، الأزد، حاكم خراسان، (702-704م، 715-715م)، والعراق (716-717م).

زياد بن أبي سفيان، الأخ المُلحق لمعاوية الأوَّل، ونائبه في حكم المشرق (670-673م).

(*) لمزيد من الاطِّلاع على المؤرِّخينَ وكتَّاب الحوليَّات، انظر: الملحق.

دراسات مختارة

أنتجت الفترة القديمة والمبكِّرة من تاريخ الإسلام لنا دراسات هائلة، ولذلك، ومن أجل أن تحقِّق القائمة التالية الغرض منها وأن تكون نافعة ومفيدة، فقد أوردتُ فيها الدراسات الأكثر أهميَّة، التي صدرت مؤخَّرا. وتعكس أيضًا اختياري لهذه الدراسات، ولا سيما تلك التي ساعدتني في تشكيل أفكاري وآرائي في المواضيع التي تناولها هذا الكتاب، أو كما أعتقد أنَّها ستساعد القُرَّاء الذين يرغبون بالاستزادة بعمقٍ عن قضيَّة ما سبق وأن أثرتها. وللاطلاع على المصادر العامَّة، راجع: الموسوعة الإسلاميَّة، الموسوعة الإيرانيَّة، وقاموس بيزنطة.

General Studies on the Conquests and Military Affairs

- Donner, F. The Early Islamic Conquests (Princeton, 1980).
- Donner, F., ed. The Expansion of the Early Islamic State (Farnham, 2008).
- Gabrieli, F. Muhammad and the Conquests of Islam (Eng. Trans.; New York, 1968).
- Kaegi, W. Byzantium and the Early Islamic Conquests (Cambridge, 1992).
- Kennedy, H. Armies of the Caliphs (London, 2001).
- Kennedy, H. The Great Arab Conquests (Cambridge, MA, 2007).
- Lee, A. D. War in Late Antiquity (Oxford, 2007).
- Nicolle, D. The Great Islamic Conquests (Oxford, 2009).

- Southen, P., and Dixon, K. R. The Late Roman Army (London, 1996).

The Late Antique Setting

- Banaji, J. Agrarian Change in Late Antiquity (Oxford, 2001).
- Bowersock, G. W. Empires in Collision in Late Antiquity (Waltham, MA, 2012).
- Bowersock, G. W. et al., eds. Late Antiquity: A Guide to the Postclassical World (Cambridge, 1999).
- Brown, P. The World of Late Antiquity (London, 1971).
- Cameron, Av. et al., eds. The Byzantine and Early Islamic Near East 1-6 (Princeton, 1992-).
- Cameron, Av. et al., eds. The Cambridge Ancient History XIV: Late Antiquity (Cambridge, 2000).
- Cameron, Av. The Mediterranean World in Late Antiquity: ad 395 -70 0 (London, 2011).
- Daryaee, T. Sasanian Persia (London, 2009).
- Dignas, B., and Winter, E. Rome and Persia in Late Antiquity (Cambridge, 2007).
- Fowden, E. The Barbarian Plain: Saint Sergius between Rome and Iran (Berkeley, 1999).
- Fowden, G. Empire to Commonwealth: Consequences of Monotheism in Late Antiquity (Princeton, 1994).
- Fowden, G. Before and After Muhammad: The First Millennium Refocused (Princeton, 2014).
- Greatrex, G., and Lieu, S. The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars (London, 2007).

- Halsall, G. Barbarian Migrations and the Roman West 376-568 (Cambridge, 2007).
- Howard-Johnston, J. East Rome, Sasanian Persia and the End of Antiquity (Variorum; Aldershot, 2006).
- Johnson, S., ed. Oxford Handbook of Late Antiquity (Oxford, 2012).
- Lieu, S. N. C. Manichaeism in the Later Roman Empire and Medieval China (2nd revised edition; Tübingen, 1992).
- McCormick, M. Origins of the European Economy ad 300-900 (Cambridge, MA, 2001).
- Pirenne, Henri. Mohammed and Charlemagne (English trans.; London, 1939).
- Pourshariati, P. Decline and Fall of the Sasanian Empire (London, 2008).
- Sarris, P. Empires of Faith: The Fall of Rome to the Rise of Islam (Oxford, 2011).
- Sizgorich, T. Violence and Belief in Late Antiquity (Philadelphia, PA, 2009).
- Wickham, C. Framing the Early Middle Ages (Oxford, 2006).
- Wood, P., ed. History and Identity in Late Antiquity (Oxford, 2013).

Continuity/Decline and the Environment

- Bray, R. S. Armies of Pestilence: The Effects of Pandemics on History (Cambridge, 1996).
- Christensen, P. The Decline of Iranshahr: Irrigation and Environments in the History of the Middle East(Copenhagen, 1993).
- Gunn, J. The Years without Summer: Tracing A.D. 536 and Its Aftermath (Oxford, 2000).

- Kennedy, H. "From Polis to Madina," Past and Present 106 (1985).
- Liebeschuetz, J. H. W. G. The Decline and Fall of the Roman City (Oxford, 2001).
- Little, L. K., ed. Plague and the End of Antiquity: The Pandemic of 541-750 (New York, 2007).
- Walmsley, A. "Economic Developments and the Nature of Settlement," Dumbarton Oaks Papers 61 (20 07).
- Ward-Perkins, B. The Fall of Rome and the End of Civilisation (Oxford, 2006).

Historiography and the Beginnings of Islam

- Berg, H., ed. Method and Theory in the Study of Islamic Origins (L eiden, 2003).
- Cook, M. Studies in the Origins of Early Islamic Culture and Tradition (Variorum; Aldershot, 2004).
- Crone, P. Meccan Trade and the Rise of Islam (Princeton, 1987).
- Crone, P., and Cook, M. Hagarism: The Making of the Islamic World (Cambridge, 1977).
- El-Hibri, T. Parable and Politics in Early Islamic History: The Rashidun Caliphs (N e w Yo r k , 2010).
- Hawting, G. The Idea of Idolatry and the Emergence of Islam (Cambridge, 1999).
- Howard-Johnston, J. Witnesses to a World Crisis (Oxford, 2010).
- Hoyland, R. G. Seeing Islam as Others Saw It (Princeton, 1997).
- Humphreys, S. Islamic History: A Framework for Enquiry (Princeton, 1991).
- Nevo, Y., and Koren, J. Crossroads to Islam (New York, 2004)

- Noth, A. (with L. I. Conrad). The Early Arabic Historical Tradition (Princeton, 1994).
- De Prémare, A-L. Les Fondations de l'Islam (Pa r i s, 20 02).
- Robinson, Chase. Islamic Historiography (Cambridge, 2003).
- Shoshan, B. Poetics of Islamic Historiography (Leiden, 2004).Wansbrough, J. The Sectarian Milieu (Oxford, 1978).

The Making of Islamic Civilization

- Al-Azmeh, A. Muslim Kingship (London, 1997).
- Berkey, J.P. The Formation of Islam: 600-1800 (Cambridge, 2002).
- Calder, N. Studies in Early Muslim Jurisprudence (Oxford, 1993).
- Cook, M. Early Muslim Dogma (Cambridge, 1981).
- Crone, P. Slaves on Horses (Cambridge, 1980).
- Crone, P. Medieval Islamic Political Thought (Edinburgh, 2005).
- Crone, P. From Arabian Tribes to Islamic Empire (Variorum; Aldershot, 2008).
- Dabashi, H. Authority in Islam (New Brunswick, N.J, 1989).
- Décobert, C. Le Mendiant et le Combattant: l'institution de l'Islam (Paris, 1991).
- De Prémare, A. Les Fondations de l'Islam: entre écriture et histoire (Paris, 2002).
- Donner, F. Muhammad and the Believers (Cambridge, MA, 2010).
- Donner, F., ed. The Articulation of Early Islamic State Structures (Farnham, 2012).
- Duri, A. A. Early Islamic Institutions (London, 2011).
- Friedmann, Y. Tolerance and Coercion in Islam (Cambridge, 2003).

- Grabar, O. The Formation of Islamic Art: Revised and Enlarged Edition (New Haven, 1987).
- Hawting, G. The First Dynasty of Islam: The Umayyad Caliphate (London, 2002).
- Holu, K. G., and Lapin, H., eds. Shaping the Middle East: Jews, Christians and Muslims in an Age of Transition (Bethesda, 2011).
- Judd, S. C. The Third Fitna: Orthodoxy, Heresy and Coercion in Late Umayyad History (PhD; Michigan, 1997).
- Kennedy, H. The Prophet and the Age of the Caliphates (2nd edition; London, 2004).
- Kennedy, H. The Byzantine and Early Islamic Near East (Variorum; Aldershot, 2006).
- Marsham, A. Rituals of Islamic Monarchy (Edinburgh, 2009).
- Milwright, M. An Introduction to Islamic Archaeology (Edinburgh, 2010).
- Robinson, C., ed. The New Cambridge History of Islam I (Cambridge, 2011).
- Van Bladel, K. The Arabic Hermes (Oxford, 2009).
- Van Ess, J. The Flowering of Muslim Theology (Cambridge, MA, 2006).
- Walzer, R. Greek into Arabic (Oxford, 1963).

Key Primary Sources

- Baladhuri, Futuh al-buldan, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1866).
- Chavannes, E. Documents sur les Tou-Kiue (Turcs) Occidentaux (Paris, 1903): assembles in French translation the major Chinese sources on the "western peoples."

- Chronicle of 741 trans. in Hoyland, Seeing Islam, Excursus B.
- Chronicle of 754 trans. in K. B. Wolf, Conquerors and Chroniclers of Early Medieval Spain (Liverpool, 1999), 91-128.
- Chronicle of Khuzistan, ed. I. Guidi (Paris, 1903).
- Chronicle of Siirt, ed. and trans. A. Scher, Patrologia Orientalis 13 (1918).
- Chronicle of Zuqnin, trans. Amir Harrak (Toronto, 1999).
- Dinawari, al-Akhbar al-tiwal, ed. V. Guirgass (Leiden, 1888).
- History of the Caucasian Albanians by Movses Dasxuranci, trans. C. J. F. Dowsett (Oxford, 1961).
- Ibn 'Abd al-Hakam, Futuh Misr, ed. C. Torrey (New Haven, 1922).
- John of Nikiu, Chronicle, trans. R. H. Charles (London, 1916).
- Khalifa (ibn Khayyat), Ta'rikh, ed. A. D. al-'Umari (Riyad, 1975).
- Lewond, History, trans. Z. Arzoumanian (Wynnewood, PA, 1982).
- Maronite Chronicle, trans. in Palmer, Seventh Century, 29-35.
- Mingana, A., ed. and trans. Sources syriaques (Leipzig, 1908): includes the chronicle of John of Fenek.
- Nikephoros, Short History, ed. and trans. C. Mango (Washington, DC, 1990).
- Palmer, A., et al. The Seventh Century in West Syrian Chronicles (Liverpool, 1993): presents translations of the main Syriac historical texts for the period 582-717.
- Sebeos, The Armenian History, trans. R. Thomson (Liverpool, 1999).

- Tabari , Ta'rikh al-rusul wa-l-muluk, ed. M. J. de Goeje et al. (Leiden, 1879-1901).
- Theophanes, Chronographia, trans. C. Mango and R. Scott (Oxford, 1997).
- Theophilus of Edessa, Chronicle, trans. R. G. Hoyland (Liverpool, 2011).
- Ya'q u b i , Ta'rikh 2, ed. M. T. Houtsma (Leiden 1883).

Regional Studies : Africa and Spain

- Bowersock, G. The Throne of Adulis: Red Sea Wars on the Eve of Islam (Oxford, 2013).Clarke, N. The Muslim Conquest of Iberia (Abingdon, 2012).
- Conant, J. Staying Roman: Conquest and Identity in Africa and the Mediterranean 439-700(Cambridge, 2012).
- Fenwick, C. "From Africa to Ifriqiya: Settlement and Society in Early Medieval North Africa (650-800)," al-Masaq 25 (2013).
- Hatke, G. Aksum and Nubia: Warfare, Commerce, and Political Fictions in Ancient Northeast Africa(New York, 2013).
- James, D. Early Islamic Spain: The History of Ibn al-Qutiya (Abingdon, 2009).
- Kaegi, W. Muslim Expansion and the Byzantine Collapse in North Africa (Cambridge, 2010).
- Manzano Moreno, E. Conquistadores, emires y califas: Los omeyas y la formación de al Andalus(Barcelona, 2006).Merrills, A., ed. Vandals, Romans and Berbers: New Perspectives on Late Antique North Africa(A ld e r s hot , 2 0 0 4).
- Modéran, Y. Les Maures et l'Afrique Romaine (Rome, 20 03).
- Munro-Hay, S. Axum: An African Civilisation of Late Antiquity (Edinburgh, 1991).

- Takla, H., and Gabra, G., eds. Christianity and Monasticism in Aswan and Nubia (Cairo, 2013).
- Welsby, D. Medieval Kingdoms of Nubia: Pagans, Christians and Muslims in the Middle Nile (London, 20 02).

Arabia and the Arabs

- Bashear, S. Arabs and Others in Early Islam (Princeton, 1997).
- Beaucamp, J. et al., eds. Le massacre de Najran II: Juifs et Chrétiens en Arabie (Pa r is, 2010).
- Fisher, G. Between the Empires: Arabs, Romans and Sasanians (Oxford, 2011).
- Gajda, I. Le royaume de Himyar à l' époque monothéiste (Pa r i s, 20 09).
- Hoyland, R.G. Arabia and the Arabs (London, 2001).
- Peters, F.E. The Arabs and Arabia on the Eve of Islam (Variorum; Aldershot, 1999).
- Retsö, J. The Arabs in Antiquity (London, 2003).
- Shahid, I. Byzantium and the Arabs (Washington, DC, 1984-).
- Trimingham, J. S. Christianity among the Arabs in Pre Islamic Times (London, 1979).

Byzantium

- Brubaker, L., and Haldon, J. Byzantium in the Iconoclast Era (Cambridge, 2011).
- Cameron, Av. The Byzantines (Chichester, 2010).
- Haldon, J. Byzantium in the Seventh Century (2nd revised edition: Cambridge, 1997).
- Herrin, J. Byzantium: The Surprising Life of a Medieval Empire (London, 2007).
- Jeffreys, E. et al., eds. The Oxford Handbook of Byzantine Studies (Oxford, 2008).

- Pohl, W. Die Awaren: ein Steppenvolk in Mitteleuropa (Munich, 1988).
- Whittow, M. The Making of Orthodox Byzantium 600-1025 (Berkeley, 1996).

Caucasia

- Bais, M. Albania Caucasica: ethnos, storia, territorio attraverso le fonti greche, latine, armene (Milan, 2001).
- Gippert, J. The Caucasian Albanian Palimpsests of Mt. Sinai (Brepols, 20 08).
- Golden, P. et al., eds. The World of the Khazars (HdO; Leiden, 2007).
- Greenwood, T., ed. Languages and Cultures of Eastern Christianity: Armenian (Farnham , 2013).
- Rapp, S. H., ed. Languages and Cultures of Eastern Christianity: Georgian (Farnham, 2012).

Egypt

- Bagnall, Egypt in the Byzantine World 300-700 (Cambridge, 2010).
- Butler, A. The Arab Conquest of Egypt (revised edition; Oxford, 1978).
- Chagnon, L. La conquête musulmane de l'Egypte (Pa r is, 20 08).
- Legendre, M. La Moyenne Egypte du VIIe au IXe siècle (PhD; Leiden, 2013).
- Power, T. The Red Sea from Byzantium to the Caliphate (Cairo, 2012).
- Sijpesteijn, P. Shaping a Muslim State (Oxford, 2013).

Levant and Jazira

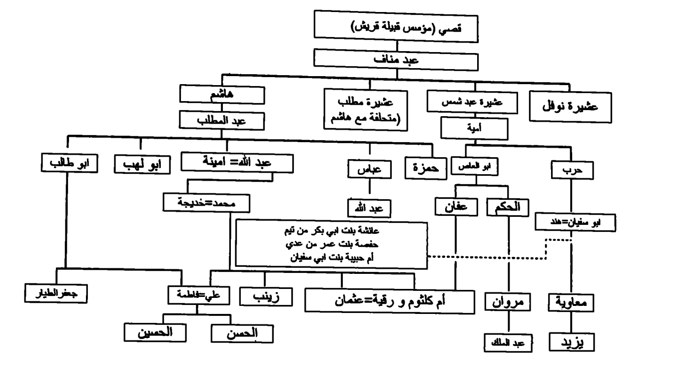
- Avni, G. The Byzantine-Islamic Transition in Palestine: An Archaeological Approach (Oxford, 2014).Cook, D. The Beginnings of Islam in Syria during the Umayyad Period (PhD; Chicago, 2002).

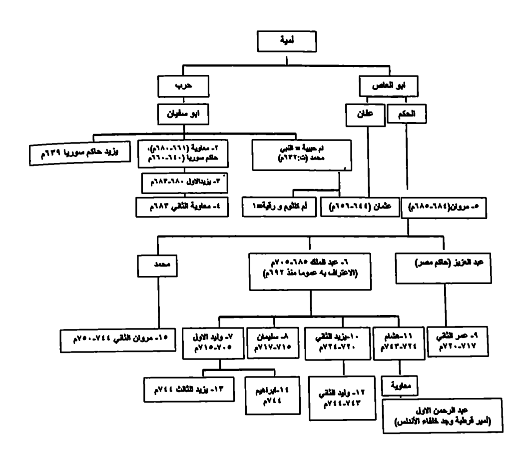
- Elad, A. Medieval Jerusalem and Islamic Worship (Leiden, 1995).
- Flood, B. The Great Mosque of Damascus: Studies on the Making of Umayyad Visual Culture (Leiden, 2001).
- Fowden, G. Qusayr 'Amra and the Umayyad Elite in Late Antique Syria (Berkeley, 2004).
- Haldon, J. Money, Power and Politics in Early Islamic Syria (Fa r n ha m, 2010).
- Johns, J., and Raby, J., eds. Bayt al-Maqdis: 1. 'Abd al-Malik's Jerusalem; 2. Jerusalem and Early Islam(Oxford, 1992 and 1999).
- Khalek, N. Damascus after the Muslim Conquest (Oxford, 2011).
- Robinson, C. Empires and Elites after the Muslim Conquest (Cambridge, 2006).
- Sivan, H. Palestine in Late Antiquity (Oxford, 2008).
- Tannous, J. Syria between Byzantium and Islam (PhD; Princeton, 2010).
- Walmsley, A. Early Islamic Syria: An Archaeological Appraisal (London, 2007). Wood, P. We Have no King but Christ: Christian Political Thought in Greater Syria on the Eve of the Arab Conquest (Oxford, 2010).
- Persia: Iraq and Greater Iran
- Agha, S.S. The Revolution Which Toppled the Umayyads: Neither Arab nor Abbasid (Leiden, 2003).
- Choksy, J. K. Conflict and Cooperation: Zoroastrian Subalterns and Muslim Elites in Medieval Iranian Society (New York, 1997).
- Crone, P. The Nativist Prophets of Early Islamic Iran (Cambridge, 2012).
- Curtis, V., and Stewart, S., eds. The Rise of Islam: The Idea of Iran IV (London, 2009).

- Frye, R. Islamic Iran and Central Asia (Variorum; London, 1979).
- Luce, M. D. Frontier as Process: Umayyad Khurasan (PhD; Chicago, 2009).
- Madelung, W. Religious Trends in Early Islamic Iran (Albany, NY, 1988).
- Morony, M. Iraq after the Muslim Conquest (Princeton, 1984).
- Oxford Handbook of Iranian History, ed. T. Daryaee (Oxford, 2012).
- Payne, R. Christianity and Iranian Society in Late Antiquity (PhD; Princeton, 2010).
- Savant, S. The New Muslims of Post-Conquest Iran (Cambridge, 2013).
- Shaked, S. From Zoroastrian Iran to Islam (Variorum; Aldershot, 1995).
- Spuler, B. Early Islamic Iran (English trans.; Leiden, 2014).Toral-Niehoff, I. Al-Hira: eine arabische Kulturmetropole im spätantiken Kontext (L eiden, 2013).

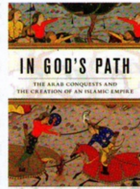
Transoxania/Central Asia

- Beckwith, C. Empires of the Silk Road (Princeton, 2009).
- De la Vaissière, E. Samarcande et Samarra: élites d'Asie Centrale (Paris, 2007).
- Foltz, R. Religions of the Silk Road (New York, 1999).
- Frye, R.N. The Heritage of Central Asia (Princeton, 1996).
- Gibb, H. A. R. The Arab Conquests in Central Asia (London, 1923).
- Haug, R. J. The Gate of Iron: The Making of the Eastern Frontier (PhD; Michigan, 2010).
- Heirmann, A., and Bumbacher, S. P., eds. The Spread of Buddhism (HdO; Leiden, 2007).
- Litvinsky, B. et al., eds. History of Civilisations of Central Asia 3: 250-750 (Paris, 1996).
- Soucek, S. A History of Inner Asia (Cambridge, 2000).


قصي (مؤسس قبيلة قريش)
عبد مناف
عشيرة نوفل
عشيرة عبد شمس
عشيرة مطلب (متحالفة مع هاشم)
هاشم
أمية
عبد المطلب
حرب
ابو العاص
حمزة
عباس
عبد الله= امينة
ابو لهب
ابو طالب
ابو سفيان=هند
الحكم
عفان
عبد الله
محمد=خديجة
عائشة بنت ابي بكر من تيم
حفصة بنت عمر من عدي
أم حبيبة بنت ابي سفيان
معاوية
مروان
أم كلثوم و رقية=عثمان
زينب
علي=فاطمة
جعفر الطيار
يزيد
عبد الملك
الحسن
الحسين



امية
حرب
ابو العاص
ابو سفيان
عفان
الحكم
يزيد حاكم سوريا ٦٣٩م
٢- معاوية (٦٦١-٦٨٠م)، حاكم سوريا (٦٤٠-٦٦٠م
ام حبيبة = النبي محمد (ت:٦٣٢م)
٣- يزيدالاول ٦٨٠-٦٨٣م
٤- معاوية الثاني ٦٨٣م
ام كلثوم و رقية=١
عثمان (٦٤٤-٦٥٦م)
٥- مروان(٦٨٤-٦٨٥م)
محمد
٦- عبد الملك ٦٨٥-٧٠٥م (الاعتراف به عموما منذ ٦٩٢م)
عبد العزيز (حاكم مصر)
١٥- مروان الثاني ٧٤٤-٧٥٠م
٧- وليد الاول ٧٠٥-٧١٥م
٨- سليمان ٧١٥-٧١٧م
١٠-يزيد الثاني ٧٢٠-٧٢٤م
١١-هشام ٧٢٤-٧٤٣م
٩- عمر الثاني ٧١٧-٧٢٠م
١٣- يزيد الثالث ٧٤٤م
١٤-ابراهيم ٧٤٤م
١٢- وليد الثاني ٧٤٣-٧٤٤م
معاوية
عبد الرحمن الاول (امير قرطبة وجد خلفاء الأندلس)



يُقدِّم هذا الكتاب رؤيةً مختلفةً عن تكوين الإمبراطوريَّة العربيَّة الإسلاميَّة للفترة من ظهور الإسلام حتَّى نهاية الحكم الأمويِّ (132 هـ/ 750م)، وتعتمد على استخدام المصادر غير الإسلاميَّة للفترة موضوع الدراسة، كالنقوش والبرديَّات والحوليَّات المسيحيَّة وغير المسيحيَّة، التي أكَّدت أنَّ العرب كانوا يخدمون في الجيوش البيزنطيَّة والفارسيَّة في الفترة قبل الإسلام بوقتٍ طويل، وأحرزوا تدريبًا قيِّمًا على استخدام الأسلحة والخطط العسكريَّة في الجيوش الإمبراطورية. وأشارت هذه المصادر أيضًا إلى أنَّنا يجب رؤية الكثير من تحالف النبيِّ محمَّد مع القبائل العربيَّة في غرب الجزيرة العربيَّة، البدو منهم والمستقرِّين، ليس بوصفهم مجرَّد خارجيين يبحثون عن الغنائم وسلب الإمبراطوريَّات ونهبها، إنَّما عناصر داخليَّة تبحث عن مشاركةٍ في ثروات أسيادهم الإمبراطوريِّين، وكما هو الحال عند دخول القبائل الجرمانيَّة إلى الإمبراطوريَّة الرومانيَّة في القرون الميلاديَّة الأولى.

لقد أوضح الباحث نقطةً مركزيَّةً في بناء الإمبراطوريَّة العربيَّة الإسلاميَّة، وهي السرعة التي تمَّت بها بناء تلك الإمبراطوريَّة ليس بوصفها نتيجةً لقيادة العرب لتلك الفتوحات واعتمادهم على قواهم الذاتيَّة فحسب، بل استغلالهم للزمن الذي لم يكن إلى جانب الإمبراطوريَّتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة، والبرهنة على استخدام «الاستيعاب المتبادل» الذي سمح للعرب والشعوب المفتوحة بالعيش معًا وخلق هُويَّة إسلاميَّة جديدة وحضارة إسلاميَّة فتيَّة.

وأكَّد الباحث أنَّ الفاتحين اتَّبعوا الوسائل غير العسكريَّة أيضًا لتوسيع مكاسبهم وتعميقها، فضلًا عن تعهداتهم الاعتياديَّة باحترام حياة وممتلكات وحرية العبادة للشعوب التي تعلن خضوعها لهم دون قتال، ومنحوا الإعفاءات الضريبيَّة والحكم الذاتيَّ للذين يعيشون في المناطق الوعرة والراغبين في الخدمة العسكريَّة، وهي سياسة صائبة في استيعاب الشعوب المفتوحة من الفاتحين كما هو الحال في التجربة البريطانيَّة في الهند حينما كان 80٪ من الجنود العاملين في الجيش البريطانيِّ هناك من أصولٍ هنديَّة، بينما احتفظ البريطانيُّون بالمواقع العسكريَّة العليا والقياديَّة، وهنا أورد الباحث مقارباتٍ تاريخيَّة في بناء الإمبراطوريَّات عبر التاريخ للمقارنة مع تجربة بناء الإمبراطوريَّة العربيَّة الإسلاميَّة، مِمَّا جعلَ هذه الدراسة تذكِّرنا بفلسفة التاريخ في مسألة قيام الإمبراطوريَّات وانحلالها.

تصميم واخراج مناف نفاع


ISBN: 978-9922-9545-3-0

